



عناصر الموضوع

مفهوم المسارعة	٨
المسارعة في الاستعمال القرآني	٩
الألفاظ ذات الصلة	١٠
أنواع المسارعة	١٣
مقام المسارعين في الخيرات وصفاتهم	٢٦
ثواب المسارعين في الخيرات	٣٢

المجلد الحادي والثلاثون

مفهوم المسارعة

أولًا: المعنى اللغوي:

السين والراء والعين أصل صحيح يدل على خلاف البطء، وسرعان الناس: أوائلهم الذين يتقدمون سراعا، وتقول العرب، لسرعان ما صنعت كذا، أي ما أسرع ما صنعته [(١)].

والسرعة: نقيض البطء، والمتسرع: المبادر إلى الشر، وجاء سرعا: أي سريعا، والفرق بين السرعة والإسراع أن الإسراع فيه طلب وتكلف، وأما السرعة فكأنها غريزة، يقال: أسرع أي طلب ذلك من نفسه وتكلفه كأنه أسرع المشي أي عجله، وأما سرع فلان، فالمعنى أن السرعة فيه طبع وسجية.

وأسرع الرجل: سرعت دابته، أي: أخف، إذا كانت دابته خفيفة، وسرعان الخيل: أوائلها[(٢)].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

المسارعة: هي المبادرة إلى الطاعات والسبق إليها والاستعجال في أدائها وعدم الإبطاء فيها أو تأخيرها » [(٣)].

ونجتهد في تحديد نوعي المسارعة المحمودة والمذمومة وذلك فيما يأتي:

المسارعة الممدوحة: هي المبادرة إلى فعل الخيرات والإسراع في ذلك، لنيل الأجر والثواب، والشعور بالسعادة والطمأنينة.

المسارعة المذمومة: هي المبادرة إلى فعل المنكرات والإكثار منها رغبة فيها، دون الخوف والخشية من عقاب الله وسخطه.

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٣/ ١٥٢.
(٢) انظر: المحكم والمحيط الأعظم، ابن سيده ١/ ٤٨١، لسان العرب، ابن منظور ٨/ ١٥١، الصحاح، الجوهري ٣/ ٢٢٨، المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية ١/ ٤٢٧.
(٣) نضرة النعيم، مجموعة مؤلفين ٨/ ٣٣٨٧.

المسارعة في الاستعمال القرآني

ورد مادة (سرع) في القرآن الكريم (٢٣) مرة[١].

والصيغ التي وردت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل المضارع	٨	﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ﴾ [الأنبياء:٩٠]
فعل الأمر	١	﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [آل عمران:١٣٣]
اسم تفضيل	٢	﴿أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ ﴿٦٢﴾﴾ [الأنعام:٦٢]
صيغة مبالغة	١٢	﴿وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٢٠٢﴾﴾ [البقرة:٢٠٢]

وجاءت المسارعة في الاستعمال القرآني بمعناها اللغوي، وهو المبادرة والعجلة، نقيض البطء[٢].

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، ص٣٤٩.

(٢) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني، ص٢٣٠.

الألفاظ ذات الصلة

١ المسابقة:

المسابقة لغةً:

« السين والباء والقاف أصل واحد صحيح يدل على التقديم، يقال سبق يسبق سبقا، فأما السبق فهو الخطر الذي يأخذه السابق» [(١)].

المسابقة اصطلاحًا:

هي تسابق وتنافس بين شخصين أو عدة أشخاص للفوز أو للحصول على علو المرتبة.

وقيل: (التقدم والمبادرة وبذل غاية الجهد والطاقة بين متسابقين أو أكثر في أمر من الأمور الدنيوية أو الأخروية لتحصيل السبق والفوز على الآخر) [(٢)].

الصلة بين المسابقة والمسارعة:

يفرق بينهما بعدة أمور:

أن المسابقة متقدمة على المسارعة، وسابقة عليها؛ حيث إن أي سباق مهما كان نوعه ومسافته لا بد له من مرحلتين: الأولى: مرحلة السباق والانطلاق، والثانية: مرحلة الإسراع في السباق، فمثلًا السباق في الجري، عندما يبدأ الشوط الأول يتسابقون، وبعد فترة يسارعون في السباق، بأن يضاعف المتسابقون سرعتهم، ويتحولوا من مجرد مسابقة إلى المسارعة في المسابقة، وسنجد أن بعض المتسابقين قد يسقط في الطريق، ويخرج من السباق، ولا يصل إلى مرحلة المسارعة إلا أصحاب الطاقات والهمم والسرعات والعزائم، أولئك الذين لديهم زاد قوي يعينهم على إكمال أشواط المسارعة.

المسارعة أسمى درجة من المسابقة؛ حيث إن المسابقة تقتضي وجود قرين يسابق، فيجتهد المتسابق لتحصيل السبق، فيكون وجود القرين المسابق المخالف دافعًا لمزيد من بذل الجهد والسبق، أما المسارعة فتتعلق بذات العامل نفسه بقطع النظر عمن ينافسه في ذلك، فهو يجد ويجتهد أبلغ الاجتهاد لذاته، يحركه ما يراه من واجب عليه في ذات الأمر وهذا لا يكون إلا لمن علت همته وسمت اهتماماته [(٣)].

---

(١) مقاييس اللغة، ابن فارس ٣/ ١٢٩.

(٢) انظر: المسارعة والمسابقة إلى الخيرات في القرآن الكريم، محمد الزغول، محمد حوى ص٦.

(٣) المسارعة والمسابقة إلى الخيرات في القرآن الكريم، دراسة موضوعية بيانية، د/ محمد علي الزغول، د/ محمد سعيد حوى ص٧ بتصرف.



كما يلحظ في المسارعة خشية فوات الفرصة، كما يظهر فيها جانب ضيق الوقت خشية عدم إدراكه، فهو يسارع لذلك، وفي المقابل يلحظ في المسابقة ظهور النتيجة، وهي مادية واضحة[1].

(ج) يقول البقاعي مفرقًا بين فعلي «سابقوا» و«سارعوا»: (سابقوا: فعل من يسابق شخصًا فهو يسعى ويجتهد غاية الاجتهاد في سبقه، ولكن ربما كان قرينًا بطيئًا فسار هوينًا، أما المسارعة فلا تكون إلا بجهد النفس من الجانبين مع السرعة في العرف)[2].

وبهذا تتضح العلاقة بين المصطلحين، وإن كان كل منهما يفيد في مجمله المبادرة، وبذل قصارى الجد والاجتهاد في تحصيل أمر من الأمور، والله أعلم.

٢ المبادرة:

المبادرة لغةً:

الباء والدال والراء، أصلان: أحدهما كمال الشيء وامتلاؤه، والآخر الإسراع إلى الشيء، أما الأول فهو قولهم لكل شيء تم: بدر، وبدر، موضع يذكر ويؤنث، والأصل الآخر: قولهم بدرت إلى الشيء وبادرت، وإنما سمي الخطاء بادرة؛ لأنها تبدر من الإنسان عند حدة وغضب[3].

المبادرة اصطلاحًا:

هي الإسراع إلى فعل الأشياء من تلقاء نفسه لتحقيق الهدف المنشود.

وقيل: هي (انطلاقة المؤمن ومسارعته إلى عمل صالح بحافز ذاتي من نفسه، بعد أن يتوافر في نفسه الميزان الأمين ليحدد العمل الصالح من سواه، وليطمئن إلى أنه لا يتجاوز حدوده، ولا يعتدي على غيره، ولا يدخل في فتنة تغضب الله تعالى)[4].

الصلة بين المسارعة والمبادرة:

المسارعة: اندفاع من الشخص اتجاه الشيء وقد يكون ذلك بدافع ذاتي أو عن منافسة، أما المبادرة: فقيام الشخص بفعل الشيء ولا يكون إلا بدافع ذاتي.

---

(١) المصدر السابق ص ٧ بتصرف.

(٢) نظم الدرر، البقاعي ١٩/ ٢٩٢.

(٣) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ١/ ٢٠٨، شمس العلوم، نشوان الحميرى ١/ ٤٥٣، تاج العروس، الزبيدي ١٠/ ١٣٧.

(٤) انظر: الحوافز الإيمانية بين المبادرة والالتزام، عدنان النحوي، ص١٥.

٣ المنافسة:

المنافسة لغة:

مأخوذة من الفعل «نافس» يقال: نافس في الشيء منافسةً إذا رغب فيه على وجه المباراة في الكرم، وتنافسوا فيه أي رغبوا[(١)] أو مشتقة من النفاسة، يقال: شيءٌ نفيسٌ، أي ذو نفاسةٍ وخطر يتنافس به، والتنافس: أن يبرز كل واحدٍ من المتبارزين قوة نفسه[(٢)].

المنافسة اصطلاحًا:

هي قمة الاندفاع والمباراة بقوة بين الأشخاص للوصول إلى أعلى المراتب.

وقيل: مجاهدة النفس للتشبه بالأفاضل، واللحوق بهم من غير إدخال ضرر على أحد[(٣)].

الصلة بين المسارعة والمنافسة:

المسارعة: الغالب فيها أنها تكون ظاهرة من قبل الشخص للإسراع إلى فعل الشيء، المنافسة: تكون ظاهرة وخفية من قبل الشخص للوصول إلى الشيء.

٤ العجلة:

العجلة لغةً:

العين والجيم واللام أصلان صحيحان، يدل أحدهما على الإسراع، والآخر على بعض الحيوان، والجمع عجل وعجلات، والعجل والعجلة: خلاف البطء[(٤)].

العجلة اصطلاحًا:

«هي طلب الشيء وتحريه قبل أوانه»[(٥)].

وقال المناوي: «العجلة: فعل الشيء قبل وقته اللائق به»[(٦)].

الصلة بين المسارعة والعجلة:

المسارعة: «التقدم في ما ينبغي أن يتقدم فيه وهي محمودة ونقيضها مذموم وهو الإبطاء، والعجلة: التقدم في ما لا ينبغي أن يتقدم فيه وهي مذمومة ونقيضها محمود وهو الأناة»[(٧)].

---

(١) مختار الصحاح، الرازي ص٣١٦.
(٢) مقاييس اللغة، ابن فارس ٥/ ٤٦١.
(٣) المفردات، الراغب الأصفاني ص٨١٨.
(٤) انظر: مجمل اللغة، ابن فارس ١/ ٦٤٩.
(٥) المفردات، الراغب الأصفهاني ص٥٤٨.
(٦) التوقيف على مهمات التعاريف، المناوي ص٢٣٧.
(٧) الفروق اللغوية، العسكري ١/ ٢٠٤.



أنواع المسارعة

عند تأمل الآيات القرآنية التي تحدثت عن المسارعة لفظًا ومعنًا، نجدها ذكرت نوعين رئيسين:

أولًا: المسارعة الممدوحة:

جماع المسارعة الممدوحة يتمثل في المسارعة إلى كل ما يحبه الله سبحانه وتعالى ويرضاه من الإيمان والتقوى، والأعمال الصالحة

« مع العلم أن المؤمنين في المسارعة على أقسام:

- العابدون يسارعون بقدمهم في الطاعات.
- والعارفون يسارعون بهممهم في القربات.
- والعاصون يسارعون بندمهم بتجرع الحسرات.
- فمن سارع بقدمه وجد مثوبته، ومن سارع بهممه وجد قربته، ومن سارع بندمه وجد رحمته»[1].

وقد ذكر القرآن الكريم صورًا من المسارعة الممدوحة، ومن ذلك:

- المسارعة في الخيرات بعمومها.
- المسارعة إلى الاستغفار والتوبة.
- المسارعة للاستجابة والطاعة لأمر الله عز وجل.
- المسارعة إلى أداء العبادات؛ كالصلاة والزكاة وغيرها.
- ويتم الحديث عن كل صورة من هذه الصور، وذلك على النحو التالي:

١. **أمرنا الله سبحانه وتعالى للمسارعة إلى فعل الصالحات، والمسابقة في عمل الخيرات.**

قال تعالى: ﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٤٨﴾﴾ [البقرة:١٤٨].

وكذلك حث النبي صلى الله عليه وسلم على المبادرة والمسارعة في عمل الخير، قبل أن تتغير النفوس وتتقلب القلوب، فعن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: **(بادروا بالأعمال فتنًا كقطع الليل المظلم، يصبح الرجل مؤمنًا ويمسى كافرًاو يمسى مؤمنًا ويصبح كافرًا، يبيع أحدهم دينه بعرضٍ من الدنيا)**[2].

وقد ضرب النبي صلى الله عليه وسلم أروع الأمثلة في المسارعةوالمبادرة وعدم التسويف، فعن عقبة قال: **(صليت وراء النَّبي صلى الله عليه وسلم بالمدينة، العصر، فسلم، ثم قام مسرعًا، فتخطى رقاب الناس**

(١) تفسير القشيري ١/ ٢٧٧.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب الحث على المبادرة بالأعمال قبل تظاهر الفتن، ١/ ١١٠، رقم ١١٨.

إلى بعض حجر نسائه، ففزع الناس من سرعته، فخرج عليهم، فرأى أنهم عجبوا من سرعته، فقال: ذكرت شيئًا من تبرٍ عندنا، فكرهت أن يحبسني، فأمرت بقسمته)[1].

وعن ابن عباسٍ رضي الله عنه قال: (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أجود الناس، وكان أجود ما يكون في رمضان حين يلقاه جبريل، وكان يلقاه في كل ليلةٍ من رمضان فيدارسه القرآن، فرسول الله صلى الله عليه وسلم حين يلقاه جبريل أجود بالخير من الريح المرسلة)[2].

وكذلك من سبقه من الأنبياء والرسل الصالحين الذين تحدث القرآن الكريم عن مسارعتهم إلى الخيرات، ومسارعتهم إلى تنفيذ الأمر الإلهي، وذلك ما قاله الله عز وجل في حق إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴿١٠٢﴾﴾ [الصافات:١٠٢].

وعندما عجل موسى عليه السلام من أجل لقاء ربه سبحانه وتعالى طمعا في رضاه لقوله تعالى: ﴿وَمَا أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَا مُوسَى ﴿٨٣﴾ قَالَ هُمْ أُولَاءِ عَلَى أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى ﴿٨٤﴾﴾ [طه:٨٣-٨٤].

وقوله تعالى أيضًا: ﴿وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ ﴿٨٩﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ ﴿٩٠﴾﴾ [الأنبياء:٨٩-٩٠].

وقال فخر الدين الرازي في معنى قوله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ﴾ أراد بها زكريا وولده وأهله فبين أنه آتاهم ما طلبوه وعضد بعضهم ببعضٍ من حيث كانت طريقتهم أنهم يسارعون في الخيرات، والمسارعة في طاعة الله تعالى من أكبر ما يمدح المرء به؛ لأنه يدل على حرصٍ عظيمٍ على الطاعة.

وقوله: ﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾

والمعنى: أنهم ضموا إلى فعل الطاعات والمسارعة فيها أمرين: أحدهما: الفزع إلى الله تعالى لمكان الرغبة في ثوابه والرهبة في عقابه، والثاني: الخشوع وهو المخافة الثابتة في القلب، فيكون الخاشع هو الحذر الذي لا ينبسط في الأمور خوفا من الإثم[3].

وقيل: أي: « يبادرون في الطاعات،

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأذان، باب من صلى بالناس، فذكر حاجة فتخطاهم، ١/ ١٧٠، رقم ٨٥١.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الخلق، باب ذكر الملائكة، ٤/ ١١٣، رقم ٣٢٢٠.

(٣) انظر: مفاتيح الغيب ٢٢/ ١٨٣.

يعني: زكريا وامرأته ويحيى - عليهما السلام -ويقال: الأنبياء الذين سبق ذكرهم، وقوله: ﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾، يعني: رغبة فيما عند الله من الثواب وهو الجنة، ورهبًا أي فزعا من عذاب الله تعالى، وكانوا لنا خاشعين، يعني: مطيعين، ويقال: متواضعين»[(١)].

ووصف الله عز وجل المؤمنين الصالحين المتقين بأنهم هم الذين يسارعون في الخيرات ويتسابقون إلى فعلها دون تردد، ويستجيبون لأمره، ووصفه لهم في كتابه العزيز بمنزلة مدح وثناء عليهم، لقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَهُمۡ لَهَا سَٰبِقُونَ ۝٦١﴾ [المؤمنون:٦١].

وقوله تعالى: ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا كَعَرۡضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [الحديد:٢١].

وقوله تعالى أيضًا: ﴿۞ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ۝١٣٣﴾ [آل عمران:١٣٣].

والمعنى: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ أي: سارعوا إلى التوبة من الربا، وقيل: وسارعوا بالأعمال الصالحة التي هي مغفرة لذنوبكم وإلى الجنة، وقيل: يعني سارعوا إلى النجاء الأكبر إلى الصف المقدم في الصلاة، وإلى الصف المقدم في القتال، وقيل: وسارعوا حتى لا تفوتكم تكبيرة الافتتاح[(٢)].

بينما ذكر فخر الدين الرازي في كتابه أن الآية فيها مسائل:

المسألة الأولى: أطيعوا الله والرسول وسارعوا.

المسألة الثانية: وسارعوا إلى ما يوجب مغفرةً من ربكم، وللمفسرين فيه أقوال:

الأول: عن ابن عباسٍ قال: هو الإسلام

الثاني: عن علي بن أبي طالبٍ رضي الله عنه أنه قال: هو أداء الفرائض.

الثالث: عن عثمان بن عفان رضي الله عنه أنه الإخلاص.

الرابع: عن أبي العالية قال: هو الهجرة.

الخامس: عن الضحاك ومحمد بن إسحاق: أنه الجهاد.

السادس: عن سعيد بن جبيرٍ: إنها التكبيرة الأولى.

السابع: قال عثمان رضي الله عنه: إنها الصلوات الخمس.

الثامن: قال عكرمة: إنها جميع الطاعات.

التاسع: قال الأصم: سارعوا، أي بادروا إلى التوبة من الربا والذنوب، والوجه فيه أنه تعالى نهى أولًا عن الربا، ثم قال: وسارعوا إلى مغفرةٍ من ربكم فهذا يدل على أن المراد

---

(١) تفسير السمرقندي ٢/ ٤٤٠.

(٢) انظر: المصدر السابق ١/ ٢٤٦.

منه المسارعة في ترك ما تقدم النهي عنه، والأولى ما تقدم من وجوب حمله على أداء الواجبات والتوبة عن جميع المحظورات، لأن اللفظ عامٌ فلا وجه في تخصيصه [(١)].

فكان مدلول هذه الآيات الكريمة محركًا للمسارعة عند أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، فعن أنس بن مالك في قصة غزوة بدر: لما دنا المشركون قال، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: (قوموا إلى جنة عرضها السماوات والأرض) فقال: عمير بن الحمام الأنصاري يا رسول الله جنة عرضها السموات والأرض؟ قال: (نعم) قال: بخ بخ (كلمة تطلق لتفخيم الأمر وتعظيمه) فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ما يحملك على قولك بخ بخ)؟ قال: لا والله يا رسول الله إلا رجاءَ أن أكون من أهلها قال: (فإنك من أهلها)، فأخرج تمرات من قرنه فجعل يأكل منهن، ثم قال: لئن أنا حييت حتى أكل تمراتي هذه، إنها لحياة طويلة، قال: فرمى بما كان معه من التمر، ثم قاتلهم حتى قتل [(٢)].

فالمداومة على الأعمال الصالحة كلها تقوي الإيمان بالله سبحانه وتعالى فلا بد من الإكثار منها [(٣)].

المسارعة إلى الاستغفار والتوبة.

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾﴾ [آل عمران:١٣٥].

فعلى الإنسان أن يسارع إلى ما فيه مغفرة الذنوب؛ من الاستغفار، كقوله: أستغفر الله، أو اللهم اغفر لي، أو اللهم إني أستغفرك، وما أشبه ذلك، وكذلك أيضًا: الإسراع إلى ما فيه المغفرة، مثل الوضوء، والصلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة، ورمضان إلى رمضان.

فكان الصحابة الأجلاء ممن يسارعون إلى طلب المغفرة والإكثار منها، وتجنب الذنوب خوفًا من فقدان رحمة الله ورضوانه، فلا بد أن نكون مثلهم في ذلك؛ لكثرة المغريات والملهيات من حولنا، فالحذر ثم الحذر.

المسارعة للاستجابة والطاعة لأمر الله عز وجل.

فغاية العبد نيل رضى الله عز وجل ومحبته، ولن تتحقق المحبة إلا بطاعة الله والاستجابة لأوامره.

(١) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٩/ ٣٦٤، لباب التأويل، الخازن ١/ ٢٥٦.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب ثبوت الجنة للشهيد، ٣/ ١٥٠٩، رقم ١٩٠١.

(٣) انظر: ظاهرة ضعف الإيمان، محمد المنجد ١/ ٤٦.

قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ [آل عمران:٣١].

والمعنى: ﴿تُحِبُّونَ اللَّهَ﴾ «أي تقصدون طاعته وترضون بشرائعه والمحبة على ضروب، فالمحبة من جهة الملاذ في المطعم والمشرب والنساء، والمحبة من الله لخلقه عفوه عنهم وإنعامه عليهم برحمته ومغفرته وحسن الثناء عليهم، ومحبة الإنسان لله ولرسوله طاعته لهما ورضاه بما أمر الله به، وأتى به رسول الله صلى الله عليه وسلم»[١].

فمثلًا عندما دعاهم الله سبحانه وتعالى إلى الانفاق في سبيله، سارعوا إلى الإنفاق في سبيله.

قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾﴾ [آل عمران:١٣٤].

والله سبحانه وتعالى لم يبين في هذه الآية المقدار من الانفاق، ولكن في آيات أخرى بين ذلك في قوله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ [البقرة:٢١٩].

والمعنى: «لقد سألوا مرة: ماذا ينفقون؟ فكان الجواب في آية سابقة عن النوع والجهة، فأما هنا فجاء الجواب عن المقدار والدرجة، والعفو: الفضل والزيادة، فكل ما زاد على النفقة الشخصية في غير ترف ولا مخيلة فهو محل للإنفاق»[٢].

وعندما دعاهم إلى الجهاد، سارعوا للجهاد في سبيل الله بأنفسهم وأموالهم، لقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١١١﴾﴾ [التوبة:١١١].

وقد ضرب لنا الصحابة الكرام رضوان الله عليهم أروع الأمثلة في المسارعة الى الجهاد في سبيله، متمثلًا في موقف الرجل الذي قال للنبي صلى الله عليه وسلم يوم أحد: (**أرأيت إن قتلت فأين أنا ؟ قال:(في الجنة)، فألقى تمرات كن في يده، ثم قاتل حتى قتل**)[٣].

هؤلاء هم الصحابة الأجلاء لا يلهيهم متاع الدنيا وشهواتها، بل يسعون إلى ما هو أفضل وأحسن ألا وهي الجنان[٤].

المسارعة إلى أداء العبادات من صلاة

---

(١) معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ١/ ٣٩٧.

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب ١/ ٢٣١.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب غزوة أحد، ٥/ ٩٥، رقم ٤٠٤٦.

(٤) انظر: موسوعة الأخلاق والزهد والرقائق، ياسر عبد الرحمن ١/ ١٦١.

وزكاة وغيرها الكثير.

مما يدلل أن ديننا له سبله المتنوعة وطرقه المتشعبة والمتعددة أمام عباد الله، لنيل ما يتمنونه من الثواب الجزيل، مثلًا من وجد شخصًا يريد أن يحمل على دابته شيئًا، فساعده على حمله، أو أمسك دابته فهو صدقة، وجعل النبي صلى الله عليه وسلم الكلمة الطيبة صدقة، والكلمة الطيبة تشمل كل قول يتقرب إلى الله سبحانه وتعالى به، فالأمر بالمعروف صدقة، والنهي عن المنكر صدقة، وبكل تسبيحة أو تكبيرة أو تهليلة صدقة، وتعليم العلم النافع صدقة، وابتداء السلام ورده صدقة، وجعل النبي صلى الله عليه وسلم بكل خطوة يخطوها العبد إلى الصلاة صدقة، وكلما بعدت طريق الصلاة كانت الصدقات أكثر، وهذا من أكبر فضائل صلاة الجماعة في المساجد، وجعل النبي صلى الله عليه وسلم إزالة الأذى عن الطريق صدقة، فمن عزل حجرًا أو شوكةً أو عظمًا عن طريق الناس، فذلك صدقة يثاب عليها ويؤجر.

فمن حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: **(مر رجل بغصن شجرة على ظهر طريق، فقال: والله لأنحين هذا عن المسلمين لا يؤذيهم فأدخل الجنة)**[1]، وفي رواية: **(لقد رأيت رجلا يتقلب في الجنة أي: يروح فيها ويجيء كما شاء، من شجرة قطعها من ظهر الطريق كانت تؤذي الناس)**[2].

وفي رواية: **(بينما رجل يمشي بطريق وجد غصن شوك على الطريق، فأخره، فشكر الله له، فغفر له)**[3].

ومن يفعل ذلك ابتغاء مرضاة الله والإحسان إلى عباد الله، فسوف يلقى الذكر الطيب في الدنيا والثواب الجزيل في الآخرة إن شاء الله، لقوله تعالى: ﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١١٤﴾﴾ [النساء:١١٤][4].

إذًا طرق الخير والنفع كثيرةٌ متاحةٌ للجميع،ولكن أين السالكون؟ وأين السائرون؟

وأبواب البر متعددةٌ، ولكن أين المتسارعون إليها؟ وأين الطارقون لها؟

ويستفاد من ذلك: أن يكون الإنسان

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب فضل إزالة الأذى عن الطريق، ٤/ ٢٠٢١، رقم ١٩١٤.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب فضل إزالة الأذى عن الطريق، ٤/ ٢٠٢١، رقم ١٩١٤.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب فضل إزالة الأذى عن الطريق ٤/ ٢٠٢١، رقم ١٩١٤.

(٤) انظر: الضياء اللامع من الخطب الجوامع، ابن عثيمين ١/ ١٠٣.

حريصًا كل الحرص على فعل الخيرات، والمسارعة إليها؛ فالعمر قصير، والأجل قريب، ونحن لا ندري متى يأتي الموت، إذًا فالمسارعة إلى الخيرات، والمبادرة إلى الطاعات، والمسابقة إلي الصالحات، المؤديات إلى الفلاح والنجاة ثم إلى الجنات.

ثانيًا: المسارعة المذمومة:

هذا النوع من المسارعة الذي ذم الله عز وجل فعله، والاتصاف به بل أنه حذر من اتباعه؛ وذلك لما يترتب عليه من عواقب وخيمة ومهلكة للإنسان في الدنيا والآخرة، وقد ذكر القرآن الكريم ثلاث صور للمسارعة المذمومة، فالباقي تدور حولها، وتتفرع عنها، وهي على النحو التالي:

١ . المسارعة في الكفر.

الكفر بالله من أكبر الكبائر التي حذرنا الله سبحانه وتعالى منها، وكذلك نبيه صلى الله عليه وسلم لأن الإنسان بذلك يكون قد ظلم نفسه، بإيقاعها في سخط الله وغضبه، وزجها في نار جهنم -والعياذ بالله -وكيف الحال مع المسارعين إليها ؟ يتم توضيح ذلك على النحو التالي:

قال تعالى: ﴿وَلَا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ ۚ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا ۗ يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِي الْآخِرَةِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٦﴾﴾ [آل عمران:١٧٦].

لا بد من العلم أن الله سبحانه وتعالى لما بين بعض التكاليف والشرائع، وكان قد علم أن بعض الناس ستسارع إلى الكفر، لا جرم أنه صبر رسول الله صلى الله عليه وسلم على تحمل ذلك، وأمره بأن لا يحزن لأجل ذلك أي: لا تهتم ولا تبال بمسارعة المنافقين في الكفران في موالاة الكفار، فإنهم لن يعجزوا الله شيئًا [١].

وذكر جمال الدين الجوزي أن معنى: ﴿الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ﴾ فيها أربعة أقوال:

أحدها: أنهم المنافقون، ورؤساء اليهود.

والثاني: المنافقون.

والثالث: كفار قريش.

والرابع: قوم ارتدوا عن الإسلام.

وقيل: معنى مسارعتهم في الكفر: مظاهرتهم للكفار، ونصرهم إياهم، فإن قيل: كيف لا يحزنه المسارعة في الكفر؟

فالجواب: لا يحزنك فعلهم، فإنك منصور عليهم.

وقوله: ﴿إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا﴾ فيها قولان:

أحدهما: لن ينقصوا الله شيئًا بكفرهم.

والثاني: لن يضروا أولياء الله شيئًا [٢].

(١) انظر: اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل ٧/ ٣٣٤.

(٢) انظر: زاد المسير ١/ ٣٥٠.

وقيل: المراد بالموصول في قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ﴾ المنافقون من المتخلفين، وطائفةٌ من اليهود حسبما عين في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ﴾ [المائدة: ٤١].

وقيل: قوم ارتدوا عن الإسلام والتعبير عنهم بذلك للإشارة بما في حيز الصلة إلى مظنة وجود المنهي عنه واعترائه لرسول الله صلى الله عليه وسلم أي: لا يحزنوك بمسارعتهم في الكفر ومبادرتهم إلى تمشية أحكامه ومظاهرتهم لأهله وتوجيه النهي إلى جهتهم مع أن المقصود نهيه عليه الصلاة والسلام عن التأثر منهم للمبالغة في ذلك لما أن النهي عن التأثير نهيٌ عن التأثر بأصله ونفيٌ له بالمرة[1].

وقوله: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ هذه الآية حجة عليهم، لأن إرادة الله عز وجل في حرمان حظهم من الآخرة حائلة بينهم وبين المسارعة إلى الإيمان الذي ينمي لهم حظ الآخرة، وكيف يقدرون أن يكتسبوا بالطاعة حظ الآخرة، والله يريد ألا يجعله لهم، وهذا من العدل الذي لا يحيطون بمعرفته فيتصور عندهم بصورة الجور[2].

والمعنى: «أن الله عز وجل بين ما يعود عليهم من الوبال، نتيجة مسارعتهم في الكفر، وذلك ﴿أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ أي: نصيبًا من الثواب، ولهم بدل الثواب عذابٌ عظيمٌ، وذلك أبلغ ما ضر به الإنسان نفسه»[3].

وأين الفائدة في ذكر الإرادة ؟ قلت: فائدته الإشعار بأن الداعي إلى حرمانهم وتعذيبهم قد خلص خلوصًا لم يبق معه صارف قط حين سارعوا في الكفر تنبيهًا على تماديهم في الطغيان وبلوغهم الغاية حتى إن أرحم الراحمين يريد أن لا يرحمهم[4].

وقوله: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ أي: «لا يقادر قدره قيل ما دلت المسارعة في الشيء على عظم شأنه وجلالة قدره عند المسارع وصف عذابه بالعظم رعايةً للمناسبة وتنبيهًا على حقارة ما سارعوا فيه وخساسته في نفسه، والجملة إما مبتداةٌ مبينةٌ لحظهم من العقاب إثر بيان أن لا شيء لهم من الثواب، وإما حالٌ من الضمير في لهم أي يريد الله سبحانه وتعالى حرمانهم من الثواب معدًا

---

(١) انظر: إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٢/ ١١٦.

(٢) انظر: النكت الدالة على البيان، الكرجي ١/ ٢٣٥.

(٣) الكشاف، الزمخشري ١/ ٤٤٣.

(٤) انظر: نواهد الأبكار وشوارد الأفكار، السيوطي ٣/ ٩٩.

لهم عذابٌ عظيم﴾[1].

إذًا لا يظنون بأنه سينجون من عقابه سبحانه وتعالى وأن ما يمليه لهم الله عز وجل خيرا لهم، بل وبالًا عليهم.

قال تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا ۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٧٨﴾﴾ [آل عمران:١٧٨].

وبعد أن بين الله عز وجل حكم أولئك الذين يسارعون إلى نصرة الكفر والدفاع دونه ومقاومة المؤمنين لأجله، وأرشد إلى أنه لا يهتم بشأنهم، فهم إنما يحاربون الله والله غالب على أمره، أشار هنا إلى أن هذا حكم عام يشمل كل من آثر الكفر على الإيمان واستبدله به، فقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٧﴾﴾ [آل عمران:١٧٧][2].

والمعنى: قال كثير من المفسرين: إن هذه الآية في معنى الآية الأولى من سورة آل عمران السابقة الذكر، وقد أعيدت تأكيدًا، والصحيح أن الأول ذمٌّ للذين تحروا الكفر وتزايدوا فيه متسارعين، وهذه الآية ذمٌّ لمن حصل له الإيمان فأفرج عنه ؟؟

واستبدل به كفرًا، وهم الذين وصفهم بالارتداد على أعقابهم، وذم لمن مكن من الإيمان فرغب عنه، وآثر الكفر عليه، فصار كالبائع إيمانه بكفر[3].

وهؤلاء لهم عذاب شديد من الله سبحانه وتعالى في الدنيا والآخرة نار جهنم والعياذ بالله، والله سبحانه وتعالى سريع في حسابهم، لا يصرفه شيءٌ عن إلحاق العقاب بهم، لقوله تعالى: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [آل عمران:١٩].

أي: أن الله سبحانه وتعالى هدد بأنه من كفر بآيات الله التكوينية في الأنفس والآفاق، والآيات الدالة على وجوده وتوحيده وصدق أنبيائه، وأنكر وجحد ما أنزل الله عز وجل في كتابه مما يوجب الاعتصام بالدين ووحدته، فإنه ظلم نفسه، والله عز وجل سيجازيه على ذلك، ويحاسبه على تكذيبه، ويعاقبه على مخالفته كتابه، وهو سريع الحساب وشديد العقاب[4].

«وسرعة الحساب يحتمل أن يراد بها: سرعة مجيء القيامة، والحساب إذ هي متيقنة الوقوع، فكل آت قريب.

ويحتمل أن يراد بسرعة الحساب: أن الله تعالى بإحاطته بكل شيء علمًا لا يحتاج إلى عد ولا فكرة»[5].

ويستفاد من ذلك: الإيمان نجاة، والكفر ضياع، فأيهما تختار؟

(١) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٢/ ١١٦.
(٢) انظر: تفسير المراغي ٤/ ١٤٠.
(٣) انظر: تفسير الراغب الأصفهاني، ٣/ ١٠٠٠.
(٤) انظر: التفسير المنير، الزحيلي ٣/ ١٨٠.
(٥) المحرر الوجيز، ابن عطية ١/ ٤١٣.

٢. المسارعة في الإثم والعدوان.

ومن الصفات المذمومة أيضًا الاتصاف بالإثم والعدوان ومعصية الله عز وجل والرسول صلى الله عليه وسلم والمسارعة إلى التحلي بها وفعلها والاكثار منها، فبئس ما اتصفوا به، وسارعوا إليه، ويتم بيان ذلك وتوضيحه على النحو التالي:

قال الله تعالى ناعيًا على اليهود: ﴿وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٦٢﴾ لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [المائدة:٦٢-٦٣].

والمعنى: المسارعة في الشيء: الشروع فيه بسرعةٍ، قيل: الإثم الكذب، والعدوان الظلم، وقيل: الإثم ما يختص بهم، والعدوان ما يتعداهم إلى غيرهم، وأما أكل السحت فهو: أخذ الرشوة، وفي الآية فوائد:

الفائدة الأولى: أنه تعالى قال: ﴿وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ﴾، والسبب: أن كلهم ما كان يفعل ذلك، بل كان بعضهم يستحيي فيترك.

الفائدة الثانية: أن لفظ المسارعة إنما يستعمل في أكثر الأمر في الخير، لقوله تعالى: ﴿وَيُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ [آل عمران:١١٤].

وقوله أيضًا: ﴿نُسَارِعُ لَهُمْ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ [المؤمنون:٥٦].

فكان اللائق بهذا الموضع لفظ العجلة، إلا أنه تعالى ذكر لفظ المسارعة لفائدةٍ، وهي أنهم كانوا يقدمون على هذه المنكرات كأنها خيرات في نظرهم، ومحقون فيها، فجاء التعبير موافقًا لحالهم ومفهومهم، وذلك من أسرار البيان في القرآن الكريم.

الفائدة الثالثة: لفظ الإثم يتناول جميع المعاصي والمنهيات، فلما ذكر الله تعالى بعده العدوان وأكل السحت دل هذا على أن هذين النوعين أعظم أنواع المعصية والإثم[1].

«والربانيون علماء أهل الإنجيل، والأحبار علماء أهل التوراة، وقال غيره: كلهم في اليهود؛ لأنه متصل بذكرهم، والمعنى: أن الله استبعد من علماء أهل الكتاب أنهم ما نهوا سفلتهم وعوامهم عن المعاصي، وذلك يدل على أن ترك النهي عن المنكر بمنزلة مرتكبه؛ لأنه تعالى ذم الفريقين في هذه الآية على لفظٍ واحدٍ، بل نقول: إن ذم تارك النهي عن المنكر أقوى؛ لأنه قال في المقدمين على الإثم والعدوان وأكلهم السحت.

قال تعالى: ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [المائدة:٦٢].

وقال في العلماء التاركين للنهي عن

(١) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ١٢/ ٣٩٢، الجدول في إعراب القرآن الكريم، محمود صافي ٦/ ٣٩٨.

المنكر: ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ والصنع أقوى من العمل؛ فإنما العمل يسمى صناعةً، إذا صار مستقرًا راسخًا متمكنًا»[1].

ويذكر علي الشحود في كتابه: أن الله سبحانه وتعالى ينحي باللائمة على الربانيين والأحبار، الساكتين على المسارعة في الإثم والعدوان وأكل السحت، الذين لا يقومون بحق ما استحفظوا عليه من كتاب الله، وإنه لصوت النذير لكل أهل دين، فصلاح المجتمع أو فساده رهن بقيام الحفظة على الشريعة والعلم فيه بواجبهم في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والأمر يقتضي سلطة تأمر وتنهى، وكذلك ينبغي أن يحصل الآمرون بالمعروف الناهون عن المنكر على السلطان الذي يجعل لأمرهم ونهيهم قيمته في المجتمع فلا يكون مطلق كلام ! وكنموذج من قولهم الإثم في أبشع صوره يحكي القرآن الكريم قول اليهود اللئيم فقال: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ [المائدة: ٦٤].

وذلك من سوء تصور اليهود لله سبحانه وتعالى وهناك الكثير مما حكى القرآن الكريم عن سوء تصورهم ذاك، وكأن القوم يتسابقون تسابقًا في الإثم والعدوان، وأكل الحرام، وهي صورة ترسم للتبشيع والتشنيع، ويتسابقون في ذلك قويهم وضعيفهم سواء، فكذلك كان مجتمع يهود في تلك الأيام، ويستنكر الله عز وجل سكوت الربانيين القائمين على الشريعة، والأحبار القائمين على أمر العلم الديني، عن مسارعة القوم في ذلك، وهذا ما وصفهم الله عز وجل بهم في كتابه الكريم فيقول: ﴿كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ۝٧٩﴾ [المائدة: ٧٩].

وفعلهم ذاك على العكس تمامًا من سمة المجتمع الخير الفاضل الحي القوي المتماسك الذي يسود فيه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر[2].

٣. المسارعة في النفاق.

هذه الصفة المذمومة من الصفات التي يتصف بها أصحاب القلوب المريضة والضعيفة، ببعدها عن دين الله وشريعته، وهؤلاء ذكرهم الله عز وجل وفضحهم، لسوء ما يقومون به، ويسارعون إلى فعله، من أجل أخذ الحيطة والحذر منهم، ويتم بيان ذلك على النحو التالي.

فالله سبحانه وتعالى ينهى عن موالاة اليهود والنصارى، ولكن المنافقين أبوا إلا أن يتخذوا اليهود والنصارى أولياء من دون الله سبحانه وتعالى ورسوله صلى الله عليه

(١) اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل ٧/ ٤٢٤.

(٢) انظر: العصبة المؤمنة بين عناية الرحمن ومكر الشيطان ١/ ١٦١.

وسلم والمؤمنين، ولم ينتهوا عن ذلك، لقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ﴾ [المائدة:٥١].

«جاء عبادة بن الصامت فقال: يا رسول الله إن لي موالي من اليهود كثيرٌ عددهم حاضرٌ نصرهم، وإني أبرأ إلى الله ورسوله من ولاية اليهود، وآوي إلى الله ورسوله، فقال عبد الله بن أبي: إني رجلٌ أخاف الدوائر ولا أبرأ من ولاية اليهود، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (يا أبا الحباب ما بخلت به من ولاية اليهود على عبادة بن الصامت فهو لك دونه)، فقال: قد قبلت، فأنزل الله تعالى فيهما: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾ يعني عبد الله بن أبي ﴿ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ ﴾ في ولايتهم ﴿ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ ﴾ أي مصيبة»[1].

وبين الله سبحانه وتعالى حرصهم على المسارعة والاجتهاد في ولاء اليهود والنصارى، في قوله تعالى: ﴿ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِىَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ نَٰدِمِينَ ﴿٥٢﴾ ﴾ [المائدة:٥٢].

والمعنى: «لما نهى الله عز وجل المؤمنين عن توليهم في الآيات السابقة لها، أخبر أن ممن يدعي الإيمان طائفةً تواليهم، فقال: ﴿ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾ أي: شك ونفاق، وضعف إيمان، يقولون: إن تولينا إياهم للحاجة»[2].

وقوله: ﴿ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ ﴾ أي في مودة اليهود والنصارى وموالاتهم ومناصحتهم؛ لأنهم كانوا أهل ثروة ويسار يخالطونهم ويغشونهم لأجل ذلك نزلت في ابن أبي المنافق وأصحابه، وجعل المسارعة في موالاتهم مسارعة فيهم للمبالغة في بيان رغبتهم في ذلك حتى كأنهم مستقرون فيهم داخلون في عدادهم.

وقوله: ﴿ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ ﴾ جملة مشتملة على تعليل المسارعة في الموالاة أي: أن هذه الخشية هي الحاملة لهم على المسارعة، والدائرة يعني: ما يدور من مكابرة الدهر ودوائره كالدولة التي تزول، أي يقول المنافقون إنما نخالط اليهود؛ لأننا نخشى أن يدور علينا الدهر بمكروه وهو الهزيمة في الحرب، والقحط، والجدب، والحوادث المخوفة.

وقيل: نخشى أن لا يتم أمر محمد صلى الله عليه وسلم فيدور علينا الأمر كما كان قبل محمد، يعني نخشى أن يظفر بمحمد صلى الله عليه وسلم فتكون الدولة لهم

(١) أسباب نزول القرآن، الواحدي ص ١٩٩.

(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٢٣٥.

فيصيبنا منهم مكروه.

وهذا سوء ظن منهم بالإسلام، فقال الله سبحانه وتعالى رادًا لظنهم السيء: ﴿فَعَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ﴾ وجاء في هذه الآية تهديد للمستنصرين بأعداء دينهم، المتألبين عليهم، المنافقين الذين لا يخلصون لله اعتقادهم ولا ولاءهم ولا اعتمادهم..، وجاءت أيضًا ردًا عليهم ودفعًا لما وقع لهم من الخشية، وعسى في كلام الله سبحانه وعد صادق لا يتخلف، وظاهر الفتح في هذه الآية ظهور رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلو كلمته، ومنه ما وقع من قتل مقاتلة بني قريظة وسبى ذراريهم وإجلاء بني النضير.

وقيل: هو فتح بلاد المشركين على المسلمين.

وقيل: فتح مكة، أي فيبدو الاستغناء عن اليهود، ويرى المنافق أن الله لم يوجد سبيلًا إلى ما كان يؤمل فيهم من المعونة على أمر محمد صلى الله عليه وسلم والدفع في صدر نبوته فيندم حينئذ على ما حصل فيه من محادة الشرع، وتجلل ثوب المقت من الله تعالى ومن رسوله عليه السلام والمؤمنين كالذي وقع وظهر بعد.

وقوله: ﴿أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِ﴾ هو كل ما تندفع به صولة اليهود ومن معهم وتنكسر به شوكتهم، وقيل: هو إظهار أمر المنافقين وإخبار النبي صلى الله عليه وسلم بما أسروا في أنفسهم، وأمره بقتلهم، وقيل: هو الجزية التي جعلها الله عليهم، وقيل: الخصب والسعة للمسلمين، وقال ﴿فَيُصْبِحُوا﴾ أي: المنافقون، وقوله: ﴿عَلَىٰ مَا أَسَرُّوا فِي أَنفُسِهِمْ﴾ من النفاق الحامل لهم على الموالاة ﴿نَادِمِينَ﴾ على ذلك لبطلان الأسباب التي تخيلوها وانكشاف خلافها[1].

(١) انظر: فتح البيان في مقاصد القرآن، صديق خان ٣/ ٤٥٠.

مقام المسارعين في الخيرات وصفاتهم

بين الله عز وجل في كتابه العزيز مقام هؤلاء المسارعين في الخيرات، والمكثرين لفعلها، بما هم فيه من نعيم وثواب جزيل، وكذلك ذكر الصفات النبيلة والحميدة التي اتصفوا بها؛ ليعتبر أولوا الألباب لفعل الخيرات قبل ضياع الأوقات، وذهاب الحسنات، ويتم بيان ذلك على النحو الآتي:

أولًا: مقام المسارعين في الخيرات:

هم في مقامٍ عالٍ عند مليكٍ مقتدر، يستحقونه وينالونه جزاء أعمالهم الخيرة، فهم في جنات النعيم، لقوله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ ۝١٨ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ۝١٩ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ۝٢٠ يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۝٢١﴾ [المطففين:١٨ – ٢١].

والمعنى: أنه أريد بالأبرار: هم الذين آمنوا؛ فلذلك قيل: بأن الأبرار هم المؤمنون. والبر هو الذي يكثر منه تعاطي فعل البر، فسمي: بارا؛ إذا كثر منه البر، وقوله: ﴿يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ ذكر شهود المقربين في ذكر كتاب الأبرار، فجائز أن يكون شهودهم على التعظيم لعملهم، والدعاء لهم، وغير ذلك، وقيل: المقربون: هم مقربو أهل كل سماء[1].

وقوله تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ۝١٠ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۝١١ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ۝١٢﴾ [الواقعة:١٠–١٢].

والمعنى: «السابقون إلى طاعة الله هم السابقون إلى رحمة الله، وقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ من صفتهم، وقيل: إذا خرج رجلٌ من السابقين المقربين من منزله في الجنة كان له ضوءٌ يعرفه به من دونه»[2].

فالله سبحانه وتعالى أكرمهم بالإقامة بالجنة يتنعمون بنعيمها الدائم دون مشقة ولا تعب، فلا يجدون فيها إلا كل خير، لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ۝٣٥﴾ [فاطر:٣٥].

والمعنى: «دار المقامة هي الجنة، والمقامة هي الإقامة، والموضع؛ وإنما سميت الجنة دار المقامة، لأنهم يقيمون فيها ولا يخرجون منها، وقال تعالى: ﴿لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ﴾ والنصب: تعب البدن، وقوله: ﴿وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾ واللغوب: تعب النفس، اللازم عن تعب البدن»[3].

وقال النسفي في معنى قوله: ﴿ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ﴾ أي الإقامة لا نبرح ولا نفارقها، يقال: أقمت إقامة ومقامًا ومقامة، وقوله: ﴿مِن فَضْلِهِۦ﴾ من عطائه وأفضاله لا

(١) انظر: تأويلات أهل السنة، الماتريدي ١٠/ ٤٦١.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٧/ ٢٠٠.

(٣) التسهيل لعلوم التنزيل، ابن جزي ٢/ ١٧٦.

باستحقاقنا، وقوله: ﴿لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ﴾ تعب ومشقة، وقوله: ﴿وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾ إعياء من التعب [1].

اللهم اجعلنا من أهل هذه المقامات العالية، في جنات غير فانية، برحمتك يا أرحم الراحمين.

ثانيًا: صفات المسارعين في الخيرات:

ذكر الله سبحانه وتعالى صفات المسارعين في الخيرات في كتابه العزيز في صورةٍ واضحةٍ وبارزةٍ، لكل قارئ وسامع ومعتبر، لأخذ العبرة والعظة، والاتصاف بهذه الصفات، لنيل رضى الله سبحانه وتعالى ورحمته، ويكون من الصالحين المتقين، وبيان ذلك على النحو التالي:

من الصفات التي اتصف بها المسارعون في الخيرات هي:

١. اتصفوا بالصلاح والتقوى وفعل الخيرات.

لقوله تعالى: ﴿۞ لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَٰئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١١٤﴾﴾ [آل عمران:١١٣-١١٤].

الله سبحانه وتعالى مدح الأمة المذكورة في هذه الآية بصفات ثمان وصفهم بها ما كانت في اليهود ولا في غيرهم وهي:

الصفة الأولى: أنها قائمة، قيل: أي في الصلاة، وقيل: ثابتة على التمسك بدين الحق ملازمة له غير مضطربة.

وقيل: أي مستقيمة عادلة، والآية دلت على أن المسلم قائم بحق العبودية، وقوله تعالى: ﴿قَائِمًا بِالْقِسْطِ﴾ [آل عمران:١٨].

دل على أن المولى قام بحق الربوبية، وهذه حقيقة قوله: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ [البقرة:٤٠].

الصفة الثانية: ﴿يَتْلُونَ﴾ أي: أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل، فالتلاوة القراءة، وأصل الكلمة الاتباع، فكأن التلاوة هي اتباع اللفظ، وآيات الله القرآن.

الصفة الثالثة: ﴿وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾ يحتمل أن يكون حالا من يتلون، كأنهم يقرأون في القرآن السجدة تخشعًا، أو أن يكون كلامًا مستقلًا أي: يقومون تارة ويسجدون أخرى، ويبتغون الفضل والرحمة بكل ما يمكن، كقوله: ﴿وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا ﴿٦٤﴾﴾ [الفرقان:٦٤].

وعلى هذين الاحتمالين لا منع من كونه حالا.

الصفة الرابعة: ﴿يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ فالصفات المتقدمة إشارة إلى كمال حالهم في القوة العملية، وهذه

---

(١) انظر: مدارك التنزيل، النسفي ٣/ ٩٠.

إشارة إلى كمالهم بحسب القوة النظرية، فإن حاصل المعارف معرفة المبدأ والمعاد.

الصفة الخامسة والسادسة: ﴿وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ وهاتان الصفتان إشارة إلى أنهم فوق التمام؛ وذلك لسعيهم في تكميل الناقصين بإرشادهم إلى ما ينبغي ومنعهم عما لا ينبغي.

الصفة السابعة: ﴿وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ﴾ أي: المذكورات كلها وهي من صفات المدح؛ لأن المسارعة في الخير دليل فرط الرغبة فيه حتى لا يفوت ففي التأخير آفات.

الصفة الثامنة: ﴿وَأُولَٰئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ هذه إشارةٌ إلى من جمع هذه الصفات كلها، أي: وأولئك الموصوفون بتلك الأوصاف من الذين صلحت أحوالهم عند الله، ويجوز أن يريد بالصالحين المسلمين، والأمور بخواتيمها والعاقبة غير معلومة إلا في علم الله تعالى فإذا أخبر عنهم بانخراطهم في سلك الصالحين فذلك المقصود وقصارى المجهود[(١)].

٢. قلوبهم مليئة بالخشية والخوف من الله.

قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾ [الأنبياء:٩٠].

ومعنى قوله: ﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾، يعني: رغبة فيما عند الله من الثواب وهو الجنة، ورهبًا أي فزعًا من عذاب الله تعالى، وكانوا لنا خاشعين، يعني: مطيعين، ويقال: متواضعين»[(٢)].

وقوله تعالى أيضًا: ﴿إِنَّ الَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَالَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [المؤمنون:٥٧-٥٩].

والمعنى: لما ذم الله سبحانه وتعالى المشركين وتوعدهم عقب ذلك بمدح المؤمنين وذكرهم بأبلغ صفاتهم، فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ﴾ أي: هم من جلال الله وعظمته خائفون، ومن خوف عذابه حذرون، وقوله: ﴿وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ﴾ أي: يصدقون بآيات الله القرآنية، وآياته الكونية وهي البراهين الدالة على وجوده سبحانه.

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ﴾ أي: لا يعبدون معه غيره، بل يوحدونه ويخلصون العمل لوجهه، وقيل: ليس المراد منه الإيمان بالتوحيد ونفي الشريك لله فإن ذلك داخل في الآية السابقة، بل المراد منه نفي الشرك الخفي وذلك بأن يخلص في العبادة لوجه الله عز وجل وطلبًا

(١) انظر: غرائب القرآن ورغائب الفرقان، النيسابوري ١/ ٢٤١.

(٢) تفسير السمرقندي ٢/ ٤٤٠.

لرضوانه [1].

٣. **عدم الثقة في قبول العمل والخوف من أن يرد.**

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُولَٰئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ ﴿٦١﴾﴾ [المؤمنون:٦٠-٦١].

والمعنى: من الآيات الكريمة في سورة المؤمنون والتي أشرنا إليها سابقًا، يبدو فيها أثر الإيمان في القلب، من الحساسية والإرهاف والتحرج، والتطلع إلى الكمال، وحساب العواقب، مهما ينهض بالواجبات والتكاليف.

فهؤلاء المؤمنون يشفقون من ربهم خشية وتقوى وهم يؤمنون بآياته، ولا يشركون به، وهم ينهضون بتكاليفهم وواجباتهم، وهم يأتون من الطاعات ما استطاعوا، ومع ذلك كله، ﴿يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾ لإحساسهم بالتقصير في جانب الله، بعد أن بذلوا ما في طوقهم، وهو في نظرهم قليل.

عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: **يا رسول الله: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ هو الذي يسرق ويزني ويشرب الخمر، وهو يخاف الله عز وجل ؟ قال:(لا يا بنت الصديق ! ولكنه الذي يصلي ويصوم ويتصدق، وهو يخاف الله عز وجل)** [2].

إن قلب المؤمن يستشعر يد الله عليه، ويحس آلاءه في كل نفس وكل نبضة.. ومن ثم يستصغر كل عباداته، ويستقل كل طاعاته، إلى جانب آلاء الله ونعمائه، كذلك هو يستشعر بكل ذرة فيه جلال الله وعظمته ويرقب بكل مشاعره يد الله في كل شيء من حوله.. ومن ثم يشعر بالهيبة، ويشعر بالوجل، ويشفق أن يلقى الله وهو مقصر في حقه، لم يوفه حقه عبادة وطاعة ولم يقارب أياديه عليه معرفة وشكرا، وهؤلاء هم الذين يسارعون في الخيرات، وهم الذين يسبقون لها فينالونها في الطليعة، بهذه اليقظة، وبهذا التطلع، وبهذا العمل، وبهذه الطاعة [3].

ويقول ابن عباس: هذه الآيات بما ذكرته من الصفات التي يتصفون بها من فعل الخيرات، بأن يعطوا ما أعطوا من الصدقة، وينفقوا ما أنفقوا من المال في سبيل الله، ويقال: يعملون ما عملوا من الخيرات، ومع ذلك قلوبهم خائفة أنهم إلى ربهم راجعون في الآخرة فلا يقبل منهم [4].

---

(١) انظر: صفوة التفاسير، الصابوني ٢/ ٢٨٦.

(٢) أخرجه أحمد في مسنده، ٤٢/ ١٥٦، رقم ٢٥٢٦٣، والترمذي في سننه، أبواب التفسير، باب ومن سورة المؤمنون، ٥/ ٣٢٧، رقم ٣١٧٥.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، ١/ ٣٠٤، رقم ١٦٢.

(٣) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ٤/ ٢٤٧٣.

(٤) تنوير المقباس من تفسير ابن عباس ص٢٨٨.

٤. الإنفاق في سبيل الله والعفو عن الناس.

وهذه صفتان اتصف به هؤلاء، لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾﴾ [آل عمران:١٣٤].

والمعنى: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ﴾ أي: في حال الرخاء واليسر، ﴿وَٱلضَّرَّآءِ﴾ أي: في حال الضيقة والعسر، وإنما افتتح بذكر الإنفاق لأنه أشق شيء على النفس، فمخالفتها فيه منقبة شامخة، وقوله: ﴿وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ﴾ أي: الممسكين عليه في نفوسهم، الكافين عن إمضائه مع القدرة عليه، اتقاء التعدي فيه إلى ما وراء حقه، وقوله: ﴿وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ﴾ أي: ظلمهم لهم، ولو كانوا قد قتلوا منهم، فلا يؤاخذون أحدا بما يجني عليهم، ولا يبقى في أنفسهم موجدة، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ﴾ [الشورى:٣٧].

وقوله: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ عبر عنهم بالمحسنين إيذانًا بأن النعوت المعدودة من باب الإحسان الذي هو الإتيان بالأعمال على الوجه اللائق الذي هو حسنها الوصفي المستلزم لحسنها الذاتي، والجملة تذييل مقرر لمضمون ما قبلها[1].

٥. إذا عصوا سرعان ما يتوبون.

كل بني آدم خطاء وخير الخطائين التوابون، ولا معصوم بعد النبي صلى الله عليه وسلم ولكن المسارع إلى الخيرات إذا عصى الله سبحانه وتعالى تذكر فخاف، وأقلع وأناب إلى رب الأرباب.

قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾﴾ [آل عمران:١٣٥].

٦. اغتنام الكنوز الربانية.

يغتنم المسارعون في الخيرات كل ما يجلب لهم الأجر والثواب، وكثرة الحسنات، كالتكبير والحمد والتسبيح والتهليل وكثير من أوجه الخير، فمثلًا الاسراع إلى حمد الله سبحانه وتعالى وشكره على نعمه ورحمته بهم.

قال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ ۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾﴾ [فاطر:٣٤].

والمعنى: «أنهم لما أعطوا ما أعطوه زال عنهم ما كانوا فيه قبل من هول الموقف ومن خشية العقاب بالنسبة للسابقين والمقتصدين ومما كانوا فيه من عقاب بالنسبة لظالمي أنفسهم، وجملة ﴿إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾ استئناف ثناءٍ على الله شكروا به نعمة

(١) انظر: محاسن التأويل، القاسمي ٢/ ٤١٣.

السلامة، أثنوا عليه بالمغفرة لما تجاوز عما اقترفوه من اللمم وحديث الأنفس ونحو ذلك مما تجاوز الله عنه بالنسبة للمقتصدين والسابقين، ولما تجاوز عنه من تطويل العذاب وقبول الشفاعة بالنسبة لمختلف أحوال الظالمين أنفسهم، وأثنوا على الله بأنه شكورٌ لما رأوا من إفاضته الخيرات عليهم ومضاعفة الحسنات مما هو أكثر من صالحات أعمالهم»[(١)].

وقول رسول الله صلى الله عليه وسلم **(من قال سبحان الله وبحمده غرست له نخلة في الجنة)**[(٢)].

٧. فعل الواجبات والمستحبات وبعض المباحات وترك المحرمات والمكروهات.

قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾﴾ [فاطر: ٣٢].

قال ابن كثير في الآية: الله سبحانه وتعالى جعل القائمين بالكتاب العظيم، المصدق لما بين يديه من الكتب، والذين اصطفيناهم من عبادنا، وهم هذه الأمة، مقسمين إلى ثلاثة أنواع، فقال: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ﴾ وهو: المفرط في فعل بعض الواجبات، المرتكب لبعض المحرمات، ﴿وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ﴾ وهو: المؤدي للواجبات، التارك للمحرمات، وقد يترك بعض المستحبات، ويفعل بعض المكروهات، ﴿وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ وهو: الفاعل للواجبات والمستحبات، التارك للمحرمات والمكروهات وبعض المباحات، فالسابق بالخيرات: يدخل الجنة بغير حساب، والمقتصد: يدخل الجنة برحمة الله، والظالم لنفسه: يدخل الجنة بشفاعة محمد صلى الله عليه والسلام[(٣)].

وذكر سيد قطب في كتابه: « إن الله سبحانه وتعالى في هذه الآية قد أكرم هذه الأمة بالاصطفاء للوراثة، ثم أكرمها بفضله في الجزاء حتى لمن أساء: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾.

فالفريق الأول: ولعله ذكر أولًا لأنه الأكثر عددا ﴿ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ﴾ تربى سيئاته في العمل على حسناته.

والفريق الثاني: وسط ﴿مُقْتَصِدٌ﴾ تتعادل سيئاته وحسناته.

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٢/ ٣١٦.
(٢) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب الدعوات، ٥/ ٣٨٨، رقم ٣٤٦٥.
قال الترمذي حسن غريب.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، ٢/ ١٠٩٧، رقم ٦٤٢٩.

(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم ٦/ ٥٤٦.

والفريق الثالث: ﴿سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ تربى حسناته على سيئاته، ولكن فضل الله سبحانه وتعالى شمل الثلاثة جميعًا فكلهم انتهى إلى الجنة وإلى النعيم الموصوف في الآيات التالية على تفاوت في الدرجات»[1].

٨. علو الهمة.

همة هؤلاء عالية، يفعلون الخيرات دون كلل ولا ملل، لقوله تعالى: ﴿رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ ﴿٣٧﴾﴾ [النور:٣٧].

وقوله تعالى: ﴿وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾ [المطففين:٢٦].

وعن أبي هريرة، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (المؤمن القوي، خيرٌ وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كلٍ خيرٌ احرص على ما ينفعك، واستعن بالله ولا تعجز، وإن أصابك شيءٌ، فلا تقل لو أني فعلت كان كذا وكذا، ولكن قل قدر الله وما شاء فعل، فإن لو تفتح عمل الشيطان)[2].

٩. الاهتمام بالقلب.

المسارع إلى الخيرات يحرص علي تنقية القلب من الشوائب ويجعلها عامرة بذكر الله عز وجل وطالما الخوف موجود في قلوبهم، يدفعهم إلى عمل الاكثار من الصالحات، وأداء العبادات، لقوله تعالى: ﴿وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾ [المؤمنون:٦٠].

١٠. المراقبة.

المسارع إلى الخيرات يراقب الله في كل حركات هو سكناته، في السر والعلانية، لا يرضى أن يكون الله سبحانه وتعالى أهون الناظرين إليه، وقد وعد الله هؤلاء بجنات النعيم، لقوله تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٧﴾﴾ [الرحمن:٤٦-٤٧].

والمعنى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ﴾ أي: «مقامه بين يدي ربه للحساب، فترك المعصية والشهوة، قال مجاهد: هو الذي يهم بالمعصية فيذكر الله، فيدعها، ﴿جَنَّتَانِ﴾ قال مقاتل يعني: جنة عدن وجنة النعيم.

وقال الضحاك: هذا لمن راقب الله في السر والعلانية بعمله، فما عرض له من محرم تركه من خشية الله، وما عمل من خير أفضى به إلى الله، لا يحب أن يطلع عليه أحد فله جنتان»[3].

ويستفاد من ذلك: حرص المؤمنين على التحلي بهذه الصفات، وعليهم أن يربوا أنفسهم ليكونوا من المسارعين في

(١) في ظلال القرآن ٥/ ٢٩٤٤.
(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب القدر، باب في الأمر بالقوة وترك العجز، ٤/ ٢٠٥٢، رقم ٢٦٦٤.
(٣) انظر: الوسيط، الواحدي ٤/ ٢٢٥.

الخيرات، فعليهم الإكثار من ذكر الله، ومصاحبة المسارعين في الطاعات، واغتنام الوقت، ومعرفة قدر الدنيا بالنسبة للآخرة، والمجاهدة، وغيرها.

ثواب المسارعين في الخيرات

المؤمن الفطن يعلم أن أنفاسه معدودةٌ، وساعات إقامته في الدنيا محدودةٌ، ويدرك أن الحياة فرصٌ، من اغتنم هذه الفرص وعمل الصالحات، فاز وسعد في الدنيا والآخرة، ومن ضيعها خاب وخسر، وقد حدث ابن عباسٍ رضي الله عنهما قائلًا: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لرجلٍ وهو يعظه: **(اغتنم خمسًا قبل خمس: شبابك قبل هرمك، وصحتك قبل سقمك، وغناك قبل فقرك، وفراغك قبل شغلك، وحياتك قبل موتك)**[1].

والله سبحانه وتعالى يعطي كل واحد على قدر أعماله، ويكافئه ويجازيه الجزاء الحسن، كيف وإن كانوا من الحرصين كل الحرص على فعل الخيرات، بل والمسارعين إليها؟

فالأجر والثواب عظيم لهم في الدنيا والآخرة، لقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡوَٰرِثُونَ ۝١٠﴾ [المؤمنون:١٠].

وهذا وعد الله سبحانه وتعالى الصادق، بل القرار الأكيد بفلاح المؤمنين، وعد الله

(١) أخرجه النسائي في الكبرى، ١٠/ ٤٠٠، رقم ١١٨٣٢، والحاكم في المستدرك، ٤/ ٣٤١، رقم ٧٨٤٦.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، ١/ ٢٤٤، رقم ١٠٧٧.

لا يخلف الله وعده وقرار الله لا يملك أحد رده، الفلاح في الدنيا والفلاح في الآخرة، فلاح الفرد المؤمن وفلاح الجماعة المؤمنة، الفلاح الذي يحسه المؤمن بقلبه ويجد مصداقه في واقع حياته والذي يشمل ما يعرفه الناس من معاني الفلاح، وما لا يعرفونه مما يذخره الله لعباده المؤمنين [1].

والله مطلع على كل شيء، فلن يضيع أجر العاملين، لقوله تعالى: ﴿وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ۝١١٥﴾ [آل عمران:١١٥].

والمعنى: لن يحرموا ثوابه ولن يمنعوه، وسمى إيصال الثواب شكرا في قوله: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة:١٥٨].

ثم ختم الكلام بقوله: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ﴾ مع أنه عالم بكل الأشياء بشارة لهم بجزيل الثواب، ودلالة على أنه لا يفوز عنده بالكرامة إلا أهل التقوى، وتنبيهًا على أن الملتزم لوعدهم هو معبودهم الحق القادر الغني الحميد الخبير الذي لا غاية لكرمه ولا نهاية لعلمه، فما ظنك بمثيب هذا شأنه؟ [2].

وقوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [آل عمران:١٩٩].

يعني: ﴿أُولَٰئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ﴾ ثواب أعمالهم، ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ يؤتونه مرتين، ﴿إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ يحاسب الخلق في قدر نصف نهار من أيام الدنيا [3].

وقوله تعالى أيضًا: ﴿لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ۝٥١﴾ [إبراهيم:٥١].

وسنتناول بيان ثواب المسارعين في الخيرات في كلٍ من الدنيا والآخرة.

أولًا: ثواب المسارعين في الخيرات في الدنيا:

لهم ثوابٌ جزيلٌ ينالونه من الخير والنصر والسعادة والهناء وراحة البال والتوفيق والمتاع الطيب في الأرض، والرحمة، والمغفرة، وهذا أقل ما يستحقونه من الله عز وجل جزاء أعمالهم.

فالمسارعة في الخير تتطلب أن يتدرج الإنسان في ازدياد المعرفة بفضله، واختياره والسرور بتعاطيه، وتقدمه على الأمور الدنيوية، وأن لا يتأخر عن أول وقت إمكان فعله للخيرات، وعلى ذلك قوله تعالى: ﴿سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [الحديد:٢١].

وقوله تعالى: ﴿۞ وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [آل عمران:١٣٣].

فالله سبحانه وتعالى في هذه الآية

(١) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ٤/ ٢٤٥٤.
(٢) انظر: غرائب القرآن ورغائب الفرقان، النيسابوري ١/ ٢٤١.
(٣) انظر: تفسير الجلالين، المحلي والسيوطي ص ٩٦.

ندبهم إلى المبادرة للخيرات والمسارعة إلى فعلها؛ لنيل القربات، والفوز بمغفرته ورضوانه، ويحققون ما وعدهم الله عز وجل به من السعادة والهناء.

وقوله تعالى أيضًا: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَهُمۡ لَهَا سَٰبِقُونَ ٦١﴾ [المؤمنون:٦١].

والمعنى: السابق إلى رضوان الله تعالى، وقيل: سبقت لهم السعادة في الأزل، وقيل: سبقوا الأمم إلى الخيرات[١].

ومدح تعالى قومًا فقال عنهم في كتابه العزيز: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ١٠﴾ [الواقعة:١٠].

أي: يسابقون بهممهم وأبدانهم، فلذلك كرره، ولمراعاة المسارعة وكون بعض المسارعين أعلى منزلة من بعض[٢].

وهذا المدح لكونهم استجابوا لأمر الله سبحانه وتعالى بفعل الخيرات والمسارعة والمسابقة في أدائها، فيستحقون من الله عز وجل الثواب العظيم والجزيل على ما قاموا به مغفرة لذنوبهم، وتطهيرًا لقلوبهم، لقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغۡفِرَةٞ مِّن رَّبِّهِمۡ﴾ [آل عمران:١٣٦].

والمعنى: أولئك السعداء المستغفرون المتذكرون التائبون الآيبون الخائفون الراجون جزاؤهم مغفرةٌ ستر ومحو لآثامهم عطاء من ربهم وامتنانًا منه عليهم لإخلاصهم في الانابة والرجوع.

وقوله تعالى أيضًا: ﴿۞قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ٥٣﴾ [الزمر:٥٣].

ونصرًا وغلبةً على أعداء الدين، وفتحًا قريبًا من الله عز وجل لقوله تعالى: ﴿وَأُخۡرَىٰ تُحِبُّونَهَاۖ نَصۡرٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتۡحٞ قَرِيبٞۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٣﴾ [الصف:١٣].

ولهم الخيرات بكل ما تشمله كلمة خير، لقوله تعالى: ﴿لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ جَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡخَيۡرَٰتُۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ٨٨﴾ [التوبة:٨٨].

والمعنى: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡخَيۡرَٰتُ﴾ يعني: «الإشارات إلى الموصوفين بالأوصاف السابقة، أي أولئك الذين كانوا مع الرسول، ولزموه في جهاده، ولم يتخلفوا عنه، وأحبوا الله تعالى وبذلوا أموالهم وأنفسهم، ولم يريدوا شيئا إلا إرضاء الله، لهم الخيرات، والخيرات جمع خير، وعبر بالجمع للدلالة على كثرة ما يمنحهم الله من خير وتنوعه، فخير في الرزق، وخير في نيل المطالب، وخير في النصرة، وخير في العزة، وخير في منع تحكم الأعداء، وخير في رضا الله تعالى، وخير في صلاح الولد، وخير في

(١) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ٤/ ١٤٨، معالم التنزيل، البغوي ٥/ ٤٢٢.
(٢) تفسير الراغب الأصفهاني ٢/ ٨٠٩.

الهداية... إلى آخره من الخيرات في الدنيا، والخير الأكبر في الآخرة»[1].

وفي تكرار الإشارة إلى الرسول والمؤمنين المجاهدين في قوله تعالى: ﴿وَأُولَٰئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ تأكيد للتنويه بهم، وتقرير لدرجتهم العالية، ومنزلتهم الكريمة التي أنزلهم الله إياها.. كما أن في ذلك إشارة إلى أن مقامهم هذا الرفيع الذي هم فيه، لا تبلغه الإشارة التي يقصر عنها النظر، وأنه لكي يمكن أن يرتفع النظر إلى هذا المستوى، ينبغي أن يكون ذلك على مراحل يقطعها صعودًا في الوصول إليهم[2].

وإذا ما توجهوا إلى الله عز وجل بالدعاء، أجابهم الله عز وجل وأعطاهم ما يتمنون ويستحقونه ثوابًا من عنده، وعطاءً لا ينتهي، لقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ۝٨﴾ [آل عمران:٨].

فهم في رحمة الله عز وجل خالدون، لقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ۝١٠٧﴾ [آل عمران:١٠٧].

ومهتدون إلى الطريق المستقيم، ألا وهو طريق الاسلام الذي هو بمنزلة نجاةٍ وفوزٍ وفلاح في الدنيا والآخرة، لقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ۝١٧٥﴾ [النساء:١٧٥].

وقوله: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ﴾ أي: وحدوه في ربوبيته، ﴿وَاعْتَصَمُوا﴾ أي: تمسكوا بدينه أو بكتابه، وقوله: ﴿فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِّنْهُ﴾ وهي الجنة، وفضلٍ: النظر لوجهه الكريم، وقيل: ﴿فِي رَحْمَةٍ﴾ أي: ثواب قدره بإزاء إيمانه وعمله، رحمة منه، لا قضاء لحق واجب، وفضل إحسان زائد عليهما، وقيل: سيحفظ عليهم إيمانهم في المآل عند التوفي، كما أكرمهم به وبالعرفان في الحال، وقوله: ﴿وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ﴾ أي: إلى الوصول إليه، ﴿صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ وهو طريق السير الذي لا اعوجاج فيه، العلم والعمل، وقيل: هو الإسلام والطاعة في الدنيا، وطريق الجنة في الآخرة[3].

ثانيًا: ثواب المسارعين في الخيرات في الآخرة:

يجد هؤلاء في الآخرة من النعيم ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب أحد منهم، جزاءً لهم من الله سبحانه وتعالى على أعمالهم، والله لا يضيع أجر من أحسن

(١) زهرة التفاسير، أبو زهرة ٧/ ٣٤٠٥.
(٢) انظر: التفسير القرآني للقرآن، الخطيب ٥/ ٨٦٣.
(٣) انظر: البحر المديد، ابن عجيبة ١/ ٥٩٩، روح البيان، إسماعيل حقي ٢/ ٣٣٣.

عملًا، وقد وعدهم الله عز وجل بذلك والله لا يخلف وعده، لقوله تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾﴾ [التوبة:٧٢].

بشرهم الله سبحانه وتعالى بالجنات رزقًا لهم، ومكافئةً على أعمالهم، وترغيبًا للآخرين، ليفوزوا بما فاز به هؤلاء، لقوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُوا هَٰذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [البقرة:٢٥].

والمعنى: لما ذكر تعالى جزاء الكافرين عقب بجزاء المؤمنين، ليجمع بين الترغيب والترهيب والوعد والوعيد، كما هي عادته سبحانه في كتابه العزيز، لما في ذلك من تنشيط عباده المؤمنين لطاعاته، وتثبيط عباده الكافرين عن معاصيه، والتبشير: الإخبار بما يظهر أثره على البشرة، وهي الجلدة الظاهرة، من البشر والسرور، فبشرهم بالجنة، والجنة تنال بالإيمان والعمل الصالح، والجنات: البساتين، وهو اسمٌ لدار الثواب كلها وهي مشتملةٌ على جناتٍ كثيرةٍ، وقوله: ﴿كُلَّمَا رُزِقُوا﴾ وصفٌ آخر للجنات، وقوله: ﴿هَٰذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ﴾ أنه شبيهه ونظيره، لا أنه هو، والمراد أنهم أتوا بما يرزقونه في الجنة متشابهًا فما يأتيهم في أول النهار يشابه الذي يأتيهم في آخره، فيقولون: هذا الذي رزقنا من قبل، فإذا أكلوا وجدوا له طعمًا غير طعم الأول، والمراد بتطهير الأزواج أنه لا يصيبهن ما يصيب النساء من قذر الحيض والنفاس وسائر الأدناس التي لا يمتنع تعلقها بنساء الدنيا، والخلود: البقاء الدائم الذي لا ينقطع[1].

وقوله تعالى: ﴿۞ وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ جَنَّاتٍ مَّعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُوا مِن ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴿١٤١﴾﴾ [الأنعام:١٤١].

وقوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ جَزَاؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴿١٣٦﴾﴾ [آل عمران:١٣٦].

والمعنى: « لما أتم الله سبحانه وتعالى وصف السابقين وهم المتقون، واللاحقين وهم التائبون في الآيات السابقة، قال معلمًا بجزائهم الذي سارعوا إليه من المغفرة، والجنة مشيرًا إليهم بأداة البعد

(١) انظر: فتح القدير، الشوكاني ١/ ٦٥.

تعظيمًا لشأنهم على وجه معلم بأن أحدًا لا يقدر الله حق قدره، وقوله:﴿جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ﴾ أي: لتقصيرهم أو لهفواتهم أو لذنوبهم، وعظمها بقوله:﴿مِّن رَّبِّهِمْ﴾ أي: المحسن إليهم بكل إحسان، وأتبع ذلك للإكرام فقال:﴿وَجَنَّٰتٌ﴾ أي جنات، ثم بين عظمها بقوله:﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ حال كونكم ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ وهي أجرهم على عملهم، لقوله: ﴿وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ﴾ وذلك على تقدير أن الإشارة لجميع الموصوفين، وإن كانت للمستغفرين خاصة فالأمر واضح في نزول رتبتهم عمن قبلهم »[1].

وقوله تعالى أيضًا: ﴿سَابِقُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢١﴾﴾ [الحديد:٢١].

أي: سابقوا أيها الناس وسارعوا إلى الأعمال الصالحة التي توجب لكم دخول جنة سعتها كسعة السماوات والأرض خالدين فيها أعدت للذين آمنوا بالله ورسله، وقيل: عرضها الذي هو خلاف الطول مثل عرض السماوات والأرضين إذا وصل كل سماء بسماء وكل أرض بأرض، ثم قال:﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾ أي: هذه الجنة التي تقدمت صفتها فضل من الله تفضل به على المؤمنين، والله يؤتي فضله من يشاء من خلقه، وهو ذو الفضل العظيم عليهم بما وفقهم له من الإيمان به والعمل الصالح وبسط لهم من الرزق، وعرفهم موضع الشكر[2].

وقال تعالى أيضًا: ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٨٩﴾﴾ [التوبة:٨٩].

والمعنى: هذا بعض الفلاح الذي ذكره الله سبحانه وتعالى وهو أنه أعد لهم جنات تجري من تحتها الأنهار، أي أن الله تعالى أعطاهم نعيمًا فيه ثلاث خواص كلها يزكي بعضها بعضا:

أولها: أنها جنات، وهي جمع جنة فيها الأشجار التي تظل من الحرور، وتتمتع النفس برؤيتها، وبهجتها، وفيها الثمار اليانعة، وفيها من كل فاكهة ما يشتهون، وفيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، ففيها متعة النفس والجسم والروح.

الثاني: أن الأنهار تجري من تحتها تدفع الحرور، وتسقى النفوس والأجسام، ويكون التمتع ببهجتها ومنظرها.

الثالث: أنها خالدة، ففي كل نعيم غير

(١) نظم الدرر، البقاعي ٥/ ٧٥.

(٢) انظر: الهداية إلى بلوغ النهاية، مكي بن أبي طالب ١١/ ٧٣٢٨.

باق يكون الألم بفنائه وانتهائه، أما نعيم الجنة، فهو للبقاء.

ختم الله تعالى الآية بقوله: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ الإشارة إلى هذا النعيم المقيم، وقصر الفوز عليه، أي فلا فوز غيره، فما يحسبه في الدنيا من أسباب الفوز إنما هو باطل لا يجوز، والله تعالى أعلم بما يجزي به عباده المتقين[1].

وقد وصف الله سبحانه وتعالى ما يجده هؤلاء في الجنة من النعيم الدائم في كثير من آياته وصفًا دقيقًا واضحًا مفصلًا، منها قوله تعالى: ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٣٣﴾﴾ [فاطر: ٣٣].

وقوله تعالى: ﴿أُولَٰٓئِكَ لَهُمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ ۚ نِعْمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٣١﴾﴾ [الكهف: ٣١].

وقوله تعالى أيضًا: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٢٣﴾ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ ﴿٢٤﴾ يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ﴿٢٥﴾ خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ ۚ وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ ﴿٢٦﴾ وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ ﴿٢٧﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [المطففين: ٢٢-٢٨].

وقوله: ﴿لَفِى نَعِيمٍ﴾: جائز أن يكون هذا في الآخرة، يصفهم أنهم أبدًا في نعيم، وجائز أن يكونوا في نعيم في الدنيا والآخرة معًا؛ فيكونون في الدنيا في نعيم العقول دون نعيم الأبدان، ونعيم الآخرة نعيم البدن والعقل جميعًا، فتتنعم أنفسهم وعقولهم، ولا يحملون ما تأبى أنفسهم احتماله.

وقوله: ﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ﴾ فأرائك الجنة ليست شبيهة بالأرائك التي تتخذ في الدنيا؛ لأن أرائك الجنة مطهرة من الآفات التي هي آثار الفناء، والأريكة: هي السرير في الحجال.

وقوله: ﴿تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ﴾ أي: تعرف لو نظرت في وجوههم نضرة النعيم، فجائز أن تكون النضرة منصرفة إلى نفس الخلقة، وهو أنهم أنشئوا على خلقة لا تتغير، ولا تفنى، بل بهجة نضرة، أو تكون نضارتهم بما أنعموا من النعيم.

وقوله: ﴿يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ﴾ قال بعضهم: الرحيق: هو الخمر الذي لا غش فيه، وهو أن يكون مطهرًا من الآفات، وقيل: هو شيء أعده الله سبحانه وتعالى لأوليائه، لم يطلعهم على ما يتهيأ في الدنيا، فهو شراب تقر به أعينهم مما أخفي لهم إلى الوقت الذي يشربونه.

وقوله: ﴿خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ ۚ وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ﴾ جائز أن يكون أراد به الشراب الذي وصفه في قوله: ﴿رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ﴾،

---

(١) انظر: زهرة التفاسير، أبو زهرة ٧/ ٣٤٠٦.

كأنه يقول: فليرغبوا في الشراب الذي هذا وصفه، الذي لا غول فيه ولا هم ينزفون، لا في الشراب الذي يذهب بالعقول، ويضعف الأبدان، ويتلف الأموال، أو فليتنافسوا في النعيم الذي وصف هاهنا، لا في النعيم الذي ينقطع ولا يدوم.

وقيل: ﴿خِتَٰمُهُۥ مِسۡكٞ﴾ ما بقي في الكأس من البقية يكون ذلك مسكا، والتنافس إنما يكون في المسارعة في الخيرات، وترك الاتباع للشهوات، والانتهاء عن المعاصي، وهو كقوله: ﴿لِمِثۡلِ هَٰذَا فَلۡيَعۡمَلِ ٱلۡعَٰمِلُونَ ٦١﴾ [الصافات:٦١].

أي: فليكن عملهم بما يثمر لهم ما ذكر من النعيم، لا في الذي ينقطع، وتكون عقباه النار، وقوله: ﴿وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسۡنِيمٍ﴾ قيل: التسنيم: شيء أعده الله سبحانه وتعالى لأوليائه، لم يطلعهم عليه في الدنيا، وهو من قرة الأعين التي لا تعلمها الأنفس.

وقوله: ﴿عَيۡنٗا يَشۡرَبُ بِهَا ٱلۡمُقَرَّبُونَ﴾ أي: المقربون هم الذين يسارعون في الخيرات في الدنيا، فتركوا منى الأنفس، واتقوا المهالك والزلات، فهم المقربون، فنالوا فضل التقريب بما أجهدوا أنفسهم في الدنيا، للأمور التي فعلوها[1].

وقوله تعالى أيضًا: ﴿وَكُنتُمۡ أَزۡوَٰجٗا ثَلَٰثَةٗ ٧ فَأَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ ٨ وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ ٩ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ١٠ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡمُقَرَّبُونَ ١١﴾ [الواقعة:٧-١١].

والمعنى: أصنافًا ثلاثةً كل صنفٍ يشاكل ما هو منه، كما يشاكل الزوج الزوجة، ثم بين من هم فقال: ﴿فَأَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ﴾ ﴿وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ﴾ ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ﴾، فأصحاب الميمنة هم الذين يؤخذ بهم ذات اليمين إلى الجنة، وأصحاب المشأمة هم الذين يؤخذ بهم ذات الشمال إلى النار، والتكرير في ﴿مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ﴾. و ﴿مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ﴾ للتفخيم والتعجيب، والمقصود تكثير ما لأصحاب الميمنة من الثواب ولأصحاب المشأمة من العقاب.

و ﴿فَأَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ﴾ ما هم، المعنى: أي شيء هم، هم الذين يعطون كتابهم بأيمانهم هم أصحاب التقدم وعلو المنزلة.

وقوله: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ﴾ قد سبق الاشارة إلى معناها بالتفصيل، ونكتفي هنا بذكر أنهم السابقون إلى طاعة الله هم السابقون إلى رحمة الله، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡمُقَرَّبُونَ﴾ من صفتهم، وقيل: إذا خرج رجلٌ من السابقين المقربين من منزله في الجنة كان له ضوءٌ يعرفه به من دونه[2].

---

(١) انظر: تأويلات أهل السنة، الماتريدي ١٠/ ٤٦٣.

(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٧/ ٢٠٠.

إذًا المؤمنون حقًا هم الذين يرثون الجنة بكل ما فيها من نعيم، كما ذكر آنفًا، لقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ۝١٠ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۝١١﴾ [المؤمنون:١٠-١١].

موضوعات ذات صلة

الجنة، الخير، العبادة، المسابقة



عناصر الموضوع

مفهوم المسجد	٤٤
المسجد في الاستعمال القرآني	٤٥
الالفاظ ذات الصلة	٤٦
حكمة إقامة المساجد	٤٨
مساجد ذكرت في القرآن	٥٠
أحكام المساجد	٦٠
عمارة المساجد وهدمها	٦٥

مفهوم المسجد

أولًا: المعنى اللغوي:

المسجد في اللغة: مأخوذ من الفعل (سجد) على وزن (فعل)، قال سيبويه: «وأما المسجد فإنه اسم للبيت، ولست تريد به موضع السجود وموضع جبهتك، لو أردت ذلك لقلت مسجدٌ»[(١)]، وقال ابن الأعرابي: «مسجد»، بفتح الجيم، محراب البيوت، ومصلى الجماعات: مسجد بكسر الجيم، والمساجد: جمعها. والمساجد أيضًا: الآراب التي يسجد عليها. والآراب السبعة: مساجد»[(٢)].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

المسجد جمعه مساجد، وقد عرفت المساجد في الاصطلاح بتعريفات عدة هي:

- أن المساجد اسم للأبنية المتخذة في الإسلام للصلاة[(٣)].
- أنها «البيوت المبنية للصلاة فيها لله فهي خالصةٌ له سبحانه ولعبادته»[(٤)].
- أنها «كل موضع يمكن أن يعبد الله فيه ويسجد له»[(٥)].
- قال القرطبي: «أجمعت الأمة على أن البقعة إذا عينت للصلاة بالقول خرجت عن جملة الأملاك المختصة بربها وصارت عامة لجميع المسلمين، فلو بنى رجل في داره مسجدًا وحجزه على الناس، واختص به لنفسه لبقي على ملكه ولم يخرج إلى حد المسجدية، ولو أباحه للناس كلهم كان حكمه حكم سائر المساجد العامة، وخرج عن اختصاص الأملاك»[(٦)].

ويمكن القول أن المساجد هي: بيوت الله تعالى المتخذة لعبادة المسلمين وبخاصة الصلاة والموقوفة لهذا الغرض.

(١) الكتاب، سيبويه ٤/ ٩٠.
(٢) تهذيب اللغة، الأزهري ١٠/ ٣٠١.
(٣) نزهة الأعين النواظر، ابن الجوزي ص٥٦٨.
(٤) مدارك التنزيل، النسفي ٣/ ٥٥٢.
(٥) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٢/ ٧٨.
(٦) المصدر السابق ٢/ ٧٨.



المسجد في الاستعمال القرآني

وردت كلمة (مسجد) في القرآن بصيغتين، بلغت(٢٨) مرة[١].

والصيغ التي وردت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
اسم مفرد	٢٢	﴿فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾[البقرة:١٤٤]
اسم جمع	٦	﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ﴾ [البقرة:١١٤]

وجاء المسجد في الاستعمال القرآني على وجهين[٢]:

أحدهما: اسم لموضع السجود، وهو اسم للأبنية المتخذة في الإسلام للصلاة: ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا﴾ [الحج: ٤٠].

الثاني: أعضاء الإنسان التي يسجد عليها: ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾﴾ [الجن: ١٨]. أي: أعضاء السجود هي لله، فلا تسجدوا بها لغيره.

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي ص٣٤٥.
(٢) انظر: نزهة الأعين النواظر، ابن الجوزي ص٥٦٧-٥٦٩.

الألفاظ ذات الصلة

١ الصوامع:

الصوامع لغة:

«الصوامع جمع صومعة، وزنها فوعلة، وهي بناء مرتفعٌ لأعلى، يقال: صمع الثريدة أي: رفع رأسها وحدده، ورجل أصمع القلب أي: حاد الفطنة. والأصمع من الرجال الحديد القول، أو الصغير الأذن من الناس وغيرهم. وكانت قبل الإسلام مختصة برهبان النصارى وبعباد الصابئين- قاله قتادة- ثم استعمل في مئذنة المسلمين»[١].

وذكرت بعض المعاجم المعاصرة أن الصوامع تطلق على معان أشهرها أنها الأديرة أو بيوت العبادة عند النساك والرهبان النصارى الذين يتخذونها في الأماكن النائية[٢].

الصوامع اصطلاحًا:

الصوامع: قال ابن عباس: هي المعابد الصغار للرهبان، وكذا قاله مجاهد وأبو العالية وعكرمة والضحاك[٣].

الصلة بين الصوامع والمساجد:

الصوامع والمساجد كلها أماكن التعبد لله عز وجل، لكن الصوامع كما قال ابن عباس: هي المعابد الصغار للرهبان، أما المساجد التي عند المسلمين فهي أماكن التعبد للمسلمين أجمعين.

٢ الصلوات:

الصلوات اصطلاحًا:

قيل: هذه اللفظة معربة؛ لذا لم نتطرق للمعنى اللغوي لها، واختلف في نسبتها فنسبها بعضهم لليهود، ونسبها بعضهم للنصارى، قال الزجاج والحسن: هي كنائس اليهود، وهي بالعبرانية صلوتا، وقال أبو عبيدة: «الصلوات بيوت تبنى للنصارى في البراري يصلون فيها في أسفارهم، تسمى صلوتا فعربت فقيل صلوات»[٤].

---

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٢/ ٧١.

(٢) انظر: معجم اللغة العربية المعاصرة، أحمد مختار ٢/ ١٣٣٨.

(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ٤٣٢.

(٤) معاني القرآن، الزجاج ٣/ ٤٣٠، لسان العرب، ابن منظور ٨/ ٢٠٨، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٢/ ٧١.

الصلة بين الصلوات والمساجد:

الصلوات والمساجد كلها أماكن التعبد لله عز وجل، إلا أن المساجد أماكن التعبد لهذه الأمة، والصلوات لما قبلها من اليهود أو النصارى على الخلاف في ذلك.

٣ البيع:

البيع اصطلاحًا:

هي أوسع من الصوامع، وهي للنصارى. قاله أبو العالية وقتادة والضحاك وغيرهم، وقيل: إنها كنائس اليهود[١].

الصلة بين البيع والمساجد:

البيع والمساجد كلها أماكن التعبد لله عز وجل، إلا أن المساجد أماكن التعبد لهذه الأمة، والبيع لما قبلها من اليهود أو النصارى على الخلاف في ذلك.

---

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ٤٣٢.

حكمة إقامة المساجد

شرع الله سبحانه وتعالى إقامة المساجد لحكم سامية ومعان جليلة عالية، ولهذا كان بناؤها من فروض الكفايات أحيانا ومن فروض الأعيان أحيانًا أخرى بحسب الأحوال، كما ذكره بعض العلماء المعاصرين «يجب بناء المساجد في الأمصار والقرى والمحال ونحوها بحسب الحاجة فهو فرض كفاية»[1].

ولهذا نجد حث القرآن الكريم على بناء المساجد ورفعها ليقصدها المسلمون بالعبادة والعمارة، فتكون سببا في نيلهم الثواب العظيم.

قال الله تعالى: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ ﴿٣٧﴾ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٨﴾﴾ [النور: ٣٦ - ٣٨].

وذكر غير واحد من المفسرين أن المراد برفع المساجد في الآية هو بناؤها، فروي هذا عن مجاهد ومقاتل[2].

وجاء في آيات القرآن الكريم ما يبين طرفا من حكم بناء المساجد وإقامتها، وأبرز هذه الحكم ما يلي:

١ . إقامة المساجد لعبادة الله تعالى وحده وطاعته والتقرب إليه.

لما كانت المساجد هي بيوت الله تعالى المتخذة للعبادة بمختلف أنواعها من صلاة وذكر وتسبيح وقراءة قرآن وغيرها، فقد بين القرآن الكريم ضرورة مراعاة ذلك، وهي أن يفرد الله تعالى بالعبادة فلا يشرك به أحدٌ.

قال تعالى: ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾ [الجن: ١٨].

والمراد بها إفراد الله تعالى بالعبادة، فلا ينبغي أن يدعى غيره جل وعلا، وليس المقصود عدم الإشراك في المسجد فقط، بل هذا خرج مخرج الغالب، وإلا فإشراك أحد في العبادة لا يجوز في المسجد ولا خارج المسجد.

وهذه الآية فيها دليل على وجوب مخالفة اليهود والنصارى فيما كانوا يفعلونه في معابدهم من دعوة غير الله تعالى، فقد روي عن قتادة في معنى الآية قوله: «كانت اليهود والنصارى إذا دخلوا كنائسهم وبيعهم أشركوا بالله، فأمر الله نبيه أن يخلص له الدعوة إذا دخل المسجد»[3].

وقال الحسن: «ليس من قومٍ غير

(١) إصلاح المساجد من البدع والعوائد، القاسمي ص٢٦٣.

(٢) تفسير مجاهد ١/ ٤٩٣، تفسير مقاتل ٣/ ٢٠١، جامع البيان، الطبري ١٩/ ١٩٠.

(٣) جامع البيان، الطبري ٢٣/ ٦٦٥.

المسلمين يقومون في مساجدهم إلا وهم يشركون بالله فيها، فأخلصوا لله»[1].

ومن معالم الطاعة والعبادة: تسبيح وتلاوة القرآن.

قال الله تعالى: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴿٣٦﴾﴾ [النور:٣٦].

فقد روي عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ﴾ قال:«يتلى فيها كتابه»[2].

وروي عنه أيضا أن المراد بها توحيد الله في المساجد[3].

وقال جل شأنه: ﴿وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا﴾ [الحج: ٤٠].

قال بعض المعاصرين« فالمساجد أحب البقاع إلى الله، وهي قلعة الإيمان ومنطلق إعلان التوحيد لله سبحانه وتعالى، فهي المدرسة التي خرجت الجيل الأول، ولا زالت بحمد الله تخرج الأجيال، وهي ميدان العلم والشورى والتعارف والتآلف، إليها يرجع المسافر أول ما يصل إلى بلده شاكرا الله سلامة العودة مستفتحًا أعماله بعد العودة بالصلاة في المسجد إشعارا بأهميته وتقديمه على المنزل تذكيرا بنعمة الله سبحانه وتوثيقا للرابطة القوية للمسجد»[4].

ومن معالم الطاعة والعبادة إفراد الله تعالى وحده بالعبادة وحسن القصد إليه جل وعلا، إذ هو وحده المتفرد بذلك والمستحق لذلك.

قال تعالى: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾﴾ [الأعراف:٢٩].

وفي تأويل قوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ قولان مشهوران للعلماء:

أولهما: ما قاله الربيع: أنها في الإخلاص، بمعنى: أن لا تدعوا غير الله تعالى، وأن تخلصوا له الدين[5].

والثاني: ما قاله مجاهد والسدي وعبد الرحمن بن زيد: أن المراد بها التوجه للكعبة[6].

ومن معالم الطاعة أن المسجد الحرام خاصة يرتبط بعبادة الحج، فقد وضعه الله عز وجل لهذه العبادة التي تجمع بين البدن والمال، فالمسجد الحرام يقصده الناس من

---

(١) تفسير القرآن العزيز، ابن أبي زمنين ٥/ ٤٦ .
(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ١٩/ ١٩١، تفسير ابن أبي حاتم، ٨/ ٢٦٠٦.
(٣) انظر: النكت والعيون،للماوردي ٤/ ١٠٧، زاد المسير، ابن الجوزي ٣/ ٢٩٨.
(٤) المشروع والممنوع في المسجد، فالح الصغير ص٨.
(٥) جامع البيان، الطبري ١٢/ ٣٨١.
(٦) انظر: تفسير مجاهد ١/ ٣٣٥، جامع البيان، الطبري ١٢/ ٣٨٠-٣٨١.

كل حدب وصوب.

قال تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴿٩٦﴾﴾ [آل عمران: ٩٦].

٢. إقامة المساجد لنشر الترابط الاجتماعي بين المسلمين.

ولتكون مشعل هداية ومحل اجتماع المسلمين على هدف واحد، وكلمة واحدة، وشعيرة واحدة، فيتعلمون ويتدارسون، وتتربي في المسجد أجيال من المؤمنين أحسن تربية، وتنشأ أفضل نشأة، ولهذا حرص النبي عليه السلام على أن يكون المسجد أول بناء في الدولة الإسلامية.

مساجد ذكرت في القرآن

ورد في القرآن الكريم ذكر عدة مساجد على رأسها المسجدين المسجد الحرام والمسجد الأقصى تصريحًا، ثم مساجد المدينة المنورة (مسجد قباء، والمسجد النبوي، ومسجد الضرار) ولكن ليس على سبيل التصريح، وتعلقت بهذه المساجد أحكام شرعية وردت في القرآن الكريم، وبيان ذلك على النحو الآتي:

أولًا: المسجد الحرام:

ورد ذكر المسجد الحرام منصوصًا على اسمه في خمسة عشر موضعًا في القرآن الكريم، وورد باسم البيت مفردًا ومضافا في مواضع أخرى، ولكل موضع من هذه المواضع أحكامه على هذا النحو:

١. أول بيت وضع للناس.

البيت العتيق هو أول بيت وضع للناس في الأرض كما نصت عليه الآية الكريمة ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴿٩٦﴾﴾ [آل عمران: ٩٦].

وللمفسرين أقوال في معنى الأولية الواردة في الآية على هذا النحو:

القول الأول: أنه أول بيت وضع للناس، يعبد الله تعالى فيه، وليس هو أول بيت وضع في الأرض، لأنه قد كانت قبله بيوت كثيرة. وهذا ما روي عن علي والحسن وسعيد بن

المسيب وغيرهم[1].

القول الثاني: أنه أول بيت وضع مطلقًا بمعنى أول بناء، وهذا قول ابن عمرو ومجاهد وقتادة والسدي[2].

القول الثالث: أن موضع الكعبة هو موضع أول بيت وضعه الله تعالى في الأرض. وهو قول آخر لقتادة[3].

وفي الصحيحين عن أبي ذر الغفاري رضي الله عنه، قال: (قلت: يا رسول الله، أي مسجدٍ وضع في الأرض أول؟ قال: (المسجد الحرام) قال: قلت: ثم أيٌّ؟ قال (المسجد الأقصى) قلت: كم كان بينهما؟ قال: (أربعون سنةً، ثم أينما أدركتك الصلاة بعد فصله، فإن الفضل فيه)[4].

٢. قبلة المسلمين.

وذلك في ثلاثة مواضع في سورة البقرة في قصة تغيير القبلة.

قال الله تعالى:﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ١٤٤].

وقال جل شأنه:﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾[البقرة: ١٤٩].

وقال تعالى:﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٥٠].

والآيات الكريمة واردة في قصة تحويل القبلة من بيت المقدس إلى المسجد الحرام في العام الثاني من الهجرة على نحو ما هو مشهور في السنة النبوية والسيرة.

وفي الصحيح عن ابن عمر رضي الله عنهما، قال: (بينما الناس في صلاة الصبح بقباءٍ، إذ جاءهم آتٍ فقال: (إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أنزل عليه الليلة، وقد أمر أن يستقبل الكعبة، فاستقبلوها، وكانت وجوههم إلى الشأم، فاستداروا إلى القبلة)[5].

ولا خلاف بين فقهاء الأمة سلفًا وخلفًا

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٦/ ١٩-٢٠، النكت والعيون، الماوردي ١/ ٤١٠، زاد المسير، ابن الجوزي ١/ ٣٠٦.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ٦/ ٢٠-٢١، تفسير عبد الرزاق ١/ ٤٠٣، زاد المسير، ابن الجوزي ١/ ٣٠٦.

(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ٦/ ٢١.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الصلاة، رقم ٣٣٦٦، ومسلم في صحيحه، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، رقم ٥٢٠.

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب تفسير القرآن، باب (ومن حيث خرجت فول وجهك شطر المسجد الحرام)، رقم ٤٤٩٤.

على أن هذه الآيات دليل على فرضية استقبال القبلة في الصلاة على تفصيل معروف مبسوط في كتب الفروع حول كيفية الاستقبال لمن كان داخل المسجد الحرام أو خارجه، أو كان داخل مكة أو خارجها[(١)].

قال ابن رشد: «اتفق المسلمون على أن التوجه نحو البيت شرط من شروط صحة الصلاة لقوله تعالى: ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ [البقرة:١٥٠]»[(٢)].

«واختلف المفسرون في المقصود بشطر المسجد الحرام على قولين:

القول الأول: أن شطر المسجد الحرام أي تلقاءه. قاله مجاهد وقتادة والربيع بن أنس وسعيد بن جبير وعكرمة.

القول الثاني: أن المراد بالشطر هنا وسط المسجد الحرام. وهو قول البراء»[(٣)].

٣. تحريم القتال عنده.

نظرًا لمكانة البيت الحرام ومنزلته، فقد نهى القرآن الكريم عن القتال عنده نهيًا صريحًا في قول الله تعالى: ﴿وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة:١٥٠].

وقد ذهب بعض المفسرين إلى أن هذه الآية منسوخة بقول الله تعالى ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿١٩٣﴾﴾ [البقرة:١٩٣].

حيث روي هذا عن قتادة والربيع[(٤)].

وروي عن مجاهد وأكثر المفسرين أن الآية محكمة غير منسوخة، وأنه لا يجوز الابتداء بالقتال في الحرم[(٥)].

وللقراء وجهان في الآية حيث قرأ حمزة والكسائي: (ولا تقتلوهم)، :(حتى يقتلوكم) بغير الألف واللام من القتل، وقرأ الباقون بالألف من القتال، والمشهور الثاني[(٦)].

قال الطبري: «وأولى هاتين القراءتين بالصواب، قراءة من قرأ: **«ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه فإن قاتلوكم فاقتلوهم»** لأن الله تعالى ذكره لم يأمر نبيه صلى الله عليه وسلم وأصحابه في حالٍ إذا قاتلهم المشركون بالاستسلام لهم حتى يقتلوا منهم قتيلا بعد ما أذن له ولهم بقتالهم، فتكون القراءة بالإذن بقتلهم بعد أن يقتلوا منهم، أولى من القراءة بما اخترنا،

(١) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ١/ ٢٢٥، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٢/ ١٥٩.
(٢) بداية المجتهد، ابن رشد ١/ ١١٨.
(٣) انظر: تفسير ابن أبي حاتم ١/ ٢٥٤.
(٤) انظر: جامع البيان، الطبري ٣/ ٥٦٧، الكشف والبيان، الثعلبي ٢/ ٨٨.
(٥) انظر: جامع البيان، الطبري ٣/ ٥٦٧، الكشف والبيان، الثعلبي ٢/ ٨٨.
(٦) انظر: التيسير في القراءات السبع، الداني ص٨٠، مفاتيح الغيب، الرازي ٥/ ٢٩٠.

وإذا كان ذلك كذلك، فمعلومٌ أنه قد كان تعالى ذكره أذن لهم بقتالهم إذا كان ابتداء القتال من المشركين قبل أن يقتلوا منهم قتيلا وبعد أن يقتلوا منهم قتيلا، وقد نسخ الله تعالى ذكره هذه الآية بقوله: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ [البقرة: ١٩٣][1].

٤. تحريم الصد عنه.

ذم الله تعالى مشركي قريش بصدهم المسلمين عن المسجد الحرام، في مواضع من كتاب الله عز وجل، «والصد عن المسجد الحرام جريمة عظيمة يستحق فاعلها عذاب الدنيا قبيل عذاب الآخرة، لأنه يؤول إلى الصد عن التوحيد لأن ذلك المسجد بناه مؤسسه ليكون علما على توحيد الله ومأوى للموحدين، فصدهم المسلمين عنه، لأنهم آمنوا بإله واحد، صرف له عن كونه علما على التوحيد، إذ صار الموحدون معدودين غير أهل لزيادته، فقد جعلوا مضادين له، فلزم أن يكون ذلك المسجد مضادًا للتوحيد وأهله»[2].

وقد ذكرت قضية صد المشركين المسلمين عن المسجد الحرام في مواضع عدة من كتاب الله تعالى.

قال تعالى: ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَمَا كَانُوٓا۟ أَوْلِيَآءَهُۥٓ ۚ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [الأنفال: ٣٤].

وقال تعالى: ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ ۚ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ لَوْ تَزَيَّلُوا۟ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢٥﴾﴾ [الفتح: ٢٥].

والمعروف أن صد المشركين المسلمين عن المسجد الحرام كان في عام صلح الحديبية، وقد استوجبوا بذلك عذاب الله تعالى كما في آية الأنفال ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ [الأنفال: ٣٤].

قال النسفي في معناها: «﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ وكيف لا يعذبون وحالهم أنهم يصدون عن المسجد الحرام كما صدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عام الحديبية وإخراجهم رسول الله والمؤمنين من الصد وكانوا يقولون نحن ولاة البيت والحرم فنصد من نشاء وندخل من نشاء فقيل: ﴿وَمَا كَانُوٓا۟ أَوْلِيَآءَهُۥٓ﴾ وما استحقوا مع إشراكهم وعداوتهم للدين أن يكونوا

---

(١) جامع البيان، الطبري ٣/ ٥٦٨.

(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٩/ ٣٣٦.

ولاة أمر الحرم»[1].

وفي سورة الحج يقول المولى عز وجل ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ٱلَّذِى جَعَلْنَـٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلْعَـٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ ۚ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍۭ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٢٥﴾ [الحج: ٢٥].

وفسر الصد عن المسجد الحرام هنا بإخافة السبل، وبغصب المال الذي لو بقي في يد صاحبه لوصل به إلى المسجد الحرام[2].

وعلى الرغم من كون الصد عن المسجد الحرام جريمة كبيرة إلا أن الله تعالى نهى المسلمين عن الاعتداء أو البدء بالاعتداء، فقال جل شأنه: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ أَن تَعْتَدُواْ ۘ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾ [المائدة: ٢].

٥. حرمة دخول المشركين فيه.

حرم الله تعالى على المشركين دخول المسجد الحرام بمقتضى الآية الكريمة ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُواْ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَـٰذَا ۚ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝٢٨﴾ [التوبة: ٢٨].

(١) مدارك التنزيل، النسفي ١/ ٦٤٣.
(٢) لطائف الإشارات، القشيري ٢/ ٥٣٧.

على خلاف بين العلماء في المقصود بالنجاسة هنا هل هي النجاسة الحسية أو المعنوية، وهي نجاسة الشرك والعياذ بالله[3].

قال القرطبي في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾ «فسماه الله تعالى نجسًا، فلا يخلو أن يكون نجس العين أو مبعدًا من طريق الحكم، وأي ذلك كان فمنعه من المسجد واجب لأن العلة وهي النجاسة موجودة فيهم، والحرمة موجودة في المسجد»[4].

وفي الصحيحين عن حميد بن عبد الرحمن، أن أبا هريرة، أخبره: (أن أبا بكرٍ الصديق رضي الله عنه بعثه في الحجة التي أمره عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل حجة الوداع يوم النحر في رهطٍ يؤذن في الناس (ألا لا يحج بعد العام مشركٌ، ولا يطوف بالبيت عريانٌ)[5].

وفي الآية احتمالان ذكرهما بعض العلماء أولهما: أن يكون النهي خاصًا

(٣) انظر: حاشية ابن عابدين ١/ ٢٢٢، الذخيرة، القرافي ١/ ١٦٣، نهاية المحتاج، الرملي ١/ ٢٨٩، حاشية الروض المربع، ابن قاسم النجدي ٢/ ٩٦.
(٤) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٨/ ١٠٥.
(٥) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الحج، باب لا يطوف بالبيت عريان ولا يحج مشرك، رقم ١٦٢٢، ومسلم في صحيحه، كتاب الحج باب لا يحج بالبيت مشرك ولا يطوف بالبيت عريان، رقم ١٣٤٧.

بالمشركين الذين كانوا ممنوعين عن دخول مكة وسائر المساجد، لأنه لم يكن لهم ذمة وكان لا يقبل منهم إلا الإسلام أو السيف، وهم مشركو العرب، والثاني: أن يكون المراد منعهم من دخول مكة للحج[١].

٦. الحج إليه.

البيت الحرام هو مقصد المسلمين في فريضة الحج، الركن الخامس من أركان الإسلام، وهو المنصوص عليه في قول الله تعالى: ﴿فِيهِ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٞ مَّقَامُ إِبۡرَٰهِيمَۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنٗاۗ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلۡبَيۡتِ مَنِ ٱسۡتَطَاعَ إِلَيۡهِ سَبِيلٗاۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٩٧﴾ [آل عمران: ٩٧].

والحج عبادة زمانية ومكانية، وأن مكانها البيت الحرام بمكة المكرمة وما حوله من البقاع المقدسة مثل الصفا والمروة وعرفات ومنى ومزدلفة.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلۡمَرۡوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِۖ فَمَنۡ حَجَّ ٱلۡبَيۡتَ أَوِ ٱعۡتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَاۚ وَمَن تَطَوَّعَ خَيۡرٗا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ١٥٨﴾ [البقرة: ١٥٨].

أي: من معالم الله التي جعلها تعالى ذكره لعباده معلمًا ومشعرًا يعبدونه عندها، إما بالدعاء، وإما بالذكر، وإما بأداء ما فرض عليهم من العمل عندها[٢].

(١) اللباب في الجمع بين السنة والكتاب، المنبجي ٢/ ٥٧٠.

(٢) جامع البيان، الطبري ٣/ ٢٢٦.

وقال جل شأنه في شأن المشعر الحرام وعرفات كبقعتين مقدستين من بقاع الحج يتعلق بهما بعض المناسك: ﴿لَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَن تَبۡتَغُواْ فَضۡلٗا مِّن رَّبِّكُمۡۚ فَإِذَآ أَفَضۡتُم مِّنۡ عَرَفَٰتٖ فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ عِندَ ٱلۡمَشۡعَرِ ٱلۡحَرَامِۖ وَٱذۡكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمۡ وَإِن كُنتُم مِّن قَبۡلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ ١٩٨﴾ [البقرة:١٩٨].

٧. بداية الإسراء برسول الله صلى الله عليه وسلم.

وذلك في قوله تعالى: ﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ لَيۡلٗا مِّنَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ إِلَى ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡأَقۡصَا ٱلَّذِي بَٰرَكۡنَا حَوۡلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنۡ ءَايَٰتِنَآۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ١﴾ [الإسراء: ١].

وقد اختلف المفسرون في مبتدأ الإسراء برسول الله صلى الله عليه وسلم بناء على هذه الآية على قولين:

القول الأول: أن المقصود الإسراء من الحرم بناء على أن الحرم كله مسجد، وكان صلى الله عليه وسلم حين أسري به نائمًا في بيت أم هانيء بنت أبي طالب، روى ذلك أبو صالح عن أم هانيء.

القول الثاني: أنه صلى الله عليه وسلم أسري به من المسجد، وفيه كان حين أسري به، روى ذلك أنس بن مالك وقاله الحسن،

وقتادة[1].

ثانيًا: المسجد الأقصى:

المسجد الأقصى هو ثان مسجد بني على ظهر الأرض كما هو منصوص عليه في الصحيحين من حديث أبي ذر الغفاري رضي الله عنه، قال: (قلت يا رسول الله، أي مسجدٍ وضع في الأرض أول؟ قال: (المسجد الحرام) قال: قلت: ثم أيٌّ؟ قال (المسجد الأقصى) قلت: كم كان بينهما؟ قال: (أربعون سنةً، ثم أينما أدركتك الصلاة بعد فصله، فإن الفضل فيه)[2].

وهو بيت المقدس، وسمي الأقصى، لبعد المسافة بين المسجدين، والمقصود بالبركة حوله أن الله أجرى حوله الأنهار، وأنبت الثمار، أو لأنه مقر الأنبياء، ومهبط الملائكة[3].

وقصة نشأة بيت المقدس وعمارته وفضائله كثيرة تواترت ببعضها نصوص السنة النبوية، وأفردها علماء كثيرون بالتأليف والتصنيف.

وقد ورد التصريح باسم المسجد الأقصى في آية واحدة من كتاب الله تعالى في مطلع سورة الإسراء وهي قوله جل شأنه ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ①﴾ [الإسراء: ١].

وجمهور المفسرين على أن الآية دليل صريح على أنه منتهى الإسراء برسول الله صلى الله عليه وسلم، وأنه عليه السلام دخله بجسده الشريف وصلى فيه بالأنبياء إماما، ومنه كانت رحلة المعراج[4].

وروي عن حذيفة بن اليمان أن النبي صلى الله عليه وسلم لم ينزل عن البراق ولم يدخل المسجد الأقصى ولم يصل فيه، وما ذهب إليه الجمهور هو الأقوى والأثبت[5].

أما عن وروده بغير التصريح ففي مواضع عدة استنبطها المفسرون من قصة السيدة مريم عليها السلام حيث ذكر غير واحد من المفسرين أن نذر امرأة عمران الوارد في قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ㉟﴾ [آل عمران: ٣٥].

كان خدمة مريم عليها السلام لبيت

---

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١٧/ ٣٣٠، النكت والعيون، الماوردي ٣/ ٢٢٥، زاد المسير، ابن الجوزي ٣/ ٨.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) انظر: النكت والعيون، الماوردي ٣/ ٢٢٦، زاد المسير، ابن الجوزي ٣/ ٨.

(٤) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ٣/ ٤٣٤، زاد المسير، ابن الجوزي ٣/ ٨، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٠/ ٢٠٨.

(٥) انظر: جامع البيان، الطبري ١٧/ ٣٤٩، المحرر الوجيز، ابن عطية ٣/ ٤٣٤، زاد المسير، ابن الجوزي ٣/ ٨.

المقدس، حيث روي هذا عن عكرمة[(١)]، وكذا من قصة نبي الله داود وسليمان عليهما السلام، مما لا مجال لذكره هنا.

ثالثًا: مسجد قباء:

مسجد قباء من أشهر مساجد المدينة المنورة بعد المسجد النبوي، وقد ذهب كثير من المفسرين وعلماء السيرة إلى أن مسجد قباء هو المقصود في قول الله تعالى: ﴿لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا ۚ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ ﴿١٠٨﴾ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠٩﴾﴾ [التوبة:١٠٩].

حيث ذهب إلى ذلك مقاتل، والسدي، وزيد بن أسلم، وغيرهم من مفسري السلف[(٢)].

ولكن روي عن ابن عمر وأبي سعيد الخدري أن المقصود به مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وليس مسجد قباء[(٣)].

فقد أخرج مسلم في صحيحه عن حميدٍ الخراط، قال: (سمعت أبا سلمة بن عبد الرحمن، قال: مر بي عبد الرحمن بن أبي سعيدٍ الخدري، قال: قلت له: كيف سمعت أباك يذكر في المسجد الذي أسس على التقوى؟ قال: قال أبي: دخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم في بيت بعض نسائه، فقلت: يا رسول الله، أي المسجدين الذي أسس على التقوى؟ قال: فأخذ كفًا من حصباء، فضرب به الأرض، ثم قال: (هو مسجدكم هذا) لمسجد المدينة، قال: فقلت: أشهد أني سمعت أباك هكذا يذكره)[(٤)].

وأخرج ابن أبي شيبة بسنده عن ابن عمر، قال: «المسجد الذي أسس على التقوى هو مسجد النبي صلى الله عليه وسلم»[(٥)].

ويمكن القول بأن ما تؤيده رواية مسلم هو الأولى بالقبول، وهو أن المسجد الذي أسس على التقوى هو المسجد النبوي على ساكنه أفضل الصلاة وأتم التسليم.

وأيا كان القول فإن مسجد قباء قد أسسه

---

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٦/ ٣٣٢، تفسير السمرقندي ٣/ ٥٤، النكت والعيون، الماوردي ١/ ٣٨٧، الهداية لبلوغ النهاية، مكي بن أبي طالب ٢/ ٩٩٤، المحرر الوجيز، ابن عطية ١/ ٤٢٤.

(٢) انظر: تفسير مقاتل ٢/ ١٩٧، معاني القرآن، الزجاج ٢/ ٤٦٩، تفسير ابن أبي حاتم ٦/ ١٨/ ٨٣، تفسير السمرقندي ٢/ ٨٩.

(٣) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ٣/ ٨٤، تفسير السمرقندي ٢/ ٨٩.

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الحج، باب بيان أن المسجد الذي أسس على التقوى هو مسجد النبي صلى الله عليه وسلم بالمدينة، رقم ٥١٤.

(٥) مصنف ابن أبي شيبة، رقم ٧٥٢٣، ٢/ ٨٤.

رسول الله صلى الله عليه وسلم في أول قدومه المدينة، حيث كانت وفادته صلى الله عليه وسلم على بني عمرو بن عوف بقباء، وأقام فيهم عدة ليال بنى خلالها مسجد قباء، ثم ارتحل عنهم إلى الموضع الذي بنى فيه مسجده الشريف وبيوت أزواجه الطاهرات، وقد أسس كلا المسجدين على التقوى أي: على توحيد الله تعالى، ورضوانٍ من الله[1].

رابعًا: مسجد الضرار:

مسجد اتخذه بعض المغرضين في المدينة للتفريق بين المسلمين فجاء القرآن الكريم مبينًا زيف صنيعهم وخبث نيتهم وسوء طويتهم، ناهيًا النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمين عن الصلاة فيه.

قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَى وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (١٠٧) لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ (١٠٨) أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٠٩)﴾ [التوبة: ١٠٧ - ١٠٩].

وسبب نزولها أن اثنا عشر رجلا من المنافقين وكلهم من الأنصار، قالوا: نبني مسجدًا نتحدث فيه ونخلو فيه، فإذا رجع ابو عامر الراهب من الشام قلنا: بنيناه لتكون إمامنا فيه؛ فلما فرغوا من بنائه، أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا: إنا قد بنينا مسجدًا وما أردنا إلا الحسنى، ونحب أن تصلي فيه، وكان بناؤهم للمسجد قبل سفر النبي صلى الله عليه وسلم إلى تبوك، فلم يسعفهم بالذهاب إليه، فأنزل الله هذه الآيات، فدعا النبي عليه الصلاة والسلام أناسًا وأمرهم بالتوجه إلى المسجد لتحريقه وهدمه[2].

وقد نهى القرآن الكريم النبي صلى الله عليه وسلم عن الصلاة في مسجد الضرار وحثه على الصلاة في مسجد قباء مبينًا المقارنة بين المسجدين التي تتمثل في أمرين:

الأول: أن مسجد قباء بني على التقوى وهي طاعة الله ورسوله، وقصد به إرضاء الله تعالى، وإخلاص العبادة فيه، وجمع المؤمنين، والعمل على وحدة الإسلام، وظلت هذه المزية له، وأصبح من السنة صلاة ركعتين فيه على الدوام، ثم وضع

(١) انظر: الكشاف، الزمخشري ٢/ ٣١١، المحرر الوجيز، ابن عطية ٣/ ٨٤.

(٢) انظر: تفسير مقاتل ٥/ ١٣٧، جامع البيان، الطبري ١٤/ ٢٦٨، أسباب النزول، الواحدي ص٢٦٤.

القرآن قاعدة عامة للمقارنة بين المسجدين وأي بناءين، وتلك القاعدة:

الثاني: أنه لا يستوي من أسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان، ومن بنى مسجدا ضرارًا وكفرًا وتفريقًا بين المؤمنين، وهذا مصيره الانهيار والسقوط في قعر جهنم، والله لا يوفق الظالمين، ولا يهديهم للحق والصواب والصلاح، ما داموا قد قصدوا المعصية والكفر، وقد صار هذا مثلا للأجيال[1].

مسجد الضرار واقعة سوء تركت آثارًا سيئة استوجبت إزالته:

«أبان القرآن أربعة أسباب لهدم مسجد المنافقين: مسجد الضرار، وهي:

- إنهم اتخذوا بقصد مضارة المؤمنين الذين بنوا مسجد قباء.
- أقاموه ليكون معقلا للكفر والنفاق، والتآمر على المسلمين، فصار مركز الفتنة وبيت النفاق ومأوى المنافقين.
- قصدوا ببنائه أيضا تفريق كلمة المؤمنين، وتوهين المودة والألفة بينهم.
- جعلوه مرصدا ومقرا لمحاربة الله ورسوله، بقيادة أبي عامر الراهب من الخزرج الذي ذهب إلى هرقل ليأتي بجنود يحارب بهم النبي وصحبه.

وصار المنافقون يحلفون: ما أردنا ببناء هذا المسجد إلا الفعلة الحسنى والتوسعة علينا وعلى من عجز أو ضعف عن المسير إلى مسجد المدينة، والله يعلم خبث ضمائرهم ويشهد على أنهم كاذبون فيما حلفوا عليه.

لكل هذه الأسباب القائمة على الضرر والإساءة، نهى الله تعالى نبيه عن الصلاة في هذا المسجد: مسجد الضرار: لا تقم فيه أبدًا.

ولهذا كان لمسجد الضرار آثار ومعان سيئة على مر التاريخ، فهو لا يزال سبب حزازة وأثر سوء، وشك من المنافقين في الدين، وزيادة نفاقهم إلى أن يفارقوا حياتهم بالموت والله عليم بأعمال خلقه، حكيم في إيقاع الجزاء العادل بهم من خير أو شر، ومن حكمته تعالى إظهار حال المنافقين لمعرفة الحقائق وإنصاف التاريخ»[2].

(١) التفسير الوسيط، الزحيلي ١/ ٩٢٠.

(٢) المصدر السابق.

أحكام المساجد

تتعلق بالمساجد طائفة من الأحكام، وقد بسط فيها العلماء الكلام في مصنفات خاصة بذلك، ولكن الذي يعنينا هو ما ورد في القرآن الكريم من هذه الأحكام على هذا النحو:

١. النهي عن اتخاذ قبور الأنبياء والصالحين مساجد.

نهى الإسلام عن اتخاذ قبور الأنبياء والصالحين مساجد، نظرًا لما يجلبه ذلك من مفاسد شرعية، ولم يرد النهي عن ذلك صريحًا في القرآن وإنما ورد النهي والتحذير في السنة النبوية.

كما في الصحيحين عن عائشة، وعبد الله بن عباسٍ، قالا: (لما نزل برسول الله صلى الله عليه وسلم طفق يطرح خميصةً له على وجهه، فإذا اغتم بها كشفها عن وجهه، فقال وهو كذلك: (لعنة الله على اليهود والنصارى، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد) يحذر ما صنعوا)[1].

وجاء في قصة أهل الكهف في القرآن الكريم ذكر النزاع بين القوم الذين كشف في عصرهم قصة الكهف حول ماذا يفعلون بهم، حيث خلص الرأي في النهاية للأغلبية ببناء مسجد عليهم.

قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ إِذْ يَتَنَٰزَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ ۖ فَقَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ عَلَيْهِم بُنْيَٰنًا ۖ رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴿٢١﴾﴾ [الكهف: ٢١].

حيث ذكر بعض المفسرين أن النزاع جرى بين المشركين والمسلمين، فرأى المشركون أنهم أبناء آبائهم وأنهم سيبنون عليهم بنيانًا يتعبدون فيه، ورأى المسلمون أنهم أحق بهم فيبنوا عليهم مسجدًا يتعبدون فيه، روي هذا عن عبد الله بن عبيد بن عمير[2]. وفسرت الغلبة هنا بأنها غلبة الأمراء، وقيل: غلبة الأعداء[3].

٢. الاعتكاف وآدابه.

الاعتكاف عبادة مشروعة، وهي الإقامة في المسجد بنية العبادة والتقرب إلى الله تعالى زمنًا معينًا وفق شروط معينة، وقد ورد ذكر الاعتكاف في القرآن مرتين،

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الصلاة، باب الصلاة في البيعة، رقم ٤٣٥، ومسلم في صحيحه، كتاب المساجد ومواضع الصلاة باب النهي عن بناء المساجد على القبور، رقم ٥٣١.

(٢) انظر: تفسير مقاتل ٢/ ٥٨٠، جامع البيان، الطبري ١٧/ ٦٤٠، الهداية إلى بلوغ النهاية، مكي بن أبي طالب ٦/ ٤٣٥٣.

(٣) انظر: تفسير ابن أبي حاتم ٧/ ٢٣٥٤، الهداية إلى بلوغ النهاية، مكي بن أبي طالب ٦/ ٤٣٥٣، مفاتيح الغيب، الرازي ١/ ٤٤٧..

إحداهما هي المرتبطة بالمسجد، وهي قوله تعالى: ﴿وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَٰكِفُونَ فِى ٱلْمَسَٰجِدِ﴾ [البقرة: ١٨٧].

ويرى المفسرون وغيرهم من أهل اللغة أن معنى: (عاكفون): أي مقيمون في المساجد لا يخرجون منها إلا لحاجة الإنسان يصلي فيه ويقرأ القرآن، ويقال لمن لازم المسجد وأقام على العبادة فيه: عاكف ومعتكفٌ والاعتكاف والعكوف الإقامة على الشيء وبالمكان ولزومهما[(١)].

وقد ذهب جمهور فقهاء المذاهب في تعريفهم للاعتكاف إلى أن الاعتكاف المشروع هو المكوث في مسجد من المساجد[(٢)].

ولهذا فإن المسجد شرط للاعتكاف عند جمهور الفقهاء، بل حكاه بعضهم إجماعا[(٣)].

قال القرطبي: «أجمع العلماء على أن الاعتكاف لا يكون إلا في مسجد»[(٤)].

وقال ابن قدامة: « لا نعلم في هذا بين أهل العلم خلافا»[(٥)].

وقال ابن رشد: «وقد اتفق العلماء على مشروطية المسجد للاعتكاف، إلا محمد بن عمر بن لبابة فأجازه في كل مكان»[(٦)].

وقد دل على ذلك الكتاب والسنة، فمن الكتاب قول الله تعالى: ﴿وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَٰكِفُونَ فِى ٱلْمَسَٰجِدِ﴾ [البقرة: ١٨٧].

فإضافة الاعتكاف إلى المساجد دليل على اشتراطها أي المساجد له.

قال ابن قدامة: «والأصل في ذلك قول الله تعالى: ﴿وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَٰكِفُونَ فِى ٱلْمَسَٰجِدِ﴾ [البقرة: ١٨٧]؛ فخصها بذلك، ولو صح الاعتكاف في غيرها، لم يختص تحريم المباشرة فيها؛ فإن المباشرة محرمة في الاعتكاف مطلقًا»[(٧)].

ومن السنة ما روته السيدة عائشة رضي الله عنها، قالت: (إن كنت لأدخل البيت للحاجة والمريض فيه فما أسأل عنه إلا وأنا مارة وإن كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ليدخل رأسه وهو في المسجد فأرجله، وكان لا يدخل البيت إلا لحاجة إذا كان معتكفًا)[(٨)].

---

(١) لسان العرب، ابن منظور ٩/ ٢٥٥.
(٢) انظر: تبيين الحقائق، الزيلعي ١/ ٣٤٧، مواهب الجليل، الحطاب ٢٤٥٤، المجموع، النووي ٦/ ٥٠٠، كشاف القناع، البهوتي ٢/ ٣٤٧، المحلى، ابن حزم ٣/ ٤١١.
(٣) العناية شرح الهداية، للبابرتي ٢/ ٣٩٣، المدونة الكبرى، للإمام مالك ١/ ٢٩٨، حاشية العدوي على كفاية الطالب، للعدوي ١/ ٤٦٥، المجموع، للنووي ٦/ ٥٠٥، كشاف القناع، للبهوتي ٢/ ٣٥٠.
(٤) الجامع لأحكام القرآن ٢/ ٣٢٤.
(٥) المغني، ابن قدامة ٣/ ٦٥.
(٦) بداية المجتهد، ابن رشد ١/ ٣١٣.
(٧) المغني، ابن قدامة ٣/ ٦٥.
(٨) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الاعتكاف، باب لا يدخل البيت إلا لحاجة،

هذا وقد ذكر ابن رشد سبب الخلاف في اشتراط المسجد فقال: «وسبب اختلافهم في اشتراط المسجد أو ترك اشتراطه هو الاحتمال الذي في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَٰكِفُونَ فِى ٱلْمَسَٰجِدِ﴾ [البقرة: ١٨٧].

بين أن يكون له دليل خطاب أو لا يكون له ؟ فمن قال له دليل خطاب قال: لا اعتكاف إلا في مسجد وإن من شرط الاعتكاف ترك المباشرة، ومن قال ليس له دليل خطاب قال: المفهوم منه أن الاعتكاف جائز في غير المسجد وأنه لا يمنع المباشرة لأن قائلا لو قال: لا تعط فلانا شيئا إذا كان داخلا في الدار لكان مفهوم دليل الخطاب يوجب أن تعطيه إذا كان خارج الدار ولكن هو قول شاذ، والجمهور على أن العكوف إنما أضيف إلى المساجد لأنها من شرطه»[1].

والناظر إلى لفظة:(المسجد) الواردة في آية الاعتكاف يرى أن الفقهاء قد استنبطوا منها بيان المواضع التي تلحق بالمسجد، ويجوز فيها الاعتكاف مثل سطح المسجد، ورحبته، ومنارته، والمواضع التي لا يجوز فيها الاعتكاف، وللفقهاء تفصيل في ذلك مبسوط في مواضعه من باب الاعتكاف.

رقم ٢٠٢٩، ومسلم في صحيحه، كتاب الحيض، باب جواز غسل الحائض رأس زوجها، رقم ٢٩٧.

(١) بداية المجتهد، ابن رشد ١/ ٣١٣ بتصرف.

وللاعتكاف في المسجد آدابه وأحكامه التي ينبغي على المعتكف أن يتحلى بها أذكرها بإيجاز على سبيل السرد من المذاهب المختلفة بغض النظر عن تفاصيل الخلاف في بعضها:

- استتار المعتكف بخباء أو حجرة.
- أن لا ينقص اعتكافه عن عشرة أيام.
- أن يستصحب ثوبًا غير الذي عليه، لأنه ربما احتاج.
- أن يمكث بمؤخر المسجد ليبعد عمن يشغله بالكلام معه.
- أن يمكث في مسجد اعتكافه ليلة العيد إذا اتصل انتهاء اعتكافه بها ليخرج من المسجد إلى مصلى العيد، فتتصل عبادة بعبادة.
- أن يكون اعتكافه في المسجد الجامع.
- أن يشتغل بطاعة الله تعالى كتلاوة القرآن والحديث والذكر والعلم، لأن ذلك طاعة.
- أن يوقع الاعتكاف في شهر رمضان.
- أن يكون في العشر الأواخر من رمضان لالتماس ليلة القدر؛ فإنها تغلب فيها.
- ترك المعتكف فضول الكلام وما لا يعنيه.
- التزين والتطيب ولبس الثياب الحسنة.
- قيام المعتكف بأداء العبادات (المحضة

والمتعدية)[1].

٣. التزين.

أمر الله تعالى بني آدم على جهة العموم بالتزين واللباس فقال جل شأنه ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ٣١﴾ [الأعراف: ٣١].

وجاء في سبب نزول الآية الكريمة أن بعضا من العرب كانوا يطوفون بالبيت عراة رجالا ونساء، لا يسترون عوراتهم، ولا يقيمون للبيت حرمة، فنزلت هذه الآية[2].

قال ابن عباس رضي الله عنهما في الآية:«كان رجال يطوفون بالبيت عراة، فأمرهم الله بالزينة و«الزينة»: اللباس، وهو ما يواري السوأة، وما سوى ذلك من جيد البز والمتاع فأمروا أن يأخذوا زينتهم عند كل مسجد»[3].

وروي نحو هذا القول عن عطاء والنخعي وسعيد بن جبير، والحسن وقتادة[4].

أما من حملوا الآية على غير الطواف، فلهم أقوال أخرى في المقصود بالزينة فيها موضعًا وصفة على أقوال هي:

القول الأول: أن المراد بها ستر العورة في الصلاة. وهذ مروي عن مجاهد والزجاج[5].

القول الثاني: أن المراد بها مطلق التزين في الجمع والأعياد[6].

القول الثالث: أن الزينة المقصودة هنا هي رفع الأيدي في مواقيت الصلاة، وهو قول التنوخي القاضي[7].

القول الرابع: أن الزينة هي الصلاة في النعال، حيث يروي قتادة في هذا حديثا مرفوعا للنبي صلى الله عليه وسلم[8].

القول الخامس: أن المراد بها المشط لتسريح اللحية[9].

قلت: وهذه الآية أبرز دليل على فرضية ستر العورة في الصلاة.

قال القرطبي: « دلت الآية على وجوب ستر العورة كما تقدم، وذهب جمهور أهل العلم إلى أنها فرض من فروض الصلاة، ونقل عن الأبهري المالكي أنها فرض في الجملة، وعلى الإنسان أن يسترها عن أعين

(١) انظر: المبسوط، السرخسي ٣/ ١٢٦، حاشية الدسوقي ١/ ٥٥٠، المجموع، النووي ٥/ ٥٥٩، الفقه على المذاهب الأربعة، الجزيري ١/ ٤٣٥-٤٣٦.
(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ١٢/ ٣٩١، معالم التنزيل، البغوي ٢/ ١٨٨، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٧/ ١٩٠.
(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ١٢/ ٣٩١.
(٤) انظر: جامع البيان، الطبري ١٢/ ٣٩١-٢٩٢، النكت والعيون، الماوردي ٢/ ٢١٨.
(٥) انظر: النكت والعيون، الماوردي ٢/ ٢١٨.
(٦) المصدر السابق.
(٧) الكشف والبيان، الثعلبي ٤/ ٢٢٩.
(٨) الهداية إلى بلوغ النهاية، مكي بن أبي طالب ٤/ ٢٣٤٢، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٧/ ١٩٠.
(٩) النكت والعيون، الماوردي ٢/ ٢١٨.

الناس في الصلاة وغيرها»[1].

وقد اتفق العلماء على أن ستر العورة فرض بإطلاق، واختلفوا هل هي شرط من شروط صحة الصلاة أم لا؟

وسبب الخلاف في ذلك تعارض الآثار واختلافهم في مفهوم قوله تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ [الأعراف: ٣١].

هل الأمر بذلك على الوجوب أو على الندب؟ فمن حمله على الوجوب قال: المراد به ستر العورة وله أدلته على ذلك.

ومن حمله على الندب قال: المراد بذلك الزينة الظاهرة من الرداء وغير ذلك من الملابس التي هي زينة وله أدلته على ذلك، ولذلك فمن لم يجد ما به يستر عورته لم يختلف في أنه يصلي، واختلف فيمن عدم الطهارة هل يصلي أم لا يصلي؟[2].

وستر العورة واجب للصلاة وغيرها، فلا يختص بالصلاة، وإذا كان الستر في الصلاة فرضًا للابتداء والاستمرار، فهو مقارن للصلاة من أولها إلى آخرها[3].

وللعلماء أحكام تفصيلية في حد العورة للرجال والنساء في الصلاة وخارج الصلاة، وفي أحكام الزينة وضوابطها، وما يجوز منها وما لا يجوز، وهذا مبسوط في مواضعه من كتب الفقه في أبواب الصلاة والألبسة، وفي كتب السنة وشروحها، ما لا يتسع المجال لذكره هنا.

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٧/ ١٩٠ بتصرف يسير.
(٢) بداية المجتهد، ابن رشد ١/ ١١٤. بتصرف.
(٣) الحاوي الكبير، الماوردي ١/ ٩٠ بتصرف.



عمارة المساجد وهدمها

حث القرآن الكريم على عمارة المساجد حسيًا ومعنويًا، وحذر من تخريبها وهدمها حسيًا ومعنويًا، وهو ما أتناوله على النحو الآتي:

أولًا: عمارة المساجد:

نص القرآن الكريم على عمارة المساجد، وبين صفة عمارها بأنهم أهل الإيمان وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة فقال جل شأنه: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ فَعَسَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٨﴾﴾ [التوبة: ١٨].

وفي هذه المساجد الواردة في الآية قولان:

أحدهما: أنها مواضع السجود من المصلى.

والثاني: أنها بيوت الله تعالى المتخذة للعبادة، وفي كل احتمالات ووجوه.

فعلى القول بأن المقصود بها مواضع السجود من المصلي تكون عمارتها إما بالمحافظة على إقامة الصلاة، أو بترك الرياء، أو بالخشوع والإعراض عما ينهى.

وعلى القول بأنها بيوت الله تعالى فتكون عمارتها محتملة لثلاثة أوجه:

أحدها: إنما يعمرها بالإيمان من آمن بالله تعالى.

والثاني: إنما يعمرها بالزيارة لها والصلاة فيها من آمن بالله تعالى.

والثالث: إنما يرغب في عمارة بنائها من آمن بالله تعالى[(١)].

وبعمارة المسجد الحرام احتج بعض مشركي قريش يوم بدر حين وقعوا أسارى، فقد روي أن العباس بن عبد المطلب حين أسر يوم بدر، أقبل عليه نفر من المهاجرين وعيروه بقتال النبي صلى الله عليه وسلم وبقطيعة الرحم، فقال العباس: «ما لكم تذكرون مساوينا وتكتمون محاسننا؟» فقال له علي رضي الله عنه: «فهل لكم من المحاسن شيء؟» فقال: «نعم، إنا نعمر المسجد الحرام، ونحج الكعبة، ونسقي الحاج، ونفك العاني، ونفادي الأسير، ونؤمن الخائف، ونقري الضيف» فنزلت الآية[(٢)].

ويقول الإمام الرازي في الآية الكريمة: «عمارة المساجد قسمان:

إما بلزومها وكثرة إتيانها يقال: فلان يعمر مجلس فلان إذا كثر غشيانه إياه.

وإما بالعمارة المعروفة في البناء.

فإن كان المراد هو الثاني، كان المعنى أنه

(١) انظر: النكت والعيون، الماوردي ٢/ ٣٤٧.
(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ١٤/ ١٧٠، تفسير ابن أبي حاتم ٦/ ١٧٦٨.

ليس للكافر أن يقدم على مرمة المساجد»[1].

و«الشهادة لعمار المساجد بالإيمان صحيحة؛ لأن الله سبحانه ربطه بها وأخبر عنه بملازمتها وقد أثبت الإيمان في الآية لمن عمر المساجد بالصلاة فيها، وتنظيفها وإصلاح ما وهى منها»[2].

وسبب عدم عمارة المشركين للمسجد مستفاد من عدة أمور أشار إليها الرازي بقوله: «والكافر إنما لم يجز له ذلك- أي عمارة المسجد- لأن المسجد موضع العبادة فيجب أن يكون معظمًا والكافر يهينه ولا يعظمه، وأيضًا الكافر نجس في الحكم، لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾ [التوبة: ٢٨].

وتطهير المساجد واجب لقوله تعالى: ﴿أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ [البقرة: ١٢٥].

وأيضًا الكافر لا يحترز من النجاسات، فدخوله في المسجد تلويث للمسجد، وذلك قد يؤدي إلى فساد عبادة المسلمين وأيضا إقدامه على مرمة إصلاح المسجد يجري مجرى الإنعام على المسلمين، ولا يجوز أن يصير الكافر صاحب المنة على المسلمين»[3].

وفضل تطهير المساجد وتنظيفها كبير وثوابه عظيم عند الله تعالى، ويستحق صاحبه التكريم، كما في الصحيحين عن أبي رافعٍ، عن أبي هريرة: **(أن امرأةً سوداء كانت تقم المسجد - أو شابًا - ففقدها رسول الله صلى الله عليه وسلم، فسأل عنها - أو عنه - فقالوا: مات، قال: (أفلا كنتم آذنتموني) قال: فكأنهم صغروا أمرها - أو أمره - فقال: (دلوني على قبره) فدلوه، فصلى عليها، ثم قال: (إن هذه القبور مملوءةٌ ظلمةً على أهلها، وإن الله عز وجل ينورها لهم بصلاتي عليهم)**[4].

فضل بناء المساجد:

السعي في بناء المساجد وتشييدها في البقاع المختلفة هو نوع من عمارة المساجد، وذلك نشرًا لمواضع العبادة وتيسيرًا لأمرها على المسلمين، وقد تسابق المسلمون الأوائل في بناء المساجد، فكان مسجد قباء أول مسجد أسس في الإسلام، ثم تبعه المسجد النبوي، والذي تسابق الصحابة الأجلاء في بنائه، والنبي صلى الله عليه وسلم يعمل معهم بيديه الشريفتين، ويحمل الأحجار على كتفه الشريف.

ولما فتحت الأمصار كمصر والشام والعراق وغيرها تسابق الصحابة رضوان الله

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ١٦/ ٩.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٨/ ٩٠.

(٣) مفاتيح الغيب، الرازي ١٦/ ٩ بتصرف.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الصلاة، باب الخدم للمسجد، رقم ٤٦٠، ومسلم في صحيحه، كتاب الصلاة، باب الصلاة على القبر، رقم ٩٥٦.

عليهم في بناء المساجد في كل مصر فتحوه، ليكون مشعل هداية ونور للمسلمين في تلك الأمصار، كما حدث في مصر حيث اشترك في بناء مسجد عمرو بن العاص عشرات الصحابة الكرام، حتى ورد أنه وقف على تحديد قبلته ثمانون صحابيًا[1].

وقد حثت السنة النبوية على ذلك وبينت فضل بناء المساجد، فقد أخرج البخاري عن عبيد الله الخولاني، أنه سمع عثمان بن عفان، يقول عند قول الناس فيه حين بنى مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم: إنكم أكثرتم، وإني سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول: (من بنى مسجدًا) - قال بكيرٌ: حسبت أنه قال:(يبتغي به وجه الله - بنى الله له مثله في الجنة)[2].

ثانيًا: تخريب المساجد:

نهى القرآن الكريم عن تخريب المساجد والسعي في هدمها سواء كان التخريب أو الهدم معنويًا أو ماديًا، وبيان ذلك على النحو الآتي:

ونص القرآن الكريم في معرض الذم على حرمة وقبح التعرض لبيوت الله تعالى بمنع العبادة فيها أو السعي في تخريبها، وقد جاء هذا الذم في آية ضمن آيات تتناول اليهود والنصارى وهي قوله تعالى﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١٤﴾﴾ [البقرة: ١١٤].

وفي المقصودين بهذه الآية ثلاثة أقوال مشهورة للمفسرين:

القول الأول: أنها واردة في شأن النصارى الذين منعوا مساجد الله أن يذكر فيها اسمه، وأنهم كانوا يطرحون في بيت المقدس الأذى، ويمنعون الناس أن يصلوا فيه وأن المسجد هو بيت المقدس. حيث روي هذا عن ابن عباس ومجاهد ومقاتل[3].

القول الثاني: أن المقصود بها بختنصر وجنده ومن أعانهم من النصارى، والمسجد هو بيت المقدس. ويروى هذا عن قتادة والسدي[4].

القول الثالث: أن المقصود بها مشركي قريش، إذ منعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم من المسجد الحرام. ويروى هذا عن عبد الرحمن بن زيد[5].

---

(١) آثار البلاد وأخبار العباد، القزويني ص٢٣٦.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الصلاة باب من بنى مسجدًا، رقم ٤٥٠.

(٣) انظر: تفسير مجاهد ١/ ٢١٢، تفسير مقاتل ١/ ١٣٢، جامع البيان، الطبري ٣/ ٥٢٠.

(٤) انظر: جامع البيان، الطبري ٣/ ٥٢٠، تفسير ابن أبي حاتم ١/ ٢١٠، النكت والعيون، الماوردي ١/ ١٧٤.

(٥) انظر: جامع البيان، الطبري ٣/ ٥٢٠-٥٢١، النكت والعيون، الماوردي ١/ ١٧٤.

وقد رجح شيخ المفسرين الطبري القول بأن المقصود بها النصارى، واستدل على صحة ذلك بوجهين:

الوجه الأول: أن المسجد المعني في الآية إما مسجد بيت المقدس وإما المسجد الحرام. ومشركو قريش لم يسعوا قط في تخريب المسجد الحرام، وإن كانوا قد منعوا في بعض الأوقات رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه من الصلاة فيه، فقد صح وثبت إذن أن الموصوفين بالسعي في خراب مساجده، غير الموصوفين بعمارتها، إذ كان مشركو قريش بنوا المسجد الحرام في الجاهلية، وبعمارته كان افتخارهم، وإن كان بعض أفعالهم فيه، كان منهم على غير الوجه الذي يرضاه الله منهم.

الوجه الثاني: أن الآية التي قبل قوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ﴾، مضت بالخبر عن اليهود والنصارى وذم أفعالهم، والتي بعدها نبهت بذم النصارى والخبر عن افترائهم على ربهم، ولم يجر لقريش ولا لمشركي العرب ذكر، ولا للمسجد الحرام قبلها، فيوجه الخبر - بقول الله عز وجل: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ﴾ - إليهم وإلى المسجد الحرام[(١)].

أما التخريب المقصود في الآية، فحمله بعض المفسرين على التخريب المعنوي بالمنع من إقامة الشعائر في المساجد، وحمله آخرون على التخريب المادي بالهدم ونحوه من وجوه التعدي[(٢)].

ولا مانع من حمل الآية على كلا المعنيين لما فيهما من الإضرار بالمساجد التي هي بيوت الذكر والعبادة، وهذا ما يفيده كلام القرطبي حيث قال: «خراب المساجد قد يكون حقيقيا كتخريب بختنصر والنصارى بيت المقدس على ما ذكر أنهم غزوا بني إسرائيل مع بعض ملوكهم فقتلوا وسبوا، وحرقوا التوراة، وقذفوا في بيت المقدس العذرة وخربوه، ويكون مجازا كمنع المشركين المسلمين حين صدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن المسجد الحرام، وعلى الجملة فتعطيل المساجد عن الصلاة وإظهار شعائر الإسلام فيها خراب لها»[(٣)].

وما أجمل ما ذكره أحد العلماء المعاصرين من أن نشر البدع والخرافات في بيوت الله تعالى هو أيضًا نوع من التخريب المعنوي، لأن المساجد ينبغي أن تصان عن نشر مثل هذه الأمور التي تخالف شرع الله تعالى.

قال الشيخ ابن العثيمين: «ومن فوائد الآية: تحريم تخريب المساجد؛ لقوله

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٢/ ٥٢١-٥٢٢.

(٢) انظر: النكت والعيون، الماوردي ١/ ١٧٤، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٢/ ٧٧.

(٣) الجامع لأحكام القرآن ٢/ ٧٧ بتصرف.

تعالى: ﴿وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَآ﴾، ويشمل الخراب الحسي، والمعنوي؛ لأنه قد يتسلط بعض الناس - والعياذ بالله - على هدم المساجد حسًّا بالمعاول، والقنابل؛ وقد يخربها معنًى، بحيث ينشر فيها البدع والخرافات المنافية لوظيفة المساجد»[1].

وسبق القول بأن تخريب المساجد منهي عنه سواء كان معنويًا أو حسيًا، وأن بعض العلماء قد فسر التخريب الوارد في آية البقرة على التخريب الحسي بالهدم ونحوه مثل إلقاء القاذورات، ولكن جاءت آية أخرى من كتاب الله تعالى صريحة في بيان هدم بيوت العبادة في الملل الثلاثة اليهودية والنصرانية والإسلام، وذلك قول الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَـٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَـٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾﴾ [الحج: ٤٠].

وقد فسرت الصوامع في اللغة بأنها متعبد الناسك ومنار الراهب، أو معبد الرهبان في الأماكن النائية، وهذا ما ذهب إليه رفيع ومجاهد وعبد الرحمن بن زيد[2]، وفسرت كذلك بأنها متعبد الصابئة، وهو مروي عن الضحاك وقتادة[3].

وفسرت البيع بأنها معابد النصارى أو كنائسهم، وهو مروي عن رفيع وقتادة والضحاك[4].

والصلوات اختلف في نسبتها فنسبها بعضهم لليهود[5]، وأما المساجد فهي معروفة أنها بيوت العبادة للمسلمين على نحو ما تقدم ذكره في التعريف.

وهذه الآية الكريمة تفيد معان سامية وحكم عالية من أبرزها:

- أن الله تعالى يدفع الشر بما هو أقوى منه مما شرعه الله تعالى من أحكام، كدفع شر الكفر والطغيان بالجهاد، ويؤيد هذا ما ذهب إليه بعض المفسرين من تأويل قوله: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ﴾ بأنه الدفع بالقتال والجهاد، أو دفع الله تعالى الناس بعضهم ببعض في الشهادة في الحق[6].
- أن الدفع لنصرة الدين وحماية

(١) تفسير القرآن الكريم، سورتي الفاتحة والبقرة ٢/ ١١.
(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ١٨/ ٦٤٧، النكت والعيون، الماوردي ٤/ ٢٩.
(٣) انظر: تفسير عبد الرزاق ٢/ ٤٠٨، جامع البيان، الطبري ١٨/ ٦٤٨، النكت والعيون، الماوردي ٤/ ٢٩.
(٤) انظر: تفسير يحيى بن سلام ١/ ٣٨١، جامع البيان، الطبري ١٨/ ٦٤٨..
(٥) انظر: معاني القرآن، الزجاج ٣/ ٤٣٠، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٢/ ٧١.
(٦) انظر: جامع البيان، الطبري ١٨/ ٦٤٦، تفسير ابن أبي حاتم ٨/ ٢٤٩٧، تفسير السمرقندي ٢/ ٤٦٢.

المقدسات قد يكون بالأشخاص، ويؤيد هذا ما ذهب إليه بعض المفسرين بأن المقصود هو دفع الله بالأنبياء عن المؤمنين وبالمؤمنين من غيرهم، والدفع بأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم عمن بعدهم من التابعين، ودفع الله المشركين بالمسلمين[(١)].

- أنه لولا فضل الله تعالى ورحمته بأهل الملل الثلاث، ووجود من يذود عن الحرمات والمقدسات لهدمت أماكن العبادة في كل ملة.

ويشير إليه قول الزجاج: «وتأويل هذا: لولا أن الله عز وجل دفع بعض الناس ببعض لهدم في شريعة كل نبي المكان الذي كان يصلي فيه، فكان لولا الدفع لهدم في زمن موسى عليه السلام الكنائس التي كان يصلي فيها في شريعته، وفي زمن عيسى الصوامع والبيع، وفي زمن محمد صلى الله عليه وسلم المساجد»[(٢)].

وإذا تساءلنا ما الحكمة من الحفاظ على بقاع العبادة لاسيما عبادة أهل الإيمان المسجد؟ لأمكن استخلاص الإجابة من قول بعض المفسرين المعاصرين حيث قال: «هذه الأماكن هي التي تبقى أصول القيم في التدين، «وأصول القيم في التدين» غير «كل القيم في التدين»، ولذلك نحن قلنا: إن الحق سبحانه وتعالى جعل للإسلام خمسة أركان، وهي التي بني عليها الإسلام، ولابد أن نقيم بنيان الإسلام على هذه الأركان الخمسة، فلا تقل: إن الإسلام هو هذه الأركان الخمسة، لا؛ لأن الإسلام مبني عليها فقط فهي الأعمدة أو الأسس التي بني عليها الإسلام. فأنت حين تضع أساسا لمنزل وتقيم الأعمدة فهذا المنزل لا يصلح بذلك للسكن، بل لابد أن تقيم بقية البنيان، إذن فالإسلام مبني على هذه الأسس.

والحق سبحانه وتعالى يوضح ذلك فيأمر بالمحافظة على أماكن هذه القيم؛ لأن المساجد ونحن نتكلم بالعرف الإسلامي هي ملتقى فيوضات الحق النورانية على خلقه، فالذي يريد فيض الحق بنوره يذهب إلى المسجد، إذن لكيلا تفسد الأرض لابد أن توجد أماكن العبادة هذه، فمرة جاء الحق بالنتيجة ومرة جاء بالسبب»[(٣)].

موضوعات ذات صلة

البيوت، السعي، مكة

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١٨/ ٦٤٦، تفسير ابن أبي حاتم ٨/ ٢٤٩٧، تفسير السمرقندي ٢/ ٤٦٢.

(٢) انظر: معاني القرآن، الزجاج ٣/ ٤٣١.

(٣) تفسير الشعراوي ٢/ ١٠٦٢.





عناصر الموضوع

مفهوم المشي	٧٢
المشي في الاستعمال القرآني	٧٣
الألفاظ ذات الصلة	٧٤
أنواع المشي	٧٦
أغراض ذكر المشي في القرآن الكريم	٨٠
الدروس المستفادة من ذكر المشي	٨٤

مفهوم المشي

أولًا: المعنى اللغوي:

تأبى بعض معاجم لغتنا العربية أن تنشئ حدًّا لهذه الكلمة (المشي)؛ متعللة -بلسان الحال- بأن هذه الكلمة تعبر عن نفسها بمجرد النطق بها[1]، فيما نجد البعض الآخر يشير إلى بيان حقيقة هذه الكلمة، وقد اخترنا منها ما يلي:

قال الراغب: «المشي: الانتقال من مكان إلى مكان بإرادة»[2].

وقال ابن فارس: «الميم والشين والحرف المعتل أصلان صحيحان، أحدهما يدل على حركة الإنسان وغيره، والآخر النماء والزيادة.

والأول: مشى يمشي مشيًّا، وشربت مشوًا ومشيًا، وهو الدواء الذي يمشي، أي: يطلق البطن.

والآخر: المشاء، وهو النتاج الكثير، وبه سميت الماشية. وامرأةٌ ماشية: كثر ولدها. وأمشى الرجل: كثرت ماشيته»[3].

وفي المصباح المنير: «مشى: (يمشي) (مشيًا) إذا كان على رجليه -سريعًا كان أو بطيئًا- فهو(ماشٍ)، والجمع (مشاةٌ)، ويتعدى بالهمزة والتضعيف، و(مشى) بالنميمة فهو (مشاء)، و(الماشية): المال من الإبل والغنم، قاله ابن السكيت وجماعة، وبعضهم يجعل البقر من (الماشية)»[4].

فالمشي إذًا: الانتقال من مكان إلى آخر مشيًا على الأقدام.

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

لا يخرج المشي في معناه الاصطلاحي عن المعنى اللغوي.

---

(١) انظر: الصحاح، الجوهري ٦/ ٢٤٩٣، لسان العرب، ابن منظور ٦/ ٤٢١٢.
(٢) المفردات، الراغب الأصفهاني ٢/ ٣٧٧.
(٣) مقاييس اللغة، ابن فارس ٥/ ٣٢٥.
(٤) المصباح المنير، الفيومي ١/ ٢٩٦.

المشي في الاستعمال القرآني

وردت مادة (مشي) في القرآن الكريم (٢٣) مرة[1].

والصيغ التي وردت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	١	﴿كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْاْ فِيهِ﴾ [البقرة:٢٠]
الفعل المضارع	١٨	﴿إِذْ تَمْشِىٓ أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ﴾ [طه:٤٠]
فعل الأمر	٢	﴿فَٱمْشُواْ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِۦ﴾ [الملك:١٥]
المصدر	١	﴿وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ﴾ [لقمان:١٩]
صيغة المبالغة	١	﴿هَمَّازٍ مَّشَّآءٍۭ بِنَمِيمٍ ﴿١١﴾﴾ [القلم:١١]

وجاء المشي في القرآن على وجهين[2]:

الأول: المشي بعينه: ومنه قوله تعالى: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾ [الفرقان:٦٣]. يعني: المشي بعينه.

الثاني: الهدى: ومنه قوله تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ﴾ [الأنعام:١٢٢]. يعني: يهتدي به.

---

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، ص ٦٦٧-٦٦٨.

(٢) انظر: الوجوه والنظائر، الدامغاني، ص ٤١٤-٤١٥.

الألفاظ ذات الصلة

١ السير:

السير لغة:

المضي والجريان، وذلك يكون ليلًا ونهارًا.[١]

قال تعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾﴾ [آل عمران:١٣٧].

وقال سبحانه لقوم سبأ: ﴿سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ﴾ [سبأ:١٨] **وقد ورد هذا اللفظ في أكثر من آية.**

السير اصطلاحًا:

لا يخرج عن معناه اللغوي.

الصلة بين السير والمشي:

لفظ (السير) يحمل معنى التؤدة في المشي.

٢ السعي:

السعي لغة:

يأتي السعي في اللغة على معانٍ، منها: المشي، والإسراع في المشي، والجد.[٢]

السعي اصطلاحًا:

العمل والفعل الجاد الذي يقوم على النية والقصد سواء أكان ذلك في الخير أو الشر.

الصلة بين السعي والمشي:

لفظ (السعي): يحمل معنى السرعة في المشي، وهو كناية عن العمل والفعل الجاد.

٣ النسلان:

النسلان لغة:

هو الإسراع في المشي.[٣]

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٣/ ١٢٠، تاج العروس، الزبيدي ١٢/ ١١٥.
(٢) انظر: تأويل مشكل القرآن، ابن قتيبة ص ٢٧٤، التفسير الوسيط، الواحدي ١/ ٣٧٦، المفردات، الراغب ص ٤١١- ٤١٢.
(٣) مفاتيح الغيب، الرازي ٥/ ٣٤٧.



النسلان اصطلاحًا:

لا يخرج عن معناه اللغوي، والنسلان بفتحتين الإسراع مع تقارب الخطا وهو دون السعي.[1]

قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتۡ يَأۡجُوجُ وَمَأۡجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٖ يَنسِلُونَ ٩٦﴾ [الأنبياء:٩٦].

الصلة بين النسلان والمشي:

(النسلان) يحمل معنى السرعة في المشي، لكنه دون السعي.

(١) انظر: فتح الباري ٨/ ٥٤٣.

انواع المشي

أولًا: المشي المشروع:

١ . مشي القصد والتوسط بين الناس.

من ذلك قوله سبحانه وتعالى في حكاية نصيحة لقمان لابنه: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ۝١٨ وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ ۝١٩﴾ [لقمان:١٨-١٩].

أي: امش مشيًا مقتصدًا ليس بالبطيء المتثبط، ولا بالسريع المفرط، بل عدلًا وسطًا بين بين[١].

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أزهر اللون، كأن عرقه اللؤلؤ، إذا مشى تكفأ)[٢].

فقوله تعالى: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا﴾ ينهى أيضًا عن ضد ذلك تمامًا؛ وهو مشي المتماوت الذي يرى من نفسه الضعف تزهدًا! فقال هنا: ﴿وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ﴾ أي: كن وسطًا بين الطرفين المذمومين[٣].

وهل للأمر بالغض من الصوت مناسبة مع الأمر بالقصد في المشي؟

الجواب: لاشك في ذلك، علمها من علمها وجهلها من جهلها، لكن الإمام الرازي رحمه الله ذكر لذلك ثلاث حكم، ننقل الأوليين منهن لوضوحهما وقوتهما:

الأولى: أن الإنسان لما كان شريفًا تكون مطالبه شريفة فيكون فواتها خطرًا؛ فأقدر الله الإنسان على تحصيلها بالمشي، فإن عجز عن إدراك مقصوده ينادي مطلوبه فيقف له أو يأتيه مشيًا إليه، فإذا كان المشي والصوت مفضيين إلى مقصود واحد لما أرشده إلى أحدهما أرشده إلى الآخر.

الثانية: أن الإنسان له ثلاثة أشياء: عمل بالجوارح، وقول باللسان، وعزم بالقلب وهو لا اطلاع عليه إلا الله، وقد أشار إليه بقوله: ﴿يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ﴾ [لقمان:١٦]، أي: أصلح ضميرك فإن الله خبير، بقي الأمران فقال: ﴿وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ﴾ إشارة إلى التوسط في الأفعال والأقوال[٤].

٢ . المشي لطلب الرزق.

يقول الله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ ۝١٥﴾ [الملك:١٥].

«إنه من تسخير الله تعالى للأرض أن جعلها كفاتًا للإنسان في حياته؛ بتسهيل معيشته منها وحياته على ظهرها، فإذا مات

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٣٣٩.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الفضائل، باب طيب رائحة النبي صلى الله عليه وسلم، رقم ٢٣٣٠.
تكفأ: مشي مشيًا قويًا.
انظر: شرح السنة، البغوي ١٣/ ٢٢٢.

(٣) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٢٥/ ١٢٢.

(٤) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٥/ ١٢٢ باختصار.

كانت له أيضًا كفاتًا بدفنه فيها.

ولو شاء الله لجعلها حديدًا ونحاسًا، فلا يستطيع الإنسان أن يحرث فيها، ولا يحفر ولا يبني، وإذا مات لا يجد مدفنًا فيها!

ومما يشير إلى هذه المعاني كلها قوله تعالى: ﴿فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ﴾»[(1)].

«والأمر في قوله تعالى: ﴿فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ﴾ للإباحة، ولكن التقديم لهذا الأمر بقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا﴾ فيه امتنان من الله تعالى على خلقه، مما يشعر أن في هذا الأمر مع الإباحة توجيهًا وحثًا للأمة على السعي والعمل والجد، والمشي في مناكب الأرض من كل جانب؛ لتسخيرها وتذليلها؛ مما يجعل الأمة أحق بها من غيرها.

كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ﴾ [الحج: ٦٥]»[(2)].

ثم في «قوله تعالى: ﴿وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ﴾ بعد المشي في مناكب الأرض وتطلب الرزق، وما يتضمن من النظر والتأمل في مسببات الأسباب وتسخير الله لها، كقوله تعالى: ﴿وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ۝١٤﴾ [الزخرف: ١٤]، بعد ذكر ﴿خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا﴾ [الزخرف: ١٢]، أي: الأصناف، وتسخير الفلك والأنعام والبحر والبر؛ فيه ضمنًا إثبات القدرة على البعث، فيكون المشي في مناكب الأرض، واستخدام مناكبها، واستغلال ثرواتها، والانتفاع من خيراتها؛ لا لطلب الرزق وحده -وإلا لكان يمكن سوقه إليهم- ولكن للأخذ بالأسباب أولًا، وللنظر في المسببات، والعبرة بالمخلوقات، والتزود لما بعد الممات، كما في آية «الجمعة»: ﴿فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝١٠﴾ [الجمعة: ١٠].

أي: عند مشاهدة آيات قدرته وعظيم امتنانه.

وعليه فقد وضع القرآن الأمة الإسلامية في أعز مواضع الغنى والاستغناء، والاستثمار والإنتاج، فما نقص عليها من أمور دنياها إلا بقدر ما قصرت هي في القيام بهذا العمل وأضاعت من حقها في هذا الوجود»[(3)].

(١) تكملة أضواء البيان، عطية سالم ٨/ ٢٣٨.
(٢) المصدر السابق.
(٣) المصدر السابق ٨/ ٢٣٩- ٢٤٠.

ثانيًا: المشي المنهي عنه:

١ . المشي بالنميمة.

قال الله تعالى: ﴿هَمَّازٍ مَّشَّاءٍ بِنَمِيمٍ ۝١١﴾ [القلم:١١].

«أي: كما أنعمنا عليك يا محمد وأعطيناك الشرع المستقيم والخلق العظيم ﴿فَلَا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ﴾ ثم قال تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ﴾؛ وذلك أن الكاذب لضعفه ومهانته إنما يتقي بأيمانه الكاذبة التي يجترئ بها على أسماء الله تعالى، واستعمالها في كل وقتٍ في غير محلها»[١].

وفي قوله تعالى: ﴿هَمَّازٍ﴾ ثلاثة أوجه:

أحدها: أنه الفتان الطعان. قاله ابن عباس وقتادة.

الثاني: أنه الذي يلوي شدقيه من وراء الناس. قاله الحسن.

الثالث: أنه الذي يهمزهم بيده دون لسانه ويضربهم. قاله ابن زيد، والأول أشبه لقول الشاعر:

تدلي بودٍّ إذا لاقيتني كذبًا
وإن أغيب فأنت الهامز اللمزة

وفي قوله: ﴿مَّشَّاءٍ بِنَمِيمٍ﴾ وجهان:

أحدهما: الذي ينقل الأحاديث من بعض الناس إلى بعض. قاله قتادة.

الثاني: هو الذي يسعى بالكذب، ومنه قول الشاعر:

ومولى كبيت النمل لا خير عنده
لمولاه إلا سعيه بنميم[٢]

«والمشي: استعارة لتشويه حاله بأنه يتجشم المشقة لأجل النميمة! مثل ذكر السعي في قوله تعالى: ﴿وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا﴾ [المائدة:٦٤].

ذلك أن أسماء الأشياء المحسوسة أشد وقعًا في تصور السامع من أسماء المعقولات، فذكر المشي بالنميمة فيه تصوير لحال النمام، ألا ترى أن قولك: (قطع رأسه) أوقع في النفس من قولك: (قتل)؟! ويدل لذلك أنه وقع مثله في قول النبي صلى الله عليه وسلم: «وأما الآخر فكان يمشي بالنميمة»[٣]»[٤].

وهل في تقدم (همّاز) على (مشّاء) من حكمة؟

ذكر بعض العلماء حكمة في ذلك، وهي أن تقدم هماز على مشاء بنميم كان بالرتبة؛ لأن المشي مرتب على القعود في المكان، والهماز هو العياب، وذلك لا يفتقر إلى حركة وانتقال من موضعه، بخلاف النميمة، فإنها تفتقر إلى حركة وانتقال للتحريش بين

---

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٨/ ١٩٠.

(٢) النكت والعيون، الماوردي ٦/ ٦٣-٦٤.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الطهارة، باب من الكبائر أن لا يستتر من بوله، رقم ٢١٦، ومسلم في صحيحه، كتاب الطهارة، باب الدليل على نجاسة البول، رقم ٢٩٢.

(٤) التحرير والتنوير ٢٩/ ٧٣.

فلان وفلان[1].

٢. مشي التكبر والخيلاء، والرقص.

من ذلك قوله تعالى لنبيه عليه الصلاة والسلام: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا ۝٣٧﴾ [الإسراء:٣٧].

إن «الإنسان حين يخلو قلبه من الشعور بالخالق القاهر فوق عباده؛ تأخذه الخيلاء بما يبلغه من ثراء أو سلطان، أو قوة أو جمال، ولو تذكر أن ما به من نعمة فمن الله وأنه ضعيف أمام حول الله لطامن من كبريائه، وخفف من خيلائه، ومشى على الأرض هونًا لا تيهًا ولا مرحًا.

والقرآن يجبه المتطاول المختال المرح بضعفه وعجزه وضآلته: ﴿إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا﴾ فالإنسان بجسمه ضئيل هزيل، لا يبلغ شيئًا من الأجسام الضخمة التي خلقها الله»[2].

قال سبحانه: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا ۝٢٧ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا ۝٢٨ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا ۝٢٩﴾ [النازعات:٢٧-٢٩].

قال الشوكاني رحمه الله: «وذكر الأرض مع أن المشي لا يكون إلا عليها أو على ما هو معتمد عليها؛ تأكيدًا وتقريرًا»[3].

«وأصل المرح في اللغة: شدة الفرح والنشاط، وإطلاقه على مشي الإنسان متبخترًا مشي المتكبرين؛ لأن ذلك من لوازم شدة الفرح والنشاط عادة»[4].

«ويروى أن سبأ دوخ الأرض بأجناده شرقًا وغربًا وسهلًا وجبلًا، وقتل سادةً وسبى -وبه سمي سبأ- ودان له الخلق، فلما رأى ذلك انفرد عن أصحابه ثلاثة أيام، ثم خرج إليهم فقال: إني لما نلت ما لم ينل أحدٌ رأيت الابتداء بشكر هذه النعم، فلم أر أوقع في ذلك من السجود للشمس إذا أشرقت! فسجدوا لها، وكان ذلك أول عبادة الشمس، فهذه عاقبة الخيلاء والتكبر والمرح، نعوذ بالله من ذلك»[5].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا﴾ فيه وجهان، كما يقول الماوردي:

«أحدهما: إنك لن تخرق الأرض من تحت قدمك، ولن تبلغ الجبال طولًا بتطاولك؛ زجرًا له عن تجاوزه الذي لا يدرك به غرضًا.

الثاني: أنه مثلٌ ضربه الله تعالى له، ومعناه: كما أنك لن تخرق الأرض في مشيك ولن تبلغ الجبال طولًا؛ فإنك لا تبلغ ما أردت بكبرك وعجبك، إياسًا له من بلوغ إرادته»[6].

(١) انظر: بدائع الفوائد، ابن القيم ١/ ٦٦.
(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب ٤/ ٢٢٢٨.
(٣) فتح القدير، الشوكاني ٣/ ٣٢٦.
(٤) أضواء البيان، الشنقيطي ٣/ ١٥٦.
(٥) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٠/ ٢٦٢.
(٦) النكت والعيون، الماوردي ٣/ ٢٤٤.

«ذلك التطامن والتواضع الذي يدعو إليه القرآن بترذيل المرح والخيلاء أدبٌ مع الله، وأدبٌ مع الناس، أدبٌ نفسي وأدبٌ اجتماعي.

وما يترك هذا الأدب إلى الخيلاء والعجب إلا فارغٌ صغير القلب صغير الاهتمامات، يكرهه الله لبطره ونسيان نعمته، ويكرهه الناس لانتفاشه وتعاليه»[1].

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٤/ ٢٢٢٨.

أغراض ذكر المشي في القرآن الكريم

أولًا: المن، وبيان القدرة الإلهية:

قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٥﴾﴾ [النور: ٤٥].

قال القرطبي رحمه الله: «المشي على البطن للحيات والحوت، ونحوه من الدود وغيره، وعلى الرجلين للإنسان والطير إذا مشى، والأربع لسائر الحيوان.

قال النقاش: إنما اكتفى في القول بذكر ما يمشى على أربع عن ذكر ما يمشى على أكثر؛ لأن جميع الحيوان إنما اعتماده على أربع، وهى قوام مشيه، وكثرة الأرجل في بعضه زيادة في خلقته، لا يحتاج ذلك الحيوان في مشيه إلى جميعها.

قال ابن عطية: والظاهر أن تلك الأرجل الكثيرة ليست باطلًا، بل هي محتاجٌ إليها في تنقل الحيوان، وهى كلها تتحرك في تصرفه.

وقال بعضهم: ليس في الكتاب ما يمنع من المشى على أكثر من أربع، إذ لم يقل ليس منها ما يمشى على أكثر من أربع.

وقيل: فيه إضمار (ومنهم من يمشى على أكثر من أربع) كما وقع في مصحف أبي، والله أعلم»[2].

(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٢/ ٢٩٢.

ثانيًا: حكاية اعتراضٍ لأهل الباطل:

كما قال سبحانه في سورة الفرقان: ﴿وَقَالُوا مَالِ هَٰذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا ۝٧﴾ [الفرقان:٧].

«والمعنى: إن صح دعواه فما باله لم يخالف حاله حالنا؟! وذلك لعمههم وقصور نظرهم على المحسوسات؛ فإن تميز الرسل عمن عداهم ليس بأمورٍ جسمانية؛ وإنما هو بأحوالٍ نفسانية، كما أشار إليه تعالى بقوله: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ [الكهف:١١٠]»[1].

ولقد رد الله سبحانه وتعالى على أصحاب هذه الشبهة شبهتم في عدة مواضع من القرآن، منها:

قوله سبحانه في نفس سورة الفرقان: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ﴾ [الفرقان:٢٠].

وهذا في معنى قوله تعالى: ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ﴾ [الأحقاف:٩].

إن أنا إلا رسول مثل سائر الرسل، فإذا جاز أن يكون سائر الرسل آدميين؛ فيجوز أن أكون آدميًا رسولًا[2].

وقال في سورة أخرى: ﴿وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ﴾ [الأنبياء:٨].

قال السعدي رحمه الله: «هذا جواب لشبه المكذبين للرسول القائلين: هلا كان ملكًا، لا يحتاج إلى طعام وشراب وتصرفٍ في الأسواق، وهلا كان خالدًا؟! فإذا لم يكن كذلك دل على أنه ليس برسول!

وهذه الشبه ما زالت في قلوب المكذبين للرسل، تشابهوا في الكفر فتشابهت أقوالهم؛ فأجاب تعالى عن هذه الشبه لهؤلاء المكذبي المقرين بإثبات الرسل قبله -ولو لم يكن إلا إبراهيم عليه السلام الذي قد أقر بنبوته جميع الطوائف، والمشركون يزعمون أنهم على دينه وملته- بأن الرسل قبل محمد صلى الله عليه وسلم كلهم من البشر، الذين يأكلون الطعام، ويمشون في الأسواق، وتطرأ عليهم العوارض البشرية، من الموت وغيره، وأن الله أرسلهم إلى قومهم وأممهم، فصدقهم من صدقهم، وكذبهم من كذبهم، وأن الله صدقهم ما وعدهم به من النجاة والسعادة لهم ولأتباعهم، وأهلك المسرفين المكذبين لهم.

فما بال محمد صلى الله عليه وسلم تقام الشبه الباطلة على إنكار رسالته وهي موجودة في إخوانه المرسلين الذين يقر بهم المكذبون لمحمد؟! فهذا إلزام لهم في غاية الوضوح، وأنهم إن أقروا برسولٍ من البشر، ولن يقروا برسول من غير البشر! إن شبههم

---

(١) أنوار التنزيل، البيضاوي ٤/ ٢٠٧.
(٢) انظر: تفسير السمعاني ٤/ ١٢- ١٣.

باطلة، قد أبطلوها هم بإقرارهم بفسادها وتناقضهم بها»[1].

وقال سبحانه في رد عقلي منطقي: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ۝٩﴾ [الأنعام:٩].

والمعنى: أنا لو جعلناه ملكًا لجعلناه ولا بد في خلق رجل؛ لأنهم لا طاقة لهم على رؤية الملك في صورته، وقاله ابن عباس ومجاهد وقتادة وابن زيد[2].

ومن لطائف هذه الآية: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۗ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ۝٢٠﴾ [الفرقان:٢٠]: أن بعض العلماء استنبط من ذلك أن «من آداب الداخل في السوق: أن يكون ماشيًا على رجليه لا راكبًا، كما وصف الله تعالى الرسل عليهم السلام» في هذه الآية[3].

ثالثًا: ضرب المثل للناس:

من ذلك قول الحق سبحانه في سورة الملك: ﴿أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٢٢﴾ [الملك:٢٢].

«هذا مثل ضربه الله للكافرين والمؤمنين، أو لرجلين: كافر ومؤمن.

والذي انقدح لي: أن التمثيل جرى على تشبيه حال الكافر والمؤمن بمشيتين مختلفتين، وعلى تشبيه الدين بالطريق المسلوكة كما يقتضيه قوله: ﴿عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾

فالمشرك يتوجه بعبادته إلى آلهة كثيرة لا يدري لعل بعضها أقوى من بعض، وأعطف على بعض القبائل من بعض، فقد كانت ثقيف يعبدون اللات، وكان الأوس والخزرج يعبدون مناة، ولكل قبيلة إلهٌ أو آلهةٌ، فتقسم الحاجات عندها، ويستنصر كل قوم بآلهتهم، ويطمعون في غنائها عنهم، وهذه حالة يعرفونها فلا يمترون في أنهم مضرب المثل الأول، وكذلك حال أهل الإشراك في كل زمان!

ألا تسمع ما حكاه الله عن يوسف عليه السلام من قوله: ﴿ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ۝٣٩﴾ [يوسف:٣٩]؟

وينور هذا التفسير أنه يفسره قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [الأنعام:١٥٣].

وقوله: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝١٠٨﴾ [يوسف:١٠٨].

فقابل في الآية الأولى الصراط المستقيم -المشبه به الإسلام- بالسبل المتفرقة

---

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٥١٩.

(٢) المحرر الوجيز، ابن عطية ٢/ ٢٧٠.

(٣) البحر المديد، ابن عجيبة ٥/ ١٨٤.

المشبه بها تعداد الأصنام، وجعل في الآية الثانية الإسلام مشبهًا بالسبيل، وسالكه يدعو ببصيرة، ثم قابل بينه وبين المشركين بقوله: ﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾.

وفي قوله: ﴿مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ﴾ تشبيه حال المتحير المتطلب للآثار في الأرض بحال المكب على وجهه، في شدة اقترابه من الأرض.

وقوله: ﴿أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا﴾ تشبيه لحال الذي آمن برب واحد الواثق بنصر ربه وتأييده، وبأنه مصادف للحق بحال الماشي في طريق جادة واضحة، لا ينظر إلا إلى اتجاه وجهه، فهو مستوٍ في سيره»[1].

ومن ذلك قوله تعالى عن المنافقين: ﴿يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ ۖ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا۟﴾ [البقرة:٢٠].

فهذا مثلٌ ضربه الله للقرآن وصنيع الكافرين والمنافقين معه، فالمطر: القرآن؛ لأنه حياة الجنان كما أن المطر حياة الأبدان، والظلمات: ما في القرآن من ذكر الكفر والشرك، والرعد: ما خوفوا به من الوعيد وذكر النار، والبرق: ما فيه من الهدى والبيان والوعد وذكر الجنة[2].

وقيل: أي: لذهب بأسماعهم وأبصارهم الظاهرة كما أذهب أسماعهم وأبصارهم الباطنة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾[3].

قال حقي: «وإيثار المشي على ما فوقه من السعي والعدو للإشعار بعدم استطاعتهم لهما لكمال دهشتهم»[4].

رابعًا: لحكاية حادثة معينة:

من ذلك ما ذكره الله تعالى في قصة موسى عليه السلام -في معرض المن عليه- فقال: ﴿إِذْ تَمْشِىٓ أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ﴾ [طه:٤٠]، وذلك حين قالت لها أمها: ﴿قُصِّيهِ﴾ [القصص:١١].

اتبعي أثره فانظري ماذا يفعلون به.

فخرجت تمشي في ذلك ﴿فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١١﴾﴾ [القصص:١١]، وقد احتاج إلى الرضاع والتمس الثدي، وجمعوا له المراضع حين ألقى الله محبتهم عليه، فلا يؤتى بامرأة فيقبل ثديها! فيؤتى بمرضع بعد مرضع، فلا يقبل شيئًا منهم، فقالت لهم أخته حين رأت من وجدهم به وحرصهم عليه: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ﴿١٢﴾ فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ﴾ [القصص:١٢-١٣][5].

وحادثة أخرى مع موسى عليه السلام أيضًا لكن هذه المرة في حال كبره ونبوته،

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٩/ ٤١- ٤٣ بتصرف.
(٢) معالم التنزيل، البغوي ١/ ٧٠.
(٣) لباب التأويل، الخازن ١/ ٣٠.
(٤) روح البيان ١/ ٧٢.
(٥) انظر: جامع البيان، الطبري ١٦/ ٦١.

عندما فر من قوم فرعون الذين يريدون قتله، وفي مدين سقى للمرأتين ثم توجه إلى ظل شجرة يشكو إلى ربه فقره، فجاءه الفرج من ربه فقال: ﴿فَجَآءَتۡهُ إِحۡدَىٰهُمَا تَمۡشِي عَلَى ٱسۡتِحۡيَآءٖ قَالَتۡ إِنَّ أَبِي يَدۡعُوكَ لِيَجۡزِيَكَ أَجۡرَ مَا سَقَيۡتَ لَنَا﴾ [القصص:٢٥].

وسيأتي الحديث عن اللفتة التربوية في مشية هذه الفتاة.

قال مطرف: «أما والله لو كان عند نبي الله شيءٌ ما تتبع مذقتها، ولكن إنما حمله على ذلك الجهد»[1].

الدروس المستفادة من ذكر المشي

أولًا: الدروس الإيمانية لذكر المشي في القرآن الكريم:

١ . الرفق واللين في معايشة الناس.

تتجلى هذه الدلالة في قوله تعالى: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنٗا﴾ [الفرقان:٦٣].

فقوله عز وجل: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ أي: أفاضل العباد، وقيل: هذه الإضافة للتخصيص والتفضيل، وإلا فالخلق كلهم عباد الله[2].

«عن زيد بن أسلم قال: كنت أسأل عن تفسير قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنٗا﴾ فما وجدت في ذلك شفاءً! فرأيت في المنام من جاءني فقال لي: «هم الذين لا يريدون أن يفسدوا في الأرض». فهذا رأي لزيد بن أسلم ألهمه يجعل معنى ﴿يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ﴾ أنه استعارة للعمل في الأرض، كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيُفۡسِدَ فِيهَا﴾ [البقرة:٢٠٥].

وأن الهون مستعار لفعل الخير؛ لأنه هون على الناس، كما يسمى بالمعروف»[3].

«وجوز الزجاج أن يكون قوله: ﴿يَمۡشُونَ﴾ عبارة عن تصرفاتهم في معاشرة

(١) جامع البيان، الطبري ١٨/ ٢٢١.

(٢) معالم التنزيل، البغوي ٦/ ٩٣.

(٣) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٩/ ٨٩.

الناس، فعبر عن ذلك بالانتقال في الأرض، وتبعه ابن عطية»[1].

لكن الأصل إمرار اللفظ على ظاهره، حتى يأتي دليلٌ صحيحٌ صريحٌ يصرفه عن ذلك الظاهر، فظاهر الخطاب هنا أنه مدحٌ لمشيةٍ بالأرجل، وهذا الذي عليه جمهور المفسرين[2].

لكن لنا أن نقول: أن هذا الاختلاف في تفسير المشي هنا، إنما هو من اختلاف التنوع لا التضاد، فيجوز أن يكون تفسير المشي هنا، يحتمل كل ما ذكر، فهم في معاملتهم مع إخوانهم ظاهرًا وباطنًا هينون لينون كما وصفهم ربهم: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ [المائدة:٥٤].

إن هذا الهون في المشي الذي تتصف به هذه الجماعة المؤمنة ناشئ عن التواضع لله تعالى والتخلق بآداب النفس العالية، وزوال بطر أهل الجاهلية، فكانت هذه المشية من خلال الذين آمنوا على الضد من مشي أهل الجاهلية. وعن عمر بن الخطاب أنه رأى غلامًا يتبختر في مشيته فقال له: (إن البخترة مشية تكره إلا في سبيل الله)[3].

فهذه الآية تنبيهٌ من الله وتحريض للمؤمنين، إنهم أرادوا تكريم الله تعالى لهم، وإضافتهم إلى نفسه تعالى؛ أن يكونوا متصفين بهاتين الصفتين: ﴿يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَـٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَـٰمًا﴾.

٢. صاحب الحق يملك نورًا من الله وبصيرة.

وتتجلى هذه الدلالة في قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَءَامِنُوا۟ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٢٨﴾ [الحديد:٢٨].

«في قوله: ﴿تَمْشُونَ بِهِۦ﴾ إعلام بأن تصرفهم وتقلبهم الذي ينفعهم إنما هو النور، وأن مشيهم بغير النور غير مجدٍ عليهم ولا نافع لهم، بل ضرره أكثر من نفعه.

وفيه: أن أهل النور هم أهل المشي في الناس، ومن سواهم أهل الزمانة والانقطاع، فلا مشي لقلوبهم ولا لأحوالهم ولا لأقوالهم ولا لأقدامهم إلى الطاعات، وكذلك لا تمشي على الصراط إذا مشت بأهل الأنوار أقدامهم»[4].

كما قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَـٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَـٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَـٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝١٢٢﴾ [الأنعام:١٢٢].

فهم ينيرون لأنفسهم وللناس، لا كالشمعة تضيء للناس وتحرق نفسها.

(١) المصدر السابق ١٠/ ١٨٩-١٩٠.
(٢) المصدر السابق ١٩/ ٨٨.
(٣) المصدر السابق ١٩/ ٨٨.
(٤) اجتماع الجيوش الإسلامية، ابن القيم ص٩.

«وفي قوله: ﴿تَمْشُونَ بِهِۦ﴾ نكتة بديعة، وهي أنهم يمشون على الصراط بأنوارهم كما يمشون بها في الناس في الدنيا، ومن لا نور له فإنه لا يستطيع أن ينقل قدمًا عن قدم على الصراط، فلا يستطيع المشي أحوج ما يكون إليه»[(١)].

ثانيًا: الدروس التربوية لذكر المشي في القرآن:

١ . تنشئة الأسرة على الآداب الحسنة.

وتتجلى هذه الدلالة في قوله تعالى حاكيًا نصائح لقمان الحكيم لابنه: ﴿وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ۚ إِنَّ أَنكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ ﴿١٩﴾﴾ [لقمان:١٩].

فيأتي هذا الإرشاد التربوي من لقمان الحكيم لابنه بعد إرشادات سابقة، فـ«بعد أن بين له آداب حسن المعاملة مع الناس قفاها بحسن الآداب في حالته الخاصة، وتلك حالتا المشي والتكلم، وهما أظهر ما يلوح على المرء من آدابه.

والقصد: الوسط العدل بين طرفين، فالقصد في المشي: هو أن يكون بين طرف التبختر وطرف الدبيب، ويقال: قصد في مشيه. فمعنى ﴿وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ﴾ ارتكب القصد.

والغض: نقص قوة استعمال الشيء.

(١) المصدر السابق.

يقال: غض بصره، إذا خفض نظره فلم يحدق فغض الصوت: جعله دون الجهر»[(٢)].

وقد يرد على القارئ سؤالٌ هنا، وهو: لم ذكر المانع من رفع الصوت ﴿إِنَّ أَنكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾، ولم يذكر المانع من سرعة المشي؟

قيل: هناك ثلاث حكم في ذلك:

الأولى: أن رفع الصوت يؤذي السامع ويقرع الصماخ بقوة، وربما يخرق الغشاء الذي داخل الأذن! وأما السرعة في المشي فلا تؤذي، أو إن كانت تؤذي فلا تؤذي غير من في طريقه، والصوت يبلغ من على اليمين واليسار.

الثانية: لأن المشي يؤذي آلة المشي، والصوت يؤذي آلة السمع، وآلة السمع على باب القلب؛ فإن الكلام ينتقل من السمع إلى القلب ولا كذلك المشي.

الثالثة: لأن القول قبيحه أقبح من قبيح الفعل، وحسنه أحسن؛ لأن اللسان ترجمان القلب[(٣)].

٢ . الإشادة بصفة الحياء عند المرأة.

وتتجلى هذه الدلالة في ما حكاه الله تعالى من قصة موسى مع ابنة ذلك الرجل الصالح[(٤)] فقال: ﴿فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى

(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢١/ ١١١.

(٣) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٢٥/ ١٢٣.

(٤) لعل الأقرب للصواب أنه كان رجلاً صالحًا، وليس هو نبي الله شعيب.

﴿أَسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾ [القصص:٢٥].

إن وصف الله تعالى لمشية تلك الفتاة المحتشمة بقوله أنها ﴿عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ﴾ لم يأت هكذا دون فائدة أو دلالة، بل له دلالة تربوية حكيمة، تجعل هذه الفتاة مثالًا رائعًا للمرأة الموافقة لفطرتها، التي لم تتعود أصلًا لمثل هذا الخروج من بيتها، ولكن لما أحوجتها الضرورة خرجت بتلك الصفة الطيبة الكريمة، فليكن لك يا فتاة الإسلام في تلك الفتاة المثل الرائع والقدوة الحسنة.

«والمعنى أنها مستحيية في مشيها، أي: تمشي غير متبخترة ولا متثنية ولا مظهرة زينة، وعن عمر بن الخطاب أنها كانت ساترة وجهها بثوبها.

والاستحياء مبالغة في الحياء»[1].

«عن عمرو بن ميمون قال: قال عمر رضي الله عنه: (جاءت تمشي على استحياء قائلة بثوبها على وجهها، ليست بسلفع -جريئة على الرجال- من النساء، خراجةٍ ولاجةٍ)»[2].

قال ابن الجوزي رحمه الله: «وفي سبب استحيائها ثلاثة أقوال:

أحدها: أنه كان من صفتها الحياء فهي تمشي مشي من لم يعتد الخروج والدخول.

والثاني: لأنها دعته لتكافئه وكان الأجمل عندها أن تدعوه من غير مكافأة.

والثالث: لأنها رسول أبيها»[3].

زاد الإمام الرازي: «لأن الكريم إذا دعا غيره إلى الضيافة يستحيي لا سيما المرأة»[4].

وهكذا يأتي التوجيه الإلهي التربوي للنساء عن كيفية المشي الذي يناسب طبيعة المرأة وفطرتها، فيقول سبحانه في آية النور: ﴿وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ﴾ [النور:٣١].

قال ابن كثير رحمه الله: كانت المرأة في الجاهلية إذا كانت تمشي في الطريق وفي رجلها خلخال صامت -لا يسمع صوته- ضربت برجلها الأرض، فيعلم الرجال طنينه، فنهى الله المؤمنات عن مثل ذلك، وكذلك، إذا كان شيء من زينتها مستورًا فتحركت بحركةٍ لتظهر ما هو خفي دخل في هذا النهي؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا يَضْرِبْنَ

---

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٠/ ٤٢.
قال الطبري في تفسيره ١٩/ ٥٦٢: وهذا مما لا يدرك علمه إلا بخبر، ولا خبر بذلك تجب حجته.
وقال الرازي في تفسيره ٢٤/ ٥٨٩: ليس في القرآن ما يدل على أن أباهما كان شعيبًا.
وانظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٢٢٨.

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٢٢٨. قال ابن كثير: هذا إسناد صحيح.
(٣) زاد المسير، ابن الجوزي ٦/ ٢١٤.
(٤) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٤/ ٢٠٦.

﴿بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ﴾.

ومن ذلك أيضًا أنها تنهى عن التعطر والتطيب عند خروجها من بيتها ليشتم الرجال طيبها.

ومن ذلك أيضًا أنهن ينهين عن المشي في وسط الطريق؛ لما فيه من التبرج[1].

موضوعات ذات صلة:

السعي، السير

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٤٩.





عناصر الموضوع

مفهوم المعية	٩٠
المعية في الاستعمال القرآني	٩١
الألفاظ ذات الصلة	٩٢
أنواع معية الله تعالى لعباده	٩٤
وجود آلهة أخرى مع الله	٩٩
معية الرسل عليهم السلام	١٠٦
آثار المعية الإلهية	١١٦

مفهوم المعية

أولًا: المعنى اللغوي:

المعية نسبة إلى لفظ: (مع)، وهو لفظ يقتضي الاجتماع في المكان، أو الزمان، أو الشرف أو الرتبة، كما يقتضي النصرة.

يقول الراغب الأصفهاني: «مع» يقتضي الاجتماع إما في المكان نحو هما معا في الدار، أو في الزمان نحو ولدا معا، أو في المعنى كالمتضايفين نحو الأخ والأب فإن أحدهما صار أخا للآخر في حال صار الآخر أخاه، وإما في الشرف والرتبة نحو: هما معا في العلو[1].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

تستعمل مع للمصاحبة بين أمرين لا يقع بينهما مصاحبةٌ واشتراكٌ إلا في حكمٍ يجمع بينهما ولذلك لا تكون الواو التي بمعنى مع إلا بعد فعلٍ لفظًا أو تقديرًا لتصح المعية. وكمال معنى المعية الاجتماع في الأمر الذي به الاشتراك دون زمانه.

فالأول: يكثر في أفعال الجوارح والعلاج نحو دخلت مع زيدٍ وانطلقت مع عمرٍو وقمنا معًا ومنه قوله تعالى: ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِ﴾[يوسف:٣٦].

والثاني: يكثر في الأفعال المعنوية نحو آمنت مع المؤمنين وتبت مع التائبين وفهمت المسألة مع من فهمها ومنه قوله تعالى: ﴿يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾﴾[آل عمران:٤٣][2].

---

(١) المفردات ص ٤٧٠.

(٢) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٧٧١، بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي ٣/ ٣٧٢.

المعية في الاستعمال القرآني

وردت الأداة (مع) في القرآن الكريم (١٦٤) مرة[1]، والمواضع التي وردت متعلقة بالمعية الإلهية بلغ عدد ورودها (٣٨) مرة.

وليس ليها إلا صيغة واحدة (مع).

وجاءت معية الله في القرآن على ثلاثة وجوه[2]:

الأول: العلم والإحاطة: ومنه قوله تعالى: ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ﴾ [النساء:١٠٨]. يعني:عالم بهم ومحيط بفعلهم.

الثاني: النصر والرعاية: ومنه قوله تعالى: ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة:٤٠]. يعني: ينصرنا ويحفظنا ويرعانا.

الثالث: الاقتران: ومنه قوله تعالى: ﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ ﴿٢١٣﴾﴾ [الشعراء:٢١٣].

---

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، ص٧٧٢، المعجم المفهرس الشامل، عبد الله جلغوم، باب الياء ص١٤٣٨ ١٤٣٩.

(٢) انظر: الوجوه والنظائر، الدامغاني، ص٤٢٨ ٤٢٩، نزهة الأعين النواظر، ابن الجوزي، ص٥٦٢ ٥٦٣.

الألفاظ ذات الصلة

١ الحفظ:

الحفظ لغة:

دارت كلمة الحفظ على معاني الرعاية، وعدم النسيان، والتعهد، وقلة الغفلة، وعدم الضياع أو التفلت، والضبط، والمواظبة، تقول كتب اللغة: (الحاء والفاء والظاء أصلٌ واحدٌ يدل على مراعاة الشيء. يقال: حفظت الشيء حفظًا، قال الليث: الحفظ: نقيض النسيان، وهو التعاهد وقلة الغفلة)[١].

الحفظ اصطلاحًا:

(يقال: تارة لهيئة النفس التي بها يثبت ما يؤدي إليه الفهم، وتارة لضبط الشيء في النفس، ويضاده النسيان، وتارة لاستعمال تلك القوة، فيقال: حفظت كذا حفظا، ثم يستعمل في كل تفقد وتعهد ورعاية)[٢].

أو هو كما عرفه الجرجاني: (ضبط الصور المدركة)[٣].

أو هو (رعاية العمل علما وهيئة ووقتا وإقامة بجميع ما يحصل به أصله، ويتم به عمله وينتهي إليه كماله)[٤].

الصلة بين الحفظ والمعية:

واضح من خلال التتبع للمادة اللغوية ودوارنها في اللسان العربي العلاقة بينها وبين المعية، فالحفظ يشترك مع المعية في الرعاية والتعهد والمصاحبة والضبط، وهي معاني موجودة في المعية في جانبها الاصطلاحي.

٢ المصاحبة:

المصاحبة لغة:

والمصاحبة والصحبة تدل على معاني الحفظ والملازمة، والموافقة والمشاركة، (فالمصاحبة: الموافقة والمشاركة في الشيء، ويقال: صحبه الله وأصحبه وصاحبه أي:

(١) انظر: العين، الفراهيدي ٣/ ١٩٩، تهذيب اللغة، الأزهري ٤/ ٢٦٥، مقاييس اللغة، ابن فارس ٢/ ٨٧.

(٢) المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٢٤٤.

(٣) التعريفات ص ٨٩.

(٤) التوقيف على مهمات التعاريف ص ٢٩٨.



حفظه. وقال أبو عبيدة: وقوله جل ثناؤه: ﴿وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ﴾[الأنبياء:٤٣].

أي: لا يحفظون ومنه قولهم: لا صحبه الله أي: لا حفظه. ويقال: بأهله صحبة الله وصاحبه أي: حفظه. وتقول: أصحبت الرجل إذا اتبعته منقادا فأنا مصحب والرجل مصحب. وصاحبته إذا رافقته فهو مصحوب)[1]. كما تدل على المنعة، والحماية[2].

المصاحبة اصطلاحًا:

(الموافقة والمشاركة في الشيء، فإن تتابعوا مع ملاقاة واجتماع فأصحاب حقيقة وإن لا فمجاز)[3].

الصلة بين المصاحبة والمعية:

المصاحبة واضح فيها معنى المعية، كما أن المشاركة فيها شيء من الدلالة على العون والنصرة، وهي المعاني ذاتها التي دارت عليها مفردة المعية.

(١) انظر: جمهرة اللغة، ابن دريد ١/ ٢٨٠، التوقيف على مهمات التعاريف، المناوي ص ٣٠٧.
(٢) انظر: تهذيب اللغة، الأزهري ٤/ ١٥٤. الصحاح، الجوهري ١/ ١٦٢.
(٣) التوقيف على مهمات التعاريف، المناوي ص ٣٠٧.

أنواع معية الله تعالى لعباده

الراصد لآيات القرآن الكريم في المعية والمتتبع لها يجد أنها تدور حول قطبين أساسين أو محورين رئيسين: معية عامة لعموم الخلق، ومعية خاصة يتميز بها بعض عباد الله تعالى بشروط محددة، مقرونة بصفات مبينة.

والمعية لها دلالتان، معية بالذات ومعية بالصفات، ومعية الله تعالى لعباده المقصودة معية بالصفات لإجماع المسلمين سلفا وخلفا على أن معية الذات غير مرادة، وإنما المراد معيته تعالى بصفاته اللائقة بمعنى المعية، كالعلم والحفظ والنصرة ونحوها[1].

ويمكننا أن نتتبع هذين النوعين على النحو الآتي:

أولًا: معية عامة:

والمعية العامة تكون لعموم الخلق وهي بالرزق والعلم والتدبير مما يليق به تعالى ويصلح للخلق عامة، وقد وردت آيات كريمة تؤكد هذا المعنى، ومنها قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ۝٧﴾ [المجادلة:٧].

والمعنى: (لا يتناجى ثلاثة فيما بينهم، ولا يتكلمون فيما بينهم بكلام الشر إلا هو رابعهم، لأنه يعلم ما يقولون فيما بينهم. ولا خمسة إلا هو سادسهم يعني: كان هو سادسهم، لأنه يعلم ما يقولون فيما بينهم. ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم يعني: عالم بهم وبأحوالهم أين ما كانوا في الأرض. ثم ينبئهم بما عملوا يعني: يخبرهم بما عملوا يوم القيامة من خير أو شر)[2].

(يسمع سرهم ونجواهم، لا يخفى عليه شيء من أسرارهم ﴿وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ﴾ يقول: ولا يكون من نجوى خمسة إلا هو سادسهم كذلك ﴿وَلَا أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ﴾ يقول: ولا أقل من ثلاثة ﴿وَلَا أَكْثَرَ﴾ من خمسة ﴿إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ﴾ إذا تناجوا ﴿أَيْنَ مَا كَانُوا﴾ يقول: في أي موضع ومكان كانوا. وعنى بقوله: ﴿هُوَ رَابِعُهُمْ﴾ بمعنى أنه مشاهدهم بعلمه، وهو على عرشه)[3].

وقال أهل المعاني: (يريد: قربة بالعلم)[4].

---

(١) انظر: المدخل إلى التفسير الموضوعي، عبدالستار سعيد ص ٢٩.

(٢) انظر: تفسير السمرقندي ٣/ ٤١٦، تفسير القرآن العزيز، ابن أبي زمنين ٤/ ٣٥٩.

(٣) جامع البيان، الطبري ٢٢/ ٤٦٨.

(٤) انظر: التفسير الوسيط، الواحدي ١/ ٢٨٤، أنوار التنزيل، البيضاوي ٥/ ١٩٤، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٨٤٥.

ومعنى كونه معهم: (أنه يعلم ما يتناجون به ولا يخفى عليه ما هم فيه، فكأنه مشاهدهم ومحاضرهم، وقد تعالى عن المكان والمشاهدة)[1].

والسر في تخصيص الثلاثة والخمسة؛ لأنها نزلت في المنافقين وكانوا يتحلقون للتناجي مغايظة للمؤمنين على هذين العددين، وقيل: ما يتناجى منهم ثلاثة ولا خمسة ولا أدنى من عدديهم ولا أكثر إلا والله معهم يسمع)[2].

أو أن السر في تخصيص العدد: (أن أهل التناجي في العادة طائفة من أهل الرأي والتجارب، وأول عددهم الاثنان فصاعدًا، إلى خمسة، إلى ستة، إلى ما اقتضته الحال)[3].

ومن لطائف الشيخ السعدي رحمه الله ربطه البديع بين صدر الآية وعجزها، واستنباطه لهذا المعنى اللطيف في المعية وهي أن هذه المعية، معية العلم والاطلاع؛ ولهذا توعد ووعد على المجازاة بالأعمال بقوله: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ﴾ أي: هو تعالى بصير بما يصدر منكم من الأعمال، وما صدرت عنه تلك الأعمال، من بر وفجور، فمجازيكم عليها، وحافظها عليكم)[4].

فمعية الله تعالى العامة للناس معية علم واطلاع وانكشاف ومشاهدة.

ثانيًا: معية خاصة:

وإذا كنا قد عرفنا المعية العامة التي تعني العلم والإحاطة، والرزق والتدبير والرعاية، فإن هناك معية أخرى خاصة يمنحها الله تعالى لعباده المؤمنين الذين استجمعوا صفات يحبها الله ويدعوهم إليها، وهي عندئذ تعني النصر، والمعونة، والتأييد، والرعاية، والرحمة، والعناية، أو رفع الدرجات أو تكفير السيئات، أو الإكرام في الحياة، ونحو ذلك مما يستحقه المؤمنون الصالحون، وتنوع ورود هذا اللون من المعية في القرآن الكريم، كما سيأتي، ويضاف إلى هؤلاء المكرمين المنعم عليهم بهذه المعية الخاصة أصناف أخرى، منها:

- معيته تعالى للأنبياء عليهم السلام، ومنه قوله تعالى: لموسى وهارون عليهما السلام: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه:٤٦]. والآيات في معية الله تعالى للأنبياء كثيرة وسيأتي مزيد بيان لمعية الله تعالى للرسل في مبحث خاص.
- معيته تعالى للملائكة.
- معيته تعالى لعباده المؤمنين.

(١) انظر: الكشاف، الزمخشري ٤/ ٤٩٠، زاد المسير، ابن الجوزي ٤/ ٢٤٥.
(٢) انظر: مدارك التنزيل، النسفي ٣/ ٤٤٧.
(٣) البحر المديد، ابن عجيبة ٧/ ٣٣٩

(٤) تيسير الكريم الرحمن ص ٨٣٨.

وهنا فلنتتبع معية الله تعالى لملائكته ولعباده المؤمنين على النحو الآتي:

١ . معية الله تعالى للملائكة.

والمعية هنا معية الإعانة والنصر والتثبيت والتأييد، كما قال تعالى: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [الأنفال:١٢].

يعني: (ألهم ربك الملائكة، ﴿أَنِّي مَعَكُمْ﴾ أي: معينكم وناصركم، ﴿فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ يعني: بشروا المؤمنين بالنصرة، فكان الملك يمشي أمام الصف فيقول: أبشروا فإنكم كثير وعدوكم قليل، والله تعالى ناصركم)[١].

لكن كيف يكون إيحاء الملائكة إلى المؤمنين، إما أن يكون عن طريق الظهور المباشر في صورة رجال، وإما عن طريق الإلهام، يقول القشيري في لطائفه: (قيل كانوا يظهرون للمسلمين في صور الرجال يخاطبونهم بالإخبار عن قلة عدد المشركين واستيلاء المسلمين عليهم، وهم لا يعرفون أنهم ملائكة.

وقيل: تثبيتهم إياهم بأن كانوا يلقون في قلوبهم ذلك من جهة الخواطر، ثم إن الله يخلق لهم فيها ذلك، فكما يوصل الحق سبحانه وساوس الشيطان إلى القلوب يوصل خواطر الملك، وأيدهم بإلقاء الخوف والرعب في قلوب الكفار)[٢].

وإلقاء الرعب في نفوس المشركين فيه نصر للمؤمنين وتأييد لهم، فلا معونة أعظم من إلقاء الرعب في قلوب الكفرة ولا تثبيت أبلغ من ضرب أعناقهم. واجتماعهما غاية النصرة. ويجوز أن يكون غير تفسير، وأن يراد بالتثبيت أن يخطروا ببالهم ما تقوى به قلوبهم وتصح عزائمهم ونياتهم في القتال، وأن يظهروا ما يتيقنون به أنهم ممدون بالملائكة[٣].

أو يكون التثبيت بحضورهم معهم الحرب وتكثير سوادهم، أو محاربتهم معهم، أو طمأنتهم وقولهم لا بأس عليكم ولا خوف من عدوكم، فكان الملك يسير أمام الصف في صورة الرجل ويقول: سيروا فإن الله ناصركم. ويظن المسلمون أنه منهم[٤].

٢ . معية الله تعالى للمؤمنين.

وقد وردت آيات القرآن الكريم تبين معية الله تعالى الخاصة لعباده المؤمنين الذين لهم صفات تؤهلهم لهذه المعية مثل الصبر والإحسان والتقوى ونحو ذلك من صفات

---

(١) تفسير السمرقندي ٢/ ١١.

(٢) انظر: طائف الإشارات، القشيري ١/ ٦٠٧، زاد المسير، ابن الجوزي ٢/ ١٩٣.

(٣) انظر: الكشاف، الزمخشري ٢/ ٢٠٤، معالم التنزيل، البغوي ٣/ ٣٣٣.

(٤) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٧/ ٣٧٨.

تعينهم على أن يكونوا أهلا لمعية الملك سبحانه، ومن هذه الآيات قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٣﴾﴾ [البقرة:١٥٣].

ومعنى المعية هنا النصر والمعونة، والمظاهرة، فإن من كان الله معه فهو ناصره وظهيره وراض بفعله، كقول القائل: «افعل يا فلان كذا وأنا معك»، يعني: إني ناصرك على فعلك ذلك ومعينك عليه[1].

وعلى الرغم من أن الله تعالى مع كل أحد معية عامة إلا أنه مع الصابرين معية خاصة، وقد خصهم بالمعية حتى يعلموا أن الله سبحانه وتعالى بمعيته لهم يفرج عنهم، وينصرهم، لقد استوجبوا نهاية الذخر، وعلو القدر حيث نالوا معية الله[2].

قال الإمام ابن تيمية (في شرح حديث النزول): لفظ المعية في كتاب الله جاء عاما كما في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [الحديد:٤].

وفي قوله: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾ [المجادلة:٧].

إلى قوله: ﴿إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟﴾ وجاء خاصا كما في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾﴾ [النحل:١٢٨].

وقوله: ﴿إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه:٤٦].

وقوله: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة:٤٠].

فلو كان المراد بذاته مع كل شيء لكان التعميم يناقض التخصيص. فإنه قد علم أن قوله: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ أراد به تخصيص نفسه وأبا بكر دون عدوهم من الكفار.

وكذلك قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾﴾ خصهم بذلك دون الظالمين والفجار.

وأيضًا فلفظ المعية ليست في لغة العرب ولا في شيء من القرآن أن يراد بها اختلاط إحدى الذاتين بالأخرى. كما في قوله ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ﴾ [الفتح:٢٩].

وقوله: ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النساء:١٤٦].

وقوله: ﴿ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [التوبة:١١٩].

وقوله: ﴿وَجَٰهَدُوا۟ مَعَكُمْ﴾ [الأنفال:٧٥].

ومثل هذا كثير. فامتنع أن يكون قوله ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ﴾ يدل على أن تكون ذاته مختلطة بذوات الخلق. وقد بسط الكلام عليه في موضع آخر وبين أن لفظ المعية في اللغة، وإن اقتضى المجامعة والمصاحبة والمقارنة، فهو إذا كان مع العباد لم يناف

(١) جامع البيان ٣/ ٢١٤.
(٢) انظر: تفسير السمرقندي ١/ ١٠٥، الكشف والبيان، الثعلبي ٢/ ٢١، لطائف الإشارات، القشيري ١/ ١٣٨.

ذلك علوه على عرشه. ويكون حكم معيته في كل موطن بحسبه. فمع الخلق كلهم بالعلم والقدرة والسلطان. ويخص بعضهم بالإعانة والنصرة والتأييد[(١)].

وهذه المعية المقتضية للنصر والعون والإمداد معية خاصة كما سبق، (فالله ناصرهم ومجيب دعوتهم، ومن كان الله ناصره فلا غالب له، أما الجازع فقلبه لاه عن ذكر الله، والقلب اللاهي ممتلئ بهموم الدنيا وأكدارها، وإن حاز الدنيا بحذافيرها.

وقد جرت سنة الله أن الأعمال العظيمة لا تنجح إلا بالثبات والدأب عليها، ومدار ذلك كله الصبر، فمن صبر فهو على سنة الله والله معه، فيسهل له العسير من أمره، ويجعل له فرجا من ضيقه، ومن لم يصبر فليس الله معه، لأنه تنكب عن سنته، فلن يبلغ قصده وغايته)[(٢)].

وكما أن الله تعالى مع الصابرين والمحسنين فهو كذلك مع المتقين.

قال تعالى: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ [البقرة:١٩٤].

قال ابن عباس: «يريد مع أوليائه الذين يخافونه فيما كلفهم من أمره ونهيه»، قال الزجاج: «تأويله أنه ضامن لهم النصر»[(٣)].

وكما تكون المعية بالتأييد تكون كذلك من الظلم بالنصرة والظفر بالمعونة والحفظ والعلم[(٤)].

وتبدو السننية في هذه المعية الكريمة في تركيبة الآية إذ عبر فيها بالمشتق، كما هي صور ورود السنن في القرآن الكريم.

(١) محاسن التأويل ١/ ٤٣٧.
(٢) تفسير المراغي ٢/ ٢٣.
(٣) انظر: التفسير البسيط ١٠/ ٤١٧.
(٤) انظر: تفسير السمعاني ٢/ ٣٠٨، المحرر الوجيز، ابن عطية ٣/ ٣١، التسهيل لعلوم التنزيل، ابن جزي ١/ ٤٣٩.

وجود آلهة أخرى مع الله

تعددت أساليب القرآن الكريم في بيان نفي أن يكون مع الله آلهة أخرى، فمرة يأتي البيان في صورة النفي ومرة في صورة النهي، وثالثة في صورة الخبر التهديدي، وأخرى في صورة الشرط، وأخرى في صورة الاستفهام الإنكاري، وفي الصفحات الآتية نحاول أن نتتبع هذه الصور على النحو الآتي:

أولًا: النفي الصريح:

وقد وردت آيات كثيرة في القرآن الكريم تنهى نهيا صريحا عن اتخاذ آلهة مع الله تعالى، ومن المواطن التي ورد فيها ذلك في مقام بيان وعد الله تعالى بالاستخلاف للمؤمنين قوله تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ۝٥٥﴾ [النور:٥٥].

وفيها بيان للعلاقة بين عدم الشرك بالله والاستخلاف في الأرض كما هو واضح في الآية، وورد كذلك في مقام بيان صفات المؤمنين قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ۝٥٩﴾ [المؤمنون:٥٩].

ومنها قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ۝٦٨﴾ [الفرقان:٦٨].

والمعنى: لا يشركون به شيئا، بل يوحدونه ويخلصون له العبادة والدعوة[1].

وقد ورد في السنة في هذا المعنى: عن عمرو بن شرحبيل، عن عبد الله، قال: **(قلت: يا رسول الله، أي الذنب أعظم؟ قال: أن تجعل لله ندا وهو خلقك، قلت: ثم أي؟ قال: أن تقتل ولدك خشية أن يأكل معك، قلت: ثم أي؟ قال: أن تزاني حليلة جارك(فأنزل تصديق قول النبي صلى الله عليه وسلم:** ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ﴾ [الفرقان:٦٨]**الآية)**[2].

كما ورد النفي في القرآن في موضع آخر في قوله تعالى: ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ۝٩١﴾ [المؤمنون:٩١].

ونلمح في سياق الآية الكريمة مع النفي ترتيبا عجيبا يغري العقل بالتفكر، والذهن بالعمل، والمنطق بالتحرر والانطلاق، وهو ترتيب الانفصام والانفصال بين هذه الآلهة

(١) فتح القدير، الشوكاني ٤/ ١٠٢.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب قتل الولد خشية أن يأكل معه، ٨/ ٨.

المزعومة إن وجدت وبين وجودها، وهذا ما اعتمده علماء العقيدة في أدلة وبراهين نفي الشركاء والآلهة عن الله تعالى.

ثانيًا: النهي الصريح:

ومن أساليب القرآن في نفي المعية عن الله تعالى: النهي الصريح، وهذا أشد في نفي المعية وأقوى، ومن هذه المواضع التي ورد فيها قوله تعالى: ﴿لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَخْذُولًا ﴿٢٢﴾﴾ [الإسراء:٢٢].

والمعنى لا تتخذ مع الله إلها آخر فتصير إلى الذم لأنك أسندت النعمة إلى غير منعمها وحمدت من لا يستحق الحمد وغمط صاحب الفضل والنعمة وساعتها تصير مذموما لاختلال النظر لديك وفساد الحكم في ناظريك، ومخذولا لأن صاحب النعمة والمنة سيكلك إلى من تألهت له وتعبدت فيه، وليس هو من ينصر ولا يعين.

وقوله: (تقعد) من قولهم شحذ الشفرة حتى قعدت، كأنها حربة بمعنى صارت، يعني: فتصير جامعا على نفسك الذم وما يتبعه من الهلاك من إلهك، والخذلان والعجز عن النصرة ممن جعلته شريكا له[1].

ويبين الإمام الرازي سبب هذه العقوبة الشديدة والجزاء الوفاق الذي يتناسب مع هذه الجريمة النكراء والعمل الكالح بصورة منطقية عقلية فيرى أن من أشرك بالله كان مذموما مخذولا، والذي يدل على أن الأمر كذلك وجوه:

الأول: أن المشرك كاذب والكاذب يستوجب الذم والخذلان.

الثاني: أنه لما ثبت بالدليل أنه لا إله ولا مدبر ولا مقدر إلا الواحد الأحد، فعلى هذا التقدير تكون جميع النعم حاصلة من الله تعالى، فمن أشرك بالله فقد أضاف بعض تلك النعم إلى غير الله تعالى، مع أن الحق أن كلها من الله، فحينئذ يستحق الذم، لأن الخالق تعالى استحق الشكر بإعطاء تلك النعم فلما جحد كونها من الله، فقد قابل إحسان الله تعالى بالإساءة والجحود والكفران فاستوجب الذم وإنما قلنا إنه يستحق الخذلان، لأنه لما أثبت شريكا لله تعالى استحق أن يفوض أمره إلى ذلك الشريك، فلما كان ذلك الشريك معدوما بقي بلا ناصر ولا حافظ ولا معين. وذلك عين الخذلان.

الثالث: أن الكمال في الوحدة والنقصان في الكثرة، فمن أثبت الشريك فقد وقع في جانب النقصان واستوجب الذم والخذلان، واعلم أنه لما دل لفظ الآية على أن المشرك مذموم مخذول وجب بحكم الآية أن يكون الموحد ممدوحًا منصورًا[2].

(١) الكشاف، الزمخشري ٢/ ٦٥٧.

(٢) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٢٠/ ٣٢٠.

ومن لطائف البيان القرآني هنا أن الأمر على الرغم من عمومه وأنه موجه إلى كل الخلائق إلا أن التكليف والتوجيه أتى بصيغة الفردية ووجه إلى المفرد ليحس كل أحد أنه أمر خاص به، صادر إلى شخصه. فالاعتقاد مسألة شخصية مسؤول عنها كل فرد بذاته، والعاقبة التي تنتظر كل فرد يحيد عن التوحيد أن «يقعد» «مذموما» بالفعلة الذميمة التي أقدم عليها، «مخذولا» لا ناصر له، ومن لا ينصره الله فهو مخذول وإن كثر ناصروه. ولفظ: ﴿فَتَقْعُدَ﴾ يصور هيئة المذموم المخذول وقد حط به الخذلان فقعد، ويلقي ظل الضعف فالقعود هو أضعف هيئات الإنسان وأكثرها استكانة وعجزا، وهو يلقي كذلك ظل الاستمرار في حالة النبذ والخذلان، لأن القعود لا يوحي بالحركة ولا تغير الوضع، فهو لفظ مقصود في هذا المكان[1].

وهذا التذييل هو فذلكة لاختلاف أحوال المسلمين والمشركين، فإن خلاصة أسباب الفوز ترك الشرك لأن ذلك هو مبدأ الإقبال على العمل الصالح فهو أول خطوات السعي لمريد الآخرة، لأن الشرك قاعدة اختلال التفكير وتضليل العقول[2].

ومن هذه المواضع التي نفى فيها سبحانه المعية بصورة النهي قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ ۗ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِى جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا ﴿٣٩﴾﴾ [الإسراء:٣٩].

والمعنى: واحذر أيها المكلف أن تتخذ مع الله إلها غيره ﴿إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ [النحل:٥١].

إن فعلت ذلك فقد حق عليك أن ترمى وتطرح في نار جهنم في مهانة وذلة، وأنت معلوم من نفسك على ما اقترفت وملوم من الملائكة خزنة جهنم حين تعنفك[3].

ولا يحتاج إلى بيان هنا أن الخطاب وإن كان واردا للنبي صلى الله عليه وسلم إلا أن المراد به أمته لاستحالة صدور ذلك منه فهو المعصوم[4].

ويلاحظ أن الآيات الكريمة السابقة صدرت بالنهي عن الشرك وبيان أن الله تعالى قضى بأن لا يعبد إلا إياه، وكرر النهي هنا للتنبيه على أن التوحيد مبدأ الأمر ومنتهاه، فإن من لا قصد له بطل عمله ومن قصد بفعله أو تركه غيره ضاع سعيه، وأنه رأس الحكمة وملاكها، ورتب عليه أولًا ما هو عائده الشرك في الدنيا وثانيًا ما هو نتيجته في العقبى فقال تعالى: ﴿فَتُلْقَىٰ فِى

تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ٦٤.

(١) في ظلال القرآن ٤/ ٢٢٢٠.

(٢) التحرير والتنوير ١٥/ ٦٤.

(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ١٧/ ٤٥٢، التفسير الوسيط، الواحدي ٥/ ٧٥٨.

(٤) تفسير السمعاني ٣/ ٢٤٣، معالم التنزيل، البغوي ٣/ ١٣٥.

﴿جَهَنَّمَ مَلُومًا﴾ تلوم نفسك[(١)].

ومن لطائف النص القرآني البديع ما ذكره الإمام الشوكاني بأن القرآن راعى في هذا التأكيد دقيقة فرتب على الأول كونه مذمومًا مخذولًا، وذلك إشارة إلى حال الشرك في الدنيا، ورتب على الثاني أنه يلقى في جهنم ملوما مدحورا وذلك إشارة إلى حاله في الآخرة، وفي القعود هناك، والإلقاء هنا، إشارة إلى أن للإنسان في الدنيا صورة اختيار بخلاف الآخرة[(٢)].

ومنها قوله تعالى: ﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ ﴿٢١٣﴾﴾ [الشعراء:٢١٣].

ونلاحظ هنا شدة النهي وترتب العذاب على الاتخاذ إن وجد، مع ذكرنا منهجية القرآن في خطاباته للنبي صلى الله عليه وسلم والتي غالبا ما تصدر بما يشعر بأنها ليست عتابا مثل ﴿عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾ [التوبة:٤٣].

ومثل ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١﴾﴾ [عبس:١].

بصيغة الغائب، والخطاب هنا وارد على تحذير غيره مبالغة بذكره هو صلى الله عليه وسلم، كأن القرآن يقول: إذا كان هذا تهديدنا ووعيدنا لك فكيف يكون لغيرك.

كما قال الإمام القرطبي: المعنى قل لمن كفر هذا القول تهديدا له بالتعذيب.

وقيل: هو مخاطبة له عليه السلام وإن كان لا يفعل هذا، لأنه معصوم مختار ولكنه خوطب بهذا والمقصود غيره. ودل على هذا قوله: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾ [الشعراء:٢١٤].

أي: لا يتكلون على نسبهم وقرابتهم فيدعون ما يجب عليهم[(٣)].

قال ابن عباس رضي الله عنهما يحذر به غيره، يقول: أنت أكرم الخلق علي، ولو اتخذت إلها غيري لعذبتك[(٤)].

وورد التركيب بهذه الصورة فخوطب به النبي صلى الله عليه وسلم مع ظهور استحالة صدور المنهي عنه منه صلى الله عليه وسلم تهييجا وحثا على ازدياد الإخلاص ولطفا لسائر المكلفين ببيان أن الإشراك من القبح والسوء بحيث ينهى عنه من لا يمكن صدوره عنه فكيف بمن عداه[(٥)].

كما حفل القرآن الكريم بآيات أخرى تنص على النهي عن المعية كقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾﴾ [الجن:١٨].

---

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ٧٧.
(٢) فتح القدير، الشوكاني ٣/ ٢٧٢.
(٣) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٣/ ١٤٢، مدارك التنزيل، النسفي ٢/ ٥٨٦.
(٤) انظر: معالم التنزيل، البغوي ٣/ ٤٨٠، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٥٩٨.
(٥) انظر: إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٦/ ٢٦٧، التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٩/ ٢٠٠.

ثانيًا: الاستفهام الإنكاري:

ومن أساليب القرآن في إنكار آلهة مع الله: استعمال الاستفهام الإنكاري.

وقد ورد هذا في مواطن متعددة من القرآن الكريم، كقوله تعالى: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَىٰ قُل لَّا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ۝١٩﴾ [الأنعام:١٩].

والمعنى: يقول تعالى ذكره لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم: قل لهؤلاء المشركين، الجاحدين نبوتك، العادلين بالله، ربا غيره: ﴿أَئِنَّكُمْ﴾ أيها المشركون ﴿لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَىٰ﴾ يقول: تشهدون أن معه معبودات غيره من الأوثان والأصنام.

ثم قال لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم: ﴿قُل﴾ يا محمد ﴿لَّا أَشْهَدُ﴾ بما تشهدون: أن مع الله آلهة أخرى، بل أجحد ذلك وأنكره فإنما هو معبود واحد، لا شريك له فيما يستوجب على خلقه من العبادة وقل: ﴿وَإِنَّنِي بَرِيءٌ﴾ من كل شريك تدعونه لله، وتضيفونه إلى شركته، وتعبدونه معه، لا أعبد سوى الله شيئا، ولا أدعو غيره إلها[1].

إنه لما بين تعالى شهادته التي هي أكبر الشهادات على توحيده قال: قل لهؤلاء المعارضين لخبر الله والمكذبين لرسله: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَىٰ قُل لَّا أَشْهَدُ﴾ أي: إن شهدوا فلا تشهد معهم.

فوازن بين شهادة أصدق القائلين ورب العالمين وشهادة أزكى الخلق المؤيدة بالبراهين القاطعة والحجج الساطعة على توحيد الله وحده لا شريك له وشهادة أهل الشرك الذين مرجت عقولهم وأديانهم وفسدت آراؤهم وأخلاقهم وأضحكوا على أنفسهم العقلاء.

بل خالفوا بشهادة فطرهم وتناقضت أقوالهم على إثبات أن مع الله آلهة أخرى مع أنه لا يقوم على ما قالوه أدنى شبهة فضلا عن الحجج واختر لنفسك أي الشهادتين إن كنت تعقل ونحن نختار لأنفسنا ما اختاره الله لنبيه الذي أمرنا الله بالاقتداء به فقال: ﴿قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ أي: منفرد لا يستحق العبودية والإلهية سواه كما أنه المنفرد بالخلق والتدبير[2].

وهذا تقرير لهم مع إنكار واستبعاد قل لا أشهد شهادتكم[3].

ففيه إنكار عليهم توبيخ وتقريع[4].

ثالثًا: الخبر التهديدي:

ولقد تنوعت أساليب القرآن في نفي

---

(١) جامع البيان، الطبري ١١/ ٢٩٢.

(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٢٥٣.

(٣) انظر: الكشاف، الزمخشري ٢/ ١١، زاد المسير، ابن الجوزي ٢/ ١٥.

(٤) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٦/ ٣٩٩.

وجود آلهة مع الله تعالى، ومن هذه الأساليب: الخبر التهديدي، وتكرر هذا في القرآن الكريم مرات عديدة، ومن هذا قوله تعالى: ﴿إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ۝٩٥ ٱلَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ۝٩٦﴾ [الحجر: ٩٥-٩٦].

وواضح في الآية الكريمة بلاغة التهديد، وشدة الوعيد خاصة في قوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ خاصة إذا قر في ذهن السامع والمخاطب من الذي يهدد ويتوعد، فهو رب الكون وصاحب الأمر والنهي سبحانه، فقد وعده الله تعالى كفاية هؤلاء المستهزئين.

والمعنى أن الله تعالى يقول لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم: إنا كفيناك المستهزئين يا محمد، الذين يستهزئون بك ويسخرون منك، فاصدع بأمر الله، ولا تخف شيئا سوى الله، فإن الله كافيك من ناصبك وآذاك كما كفاك المستهزئين. وكان رؤساء المستهزئين قوما من قريش معروفين[١].

وفي الآية تسلية له عليه الصلاة والسلام. وتهوينا للخطب عليه، بأنهم أصحاب تلك الجريمة العظمى، التي هي أكبر الكبائر، التي سيخذلون بسببها. كما قال: ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ أي: عاقبة أمرهم. وفي الآية وعيد شديد لمن جعل معه تعالى معبودًا آخر. وقد أشار كثير من المفسرين إلى أن قوله تعالى: ﴿إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ﴾ عنى به ما عجله من إهلاكهم[٢].

ومن الآيات التي حملت الخبر التهديدي لمن يجعل مع الله آلهة أخرى، قوله تعالى: ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١١٧﴾ [المؤمنون: ١١٧].

والمعنى: ومن يدع مع الله إلها آخر لا برهان له به، أي: لا حجة ولا بينة له، به لأنه لا حجة في دعوى الشرك ﴿فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ﴾، جزاؤه عند ربه يجازيه بعمله[٣].

والمعنى الذي له عند ربه أنه لا يفلح ﴿فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ﴾ فيجازيه عليه كما قال: ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ۝٢٦﴾ [الغاشية: ٢٦][٤].

وفي الآية إنذار لكل من يدعو مع الله إلها آخر ويشركه معه في الاتجاه والعبادة بدون برهان. فحسابه عند ربه ولن يلقى فلاحًا[٥].

ومن أشد الآيات التي تهدد من يتخذ مع الله إلها آخر قوله تعالى: ﴿أَلْقِيَا فِى جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ۝٢٤ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ ۝٢٥ ٱلَّذِى جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ ۝٢٦﴾ [ق: ٢٤-٢٦].

---

(١) جامع البيان، الطبري ١٧/ ١٥٣.

(٢) محاسن التأويل، القاسمي ٦/ ٣٤٦.

(٣) معالم التنزيل، البغوي ٣/ ٣٧٨.

(٤) انظر: معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ٤/ ٢٥.

(٥) التفسير الحديث، محمد عزت ٥/ ٣٣٨.

وهذا تصوير لمآله يوم القيامة وموقف الملائكة منه، والتعبير بالإلقاء هنا مشعر بهول الموقف، والإلقاء في العذاب الموصوف بالشدة، وترتيب الجزاء على الاسم الموصول وكون صلته أنه جعل مع الله إلها آخر مشعر بضخامة العذاب وهول العقوبة لهول الذنب.

رابعًا: أسلوب الشرط:

ومن أساليب القرآن الكريم في النهي عن اتخاذ آلهة مع الله، وبيان أنها شرك: أسلوب الشرط، فقال تعالى في موضع: ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِندَ رَبِّهِ ۚ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴿١١٧﴾﴾ [المؤمنون:١١٧].

وفي الآية الكريمة من التهديد والوعيد ما فيه، والتعبير القرآني البديع: ﴿فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِندَ رَبِّهِ﴾ غاية في التهديد والوعيد، واختيار لفظ الربوبية التي تشعر باللوم والعتاب على عدم رعاية العبد لهذه الربوبية، وخلطها بغيرها، وعدم عرفان العبد بها مبين أي بيان عن عدم توفيق هذا الذي يستجلب على نفسه غضب ربه والرب بصفاته يعم بفضله مخلوقاته، ويشمل بفيضه جميع الكائنات، فالمحروم من حرم هذه الرحمة على سعتها، والمغبون من جانبه هذا الفضل على اتساعه وعمومه، والمخذول من خلاه هذا التوفيق الرباني.

وقوله: ﴿لَا بُرْهَانَ لَهُ﴾ مع أنه معلوم أنه لا يمكن أن يكون له برهان مشعر بأنه ليس لديه أي دليل ولو كان الدليل وهميا على اتخاذ هذا مع الله تعالى، فهو لا حجة له بالكفر ولا عذر يوم القيامة. كما أن تركيب الجملة بهذه الصورة، وورود الخاتمة: ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ هذا الورود مشعر بأنه جواب لسؤال سابق أو مستتر كأنه قيل: لم كل هذا فقيل: لأنه لا يفلح الكافرون.

يقول الإمام البيضاوي رحمه الله: ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ﴾ يعبده إفرادًا أو إشراكًا. ﴿لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ﴾ صفة أخرى لـ ﴿إِلَٰهًا﴾ لازمة له فإن الباطل لا برهان به، جيء بها للتأكيد وبناء الحكم عليه تنبيها على أن التدين بما لا دليل عليه ممنوع فضلًا عما دل الدليل على خلافه، أو اعتراض بين الشرط والجزاء لذلك: ﴿فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِندَ رَبِّهِ﴾ فهو مجاز له مقدار ما يستحقه[(١)].

ومن هذا الباب قوله تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّابْتَغَوْا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾﴾ [الإسراء:٤٢].

قال ابن عباس: «قل لأهل مكة لو كان معه آلهة كما يقولون من الأوثان، إذا لابتغوا إلى ذي العرش سبيلا، أي: طريقًا وكانوا

(١) انظر: أنوار التنزيل، البيضاوي ٤/ ٩٧، محاسن التأويل، القاسمي ٧/ ٣٠٦.

كهيئته». وقال قتادة: أي يعرفوا فضل ذي العرش ومرتبته عليهم. ويقال: ابتغوا طريقا للوصول إليه. وقال مقاتل: لطلبوا سبيلا ليقهروه كفعل الملوك بعضهم بعضا. ثم نزه نفسه عن الشريك، فقال تعالى: سبحانه، أي :تنزيها له وتعالى عما يقولون أي: عما يقول الظالمون إن معه شريكًا. علوّا كبيرًا، أي: بعيدًا عما يقول الكفار(١).

وهذا تنزيه من الله تعالى ذكره نفسه عما وصفه به المشركون، الجاعلون معه آلهة غيره، المضيفون إليه البنات، فقال: تنزيها لله وعلوا له عما تقولون أيها القوم، من الفرية والكذب، فإن ما تضيفون إليه من هذه الأمور ليس من صفته، ولا ينبغي أن يكون له صفة(٢).

وهكذا تتنوع أساليب القرآن الكريم في نفي وجود آلهة مع الله تعالى وسبحان من عز عن النظير والشبيه وتعالى عن الند والمثيل.

(١) انظر: تفسير السمرقندي ٢/ ٣١٢.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ١٧/ ٤٥٣، التسهيل لعلوم التنزيل، ابن جزي ١/ ٤٤٧.

معية الرسل عليهم السلام

ومن صور المعية الواردة في القرآن الكريم معية المرسلين عليهم السلام، ويقصد بها جانبان: معية الرسل للناس، ومعية الناس لهم.

أولًا: معية الرسل للناس:

وقد أجمل أستاذنا العلامة الدكتور عبد الستار سعيد في جمع تصور تلك المعية بصورة بديعة إذ يرى أن معية الرسل للناس جماعها في أمور منها:

١. معية التربص والانتظار.

وهي في جانب المدعوين بعد إقامة الحجة عليهم وتنكرهم للبرهان واعتسافهم للدليل. ومنه ما حدث مع نبي الله هود مع قومه، إذ قال الله تعالى فيهم: ﴿قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ ﴿٧١﴾﴾ [الأعراف:٧١].

والمعنى كما قال ابن عباس: وجب ونزل عليكم عذاب وسخط(٣).

(وهذا تهديد ووعيد من الرسول لقومه ولهذا عقبه بقوله: ﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ

(٣) انظر: النكت والعيون، الماوردي ٢/ ٢٣٤، زاد المسير، ابن الجوزي ٢/ ١٣٤.

﴿بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾.

وقد ذكر الله سبحانه صفة إهلاكهم في أماكن أخر من القرآن بأنه أرسل عليهم الريح العقيم ما تذر من شيء أتت عليه إلا جعلته كالرميم كما قال في الآية الأخرى)[1].

ومنه ما ورد على لسان شعيب عليه السلام: ﴿وَيَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴿٩٣﴾﴾ [هود:٩٣].

يعني: (اعملوا في هلاكي وفي أمري، إني عامل في أمركم ومكانتكم، ثم قال: ﴿سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ وهذا وعيد لهم، ستعلمون من هو كاذب، ويقال: ﴿مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾ يعني: يهلكه ويهينه ﴿وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ﴾ يعني: ستعلمون من هو كاذب.

ويقال معناه: من يأتيه عذاب يخزيه، ويخزي أمره، من هو كاذب على الله بأن معه شريكا، ﴿وَارْتَقِبُوا﴾ يعني: انتظروا بي العذاب ﴿إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ﴾ يعني: منتظر بكم العذاب في الدنيا)[2].

والمعنى: اعملوا (على تؤدتكم وتمكنكم فإني على تمكني، فسوف تعلمون أينا الجاني على نفسه، والمخطئ في فعله، فذلك قوله: ﴿مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾ يذله ﴿وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ﴾ وانتظروا العذاب إني معكم منتظر)[3].

٢. معية الصبر والالتزام، مع ضعفاء المؤمنين الضعاف.

ومنه ما ورد في أمر الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا ﴿٢٨﴾﴾ [الكهف:٢٨].

وفي الآية يأمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم بالصبر مع هذه الفئة المؤمنة والصبر معها حتى يبلغهم رسالته، وألا يرفع بصره عنهم، وعدم الانشغال بمن غفل عن ذكر الله تعالى، واتبع هوى نفسه.

يقول تعالى ذكره لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم: ﴿وَاصْبِرْ﴾ يا محمد ﴿نَفْسَكَ مَعَ﴾ أصحابك ﴿الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ﴾ بذكرهم إياه بالتسبيح والتحميد والتهليل والدعاء والأعمال الصالحة من الصلوات المفروضة وغيرها ﴿يُرِيدُونَ﴾ بفعلهم ذلك ﴿وَجْهَهُ﴾ لا يريدون عرضا من عرض الدنيا.

وقوله: ﴿تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ يقول

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ٣٩٠.
(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ١٥/ ٤٦٣، تفسير السمرقندي ٢/ ١٦٨.
(٣) انظر: معالم التنزيل، البغوي ٤/ ١٩٧، تفسير القرآن العزيز، ابن أبي زمنين ٢/ ٣٠٧.

تعالى ذكره لنبيه صلى الله عليه وسلم: لا تعد عيناك عن هؤلاء المؤمنين الذين يدعون ربهم إلى أشراف المشركين، تبغي بمجالستهم الشرف والفخر)[1].

ومن روائع الآية الكريمة ولطائفها أنه تعالى قال: ﴿وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ﴾ ولم يقل: «قلبك» لأن قلبه كان مع الحق، فأمره بصحته جهرا بجهر، واستخلص قلبه لنفسه سرًا بسر.

ويقال: ﴿يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥ﴾: معناها مريدين وجهه أي في معنى الحال، وذلك يشير إلى دوام دعائهم ربهم بالغداة والعشي وكون الإرادة على الدوام[2].

٣. المعية الممنوعة المحرمة.

وتكون في حق الظالمين والمعاندين، وتقع دائما بعد نهي عنها وأمر بمفارقة أصحابها وعدم شهود مجالسهم، ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيۡتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيۡرِهِۦۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَلَا تَقۡعُدۡ بَعۡدَ ٱلذِّكۡرَىٰ مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ٦٨﴾ [الأنعام:٦٨].

يقول تعالى ذكره لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم: وإذا رأيت يا محمد المشركين الذين يخوضون في آياتنا التي أنزلناها إليك، ووحينا الذي أوحيناه إليك، و«خوضهم فيها»، كان استهزاءهم بها، وسبهم من أنزلها وتكلم بها، وتكذيبهم بها ﴿فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ﴾ يقول: فصد عنهم بوجهك، وقم عنهم، ولا تجلس معهم ﴿حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيۡرِهِۦ﴾ يقول: حتى يأخذوا في حديث غير الاستهزاء بآيات الله من حديثهم بينهم وإن أنساك الشيطان نهينا إياك عن الجلوس معهم والإعراض عنهم في حال خوضهم في آياتنا، ثم ذكرت ذلك، فقم عنهم، ولا تقعد بعد ذكرك ذلك مع القوم الظالمين الذين خاضوا في غير الذي لهم الخوض فيه بما خاضوا به فيه[3].

وهؤلاء المراد بهم المشركون أو اليهود أو أصحاب الأهواء كما منعه الله تعالى من شهودهم ومخالطتهم عقوبة لهم بالحرمان، وإبعادا لهم عن أسباب التوفيق جزاء فعلهم، فقال تعالى: ﴿قُلۡ هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ يَشۡهَدُونَ أَنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَاۖ فَإِن شَهِدُواْ فَلَا تَشۡهَدۡ مَعَهُمۡۚ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمۡ يَعۡدِلُونَ ١٥٠﴾ [الأنعام:١٥٠].

والمعنى: ﴿فَإِن شَهِدُواْ فَلَا تَشۡهَدۡ مَعَهُمۡ﴾ أي: لأنهم إنما يشهدون والحالة هذه كذبا وزورا ﴿وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ

(١) جامع البيان، الطبري ١٨/ ٦.
(٢) لطائف الإشارات، القشيري ٢/ ٣٩١.
(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ١١/ ٤٣٦، معالم التنزيل، البغوي ٢/ ٣٠١، زاد المسير، ابن الجوزي ٢/ ٤١.

﴿وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ۝١٥٠﴾ أي: يشركون به ويجعلون له عديلا.[1]

ثانيًا: معية الناس للرسل:

والمتأمل للآيات التي تناولت معية الناس للرسل يمكن أن يقسمها إلى قسمين:

- معية في غير أمور الدين، مثل معية صاحبي يوسف ليوسف في السجن، ومعية إسماعيل لإبراهيم عليه السلام عندما بلغ معه السعي.
- ومعية في أمور الدين وهي التي تعني الاتباع ويعبر عنها القرآن الكريم بالاستجابة، والإسلام، والطاعة، والنصرة، والجهاد، والعبادة، والتوبة، ونحوها.

وقد سلك القرآن الكريم في بيان معية الناس للرسل مسلكين عامًا وخاصًا، فالعام هو ما ذكرت فيه المعية بصفة عامة دون تحديد صاحب المعية، وتأتي هذه الآيات في صورة سننية قاعدية مطردة، كقوله تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ ۝١٤٦﴾ [آل عمران:١٤٦].

وكما نلاحظ في الآية الكريمة أن لفظة: ﴿نَّبِيٍّ﴾ وردت نكرة بما يفيد عمومها وشيوعها، ومنه قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ ۗ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ۝٢١٤﴾ [البقرة:٢١٤].

وفي هاتين الآيتين تبدو صورة المعية في أقوى مراحلها وفي أدق خصائصها إذ هي في مرحلة الابتلاء والاختبار والجهاد ومس البأساء والضراء والزلزلة.

والمعنى وكأين من نبي قاتل معه جماعات كثيرة ربانيون علماء أتقياء، أو عابدون لربهم. فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله، وما فتروا ولم ينكسر جدهم لما أصابهم من قتل النبي أو بعضهم. وما ضعفوا عن العدو أو في الدين. وما استكانوا وما خضعوا للعدو بل صبروا وثبتوا، وشجعوا أنفسهم، هذا تسلية للمؤمنين، وحث على الاقتداء بهم، والفعل كفعلهم، وأن هذا أمر قد كان متقدما، لم تزل سنة الله جارية بذلك[2].

ثالثًا: معية الرسل الخاصة:

وأما المسلك الخاص فقد بدا في حديث القرآن الكريم عن الرسل عليهم السلام بذكرهم صراحة، قد حفلت آيات القرآن ببيان هذه المعية، ويمكن أن نتتبعها على

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ٣٢٢.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ٦/ ١١١، معالم التنزيل، البغوي ٢/ ١١٦.

النحو الآتي:

١. معية نوح عليه السلام.

وأول ما نلمح في الآيات التي وردت عن المعية في حق نوح والذين آمنوا معه، يبدو لنا أنها من أكثر المواطن التي تكرر فيها لفظ المعية، مع نبي من الأنبياء، فقد وردت ثماني مرات وكأن في ذلك تأسيسا لأن معية الصالحين أصل في قيام الحضارة وبقاء الإنسانية أصلا، كما أن في ذلك بيانا وإشارة إلى أن قيام الجماعة المؤمنة أصل قديم في دعوة الأنبياء عليهم السلام، كما نلاحظ أن معية نوح والإيمان بالله سبب في النجاة والفوز، فقد فصلت الآيات الكريمة بين معسكرين معسكر الخير والحق وهم من ركبوا مع نوح في الفلك، ومعسكر الشر والباطل وهم المغرقون، ولذلك دعا نوح عليه السلام ابنه ليركب معهم وقال: ﴿يَٰبُنَيَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [هود:٤٢].

والعجيب أن نوحا عليه السلام عبر عن غير الراكبين معه بالكافرين إشارة إلى أن سبب عدم ركوبهم هو عدم إيمانهم بنوح، وعدم ثقتهم في أوامر الله تعالى، فكأنه كما انقسم الناس في أمره إلى أهل حق وأهل باطل انقسموا في النهاية إلى ناجين ومغرقين بل مؤمنين وكافرين وكأن النجاة الأولى مقدمة للنجاة في الآخرة، والهلاك في الأولى مقدمة للهلاك في الآخرة، ولعل هذا من أسرار تعبيره عليه السلام عنهم بـ(الكافرين).

كما تلمح من الآيات الكريمة أن من تمام نعمة الله تعالى على المؤمنين معه أن أهلك عدوهم، وتكرر هذا في آيات متعددة، ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ ﴿٦٤﴾﴾ [الأعراف:٦٤].

﴿فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَعَلْنَٰهُمْ خَلَٰٓئِفَ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾﴾ [يونس:٧٣].

٢. معية هود عليه السلام.

ومعية هود عليه السلام واضح منها أنها معية له بعد الإيمان به؛ لأنه في هذه المراحل الصعبة من عمر الدعوات لا يتبع الأنبياء إلا أولو العزائم، فهي فترات ابتلاء واختبار، ويبدو في الآيات الكريمة التي تحدثت عن معية هود عليه السلام أمور منها: التأكيد أن الإيمان والمعية هما سبب النجاة، ولذا ورد في الآيتين اللتين تحدثتا عن معية هود الربط بين المعية والإيمان، كما ورد أيضا النص على هلاك عدوهم، بل قطع دابرهم، وفي ذلك شفاء لصدور المؤمنين، وإراحة لنفوسهم.

٣. معية صالح عليه السلام.

وفي حق صالح عليه السلام ما زال التأكيد أن المعية والإيمان سبب النجاة والعصمة، فقد ورد التلازم بين الإيمان والمعية كذلك، فقال تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْىِ يَوْمِئِذٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿٦٦﴾ ﴾ [هود:٦٦].

فما زالت البشرية في عهد بناء الجماعة المؤمنة، وفي الآية بيان أنَّ سبب النجاة الإيمان والمعية.

٤. معية شعيب عليه السلام.

وفي حق شعيب عليه السلام يستمر الأمر على تباعد الزمان والمكان، بل تتضح تلازمية النصر بالمؤمنين من خلال معرفة الكافرين بهذا، فلم يقتصر التهديد هنا لشعيب فقط بل هو والذين معه، وهنا ﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ ﴿٨٨﴾ ﴾ [الأعراف:٨٨].

بل تبدو سنة من سنن الله تعالى في الدعوات وأصحابها إلى الإخراج والإبعاد، وهي سنة تتكرر شأن السنن الماضية؛ فقد هددوا شعيبًا والذين آمنوا معه بالطرد والإبعاد حتى يعودوا في ملتهم مرة أخرى، والزمن يعيد نفسه وسننة الماضية، والجواب من الو الجواب على تراخي الزمن وتباعد المكان: ﴿ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ ﴿٨٨﴾ قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا ۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۚ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا ۚ رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ ﴿٨٩﴾ ﴾ [الأعراف:٨٨-٨٩].

ويستمر الجواب على نفس السؤال حتى يقضي الله بالحق وينتصر الصدق ورسالة الإسلام.

إن الناقمين اليوم في أعصارنا التي نشهدها على المسلمين ليسوا ناقمين إلا لأنهم أصحاب دين وأرباب رسالة، تتغلل إلى نفوس الناس وتتلطف إلى قلوبهم، والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

٥. معية إبراهيم عليه السلام.

وتستمر النماذج الرائدة في المعية مع الأنبياء والمرسلين على تباعد المكان وتطاول الزمان، فنصل إلى إبراهيم عليه السلام، وتستمر آيات المعية في التأكيد على أهمية الأمة الجديدة وضرورة صلابتها في مقارعة الباطل ومنازلة الشرك إلى آخر مدى، ويبدو من الآية الكريمة مصارعة الذين آمنوا للكافرين مصارعة فكرية واضحة بان فيها إعلان البراءة منهم، وكفرهم بهم، وبدو العداوة والبغضاء أبدًا حتى يؤمنوا

بالله وحده، وهذه نقلة في الخطاب لم تكن من قبل، تبدو فيها المفاصلة والمباينة حتى يظهر معنى الولاء والبراء، ثم الالتجاء إلى الله تعالى والتوكل عليه والإنابة إليه، والوعي العملي بأن الكل صائر إليه.

فيقولون في وضوح وشموخ: ﴿إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ۝٤﴾ [الممتحنة:٤].

ولأمر حكيم صُدِّرت الآية بندب المؤمنين إلى التأسي بهذه الصفات التي لا بد منها في مقارع، ثم كرر القرآن الكريم لفت أنظار المؤمنين إلى هذه الأسوة الحسنة بعد آية واحدة فقال: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ۝٦﴾ [الممتحنة:٦].

٦. معية موسى وهارون عليهما السلام.

ومن جمع الآيات التي تتحدث عن معية موسى عليه السلام يمكننا أن نستبين بعض المفاهيم منها:

❁ المعية أمر من الله من بداية الدعوة.

إن المعية كانت من بداية الدعوة، وهي معية هارون أخيه له.

قال تعالى: ﴿حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ۝١٠٥﴾ [الأعراف:١٠٥].

وهذا مبني على أن الأمر بالمعية كان من بداية الدعوة: ﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٦ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ۝١٧﴾ [الشعراء:١٦-١٧].

فالإرسال(مقيد بالمعية في الآيات جميعا، وليس مجرد إرسال مطلق يتحرر به بنو إسرائيل من بطش فرعون فقط، وإنما هو دخول في معية الجماعة المسلمة الجديدة، التي تتميز بها عن معية فرعون وقومه)[1].

❁ معية موسى وموقف أتباع فرعون منها.

وهذه المعية كما كانت أمرًا من بداية الدعوة، وطلبا من موسى وهارون لفرعون حين طلبًا أن يرسل معهم بني إسرائيل، أدركها أتباع فرعون حين أرادوا وأد الدعوة من البداية، فاطيروا بها وبه وبهم فكانوا كما وصف القرآن الكريم: ﴿فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُواْ لَنَا هَٰذِهِۦ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۝١٣١﴾ [الأعراف:١٣١].

وكذلك كانت نظرة أتباع فرعون إلى موسى وهارون وقومهما حين ظهرت

(١) المدخل إلى التفسير الموضوعي، عبدالستار سعيد ص ١٤٩.

دعوتهم، ويبدأ الناس يقتنعون بها، كما وصف القرآن الكريم: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ (٢٥)﴾ [غافر:٢٥].

لقد طلبوا قتل أبناء المؤمنين، ووصفوهم بالمعية والإيمان.

- استنقاذ بني اسرائيل من فرعون.

كما كانت المعية واضحة في نجاة هؤلاء المؤمنين، ﴿وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ أَجْمَعِينَ (٦٥)﴾ [الشعراء:٦٥].

والمعنى: (وأنجينا موسى مما أتبعنا به فرعون وقومه من الغرق في البحر ومن مع موسى من بني إسرائيل أجمعين)[1].

٧. معية داود وسليمان عليهما السلام.

وإذا انتقلنا إلى الحديث عن معية داود وسليمان عليهما السلام بان لنا عدد من الملامح - من خلال رصد الآيات الكريمة الخاصة بمعيتهم منها:

- المعية هنا ليست معية البشر فقط.
- أن الآيات الكريمة التي تحدثت عنهم لم تتحدث عن معيتهم للبشر، فقد كانا ملكين، ومعية الناس لهم ليست مستغربة ولا منكرة وهم لم يكونا بحاجة إلى دعوة الناس إلى معيتهم، بل ظهرت معية أشياء أخرى مثل معية

الجبال والطير، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ (١٨) وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهُ أَوَّابٌ (١٩)﴾ [ص:١٨-١٩]. وكما قال سبحانه: ﴿۞ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلًا يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ (١٠)﴾ [سبأ:١٠].

كما نصت الآيات على معية بلقيس ملكة سبأ وقومها، وهم من كانوا (مظنة امتناع عن معية سليمان؛ لما كان لهم من دولة وقوة وجيش وحضارة وغنى وسلطان، فأثبت القرآن هذه المعية على لسان الملكة نفسها حين قالت: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٤٤)﴾ [النمل:٤٤].

٨. معية عيسى عليه السلام.

وأما نبي الله عيسى عليه السلام فلأنه لم يكن مؤسسا لأمة جديدة، بل متمما ما بدأه أخوه موسى عليه السلام ـ فإن الحديث عن معيته قد ورد على لسان الحواريين كما قال تعالى: ﴿قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ (٥٢) رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ (٥٣)﴾ [آل عمران:٥٢-٥٣].

أي: (نحن أنصار الله ومن ينصر الرسول فقد نصر الله ﴿مَّن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ [النساء:٨٠].

---

(١) جامع البيان، الطبري ١٩/ ٣٦٠.

نحن أنصار الله آمنا به إيمانًا صادقًا واتبعنا رسله واشهد بأنا مسلمون؛ إذ الإسلام في جوهره لا يختلف فيه دين عن دين.

ربنا آمنا وصدقنا بما أنزلت في كتابك واتبعنا الرسول عيسى ابن مريم، فاكتبنا مع الشاهدين الذين يشهدون لأنبيائك بالصدق)[1].

٩. معية محمد صلى الله عليه وسلم.

وإذا انتقلنا إلى النبي صلى الله عليه وسلم وبيان المعية في حقه فاجأنا أن آيات المعية في حقه هي أكثر المواطن ورودًا في القرآن الكريم، وأكثرها تفصيلًا بين خاص وعام، والخاص فيه تفصيلات دقيقة يأتي بيانها، لكن الإشارة الواضحة هنا في الآيات أنه كما أن الأمة الخاتمة تحتاج إلى جهد في تأسيسها وبنائها فهي كذلك، وبهذا القدر تحتاج إلى طول معية وصحبة للرسول صلى الله عليه وسلم، في حياته لشخص، وبعد وفاته لسنته ومنهاجه، وكلما اقتربت الأمة من سنته ودخلت في معيته كلما اقتربت من النجاة والفلاح، والعز والنجاح، وكلما ابتعدت عن منهاجه كلما ضلت سبيلها وتنكبت طريقها.

قال تعالى: ﴿لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ جَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨٨﴾﴾ [التوبة:٨٨].

فربط الله تعالى حصولهم على الخيرات والفلاح بالإيمان والمعية والجهاد بالأموال والأنفس.

وإذا حصرنا الآيات التي تناولت تلك المعية المباركة وجدنا أنها سارت في محورين رئيسين، محور عام وآخر خاص.

فالمعية العامة هي التي تناولت أمور الدين والرسالة جملة، وفيها حديث إلى المدعوين عامة من مثل: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِىَ ٱللَّهُ وَمَن مَّعِىَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ ٱلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٨﴾﴾ [الملك:٢٨].

وقوله: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ ۖ هَٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِىَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِى ۗ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْحَقَّ ۖ فَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [الأنبياء:٢٤].

وقد كانت هذه المعية واضحة وظاهرة حتى في أذهان المشركين إذ قالوا: ﴿إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ﴾ [القصص:٥٧].

والمعية الخاصة وهي التي بدا فيها معيته صلى الله عليه وسلم للمؤمنين، وتنوعت هذه المعية وكثرت صورها فمرة تكون في الجهاد، كقوله تعالى: ﴿لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ جَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ

---

(١) التفسير الواضح، محمد حجازي ١/ ٢٣٦.

﴿هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٨٨﴾ [التوبة:٨٨].

ومرة في عتاب المنافقين المخلفين عن الجهاد كقوله: ﴿وَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَجَٰهِدُوا۟ مَعَ رَسُولِهِ ٱسْتَـْٔذَنَكَ أُو۟لُوا۟ ٱلطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا۟ ذَرْنَا نَكُن مَّعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ۝٨٦﴾ [التوبة:٨٦].

ولذا أرشده الله تعالى إلى حرمانهم من هذه المعية، فقال: ﴿فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُوا۟ مَعِىَ أَبَدًا وَلَن تُقَٰتِلُوا۟ مَعِىَ عَدُوًّا ۖ إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْخَٰلِفِينَ ۝٨٣﴾ [التوبة:٨٣].

ومرة في صلاة الخوف كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوٓا۟ أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا۟ فَلْيَكُونُوا۟ مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّوا۟ فَلْيُصَلُّوا۟ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا۟ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ﴾ [النساء:١٠٢].

ومرة تكون في الهجرة، كقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ ٱلَّٰتِىٓ ءَاتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَٰلَٰتِكَ ٱلَّٰتِى هَاجَرْنَ مَعَكَ﴾ [الأحزاب:٥٠].

ومرة في تعليم المؤمنين منهجية التعامل مع النبي صلى الله عليه وسلم وعدم تركه إلا بإذن، تربية لهم على أخلاق المدنية، وأخذًا بأيديهم إلى طرق الدولة، وسلوك الأمم والحضارات، فيقول سبحانه: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٦٢﴾ [النور:٦٢].

آثار المعية الالهية

للمعية أثر لا ينكر، وفضل لا يخفى، فمعية الله سر النجاح ولب الفلاح، ومدار الهداية والتوفيق، والنصر والتأييد، والحفظ والرعاية والحياطة والعناية، فمن كان الله معه فمن يكون عليه، ومن كان الله عليه فمن يكون معه.

وقد قال قتادة: «من يتق الله يكن معه، ومن يكن الله معه فمعه الفئة التي لا تغلب ،والحارس الذي لا ينام، والهادي الذي لا يضل»[(١)].

ومن آثار المعية ما يأتي:

أولًا: المراقبة:

المراقبة من أهم آثار المعية، سواء كانت المراقبة من قبل العبد لربه أم من الله تعالى لعبده، وإن كان الأغلب فيها مراقبة العبد لربه ونظره له ومشاهدته إياه في أعماله وسلوكه، والمقصود من المراقبة: (استدامة علم العبد باطلاع الرب عليه في جميع أحواله)[(٢)].

وهو حين يتحقق بهذه الصفة ويتحلى بهذا الخلق، يصل إلى معاني تملأ عليه نفسه بالخير والرضا واليقين والثبات، فهو في معية الله تعالى يشعر بمراقبة الله له فيجله عن أن يراه على غير ما يرضيه، أو يتفقده فيما يرضيه، وهذا المعنى هو الوارد في حديث الإيمان، إذ يقول الرسول صلى الله عليه وسلم لجبريل حينما سأله عن الإحسان: (**أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك**)[(٣)].

وقد غرست آيات المعية الواردة في القرآن الكريم هذا المعنى في نفوس المؤمنين بصور شتى، وألوان متعددة، ومن هذه الآيات الكريمة قوله تعالى لموسى وهارون: ﴿ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾ قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴿٤٥﴾ قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾﴾ [طه: ٤٣-٤٦].

أي: إنني معكما بحفظي وكلاءتي ونصري وتأييدي فلا تخافا منه، فإنني معكما أسمع كلامكما وكلامه، وأرى مكانكما ومكانه، لا يخفى علي من أمركم شيء، واعلما أن ناصيته بيدي، فلا يتكلم ولا يتنفس ولا يبطش إلا بإذني وبعد أمري، وأنا معكما بحفظي ونصري وتأييدي[(٤)].

وفي هذا طمأنة لهما بأن فرعون ليس

(١) انظر: حلية الأولياء، أبو نعيم ٢/ ٣٤٠.
(٢) التعريفات، الجرجاني ص ٢١٠.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب سؤال جبريل، ١/ ١٩، رقم ٥٠، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان، ١/ ٣٩، رقم ٩.
(٤) انظر: تفسير القرآن العظيم ٦/ ١٢٤، ٥/ ٢٦١.

بالذي يصل إلى قتلهما حتى يبلغا الرسالة. وأراد بذلك سبحانه تقوية قلوبهما وأنه متولٍّ لحفظهما وكلاءتهما[1].

وقال ابن عباس في معنى الآية الكريمة: أسمع دعاءكما فأجيبه، وأرى ما يراد بكما فأمنعه[2].

ولذا قال موسى عليه السلام: الآن لا أبالي بعدما أنت معي[3].

قال: ﴿لَا تَخَافَآ﴾ أي: من فرطه وطغيانه ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَآ﴾ أي: بالحفظ والنصرة ﴿أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ أي: ما يجري بينكما وبينه. فأرعاكما بالحفظ[4].

وقد دل الله تعالى عباده على تصور هذه المعية من خلال تعريفهم أن عليهم حافظين، كراما كاتبين، فليكرموهم وليراقبوا أنفسهم في ضوء معرفة هؤلاء الكرام بهم.

ولذا قال صاحب لطائف الإشارات: (حشمتهم من اطلاع الحق، ولو علموا ذلك حق العلم لكان توقيهم عن المخالفات لرؤيته- سبحانه، واستحياؤهم من اطلاعه- أتم من رؤية الملائكة)[5].

(١) انظر: تفسير يحيى بن سلام ١/ ٢٦١، فتح القدير، الشوكاني ٤/ ١١١

(٢) انظر: التفسير الوسيط، الواحدي، معالم التنزيل، البغوي ٥/ ٢٧٦.

(٣) لطائف الإشارات، القشيري ٢/ ٤٥٨.

(٤) محاسن التأويل، القاسمي ٧/ ١٢٧.

(٥) لطائف الإشارات ٣/ ٦٩٨.

ثانيًا: النصر والتأييد:

ومن آثار المعية نصر الله تعالى لعبده الذي يكون في معيته، وتأييده له، وقد نصت آيات القرآن الكريم على هذا الأثر من آثار المعية النصر والتأييد، فالله تعالى يمد عبيده بنصره ويؤيدهم به، ومن هنا دعاهم إلى عدم الهوان أو التفريط والتسليم والتنازل والتخاذل، فهم أولو المعية وأصحاب نصر الله وتأييده.

قال تعالى آمرًا عباده بمراعاة أثر هذه المعية من النصر والتأييد: ﴿فَلَا تَهِنُوا۟ وَتَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّلْمِ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٥﴾﴾ [محمد:٣٥].

والمعنى:(أنتم الأعلون بالنصرة. وهو تعالى معكم بالحفظ، والمعونة)[6].

والتأييد والتسديد، ومن كان الله معه بنصره فمن يغلبه، ومن كان معه بتأييده فمن يعلوه، ومن كان معه بتسديده فمن يصرفه عن طريق الهدى، أو يشغب على منهاجه المستقيم؟

إن في ذلك لكل من غلب على حقه، وأوذي في الله أن يستصحب معية الله ويتحقق بها، ففيها بشارة عظيمة بالنصر والظفر على الأعداء، وقد قال تعالى في الآية نفسها: ﴿وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ﴾، أي:

(٦) انظر: تفسير السمعاني ٥/ ١٨٥، زاد المسير ٤/ ١٢٣.

ولن يحبطها ويبطلها ويسلبكم إياها بل يوفيكم ثوابها ولا ينقصكم منها شيئا[١].

وشعورهم بأن الله معهم، بالعون، والنصر، والتأييد، موجب لقوة قلوبهم، وإقدامهم على عدوهم[٢].

ولذلك رأينا رؤوس المصلحين والدعاة الصادقين على تباعد المكان وتطاول الزمان في أتون المحنة يهشون للعطاء ويستروحون نسائم المنح، فنسمع شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في محنته يقول: ما يصنع أعدائي بي؟ أنا جنتي وبستاني في صدري، إن رحت فهي معي لا تفارقني، إن حبسي خلوة، وقتلي شهادة، وإخراجي من بلدي سياحة.

وكان يقول في محبسه في القلعة: لو بذلت لهم ملء هذه القلعة ذهبا ما عدل عندي شكر هذه النعمة، أو قال: ما جزيتهم على ما تسببوا لي فيه من الخير ونحو هذا[٣].

ونسمع تلميذه ابن القيم ينقل عنه قوله: المحبوس من حبس قلبه عن ربه تعالى، والمأسور من أسره هواه[٤].

وفي اشتداد الصراع بين الحق والباطل، وهو سنة من سنن الله الجارية، والتي لا تتبدل ولا تتحول ينبههم سبحانه على معيته لهم المقتضية للنصر والعون والتأييد والتسديد، فيقول: ﴿وَقَٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة:٣٦].

وفي حلقة من حلقات الصراع بين الحق والباطل وسنة من سنن الله تعالى فيها يبين عز وجل أن معيته ونصره وتأييده مع عباده الصابرين فيقول: ﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلْجُنُودِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّى وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّىٓ إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةًۢ بِيَدِهِۦ ۚ فَشَرِبُوا۟ مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۚ فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ قَالُوا۟ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٢٤٩﴾﴾ [البقرة:٢٤٩].

وهذا إعلام منه تعالى ذكره عباده المؤمنين به أن بيده النصر والظفر والخير والشر[٥].

وأن هذا النصر ليس بهم بل بإذن الله، بمشيئته وعونه ونصرته، والله مع الصابرين بالنصرة والتأييد والقوة والمعونة[٦].

وأعظم جالب لمعونة الله صبر العبد لله، فوقعت موعظته في قلوبهم وأثرت معهم[٧].

---

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧/ ٢٩٩.
(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٧٩٠.
(٣) المستدرك على مجموع فتاوى ابن تيمية ١/ ١٥٣.
(٤) المصدر السابق ١/ ١٥٤.
(٥) جامع البيان، الطبري ٥/ ٣١٦.
(٦) انظر: لطائف الإشارات، القشيري ١/ ١٩٤.
(٧) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ١٠٨.

وقد تكرر هذا المعنى في القرآن الكريم، ومنه في مقام دفع الكفار والحملة عليهم يرد قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٣﴾﴾ [التوبة:١٢٣].

وقد قال بعض الصحابة: إنما تقاتلون الناس بأعمالكم وأهلها هم المجدون في طرق الحق، فوعد تعالى أنه مع أهل التقوى ومن كان الله معه فلن يغلب[(١)].

ومن روائع صاحب المنار وبدائعه أن يربط معنى التقوى لله تعالى بالسنن فيرى أن تقواه تعني أيضا مراعاته في أحكامه وسننه، حتى يستجلب نصره وتستدعى معونته، فيرى أن المتقين هنا هم المتقون له في مراعاة أحكامه وسننه بالمعونة والنصر، وأهمها ما يجب اتقاؤه في الحرب، من التقصير في أسباب النصر والغلب التي بينها في كتابه، والتي تعرف بالعلم والتجارب، كإعداد ما يستطاع من قوة، والصبر والثبات، والطاعة والنظام، وترك التنازع والاختلاف، وكثرة ذكر الله، والتوكل عليه فيما وراء الأسباب[(٢)].

وفي معيته تعالى للملائكة يؤيدهم وينصرهم، ويعينهم ويثبتهم، ويأمرهم بتثبيت المؤمنين ونصرهم إذ يقول: ﴿إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُواْ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُواْ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١٣﴾﴾ [الأنفال:١٢-١٣].

وفي هذا تعهد من الله تعالى بإعانة أهل الإيمان الحق، وبنصرتهم على غيرهم ولو كانوا ثلة قليلة، ما تمسكوا بإيمانهم وثبتوا على دينهم، وكانت صلتهم بالله موصولة غير مقطوعة[(٣)].

والمعنى: إني أعينكم على تنفيذ ما آمركم به من تثبيتهم على قلوبهم، حتى لا يفروا من أعدائهم على كونهم يفوقونهم عَدَدًا وعُدَدًا ومَدَدًا - إعانة حاضر معكم لا يخفى عليه ولا يعجزه شيء من إعانتكم، والوعد بالإعانة وحده لا يفيد هذا المعنى كله، ففي المعية معنى زائد على أصل الإعانة نعقل منه ما ذكر، ولا نعقل كنهه وصفته[(٤)].

ومعنى ﴿أَنِّى مَعَكُمْ﴾ أي: بالعون والنصر والتأييد، ﴿فَثَبِّتُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ أي: ألقوا في قلوبهم، وألهموهم الجراءة على عدوهم، ورغبوهم في الجهاد وفضله[(٥)].

(١) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ٣/ ٩٨، فتح القدير، الشوكاني ٢/ ٤٧٤.
(٢) تفسير المنار، محمد رشيد رضا ١١/ ٦٦.
(٣) التيسير في أحاديث التفسير ٢/ ٣١٤.
(٤) تفسير المنار ١٠/ ١٠٧.
(٥) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٣١٦.

ثالثًا: التوفيق والمحبة:

ومن ثمرات المعية: التوفيق والمحبة، والدلالة على سبل الرشاد، وطرق الهداية، وتلك لها مقدماتها التي تفضي إلى نتائجها، وأسبابها التي تعين على الوصول إليها.

وقد قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾﴾ [العنكبوت:٦٩].

إن هذه المعية التي أدت إلى الهداية والتوفيق والمحبة ليست من فراغ، بل بنيت على جهاد ومجاهدة، وصبر ومصابرة، ودلالة ﴿فِينَا﴾ على جهة الجهاد وصدق النية فيه وتمحض المقصود به ما فيه، ومعنى المعية هنا: بالعون والنصر والهداية[1].

وإذا تتبعنا أقوال المفسرين في دلالة المعية هنا وجدنا أكثرهم يركز على أن المقصود بها هو النصر، والمقام هنا ليس مقام صراع بين فئتين، بل صراع بين النفس البشرية ومتطلباتها، أو صراع بين المحبوب والمكروه، والنصر هنا هو نصر الهداية والتوفيق والدلالة على سلامة المنحى وصحة الطريق.

ولذا قال الإمام الشوكاني رحمه الله: المعية هنا بالنصر والعون، ومن كان معه لم يخذل[2].

رابعًا: الحفظ والرعاية:

ومن ثمرات المعية كذلك حفظ الله ورعايته لمن كان في معيته.

وتبدو هذه المعية وتظهر آثارها في الحفظ والرعاية في مقام الدعوة فيبين لهم تعالى أنه حافظهم وراعيهم؛ حتى يطمئن أصحاب الدعوات والذين يكونون في معيته تعالى أنهم محفوظون ومراعون من قبل ربهم، فهو ناصرهم ومعينهم ومؤيدهم ومثبتهم، كما قال تعالى: ﴿وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾﴾ [النحل:١٢٧-١٢٨].

والمقصود من معيته تعالى هنا أنه سبحانه يعينهم ويحفظهم من مكر الأعداء بهم، وينصرهم عليهم، فهي معية رعاية وحفظ[3].

ودلت آيات كثيرة على هذا المعنى منها قوله تعالى في حق النبي صلى الله عليه وسلم وصاحبه إذ هما في الغار: ﴿إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ

---

(١) المصدر السابق ص ٦٣٦.

(٢) انظر: اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل ١٥/ ٣٨٠.

(٣) انظر: معاني القرآن، الزجاج ٣/ ٢٢٤، التفسير الوسيط، الواحدي ٥/ ٧٠٨.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَاۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيۡهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٖ لَّمۡ تَرَوۡهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفۡلَىٰۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِيَ ٱلۡعُلۡيَاۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ٤٠﴾ [التوبة: ٤٠].

وأي: فضل أعظم من هذه المعية التي ينال بها صاحبها السكينة والتأييد وعلو الكلمة وأصبح في جوار العزيز الحكيم، ومعنى ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾: أي: بالنصر والرعاية والحفظ والكلاءة[1].

والمعنى: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدۡ نَصَرَهُ ٱللَّهُ﴾ أي: إن لم تنصره فسينصره الله كما نصره. ﴿إِذۡ أَخۡرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ ٱثۡنَيۡنِ﴾ ولم يكن معه إلا رجل واحد، أو إن لم تنصروه فقد أوجب الله له النصر حتى نصره في مثل ذلك الوقت فلن يخذله في غيره، ﴿إِذۡ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ﴾ وهو أبو بكر رضي الله عنه ﴿لَا تَحۡزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ بالعصمة والمعونة[2].

وتلك سنة الله تعالى في رسله وأنبيائه، وهي ماضية مع عباده المؤمنين الذين نالوا شرف معيته عز وجل، فكما كان للمعية أثر الحفظ والرعاية مع رسولنا صلى الله عليه وسلم وصاحبه، كان لها نفس الأثر مع موسى وهارون من قبل، حينما أمرهما

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٨/ ١٤٦.

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ١٣٦، محاسن التأويل، القاسمي ٥/ ٤١٩.

الله تعالى بالذهاب إلى فرعون لبلاغ الرسالة، واستخلاص بني إسرائيل من قهره وسخرته، قالا: ﴿رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفۡرُطَ عَلَيۡنَآ أَوۡ أَن يَطۡغَىٰ ٤٥ قَالَ لَا تَخَافَآۖ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ ٤٦﴾ [طه: ٤٥-٤٦].

والمراد ﴿لَا تَخَافَآ﴾ مما عرض في قلبكما من الإفراط والطغيان؛ لأن ذلك هو المفهوم من الكلام، يبين ذلك أنه تعالى لم يؤمنهما من الرد ولا من التكذيب بالآيات ومعارضة السحرة. وقوله: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَآ﴾ عبارة عن الحراسة والحفظ، وأكد ذلك بقوله: ﴿أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ﴾ فإن من يكون مع الغير وناصرًا له وحافظًا يجوز أن لا يعلم كل ما يناله، وإنما يحرسه فيما يعلم، فبين سبحانه وتعالى أنه معهما بالحفظ والعلم في جميع ما ينالهما، وذلك هو النهاية في إزالة الخوف.

قال القفال: قوله: ﴿أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ﴾ يحتمل أن يكون مقابلا لقوله: ﴿أَن يَفۡرُطَ عَلَيۡنَآ أَوۡ أَن يَطۡغَىٰ﴾ والمعنى: يفرط علينا بأن لا يسمع منا: أو أن يطغى بأن يقتلنا، فقال الله تعالى: إنني معكما أسمع كلامه معكما فأسخره للاستماع منكما، وأرى أفعاله فلا أتركه حتى يفعل بكما ما تكرهانه، واعلما أن ناصيته بيدي، فلا يتكلم ولا يتنفس ولا يبطش إلا بإذني وبعد أمري، وأنا معكما

بحفظي ونصري وتأييدي[1].

وهذا ما كان، فقد تحقق وعده عز وجل سواء في بلاغ الرسالة أو في حفظ موسى وهارون من فرعون وجنده، وتيقن موسى من هذا حتى مع ما كان في قلبه في بداية الدعوة من خوف بشري فطري جعله يقول ما يقول.

إلا أننا نراه في موقف أشد وأحد في موقف عبور النهر يقول لقومه رادعًا لهم وزاجرًا عن أوهامهم عندما قالوا: إنا لمدركون: ﴿قَالَ كَلَّآ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهۡدِينِ ٦٢﴾ [الشعراء:٦٢].

فنبههم موسى أن ليس الأمر كما ذكرتم، كلا لن تدركوا إن معي ربي سيهديني، يقول: سيهديني لطريق أنجو فيه من فرعون وقومه وسيكفيني، أي: للنجاة، وقد وعدني ذلك، ولا خلف لموعوده[2].

وفي بيان موسى عليه السلام هذا البيان ورده على قومه بهذه الشدة ﴿كَلَّآ﴾ ما فيه من توكيد ويقين وثقة واطمئنان إلى قدرة الله الحافظ ونصرته وهو المعين ﴿كَلَّآ﴾ في شدة وتوكيد. كلا لن نكون مدركين.

كلا لن نكون هالكين.

كلا لن نكون مفتونين.

كلا لن نكون ضائعين ﴿كَلَّآ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهۡدِينِ﴾ بهذا الجزم والتأكيد واليقين.

وفي اللحظة الأخيرة ينبثق الشعاع المنير في ليل اليأس والكرب، وينفتح طريق النجاة من حيث لا يحتسبون[3].

موضوعات ذات صلة

التقوى، الحفظ، الصحبة، القدر

(١) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٢٢/ ٥٤، اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل ١٣/ ٢٥٨.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ١٩/ ٣٥٦، فتح القدير، الشوكاني ٤/ ١١٨.

(٣) في ظلال القرآن، سيد قطب ٥/ ٢٥٩٩.



عناصر الموضوع

مفهوم المكر	١٢٤
المكر في الاستعمال القراني	١٢٥
الالفاظ ذات الصلة	١٢٦
المكر واسبابه	١٢٨
عواقب المكر	١٤٥

مفهوم المكر

أولًا: المعنى اللغوي:

الميم والكاف والراء أصل صحيح يدل على الالتفاف، ولذلك سمي الشجر الملتف مكرًا، وعلى هذا فإن المعنى اللغوي للمكر هو أحد أمرين: الاحتيال في خفية والخداع، والآخر: خدالة الساق، وامرأةٌ ممكورة الساقين. أي: مستديرة الساقين[(١)].

فمادة (مكر) الواردة في معاجم اللغة تدور حول الالتفاف، والفتل، والخداع، والتدبير[(٢)].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

فرق كثير من العلماء بين المكر المضاف إلى الله تعالى، والمكر الواقع من الخلق، فأما المكر المضاف إلى الله تعالى يكون تعريفه، كما ذكر العلماء: «هو إرداف النعم مع المخالفة، وإبقاء الحال مع سوء الأدب، وإظهار الكرامات من غير جهد»[(٣)]، ومن المعلوم أن هذا الشرح هو توضيح لمعنىً ظاهر؛ لكن في حق الله تعالى فإن المكر صفة من صفاته، نؤمن بها بلا تكييف ولا تأويل ولا تعطيل ولا تشبيه.

يضاف إلى أن بعض العلماء ذكر أن إمهال الله تعالى للعبد وتمكينه من بعض أعراض الدنيا من مكره جل جلاله، ولذلك قال أمير المؤمنين رضي الله عنه: «من وسع عليه دنياه ولم يعلم أنه مكر به فهو مخدوع عن عقله»[(٤)].

وأما مكر العبد، فقد عرفه أكثر من واحد، منهم:

تعريف الراغب الأصفهاني بأنه: «صرف الغير عما يقصده بحيلة»[(٥)].

وعرفه الجرجاني بأنه: «إيصال المكروه إلى الإنسان من حيث لا يشعر»[(٦)].

---

(١) انظر: العين، الفراهيدي ٥/ ٤٧٠، تهذيب اللغة، الأزهري ١٠/ ١٣٥، مقاييس اللغة، ابن فارس ٥/ ٢٦٣، ٣٤٥، المحيط في اللغة، الصاحب بن عباد ٥/ ٦، لسان العرب، ابن منظور ٥/ ١٨٤.

(٢) انظر: لسان العرب ٥/ ١٨٣، الفروق اللغوية، العسكري ص٢٦٠.

(٣) التعريفات، الجرجاني ص٢٢٧.

(٤) المفردات، الراغب الأصفهاني ص٧٧٢.

(٥) المصدر السابق.

(٦) التعريفات ص٢٢٧.



المكر في الاستعمال القرآني

وردت مادة (مكر) في القرآن على صيغ متعددة، بلغت(٤٣) مرة[١].

والصيغ التي وردت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	١١	﴿وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا﴾ [الرعد:٤٢]
الفعل المضارع	١١	﴿إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [يونس:٢١]
المصدر	١٩	﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ﴾ [الأعراف:٩٩]
اسم الفاعل	٢	﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴿٥٤﴾﴾ [آل عمران:٥٤]

وورد المكر في الاستعمال القرآني بمعنى: الاحتيال، ويكون بالقول والفعل، وهو ضربان:

- محمود، وهو: ما يتحرى به أمر جميل، وعلى ذلك قول الله عز وجل: ﴿وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾[آل عمران: ٥٤].
- ومذموم وهو: ما يتحرى به فعل ذميم، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾[فاطر: ٤٣].[٢]

(١) انظر: المعجم المفهرس الشامل لألفاظ القرآن الكريم، عبد الله جلغوم، باب الميم٢، ص١٢١٨-١٢١٩.

(٢) انظر: الوجوه والنظائر، الدامغاني، ص٤٣٢-٤٣٣، بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي ٤/ ٥١٦.

الألفاظ ذات الصلة

١ الخيانة:

الخيانة لغةً:

الاحتيال والخداع. فالخيانة خلاف الأمانة[١].

الخيانة اصطلاحًا:

«مخالفة الحق بنقض العهد في السر»[٢].

الصلة بين الخيانة والمكر:

الخيانة والمكر يشتركان في الاحتيال في الخفاء[٣]، ويختلفان في أن المكر: صرف الغير عما يقصده بحيلة، وقد يكون محمودًا، عندما يتحرى بذلك فعل جميل، وقد يكون مذمومًا، وهو: أن يتحرى به فعل قبيح، بينما الخيانة لا تكون إلا شرًا محضًا، فلا توجد خيانة محمودة؛ لذلك لا تضاف الخيانة إلى الله تعالى بأي حال من الأحوال.

٢ الكيد:

الكيد لغةً:

هو المكر والخبث، والحيلة، والحرب[٤].

الكيد اصطلاحًا:

«إرادة مضرة الغير خفية، وهو من الخلق: الحيلة السيئة، ومن الله سبحانه وتعالى: التدبير بالحق لمجازاة أعمال الخلق»[٥].

الصلة بين الكيد والمكر:

بينهما تشابه من حيث إن المكر مثل الكيد في أنه لا يكون إلا مع تدبر وفكر.

ويفترقان في كون الكيد أقوى من المكر، والدليل أنه يتعدى بنفسه والمكر يتعدى بحرف، وأن المكر تقدير ضرر الغير من دون أن يعلم به، والكيد: اسم لإيقاع المكروه بالغير قهرًا

---

(١) انظر: المغرب في ترتيب المعرب، الخوارزمي ص ١٥٦.
(٢) المفردات، الراغب الأصفهاني ص٣٠٥.
(٣) انظر: مجموع فتاوى ابن تيمية ١٤/ ٤٤٠.
(٤) انظر: القاموس المحيط، الفيروزآبادي ص٣١٦.
(٥) التعريفات، الجرجاني ص١٨٩.



سواء علم أم لا[1].

٣ الاحتيال:

الاحتيال لغةً:

(احتال) من الحيلة. واحتال عليه بالدين من الحوالة[2].

الاحتيال اصطلاحًا:

استنفاذ طريقة أو طرق؛ لتحويل المرء عما يكرهه إلى ما يحبه[3].

الصلة بين المكر والاحتيال:

ذكر أبو هلال العسكري فرقين بينهما:

الأول: أن من الحيل ما ليس بمكر، وهو أن يقدر نفع الغير لا من وجهه، فيسمى ذلك حيلة مع كونه نفعًا، والمكر لا يكون نفعًا.

والآخر: أن المكر تقدير ضرر الغير من غير أن يعلم به وسواء كان من وجهه أو لا، والحيلة: لا تكون من غير وجهه[4].

٤ الخديعة:

الخديعة لغةً:

«(خدع) خدعًا، تغير من حالٍ إلى حالٍ، يقال: خدع فلان، تخلق بغير خلقه»[5].

الخديعة اصطلاحًا:

تخلقٌ بغير الخلق السائد بين الناس؛ لجر المخدوع لما يريده المخادع.

الفرق بين المكر والخديعة:

الممكور به لا يحتسب أن يأتي من الماكر سوء، ولكن المخدوع عداوته ظاهرة، وتربصهما معلوم، ولكنه ينتظر السوء، ويتحسب له من طريق فيفاجئه من طريق أخرى[6].

(١) انظر: الفروق اللغوية، العسكري ص٢٥٩.
(٢) مختار الصحاح، الرازي ص٨٤.
(٣) انظر: التعريفات، الجرجاني ص٩٤.
(٤) انظر: الفروق اللغوية، العسكري ص٢٦٠.
(٥) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية ١/ ٢٢٠.
(٦) انظر: لسان العرب، ابن منظور ٥/ ١٨٣.

المكر وأسبابه

يتحدث هذا العنوان عن أسباب المكر كما وردت في القرآن:

أولًا: إسناد المكر إلى الله:

جاء إضافة المكر إلى الله تعالى في العديد من الآيات، كما في قوله تعالى: ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾[الأعراف ٩٩].

وقوله تعالى: ﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ [آل عمران ٥٤].

وقوله تعالى: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾[الأنفال ٣٠].

واختلف المفسرون في هذه الإضافة وتوجيهها على أقوال:

الأول: إن ذلك من باب المشاكلة والمقابلة.

والمشاكلة: ذكر الشيء بلفظ غيره لوقوعه في صحبته[(١)]. فإضافة المكر إلى الله من باب المشاكلة؛ لأن الله تقدس عن أن يستعمل في حقه المكر، وقد جاء هذا الأسلوب -المشاكلة- في مواضع كثيرة من القرآن.

فيكون المراد بمكر الله هو إهلاك الكفار من حيث لا يشعرون على سبيل الاستعارة المنضمة الى المشاكلة، وفيه تشبيه الإهلاك بالمكر في كونه إضرارًا في الخفاء؛ لأن حقيقة المكر هو الإيقاع بالآخرين.

قال البغوي في قوله تعالى: ﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ [آل عمران ٥٤].

فالمكر من المخلوقين: الخبث والخديعة والحيلة، والمكر من الله: استدراج العبد وأخذه بغتة من حيث لا يعلم، كما قال: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف ١٨٢][(٢)].

ويشكل على هذا أن المكر قد جاء في غير المشاكلة، كما في قوله تعالى: ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾[الأعراف ٩٩].

فقد ذكر الله تعالى هنا مكره وحده، ولم يذكر مكر عبده، كما قال هناك: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ [الأنفال ٣٠].

ذكر مكرهم ومكره، وهنا ذكر مكره وحده[(٣)].

وقد رد على هذا الإشكال ابن عاشور، حيث قال: «وجاز إطلاق المكر على فعل الله تعالى دون مشاكلة، كما في قوله: ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ﴾ وبعض أساتذتنا

(١) معجم مقاليد العلوم في الحدود والرسوم، السيوطي ص١٠١.

(٢) معالم التنزيل، البغوي ٢/ ٤٤.

(٣) انظر: العذب النمير من مجالس الشنقيطي في التفسير ٤/ ٧.

يسمي مثل ذلك مشاكلة تقديرية[1].

فيكون المكر الوراد في آية الأعراف ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾[الأعراف ٩٩].

من باب المشاكلة التقديرية، وهو موافق لتعريف المشاكلة عند السيوطي، حيث يقول: المشاكلة: ذكر الشيء بلفظ غيره لوقوعه في صحبته تحقيقًا أو تقديرًا[2].

الثاني: إن المكر أسند إلى الله على سبيل المجازاة.

فقوله: ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ﴾[الأعراف ٩٩].

أي: جزاء مكرهم، وسمي جزاء المكر مكرًا كما سمي جزاء السيئة سيئة، وجزاء الاعتداء اعتداء، وإن لم يكن الثاني اعتداء ولا سيئة، فعلى ذلك تسمية جزاء المكر مكرًا وإن لم يكن الثاني مكرًا.

قال الماتريدي: «ألا ترى أنه لم يجز أن يسمى مكارًا ولو كان على حقيقة المكر لسمي بذلك؛ فدل أنه جزاء، وجائز أن يكون المراد من مكره جزاء مكرهم سمي الجزاء باسم المكر لأنه جزاؤه؛ كقوله: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا﴾[الشورى ٤٠].

والثانية ليست بسيئة[3].

وقال الزجاج: مكر الله عز وجل مجازاته على مكرهم، فسمى الجزاء باسم الابتداء لأنه في مقابلته؛ كقوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾[البقرة ١٥].

وقوله: ﴿وَهُوَ خَادِعُهُمْ﴾[النساء ١٤٢][4]. وكما قال عمرو بن كلثوم[5]:

ألا لا يجهلن أحد علينا
فنجهل فوق جهل الجاهلينا

والمقصود أن من الوجوه في إطلاق المكر على الله أن يكون ذلك من باب الجزاء؛ لأنه لا يجوز إضافة المكر والخداع والاستهزاء مبتدأ إلى الله؛ لأنه مذموم من الخلق إلا على المجازاة، فكيف من الله عز وجل ؟!»[6].

الثالث: إن إضافة المكر إلى الله من باب إضافة المخلوق إلى خالقه.

قال ابن عطية: إضافة (مكر) إلى الله في قوله تعالى: ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ﴾[الأعراف ٩٩].

إضافة مخلوق إلى الخالق، كما تقول: ناقة الله، وبيت الله[7].

وكذا قال الحلبي: «ومعنى (مكر الله) أي إضافة المخلوق إلى الخالق؛ كقولهم:

(١) التحرير والتنوير ٣/ ٢٥٧.
(٢) معجم مقاليد العلوم في الحدود والرسوم، السيوطي ص١٠١.
(٣) تأويلات أهل السنة، الماتريدي ٤/ ٥١٢.
(٤) معالم التنزيل، البغوي ١/ ٤٤٦.
(٥) ديوانه ص٧٨.
(٦) انظر: تأويلات أهل السنة، الماتريدي ١/ ٣٨٧.
(٧) المحرر الوجيز، ابن عطية ٢/ ٤٣٣.

ناقة الله وبيت الله، والمراد به فعل يعاقب به الكفرة، وأضيف إلى الله لما كان عقوبة الذنب، فإن العرب تسمي العقوبة على أي جهة كانت باسم الذنب الذي وقعت عليه العقوبة، وهذا نص في قوله: ﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ﴾ [آل عمران ٥٤]. قاله ابن عطية. قلت: وهو تأويل حسن»[1].

الرابع: إن إضافة المكر إلى الله من باب إضافة الصفة إلى الموصوف.

قال الشنقيطي بعد أن ذكر قول من قال إن ذلك من باب المشاكلة: «والتحقيق: أن المكر صفة أطلقها الله على نفسه، ولا يجوز إطلاقها على الله إلا في الموضع الذي يطلقها هو على نفسه، أو رسوله صلى الله عليه وسلم، وقد أجمع جميع العلماء أنه لا يجوز أن يشتق له منها اسم، فلا تقل: من أسمائه الماكر؛ لأن ذلك لا يجوز إجماعًا.

ومعنى (مكر الله): أنه جل وعلا يستدرجهم، ويغدق عليهم النعم والصحة والعافية، حتى يكونوا أغفل ما كانوا، ثم يأخذهم بغتة، ويهلكهم في غاية الغفلة، وهذا فعل أحسن ما يكون وأبلغ ما يتصور، وقد ضربوا مثلًا -ولله المثل الأعلى- قالوا: لو فرضنا أن هنالك رجلًا شديد البلية على الناس، يقتل هذا، ويظلم هذا، وجميع الناس في غاية التأذي منه، ثم إن رجلًا صالحًا كريمًا طيبًا احتال عليه بحيلة شريفة حتى قتله، وأراح الناس منه، فكلهم يقول: جزاك الله خيرًا، والله إن قتلك له في صورة خفاءٍ إنه أحسن ما يكون، وعلى كل حال فالله لا يصف نفسه إلا بما هو في غاية الحسن والجمال واللياقة، فوصف نفسه هنا بأنه يهلك الكافرين بمكره، وأن كيده متين، كما قال: ﴿وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ [الأعراف ١٨٣]»[2].

والمقصود أن المكر وصف لله، وصفات الله تعالى كلها صفات كمال، دالة على أحسن المعاني وأكملها.

قال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى﴾ [النحل ٦٠].

وقال تعالى: ﴿وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الروم ٢٧].

ومعنى المثل الأعلى أي: الوصف الأكمل، قال السعدي: «المثل الأعلى هو كل صفة كمال»[3].

فلا يجوز إذن وصف الله بالمكر على سبيل الإطلاق، أما وصف الله بالمكر في موضعه في مقابلة أولئك الذين يمكرون به وبرسله فإن هذا جائز؛ لأنه في هذه الحال يكون صفة كمال.

فعلى المسلم أن يعتقد بأن الله عز

(١) الدر المصون ٥/ ٣٩٣.

(٢) العذب النمير من مجالس الشنقيطي في التفسير ٤/ ٧.

(٣) تيسير الكريم الرحمن ص٧١٨.

وجل منزه عن كل ما لا يليق به سبحانه من النقائص، وصفات المخلوقين، كما قال: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى ١١].

وتنزيه الله تعالى يكون وفق المنهج الرباني الذي ورد في النصوص الشرعية، بحيث لا يثبت الإنسان لله تعالى ما لم يثبته لنفسه ولا رسوله صلى الله عليه وسلم، ولا ينفي عنه ما أثبته لنفسه، وأثبته له رسوله صلى الله عليه وسلم، وإنما يقف مع النصوص الشرعية إثباتًا ونفيًا مع اعتقاد كمال الله.

ومن هذا القبيل لفظ: (المكر) حيث أضيف في القرآن إلى الله تعالى: ويتمثل الموقف الصحيح فيما قرره ابن القيم حيث قال: «وأما ما ورد بلفظ الفعل كقوله تعالى: ﴿وَمَكَرُوا۟ وَمَكَرَ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَـٰكِرِينَ﴾ [آل عمران ٥٤]. ﴿وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [النمل ٥٠].

فهذا يطلق على الله كما ورد، ولا يجوز أن يشتق لله منه اسم، فلا يقال: من أسمائه (الماكر) ولا الكائد؛ لأنه لم يرد».

وقال: «وأما المكر الذي وصف به نفسه فهو مجازاته للماكرين بأوليائه ورسله فيقابل مكرهم السيئ بمكره الحسن، فيكون المكر منهم أقبح شيء ومنه أحسن شيء لأنه عدل ومجازاة، وكذلك المخادعة منه جزاء على مخادعة رسله أوليائه فلا أحسن من تلك المخادعة والمكر»[1].

والحاصل أن هذه الأفعال أطلقها الله تعالى على نفسه على سبيل الجزاء العدل والمقابلة، وهي فيما سيقت فيه مدح وكمال، لكن لا يجوز أن يشتق منها أسماء ولا تطلق عليه عز وجل في غير ما سيقت له من آيات.

قال صاحب المنار: «ولما كان المكر في الأصل: التدبير الخفي المفضي بالممكور به إلى ما لا يحتسب؛ وكان الغالب أن يكون ذلك في السوء؛ لأنه من العباد مراوغة وخداع للوصول إلى أهدافهم الخبيثة، غلب استعمال المكر في التدبير السيئ وإن كان في المكر الحسن والسيئ جميعًا.

قال تعالى: ﴿ٱسْتِكْبَارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ ۚ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾ [فاطر ٤٣].

ووجه الحاجة إلى المكر الحسن أن من الناس من إذا علم بما يدبر له من الخير أفسد على الفاعل تدبيره لجهله، فيحتاج مربيه أو متولي شئونه إلى أن يحتال عليه، ويمكر به ليوصله إلى ما لا يصح أن يعرفه قبل الوصول؛ إذ يوجد في الماكرين الأشرار والأخيار والله خير الماكرين، فإن تدبيره الذي يخفى على عباده إنما يكون لإقامة سننه، وإتمام حكمه، وكلها خير في نفسها،

(١) الفوائد، ابن القيم ص٢١٣.

وإن قصر كثير من الناس في الاستفادة منها بجهلهم، وسوء اختيارهم»[1].

وهذه الأقوال كلها صواب، سواء من قال: إن ذلك من باب المشاكلة والمقابلة، أو إن المكر أطلق على الله على سبيل المجازاة، أو من باب إضافة المخلوق إلى خالقه أو إن إضافة المكر إلى الله من باب إضافة الصفة إلى الموصوف.

ثانيًا: أسباب المكر:

المكر نوعان، مكر محمود، ومكر مذموم، ولكل نوعٍ أسباب.

١ . أسباب المكر الحسن.

من يتتبع أسباب المكر الحسن في القرآن الكريم يجدها على النحو الآتي:

١ . نصرة لأولياء الله.

مكر الله تعالى بأعداء دينه ورسله -بعد أن يستفرغوا كل أنواع الكيد والمكر في الصد عن دينه ومحاربة أوليائه- يأتي نصرة لأوليائه، وتأييدًا لعباده المؤمنين.

وقد وصف الله تعالى شدة مكر الأعداء بالمؤمنين، فقال: ﴿وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِندَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ﴾ [إبراهيم ٤٦].

قال ابن عطية: «تعظيم مكرهم وشدته، أي: أنه مما يشقى به، ويزيل الجبال عن مستقراتها لقوته، ولكن الله تعالى أبطله، ونصر أولياءه، وهذا أشد في العبرة»[2].

ومع أن مكرهم بالمؤمنين شديد إلا أن الله قد جعل مكرهم كأن لم يكن؛ إذ أضاف المكر كله له، فقال: ﴿وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا﴾ [الرعد ٤٢].

ومعنى مكره تعالى: عقوبته إياهم، سماها مكرًا إذ كانت ناشئة عن المكر؛ وذلك على سبيل المقابلة[3].

ومن المهم معرفته في هذه القضية أن تحذير الله المؤمنين من الماكرين ليس من التخويف؛ وإنما لأخذ الحيطة، وبذل الأسباب في دفع مكر الماكرين؛ وللعلم في المقابل بأن مكرهم محدودٌ، ولن يبلغ مبلغه.

فالمسلم يعلم يقينًا أن سنة الله في الماكرين لا بد لها من أسباب، ومن أهم هذه الأسباب أن يعمل المسلمون الأعمال التي تمنع وقوع مكر المجرمين، أو تبطل وتزيل مكر المفسدين، أو تخفف ضرر مكر الماكرين، وكذلك سنن الله في نصر المؤمنين، والتمكين لهم، والدفاع عنهم، وحفظهم وتأييدهم وإظهارهم على عدوهم لا تحصل للمؤمنين إلا بالأعمال المحققة والجالبة لوجود هذه السنن بفضل

(١) تفسير المنار ٣/ ٢٥٩.

(٢) المحرر الوجيز، ابن عطية ٣/ ٣٤٦.

(٣) البحر المحيط ٦/ ٤٠١.

الله ورحمته وإحسانه، ولن تحصل هذه السنن للبطالين، أو المقصرين في الأعمال الصالحة المناسبة لهذه السنن الربانية، كما بينها الله لنا في كتابه، وربط السنن بأسبابها.

ولهذا قال: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ جَمِيعًا﴾ أي: أن مكر جميع الماكرين له ومنه، أي: هو حاصل بتخليقه وإرادته؛ لأنه ثبت أن الله تعالى هو الخالق لجميع أعمال العباد، وأيضًا فذلك المكر لا يضر إلا بإذن الله تعالى، ولا يؤثر إلى بتقديره، وفيه تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم، وأمان له من مكرهم، كأنه قيل له: إذا كان حدوث المكر من الله، وتأثيره من الممكور به أيضًا من الله، وجب أن لا يكون الخوف إلا من الله تعالى، وأن لا يكون الرجاء إلا في الله تعالى، وذهب بعض الناس إلى أن المعنى: فلله جزاء المكر؛ وذلك لأنهم لما مكروا بالمؤمنين بين الله تعالى أنه يجازيهم على مكرهم[1].

وقد أخبر الله تعالى في القرآن أنه أبطل مكر الماكرين، وكيد الكائدين بأوليائه، حيث قال عن كيد الكفار بإبراهيم: ﴿وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَـٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ۝ وَنَجَّيْنَـٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَـٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء ٧٠ - ٧١].

وقال تعالى: ﴿وَقَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ جَمِيعًا ۖ يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ ۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلْكُفَّـٰرُ لِمَنْ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ [الرعد ٤٢].

فحذر الله تعالى هؤلاء الكفار من سوء عاقبة مكرهم، وتكذيبهم للرسل، وعدم اعتبارهم بمن سبقهم، وبين أن هذا المكر سيجدون عاقبته مهما كان شديدًا ومحكمًا، فهو لا يساوي شيئًا أمام مكر الله الذي أعده لهم، انتصارًا لرسله، ووفاء بعهده لهم بالنصر والتمكين.

ومما يؤيد ذلك قوله تعالى: ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ﴾ [إبراهيم ٤٧].

بنجاتهم ونجاة أتباعهم وسعادتهم وإهلاك أعدائهم وخذلانهم في الدنيا، وعقابهم في الآخرة، فهذا لا بد من وقوعه؛ لأنه وعد به الصادق، قولًا على ألسنة أصدق خلقه وهم الرسل، وهذا أعلى ما يكون من الأخبار، خصوصًا وهو مطابق للحكمة الإلهية، والسنن الربانية، وللعقول الصحيحة، والله تعالى لا يعجزه شيء فإنه ﴿عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ﴾ [إبراهيم ٤٧][2].

وهكذا سنة الله في الماكرين، فقد أهلك الله قريشًا حين مكرت بنبي الله محمد صلى الله عليه وسلم، ونصره الله عليهم، ومن قبلها مكر فرعون فكان مكره وبالًا عليه، وحاق به العذاب في الدنيا بالغرق، وفي الآخرة بالحرق.

(١) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ١٩/ ٥٤.

(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٤٢٨.

قال تعالى في قصة الرجل المؤمن بموسى من قوم فرعون: ﴿فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُواْ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرۡعَوۡنَ سُوٓءُ ٱلۡعَذَابِ ۝٤٥ ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا غُدُوّٗا وَعَشِيّٗاۚ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدۡخِلُوٓاْ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ أَشَدَّ ٱلۡعَذَابِ﴾ [غافر ٤٥-٤٦].

وصدق الله تعالى بالقائل: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلۡمَكۡرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهۡلِهِۦۚ فَهَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلۡأَوَّلِينَۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗاۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحۡوِيلًا﴾ [فاطر ٤٣].

ثم ذكر بعد ذلك في الآيات اللاحقة أن الله ينصر رسله والذين آمنوا في الحياة الدنيا وفي الآخرة، فقال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ﴾ [غافر ٥١].

فهذه سنة الله قديمًا وحديثًا، نصرة الحق وأتباعه، وإزهاق الباطل وأشياعه، وهذا الحكم وهذه السنة مما تقتضيه الحكمة الإلهية، وهو شأن الله المستمر بنصرة رسله وأتباعهم في الدنيا بالحجة والظفر، والانتقام لهم من الكفرة بالاستئصال والقتل والسبي، وغير ذلك من العقوبات، فضلًا عن عذاب الآخرة.

٢. الإيقاع بالمتكبرين الظلمة.

ومن أسباب المكر الحسن أن الله يمكر بالمتكبرين الظلمة، ويوقع بهم في شر أعمالهم، من حيث لا يشعرون، وحقيقة مكر الله جل وعلا أنه يستدرج العبد، ويملي له، حتى إذا أخذه لم يفلته، فييسر له الأمور حتى يظن أنه في غاية المأمن، فيكون ذلك استدراجًا في حقه، كما قال النبي عليه الصلاة والسلام: **(إذا رأيت الله يعطي العبد ما يحب، وهو مقيم على معاصيه، فإنما ذلك له منه استدراج)**[١].

وهذا ظاهر من معنى المكر؛ لأن في المكر والكيد وأمثالهما معنى الاستدراج.

والاستدراج من أكثر أنواع المكر الإلهي حيلة، فالله سبحانه وتعالى بحكمته يفتح على أهل المكر من نعيم الدنيا ما يشغلهم عن توقع العقوبة، ويمهلهم طويلًا، حتى إذا اطمأنوا، وفرحوا بما أوتوا، أخذهم بالعقوبة على حين غرة، فالاستدراج دنو من العقوبة شيئًا فشيئًا.

وأصل الاستدراج اغترار المستدرج بلطف من استدرجه، حيث يرى المستدرج أن المستدرج إليه محسنٌ، حتى يورطه مكروهًا[٢].

وقد قال الجرجاني: الاستدراج: هو أن تكون بعيدًا من رحمة الله تعالى، وقريبًا إلى العقاب تدريجيًا، أو هو: الدنو إلى عذاب

---

(١) أخرجه الطبراني في الأوسط ٩/ ١١٠، رقم ٩٢٧٢.
وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، رقم ٤١٤.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ١٣/ ٢٨٧.

الله بالإمهال قليلًا قليلًا[1]. وهذا هو مكر الله بالعبد، نسأل الله السلامة والعافية.

وعرفه المناوي بقوله: الاستدراج: تلوين المنة بغير خوف الفتنة، وقيل: انتشار الذكر بدون خوف المكر، وقيل: تعليل برجاء، وتأصيل بغير وفاء[2].

وقال الكفوي: الاستدراج: هو أن يعطي الله العبد كل ما يريده في الدنيا ليزداد غيه وضلاله، وجهله وعناده، فيزداد كل يوم بعدًا من الله تعالى[3].

وسنة الاستدراج من المكر الذي يحل بالظالمين، يستدرجهم الله بالنعم التي ظاهرها الرحمة، وباطنها العذاب والنقمة، يستدرج بها الله تعالى المسرفين والظالمين، فتلهيهم النعمة وتبطرهم، فينخر بنيانهم من الداخل فينهار، وذلك هو المحق والسقوط في حياة هذه الأمم، وهذا السقوط يتم عادة بغتة، وبصورة مفاجئة.

فبعض من أغدق الله جل جلاله عليهم بالصحة في الأبدان، والسعة في الرزق، والأمن في الأوطان، مع ما يرتكبون من المعاصي والآثام، والتكبر والظلم، والتجرؤ على ما حرم الله يظنون أن تتابع هذه النعم، وتزايد هذه المنن هو دليل على حب المنان، ورضا الرحمن! فأصابهم بسبب ذلك العجب، وتسلط عليهم الغرور، والحقيقة أن هذا ما هو إلا مكر من الله بهم واستدراج! انخدع به من كان قبلهم! فأخذهم رب العزة -جل وعلا- أخذ عزيز مقتدر، فتركهم لمن خلفهم عبرة، ولغيرهم آية!

قال سبحانه: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾ [الأنعام ٤٤].

قال ابن كثير رحمه الله: «﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ أي: أعرضوا عنه وتناسوه، وجعلوه وراء ظهورهم ﴿فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ أي: فتحنا عليهم أبواب الرزق من كل ما يختارون، وهذا استدراج منه تعالى، وإملاء لهم عياذًا بالله من مكره؛ ولهذا قال: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا﴾ من الأموال والأولاد والأرزاق ﴿أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً﴾ أي: على غفلة ﴿فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾ أي: آيسون من كل خير»[4].

وقال تعالى: ﴿فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ [القلم ٤٤-٤٥].

ويستفاد من الآيات السابقة وآيات أخرى، وبعض الأحاديث الشريفة الواردة في شأن الاستدراج، أو العذاب الاستدراجي أن الله لا يتعجل بالعذاب على

(١) التعريفات ص ٢٠.
(٢) التوقيف على مهمات التعاريف ص ٤٨.
(٣) الكليات ص١١٣.
(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ١٣٣.

الطغاة والعاصين المتجرئين، وفقًا لسنته في عباده، بل يفتح عليهم أبواب النعم، فكلما ازدادوا طغيانًا زادهم نعمًا، وهذا الأمر لا يخلو من إحدى حالتين:

فإما أن تكون هذه النعم مدعاة للتنبيه والإيقاظ، فتكون الهداية الإلهية في هذه الحال عملية، أو أن هذه النعم تزيدهم غرورًا وجهلًا؛ فعندئذٍ يكون عقاب الله لهم في آخر مرحلة أوجع؛ لأنهم حين يغرقون في نعم الله وملذاتهم ويبطرون، فإن الله سبحانه يسلب عندئذٍ هذه النعم منهم، ويطوي سجل حياتهم، فيكون هذا العقاب صارمًا وشديدًا.

والآية الثانية وهي قوله تعالى: ﴿وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ [القلم ٤٥].

تؤكد الموضوع ذاته، وتشير بأن الله لا يتعجل بالعذاب عليهم، بل يمهلهم لعلهم يحذرون ويتعظون، فإذا لم يتنبهوا من نومتهم ابتلوا بعذاب الله، فتقول الآية: ﴿وَأُمْلِي لَهُمْ﴾ [القلم ٤٥].

لأن الاستعجال يتذرع به من يخاف الفوت، والله قوي ولا يفلت من قبضته أحد ﴿إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ [القلم ٤٥].

و(المتين) معناه: القوي المحكم الشديد، وأصله مأخوذ من المتن، وهو العضلة المحكمة التي تقع في جانب الكتف (في الظهر)[1].

وهذه السنة هي نفسها سنة الإملاء في القرآن، وإنما يسميها القرآن بالاستدراج؛ لأن الله تعالى يستدرج بها المسرفين الى السقوط، ويسميها القرآن بـ«الاملاء» لأن الله يملي فيها للمسرفين، والإملاء هو الإمداد، كما قال الله: ﴿فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ [الرعد ٣٢].

وكما يقول الراغب في المفردات في قوله: ﴿وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ [الأعراف ١٨٣].

قال بعضهم: أراد بالكيد العذاب، والصحيح أنه هو الإملاء والإمهال المؤدي إلى العقاب، كقوله: ﴿إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا﴾ [آل عمران ١٧٨].

وقوله: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ﴾ [يوسف ٥٢].

فخص الخائنين تنبيهًا أنه قد يهدي كيد من لم يقصد بكيده خيانة، ككيد يوسف بأخيه، وقوله: ﴿لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ﴾ [الأنبياء ٥٧].

أي: لأريدن بها سوءًا، وقال: ﴿فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ﴾ [الصافات ٩٨].

وقوله: ﴿فَإِنْ كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ﴾ [المرسلات ٣٩].

---

(١) تهذيب اللغة، الأزهري ١٤/ ٢١٧.

وقال: ﴿كَيْدُ سَٰحِرٍ﴾[طه ٦٩][(١)].

والمقصود أن معنى مكر الله سبحانه وخدعته هو جزاؤه الإنسان الماكر والخادع على مكره وخديعته، فالله عز وجل لا يسخر، ولا يستهزئ، ولا يمكر، ولا يخادع؛ ولكنه عز وجل يجازيهم جزاء السخرية، وجزاء الاستهزاء، وجزاء المكر والخديعة، فمكر الله سبحانه وتعالى نوع من العقوبة والانتقام والقهر، يجري على العباد لمواجهة أعمالهم السيئة.

ومكر الله يجري على المسيء بأسلوب خفي دون أن يعرف به، أو يطلع عليه في مقام الانتقام؛ لما قام به من أعمال سيئة، ومظالم مشينة، ومكر الله في خفائه يتمثل بالإملاء حينما يمهل الله سبحانه وتعالى الكفار والفاسقين؛ ليزدادوا في ظلمهم وطغيانهم، ويملي لهم لتزداد عقوبتهم ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا ۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾[آل عمران ١٧٨].

ومن أسباب المكر الحسن المكر في الحرب؛ فليس في الحرب لين ولا هوادة، إما نصر وغلبة، وإما ذل وهزيمة، وقد أباح الله تعالى المكر والخديعة في الحرب لنصر دينه، وإعلاء كلمته، وللإيقاع بالكفار أعداء الله ودينه، ونصر المستضعفين الذين فتنهم الجبابرة، ومنعوا الدين الحق من الوصول إليهم؛ لذلك كان التهديد بغضب الله والوعيد بعذاب النار لمن فر يوم الزحف؛ لأن ذلك يؤدي إلى كشف ظهور المسلمين وهزيمتهم، والحرب ليست بالأمر الهين، بل تحتاج إلى إعمال عقل، وتدبير محكم، وتخطيط جيد، وصبر على مشاقها، يقول صاحب العقد الفريد: «الحرب رحى ثقالها الصبر، وقطبها المكر، ومدارها الاجتهاد، وثقافتها الأناة، وزمامها الحذر، ولكل شيء من هذه ثمرة، فثمرة الصبر التأييد، وثمرة المكر الظفر، وثمرة الاجتهاد التوفيق، وثمرة الأناة اليمن، وثمرة الحذر السلامة، ولكل مقام مقال، ولكل زمان رجال، والحرب بين الناس سجال، والرأي فيها أبلغ من القتال[(٢)].

لذلك كانت الحيلة والمكر مباحة في الحرب لحقن دماء المسلمين، وقد جاء الإذن بالتحرف للقتال، واستعمال الحيلة في الحرب في قوله تعالى: ﴿وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾[الأنفال ١٦].

وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: (الحرب خدعة)[(٣)].

---

(١) المفردات، الراغب ص ٧٢٨.

(٢) العقد الفريد، ابن عبدربه ١/ ٨٦ بتصرف يسير.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجهاد

٣. الانتقام ممن حاد الله ورسوله.

ومن دواعي المكر الإلهي الانتقام ممن حاد الله ورسوله.

قال تعالى: ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [النمل ٥١].

ومكرهم ما روي أن هؤلاء التسعة الذين عقروا الناقة لما كان في صدر الثلاثة الأيام بعد عقر الناقة، وقد أخبرهم صالح بمجيء العذاب اتفقوا وتحالفوا على أن يأتوا دار صالح ليلًا، ويقتلوه وأهله المختصين به، قالوا: فإذا كان كاذبًا في وعيده أوقعنا به ما يستحق، وإن كان صادقًا كنا عجلناه قبلنا، وشفينا نفوسنا[١].

فهذا هو مكرهم الذي أشار الله إليه في قوله: ﴿قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ [النمل ٤٩].

وقال تعالى في آية أخرى: ﴿وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِندَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ﴾ [إبراهيم ٤٦].

والمعنى: أن الله محيط بهم وبمكرهم، وإن كان مكرهم من القوة والتأثير حتى ليؤدي إلى زوال الجبال، أثقل شيء وأصلب شيء، وأبعد شيء عن تصور التحرك والزوال، فإن مكرهم هذا ليس مجهولًا، وليس خافيًا، وليس بعيدًا عن متناول القدرة، بل إنه لحاضر (عند الله) يفعل به كيفما يشاء ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ﴾ [إبراهيم ٤٧].

فما لهذا المكر من أثر، وما يعوق تحقيق وعد الله لرسله بالنصر، وأخذ الماكرين أخذ عزيز مقتدر ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ﴾ لا يدع الظالم يفلت، ولا يدع الماكر ينجو، وكلمة الانتقام هنا تلقي الظل المناسب للظلم والمكر، فالظالم الماكر يستحق الانتقام، وهو بالقياس إلى الله تعالى يعني تعذيبهم جزاء ظلمهم، وجزاء مكرهم، تحقيقًا لعدل الله في الجزاء، وسيكون ذلك لا محالة ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ﴾ [إبراهيم ٤٨].

ولا ندري نحن كيف يتم هذا؟ ولا طبيعة الأرض الجديدة وطبيعة السماوات، ولا مكانها، ولكن النص يلقي ظلال القدرة القادرة التي تبدل الأرض، وتبدل السماوات في مقابل ذلك المكر الذي مهما اشتد فهو ضئيل عاجز حسير.

وفجأة نرى ذلك قد تحقق ﴿وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ وأحسوا أنهم مكشوفون

والسير، باب الحرب خدعة، ٤/ ٦٤، رقم ٣٠٣٠، ومسلم في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب جواز الخداع في الحرب، ٣/ ١٣٦١، رقم ١٧٣٩.

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٣/ ٢١٧.

لا يسترهم ساتر، ولا يقيهم واق، ليسوا في دورهم، وليسوا في قبورهم، إنما هم في العراء أمام الواحد القهار، ولفظة (القهار) هنا تشترك في ظل التهديد بالقوة القاهرة التي لا يقف لها كيد الجبابرة، وإن كان مكرهم لتزول منه الجبال، ثم ها نحن أولاء أمام مشهد من مشاهد العذاب العنيف القاسي المذل، يناسب ذلك المكر، وذلك الجبروت[1].

٢. أسباب المكر السيِّئ.

١. الاستكبار في الأرض.

الاستكبار طلب الكبر من غير استحقاق[2]. والكبرياء: اسم للتكبر والعظمة[3].

وقد أشار الله سبحانه وتعالى أن من دواعي مكر الماكرين الاستكبار في الأرض، حيث قال: ﴿ٱسْتِكْبَارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾ [فاطر ٤٣].

فقوله: ﴿ٱسْتِكْبَارًا﴾ أي: طلبًا لإيجاد الكبر لأنفسهم ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: التي من شأنها السفول والتواضع والخمول، فلم يكن نفورهم لأمر محمود ولا مباح، ويجوز أن يكون استكبارًا بدلًا من نفورًا، وأن يكون حالًا، أي: حال كونهم مستكبرين[4].

وقوله تعالى: ﴿وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ﴾ هذا من إضافة الموصوف إلى صفته في الأصل؛ إذ الأصل (والمكر السيِّئ) أي: الذي من شأنه أن يسوء صاحبه وغيره، وهو إرادتهم لإهانة أمر النبي صلى الله عليه وسلم، وإطفاء نور الله عز وجل[5].

والمقصود أن سبب النفور هو الاستكبار ومكر السيئ، أي: الحامل لهم على الابتعاد من الحق هو الاستكبار والمكر السيئ، وهو الخداع الذي ترومونه برسول الله صلى الله عليه وسلم، والكيد له[6].

﴿وَلَا﴾ أي: والحال أنه لا ﴿وَلَا يَحِيقُ﴾ أي: يحيط إحاطة لازمة خسارة ﴿ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ﴾ أي: الذي هو عريق في السوء ﴿إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾ أي: وإن أذى غير أهله، لكنه لا يحيط بذلك الغير، فإن قيل: كثيرًا ما نرى الماكر يمكر ويفيده المكر، ويغلب الخصم بالمكر، والآية تدل على عدم ذلك، أجيب بأجوبة:

أحدها: أن المكر في الآية هو المكر الذي مكروه مع النبي صلى الله عليه وسلم، من العزم على القتل والإخراج، ولم يحق إلا بهم، حيث قتلوا يوم بدر وغيره.

ثانيها: أنه عام، وهو الأصح.

ثالثها: أن الأعمال بعواقبها، ومن مكر

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٤/ ٢١١٢.
(٢) الفروق اللغوية، العسكري ص ٤٩.
(٣) العين، الفراهيدي ٥/ ٣٦١.
(٤) السراج المنير ٣/ ٣٣٣.
(٥) المصدر السابق.
(٦) البحر المحيط، أبو حيان ٩/ ٤١.

بغيره ونفذ فيه المكر عاجلًا في الظاهر فهو في الحقيقة هو الفائز، والماكر هو الهالك، كمثل راحة الكافر ومشقة المسلم في الدنيا، ويؤيد هذا المعنى قوله تعالى: ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ﴾ أي: ينتظرون ﴿إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ﴾ أي: سنة الله تعالى فيهم من تعذيبهم[1].

ومما يدل على أن من دواعي المكر الكبر والاستكبار قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ [الأنعام ١٢٣].

أي: ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ أي: مثل ما زينا للكافرين سوء أعمالهم، فكان أكابر أهل مكة يمكرون فيتبع غيرهم مكرهم ﴿جَعَلْنَا﴾أي: بما لنا من العظمة في إقامة الأسباب لما يعلي كلمة الإنسان، أو يجعله حقير الشأن ﴿فِي كُلِّ قَرْيَةٍ﴾أي بلد جامع، ولما كان الكبر مختلف الأنواع باختلاف أشخاص المجرمين، طابق بأفعال التفضيل المقصودين لها في الجمع على إحدى اللغتين، وعبر بصيغة منتهى الجمع دلالة على تناهيهم في الكثرة، فقال: ﴿أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا﴾ أي: القاطعين لما ينبغي أن يوصل؛ ولما كان من شأن الإنسان استجلاب أسباب الرفعة لنفسه، وكان لا يصل إلى ذلك في دار ربط المسببات بحكمة الأسباب إلا بالمكر، وكان الأكابر أقدر على إنفاذ المكر، وترويج الأباطيل بما لأغلب الناس من السعي في رضاهم طمعًا فيما عندهم، وكان الإنسان كلما تمكن من ذلك أمعن فيه، وكان الكبير إنما يصل إلى ما قدر له من ذلك[2].

٢. حب الشهوات.

ومن دواعي المكر السيِّئ: الإفراط في حب الشهوات الذي يؤدي إلى المكر والطغيان، والمتأمل في حياة الكفار وأرباب الشهوات يجد أن من الأخلاق البارزة في حياتهم المكر والخداع من أجل الحفاظ على شهواتهم ومصالحهم؛ إذ لا رادع لهم عن ذلك؛ لأنهم فقدوا الإيمان، ودوره في محاسبة النفس.

ومن الشواهد القرآنية على هذا المنحى المنحرف ما قصه الله تعالى من مكر زليخا امرأة العزيز بالنسوة، عندما علمت بمكرهن بها، حيث قال تعالى: ﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾[يوسف ٣١].

فإن قيل: فما كان مكر النسوة اللاتي مكرن به وسمعته امرأة العزيز، فإن الله

(١) السراج المنير ٣/ ٣٣٣.

(٢) نظم الدرر، البقاعي ٧/ ٢٥٤.

سبحانه لم يقصه في كتابه؟

قيل: بلى؛ قد أشار إليه بقوله: ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَنهَا عَن نَّفْسِهِ، قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَنهَا فِي ضَلَلٍ مُّبِينٍ﴾ [يوسف ٣٠].

وهذا الكلام متضمن لوجوه من المكر:

أحدها: قولهن: ﴿امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَنهَا عَن نَّفْسِهِ﴾ [يوسف ٣٠].

ولم يسمينها باسمها، بل ذكرنها بالوصف الذي ينادى عليها بقبيح فعلها بكونها ذات بعل؛ فصدور الفاحشة منها أقبح من صدورها ممن لا زوج لها.

الثاني: أن زوجها عزيز مصر ورئيسها وكبيرها، وذلك أقبح لوقوع الفاحشة منها.

الثالث: أن الذي تراوده مملوك لا حر، وذلك أبلغ في القبح.

الرابع: أنه فتاها الذي هو في بيتها، وتحت كنفها؛ فحكمه حكم أهل البيت، بخلاف طلب ذلك من الأجنبي البعيد.

الخامس: أنها هي المراودة الطالبة.

السادس: أنها قد بلغ بها عشقها له كل مبلغ، حتى وصل حبها له إلى شغاف قلبها.

السابع: أن في ضمن هذا أنه أعف منها وأبر وأوفى؛ حيث كانت هي المراودة الطالبة، وهو الممتنع عفافًا وكرمًا وحياء، وهذا غاية الذم لها.

الثامن: أنهن أتين بفعل المراودة بصيغة المستقبل الدالة على الاستمرار، والوقوع حالًا واستقبالًا، وأن هذا شأنها، ولم يقلن: راودت فتاها، وفرق بين قولك: فلان أضاف ضيفًا، وفلان يقري الضيف، ويطعم الطعام، ويحمل الكل؛ فإن هذا يدل على أن هذا شأنه وعادته.

التاسع: قولهن: ﴿إِنَّا لَنَرَنهَا فِي ضَلَلٍ مُّبِينٍ﴾ [يوسف ٣٠].

أي: إنا لنستقبح منها ذلك غاية الاستقباح، فنسبن الاستقباح إليهن، ومن شأنهن مساعدة بعضهن بعضًا على الهوى، ولا يكدن يرين ذلك قبيحًا، كما يساعد الرجال بعضهم بعضًا على ذلك، فحيث استقبحن منها ذلك، كان هذا التسليم بأنه من أقبح الأمور، وأنه مما لا ينبغي أن تساعد عليه، ولا يحسن معاونتها عليه.

فقد جمعن لها في هذا الكلام واللوم بين العشق المفرط، والطلب المفرط، فلم تقتصد في حبها، ولا في طلبها، أما العشق فقولهن: ﴿قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا﴾ [يوسف ٣٠].

أي: وصل حبه إلى شغاف قلبها، وأما الطلب المفرط فقولهن: ﴿تُرَاوِدُ فَتَنهَا﴾ [يوسف ٣٠].

والمراودة: الطلب مرة بعد مرة، فنسبوها إلى شدة العشق، وشدة الحرص على الفاحشة.

فلما سمعت بهذا المكر منهن: هيأت

لهن مكرًا أبلغ منه، فهيأت ﴿لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا﴾ [يوسف ٣١].

ثم أرسلت إليهن فجمعتهن، وخبأت يوسف عليه السلام عنهن، وقيل: إنها جملته وألبسته أحسن ما تقدر عليه، وأخرجته عليهن فجأة، فلم يرعهن إلا وأحسن خلق الله، وأجملهم قد طلع عليهن بغتة؛ فراعهن ذلك المنظر البهي، وفي أيديهن مدىً يقطعن بها ما يأكلنه، فدهشن حتى ﴿قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ [يوسف ٥٠]، وهن لا يشعرن، وقد قيل: إنهن أبن أيديهن، والظاهر خلاف ذلك، وإنما تقطيعهن أيديهن: جرحها وشقها بالمدى؛ لدهشهن بما رأين، فقابلت مكرهن القولي بهذا المكر الفعلي، وكانت هذه في النساء غاية في المكر[١].

والمقصود أن سبب هذا المكر منها ومنهن هو حب الشهوات، والتنافس عليها، الذي دفع إليه الترف الذي تعيشه هؤلاء النسوة.

فالمترفون هم أشد الناس بطرًا في المعيشة، وهم أكثر الناس تجاوزًا في الإسراف في الملذات والشهوات، بحكم مناصبهم، وكثرة ما في أيديهم من أموال؛ لأن الاستمرار والمداومة على هذه الملذات، والتوسع فيها يورث البلادة والغلظة، وظلمة في القلب، بحيث لا يتسرب إليها نور الإيمان، وبالتالي الوقوع في المكر، والأمر بالمنكر، والنهي عن المعروف؛ لأجل البقاء على ملذاتهم وملاهيهم، وقد يتجاوز هذا البطر إلى الفقراء والمستضعفين، فيقلدون أهل الترف، إما بالتكبر على الحق، أو ببطران النعم، في ملاهيهم ومعيشتهم.

ولا شك أن الانغماس في الشهوات والملذات ينسي الآخرة وأهوالها، والموت وسكراته، ويظن المترف بأن الدنيا ما وجدت إلا للمتاع الذي هو فيها، ويظن أيضًا أنه سوف يعيش آجالًا، ويحقق آمالًا.

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَتْرَفْنَـٰهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [المؤمنون ٣٣].

وقال: ﴿فَلَمَّآ أَحَسُّوا۟ بَأْسَنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ﴿١٢﴾ لَا تَرْكُضُوا۟ وَٱرْجِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَـٰكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ﴾ [الأنبياء ١٢-١٣].

قال سيد قطب: والترف لا بد أن يؤدي إلى المنكر؛ لأن الطاقة الفائضة لا بد لها من متصرف، فهناك مال فائض، وهو طاقة، وهناك حيوية جسد فائضة كذلك، وهي طاقة، وهناك فضلة زمن فائضة بلا عمل، ولا تفكير، وهي طاقة، والفتية المترفون، والفتيات المترفات، وهم يجدون الشباب، والفراغ، والجدة، لا بد أن يفسقوا، ولا بد أن يبحثوا عن مصارف أخرى لطاقة الجسد،

---

(١) إغاثة اللهفان، ابن القيم ٢/ ١٥٤-١٥٧.

وطاقة المال، وطاقة الوقت، وغالبًا ما تكون مصارف تافهة، تأخذ طابعها من الزمن والبيئة، ولكنها تلتقي عند حد التفاهة، والميوعة، والقذارة الحسية والمعنوية، وفي الجانب الآخر المستغلون، والمستربحون، والمحتاجون من تجار الرقيق، والمهرجين، والذيول، وحواشي المترفين، ينشرون الدعارة، والترهل، ويرخصون كل قيم الحياة الجادة، التي لا تروق للمترفين والمترفات[1].

فالغلو في حب الدنيا هو رأس كل خطيئة، والتنافس عليها أساس كل بلية، وهذا المعنى -أعني به أثر الشهوات في الصد عن دين الله- قد أدركته شياطين الإنس والجن، فعملوا ولا يزالون يعملون على إثارة الشهوات بكل أنواعها وفنونها في كل درب ووادٍ من أجل اصطياد الناس وجذبهم إلى باطلهم وشركهم ومجونهم، وصدهم عن طريق الهداية والحق!

قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا﴾ [سبأ ٣٣].

فهو ليس مكر الليل وحسب ثم يستريح في نهاره، أو مكر النهار وحسب ثم يستريح في ليله، لا، بل هو مكر الليل والنهار، مكر على مدار الساعة والوقت، وهدفه وغايته:أن نكفر بالله تعالى، ونجعل له الأنداد والشركاء من الآلهة المزيفة التي يصطنعونها بأيديهم وأهوائهم!

٣. الصد عن سبيل الله.

ومن أعظم دواعي المكر عند أعداء الله محاربة الإسلام وأهله؛ فمنذ فجر التاريخ الإسلامي والأعداء يمكرون ويخططون لقمع هذا الدين، والصد عن سبيله، وفتنة معتنقيه، وفي سبيل ذلك يجمعون أموالهم ويبذلونها بطريقة هستيرية لمحاربته والكيد لأهله، واجتثاثهم من بلدانهم، وقتلهم وسجنهم، ورغم ذلك لم يكلل سعيهم بالنجاح إلا بشكل نسبي، فكلما سددوا ضرباتهم إلى الإسلام ازداد قوة وانتشارًا في ربوع العالم، رغم أنه قد تمر بالإسلام فترات يعاني فيها من حالات ضعف أو انزواء، إلا أنه يعاود الخروج للعالم بقوة، ينشر تعاليمه، ويفرض احترامه حتى على غير المؤمنين به.

وقد ذكر الله تعالى في كتابه ما قام به أهل الكتاب من مكر وكيد لصد المسلمين عن دينهم، فقال: ﴿قُلْ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [آل عمران ٩٩].

أي: لأي سبب تصرفون من آمن بمحمد

---

(١) انظر: العدالة الاجتماعية، سيد قطب ص١٢٩.

صلى الله عليه وسلم واتبعه عن الإيمان الذي يرتقى بعقل المؤمن بما فيه من طلب النظر في الكون، ويرتقى بروحه بتزكيتها بالأخلاق الطيبة، والأعمال الصالحة، وتكذبون بذلك كفرًا وعنادًا، وكبرًا وحسدًا، وتلقون الشبهات الباطلة في قلوب الضعفاء من المسلمين بغيًا وكيدًا للنبي صلى الله عليه وسلم، تبغون لأهل دين الله، ولمن هو على سبيل الحق عوجًا وضلالًا وزيغًا عن الاستقامة، وعلى الهدى والمحجة، وأنتم عارفون بتقدم البشارة به، عالمون بصدق نبوته، ومن كان كذلك فلا يليق به الإصرار على الباطل والضلال والإضلال.

﴿وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [آل عمران ٩٩].

من هذا الصد وغيره من الأعمال، فمجازيكم عليه، وغير خاف ما في هذا من تهديد ووعيد، كما يقول الرجل لعبده وقد أنكر عليه اعوجاج أخلاقه: لا يخفى علي ما أنت عليه، وما أنا بغافل عن أمرك، وإنما ختم هذه الآية بنفي الغفلة؛ لأن صدهم عن الإسلام كان بضرب من المكر والكيد، ووجوه الحيل[1].

فالمكر وسيلة شيطانية يسلكها شياطين الإنس والجن ليكون ذلك هو منطلق الصد عن سبيل الله.

قال تعالى على لسان فرعون: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف ١٢٣].

وهذه الآية تقرر أن المكر هو وسيلة لإخراج أهل المدينة منها، ولكن هذا زعم وافتراء من فرعون على نبي الله موسى عليه السلام.

وقال تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ [الأنفال ٣٠].

والمكر في هذه الآية من كفار قريش لأجل أن يسجنوا النبي صلى الله عليه وسلم، أو يقتلوه، أو يخرجوه من بلده مكة، وهذا هو غاية الصد عن سبيل الله؛ ولذلك رتب الله الصد على المكر في آية الرعد.

قال تعالى: ﴿بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ﴾ [الرعد ٣٣].

فزين الشيطان لهم المكر وزين لهم أن يصدوا عن سبيل الله مما يؤكد أن المكر طريق من طرق الصد، وأداة من أدواته، ووسيلة فاعلة من وسائله.

---

(١) تفسير المراغي ٤/ ١٣.

عواقب المكر

بين القرآن الكريم عاقبة المكر والماكرين وسوف نتناولها بالبيان فيما يأتي:

أولًا: عواقب المكر في الدنيا:

١. هلاك أهل المكر وانهزامهم.

أخبر الله سبحانه وتعالى أن عاقبة الماكرين بالحق وأهله الخزي والهلاك والدمار في الدنيا قبل الآخرة، فقال تعالى: ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [النمل ٥١].

فقوله: ﴿فَانظُرْ﴾ أي: ففكر كيف آل أمرهم؟! وكيف كانت عاقبة مكرهم؟! فقد أهلكناهم وقومهم الذين لم يؤمنوا على وجهٍ يقتضي النظر، ويسترعي الاعتبار، ويكون عظة لمن غدر كغدرهم في جميع الأزمان[١].

والخطاب هنا للنبي صلى الله عليه وسلم، ولكل من كان أهلًا للنظر والاعتبار، وفي هذا النظر إلى مكر هؤلاء الرهط، وإلى ما أعقب هذا المكر، وما نزل بهم من نقم الله، وما حل بهم وبقومهم جميعًا من هلاك لهم، وتدمير لديارهم! يورث الخوف من الوقوع فيما وقعوا فيه.

وهكذا يصيب الشر أهله، ثم يمتد فيشمل من كان معهم ممن لم يشاركوا في هذا الشر، ولكنهم لم يتصدوا للأشرار، ولم يأخذوا على أيديهم، والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً﴾ [الأنفال ٢٥].

ويقول سبحانه: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾[الإسراء ١٦].

وهكذا أرادوا الهلاك لصالح عليه السلام وأهله فأهلكهم الله، وأهلك أهلهم جميعًا، فقال تعالى: ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [النمل ٥٢][٢].

فالاعتبار بمكر الله بهم هو المقصود من سوق القصة تعريضًا بأن عاقبة أمره مع قريش أن يكف عنه كيدهم وينصره عليهم، وفي ذلك تسلية له على ما يلاقيه من قومه، والنظر: نظر قلبي، وقد علق عن المفعولين بالاستفهام، فتكون الجملة مستأنفة استئنافًا بيانيًا لما يثيره الاستفهام في قوله: ﴿كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ﴾[النمل ٥١].

من سؤال عن هذه الكيفية، والتأكيد للاهتمام بالخبر[٣].

فالذين كانوا يمكرون السيئات لمقاومة إصلاح الرسل حرصًا على رياستهم وفسقهم وفسادهم لم يكونوا يشعرون بأن

(١) تفسير المراغي ١٩/ ١٤٨.

(٢) انظر: التفسير القرآني للقرآن، الخطيب ١٠/ ٢٥٥.

(٣) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٩/ ٢٨٥.

عاقبة مكرهم تحيق بهم؛ لجهلهم بسنن الله تعالى في خلقه، وهم جديرون بهذا الجهل، وأما أكابر المجرمين في هذا العصر فهم لا يعذرون بالجهل بعد هذا الإرشاد[1].

وقد مكر الذين من قبلهم من كفار الأمم الماضية بأنبيائهم كعاد وثمود وفرعون وإخوان لوط، واستنفدوا جهدهم وطاقتهم في إطفاء نور الحق، أو لم يعلموا أن لله وحده المكر جميعًا، وقد أبى الله إلا إتمام نوره، ولو كره الكافرون، والله وحده يعلم ما تكسب كل نفس في كل حركة تتحركها، وسيعلم الكفار -يوم لا يغني عنهم ذلك شيئًا- لمن عقبى الدار؟! وفي هذا سلوى للنبي صلى الله عليه وسلم حيث يعلم أن ديدن الناس قديمًا مع إخوانه الرسل، وحديثًا معه لم يتغير ولم يتبدل، وفي هذا تقوية لعزمه ببيان أن النصر في النهاية له، وأن الدائرة على الكفار[2].

يقول سيد قطب رحمه الله: «كذلك دبروا، وكذلك مكروا، ولكن الله كان بالمرصاد، يراهم ولا يرونه، ويعلم تدبيرهم، ويطلع على مكرهم، وهم لا يشعرون ﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [النمل ٥٠].

وأين مكر من مكر؟ وأين تدبير من تدبير؟ وأين قوة من قوة؟ وكم ذا يخطىء الجبارون، وينخدعون بما يملكون من قوة ومن حيلة، ويغفلون عن العين التي ترى ولا تغفل، والقوة التي تملك الأمر كله، وتباغتهم من حيث لا يشعرون ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٥١ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [النمل ٥١-٥٢].

ومن لمحة إلى لمحة إذا التدمير والهلاك، وإذا الدور الخاوية، والبيوت الخالية، وقد كانوا منذ لحظة واحدة في الآية السابقة من السورة يدبرون ويمكرون، ويحسبون أنهم قادرون على تحقيق ما يمكرون! وهذه السرعة في عرض هذه الصفحة بعد هذه مقصودة في السياق؛ لتظهر المباغتة الحاسمة القاضية، مباغتة القدرة التي لا تغلب للمخدوعين بقوتهم ومباغتة التدبير الذي لا يخيب للماكرين المستعزين بمكرهم»[3].

والمقصود أن عاقبة المكر الهلاك؛ ولهذا قال الله: ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [النمل ٥١].

أي: فانظر يا محمد بعين قلبك إلى عاقبة غدر الغادرين، ومكر الماكرين،

(١) تفسير المنار، محمد رشيد رضا ٨/ ٣١.
(٢) التفسير الواضح، محمد حجازي ٢/ ٢٤١.
(٣) في ظلال القرآن، سيد قطب ٥/ ٢٦٤٦.

كيف كانت؟ وما الذي أورثها اعتداؤهم وطغيانهم وتكذيبهم؟ فإن ذلك ستتنا فيمن كذب رسلنا، وطغى علينا من سائر الخلق، فحذر قومك من قريش أن ينالهم بتكذيبهم إياك ما نال هؤلاء من المثلات، إنا دمرناهم وقومهم أجمعين، فلم نبق منهم أحدًا.

٢. انتصار أهل الحق على أعدائهم.

إن الله تعالى يدافع عن المظلوم، ويدفع عنه ظلم ظالمه، وخداع مخادعه، ومكر ماكره، خاصة حينما يلجأ إليه، ويستعين به، ويتحصن بحصونه وقواه ومعوناته، ويبدأ في اتخاذ أسباب دفع المكر والظلم عنه ما استطاع، يدفعه عز وجل سريعًا عند بدئه، وقبل أن يمسه! فيضعف تأثيره أو ينعدم، على قدر لجوئه لربه، واستخدامه للأسباب الممكنة المتاحة أمامه.

يقول الله تعالى تأكيدًا لهذا: ﴿قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا﴾ [يونس ٢١].

يقول البغوي في تفسيره: «عذابه في إهلاككم أسرع إليكم مما يأتي منكم في دفع الحق»[(١)].

ويقول العز بن عبد السلام في تفسيره لقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [الحج ٣٨].

يدفع الكفار عن المؤمنين، والعصاة عن المطيعين، والجهال عن العلماء، أو يدفع عنهم وساوس الشيطان، أو يدفع بنور السنة ظلمات البدعة»[(٢)].

ويضيف الإمام ابن عادل في تفسيره اللباب: لم يذكر ما يدفعه حتى يكون أفخم وأعظم وأعم، وهذه بشارة للمؤمنين بإعلائهم»[(٣)].

قال سيد قطب رحمه الله: «فالله أقدر على التدبير بإبطال ما يمكرون، ومكرهم مكشوفٌ لديه ومعروف، والمكر المكشوف إبطاله مضمون ﴿إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ﴾ فلا شيء منه يخفى، ولا شيء منه ينسى»[(٤)].

فمكر الماكر، وخداع المخادع، والتواء الملتوي، وظلم الظالم، وشر الشرير يعود مكره وخداعه والتوائه وظلمه وشره على فاعله أولًا أكثر من غيره!

فإذا كان الماكرون يمكرون فهو سبحانه له أيضًا مكره! ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ [الأنفال ٣٠].

وعلى كل مظلوم أن يوقن بذلك الوعد من ربه، وأن له ناصرًا هو خالقه سبحانه وتعالى، وهو على أعلى مستوىً من فنون النصر والمكر بشتي صوره، والتي لا تقارن بخلقه، ولا تخطر ببالهم! وشتان ما بين المكرين!

(١) معالم التنزيل، البغوي ٢/ ٤١٥.

(٢) تفسير العز بن عبد السلام ٢/ ٣٥٧.

(٣) اللباب في علوم الكتاب ١٤/ ٩٩.

(٤) في ظلال القرآن ٣/ ١٧٧٣.

يقول إسماعيل حقي في تفسيره للآية السابقة: إن للخلق مكرًا، وللحق مكرًا، فمكر الخلق من الحيرة والعجز، ومكر الخالق من الحكمة والقدرة، فمكر الخلق مع مكر الحق باطل زاهق، ومكر الحق حق ثابت[1].

وذلك مهما كان سوء وشدة وإحكام مكر الماكرين ﴿وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِندَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ﴾ [إبراهيم ٤٦].

فهو نسبةً لمكر المنتقم الجبار أوهن من بيت العنكبوت ﴿وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت ٤١].

إنه تعالى لا يدفع فقط عن المظلوم، وإنما لا بد من أن ينصره! كما وعد في آيات كثيرة، كقوله تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ [غافر ٥١].

قال القرطبي في تفسيره: «هو عام، نصرهم بإعلاء الحجج وإفلاحها، بالانتقام من أعدائهم»[2].

ويقول الله تعالى: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم ٤٧].

قال الرازي في تفسيره: «وفي قوله تعالى: ﴿وَكَانَ حَقًّا﴾ وجهان:

أحدهما: فانتقمنا، وكان الانتقام حقًّا، واستأنف وقال: ﴿عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ وعلى هذا يكون هذا بشارة للمؤمنين الذين آمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم، أي: علينا نصركم أيها المؤمنون.

والوجه الثاني: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا﴾ أي: نصر المؤمنين كان حقًّا علينا، وعلى الأول لطيفة، وعلى الآخر أخرى، أما على الأول فهو أنه لما قال ﴿فَانتَقَمْنَا﴾ بين أنه لم يكن ظلمًا، وإنما كان عدلًا حقًّا؛ وذلك لأن الانتقام لم يكن إلا بعد كون بقائهم غير مفيد إلا زيادة الإثم وولادة الكافر الفاجر، وكان عدمهم خيرًا من وجودهم الخبيث، وعلى الثاني تأكيد البشارة؛ لأن كلمة (على) تفيد معنى اللزوم، يقال: على فلان كذا ينبئ عن اللزوم، فإذا قال: حقًّا أكد ذلك المعنى، وقد ذكرنا أن النصر هو الغلبة التي لا تكون عاقبتها وخيمة»[3].

والمتأمل في سيرة الإسلام وأهله يجد أن الماكرين قد حاولوا كثيرًا المكر برسول الله صلى الله عليه وسلم وبالمسلمين سابقًا ولاحقًا، فانقلب المكر والظلم عليهم، وفي نحورهم، وتساقطوا وهلكوا وتعسوا، بينما انتصر الذين تمسكوا بربهم وإسلامهم وارتفعوا وارتقوا وسعدوا.

(١) روح البيان ٣/ ٣٣٩.
(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٥/ ٣٢٢.
(٣) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٥/ ١٠٨.

يقول تعالى مؤكدًا هذا: ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُواْ خَيْرًاۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾ [الأحزاب ٢٥].

وفسره الإمام ابن عجيبة في تفسيره البحر المديد بقوله: «هذه عادة الله مع خواصه، يجعل دائرة السوء على من ناوأهم، ويكفيهم أمرهم من غير محاربة ولا قتال، ثم يكون لهم التصرف في الوجود بأسره، والله غالب على أمره»[1].

فكن أيها المسلم على يقين من نصر الله لأوليائه، وانتظر حينئذ عون ربك ونصره، واستبشر بسرعة مكره بأعدائه إن لم ينتهوا عن مكرهم، ويعودوا لرشدهم، مهما كانت ضخامة مكرهم؛ فالله تعالى لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، ﴿فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ﴾ [النحل ٤٦].

ومهما ينفقون من جهود وأموال وأفكار سيعود وباله عليهم حسرة وخسرانًا وانهزامًا ﴿فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ﴾ [الأنفال ٣٦].

والمقصود أن الله وعد بنصر أوليائه، وإبطال مكر أعدائهم، ووعده الحق الأكيد الذي لا يمكن لأحدٍ منعه أو تبديله أو تغييره، كما يقول تعالى: ﴿ٱسْتِكْبَارًا فِي ٱلْأَرْضِ وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِۚ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦۚ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًاۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ [فاطر ٤٣].

قال النيسابوري في تفسيره لهذه الآية: «عاقبة الماكر وخيمة، يصل إليه جزاؤه عاجلًا أو آجلًا»[2].

وقال السعدي: «فعاد مكرهم في نحورهم، ورد الله كيدهم في صدورهم، فلم يبق لهم إلا انتظار ما يحل بهم من العذاب، الذي هو سنة الله في الأولين التي لا تبدل ولا تغير، أن كل من سار في الظلم والعناد والاستكبار على العباد أن يحل به نقمته، وتسلب عنه نعمته، فليترقب هؤلاء ما فعل بأولئك»[3].

٣. نزول العذاب بالماكرين من حيث لم يحتسبوا.

خسر من أمن مكر الله، وجهل بقدرته، وسرعة مكره وتدبيره، وقد أنذر سبحانه وتعالى الجاحدين بآياته، المكذبين لرسله، الماكرين بالخلق، الصارفين لهم عن اتباع الحق، بأنهم ليسوا بمأمن من مكر الله، وضرب لهم أمثلة على ما سيحل بهم إن استمروا على ضلالهم، فقال تعالى: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ ۝٩٧ أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ۝٩٨ أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ ٱللَّهِۚ

(١) البحر المديد ٤/ ٤٢٤.

(٢) غرائب القرآن ٥/ ٥٢٠.

(٣) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٦٩١.

﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [الأعراف ٩٧ - ٩٩].

وفي الأثر عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال: «أكبر الكبائر: الإشراك بالله، والأمن من مكر الله، والقنوط من رحمة الله، واليأس من روح الله»[(١)].

فهذه أمثلة على أساليب الله في المكر بأعدائه، فالله قادر على أن يخسف بهم الارض «كما خسف بقارون من قبلهم، أو يأتيهم العذاب من حيث لا يشعرون، يعني: إن العذاب يأتيهم بغتة، فيهلكهم فجأة، كما أهلك قوم لوط وغيرهم ﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ﴾ بمعنى: في تصرفهم في الأسفار، فإنه سبحانه وتعالى قادر على إهلاكهم في السفر، كما هو قادر على إهلاكهم في الحضر»[(٢)].

«وكان ذكر وقت البيات ووقت اللعب تهديدًا لهم بأن يصيبهم العذاب بأفظع أحواله؛ إذ يكون حلوله بهم في ساعة دعتهم وساعة لهوهم نكايةً بهم»[(٣)].

وقال تعالى: ﴿أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ﴾ [الملك ١٧].

أي: أن يمطر عليكم حصباء من السماء، فستعلمون كيف إنذاري إذا شاهدتم المنذر به، ولكن لا ينفعكم العلم حينئذٍ[(٤)].

وهذه العقوبات حلت بمستحقيها دون أن يتوقعوها، أو يشعروا بها قبل وقوعها، فلم يسبقهم بها أحد من قبل.

قال الطبري في قوله تعالى: ﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [النمل ٥٠]: فأخذناهم بعقوبتنا إياهم، وتعجيلنا العذاب لهم ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ بمكرنا، وأنه أخذه من أخذه منهم على غرة، أو استدراجه منهم من استدرج على كفره به ومعصيته إياه، ثم إحلاله العقوبة به على غرة وغفلة[(٥)].

٤ . فضح أهل السوء وزوال سلطانهم.

منذ بزغ الإسلام بنوره والماكرون يدبرون المكائد، ويحيكون الدسائس لإطفاء نور الله، ولكن الله متم نوره ولو كره الكافرون، ويأبى الله إلا أن يفضح أهل المكر والغدر؛ ولهذا تولى الله فضح مكر الماكرين، وكيد الكائدين، وعرى حالهم، وكشف أمرهم، وفضح مخازيهم، وأظهر

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير، ٩/ ١٥٦، رقم ٨٧٨٣، والبيهقي في شعب الإيمان ١/ ٤٦١، رقم ٢٨٧.
قال الهيثمي في مجمع الزوائد ١/ ١٠٤: إسناده صحيح.
وقال ابن كثير في التفسير ٢/ ٢٧٩: وهو صحيح إليه -أي إلى ابن مسعود- بلا شك.
(٢) لباب التأويل، الخازن ٣/ ٧٩.
(٣) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٩/ ٢٣.
(٤) انظر: أنوار التنزيل، البيضاوي ٥/ ٢٣٠.
(٥) جامع البيان، الطبري ١٨/ ٩٢.

قبائحهم؛ قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ﴾ [محمد ٢٩].

وقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ﴾ [الأعراف ١٥٢].

أي: ومثل هذا الجزاء في الدنيا نجزي المفترين على الله في كل زمان؛ إذ فضحوا بظهور افترائهم كما فضح هؤلاء[(١)].

«ولقد كان ما صنعه الله بالمنافقين في عهد الرسول -صلوات الله وسلامه عليه- وفي فضح من فضح منهم- حماية للمجتمع الإسلامي الأول من هذا الداء الخبيث، ووقاية للمؤمنين من أن يطوف بهم طائف منه، حتى لقد كان صحابة رسول الله -وهم من هم- يضعون أنفسهم تحت مراقبة دقيقة منهم لكل خاطرة تخطر لهم، ولكل وسواس يطوف بهم[(٢)].

ولهذا يوصي القرآن الرسول صلى الله عليه وسلم وهي وصية لكل داعية من بعده ألا يأخذه الحزن إذا رأى الناس لا يهتدون، فإنما عليه واجبه يؤديه، والهدى والضلال بيد الله، وفق سنته في فطرة النفوس واستعداداتها واتجاهاتها ومجاهدتها للهدى أو للضلال، وألا يضيق صدره بمكرهم، فإنما هو داعية لله، فالله حافظه من المكر والكيد، لا يدعه للماكرين الكائدين، وهو مخلص في دعوته، لا يبتغي من ورائها شيئًا لنفسه، ولقد يقع به الأذى لامتحان صبره، ويبطئ عليه النصر لابتلاء ثقته بربه، ولكن العاقبة مظنونة ومعروفة ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ [النحل ١٢٨].

ومن كان الله معه فلا عليه ممن يكيدون وممن يمكرون، هذا هو دستور الدعوة إلى الله كما رسمه الله، والنصر مرهون باتباعه، كما وعد الله، ومن أصدق من الله؟»[(٣)].

وقد أخبر الله في كتابه أن الماكرين بالحق وأهله مهما يمكرون من مكر، ويكيدون من كيد، فإن الله يجعل وبال ذلك عليهم، بإهلاكهم، وإزالة سلطانهم، فقال تعالى: ﴿قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُم مِّنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [النحل ٢٦].

أي: إن حال من قبلهم وقد دبروا الحيل، ونصبوا الحبائل ليمكروا بها رسل الله، فأبطلها الله، وجعلها سبيلًا لهلاكهم، كحال قوم بنوا بنيانًا، وعمدوه بالأساطين، فضعضعت أساطينه، وسقط عليهم السقف، فهلكوا تحته من حيث لا يشعرون بسقوطه- فما نصبوه من الأساطين، وظنوه سبب القوة

(١) تفسير المراغي ٩/ ٧٤.
(٢) التفسير القرآني للقرآن، الخطيب ٥/ ٨٢٩.
(٣) في ظلال القرآن، سيد قطب ٤/ ٢٢٠٣ بتصرف.

والتحصين في البنيان صار سبب الهلاك، كذلك هؤلاء كانت عاقبة مكرهم وبالًا عليهم، ونحو الآية قولهم في المثل: من حفر لأخيه جبًا، وقع فيه منكبًا، وخلاصة ذلك- إن الله أحبط أعمالهم، وجعلها وبالًا عليهم، ونقمة لهم[1].

وهذا التعبير القرآني في غاية الروعة؛ إذ صور هذا المكر في صورة بناء ذي قواعد وأركان وسقف، إشارة إلى دقته وإحكامه ومتانته وضخامته، ولكن هذا كله لم يقف أمام قوة الله وتدبيره: ﴿فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُم مِّنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ﴾ [النحل ٢٦].

وهو مشهد للتدمير الكامل الشامل، يطبق عليهم من فوقهم، ومن تحت أرجلهم، فالقواعد التي تحمل البناء تتحطم وتتهدم من أساسها، والسقف يخر عليهم من فوقهم، فيطبق عليهم ويدفنهم.

﴿وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [النحل ٢٦].

فإذا البناء الذي بنوه وأحكموه واعتمدوا على الاحتماء فيه إذا هو مقبرتهم التي تحتويهم، ومهلكتهم التي تأخذهم من فوقهم، ومن أسفل منهم، وهو الذي اتخذوه للحماية، ولم يفكروا أن يأتيهم الخطر من جهته! إنه مشهد كامل للدمار والهلاك وللسخرية من مكر الماكرين، وتدبير المدبرين، الذين يقفون لدعوة الله، ويحسبون مكرهم لا يرد، وتدبيرهم لا يخيب، والله من ورائهم محيط!

وهو مشهد مكرر في الزمان قبل قريش وبعدها، ودعوة الله ماضية في طريقها مهما يمكر الماكرون، ومهما يدبر المدبرون، وبين الحين والحين يتلفت الناس فيذكرون ذلك المشهد المؤثر الذي رسمه القرآن الكريم ﴿قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُم مِّنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [النحل ٢٦][2].

والمقصود أن الله يمكر بأهل المكر، ويفضحهم، وليس ذلك في الدنيا فحسب، بل يفضحهم على رؤوس الأشهاد يوم القيامة؛ ولهذا قال الله بعد ذلك: ﴿ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِيهِمْ﴾ [النحل ٢٧].

أي: يفضحهم على رءوس الأشهاد، ويهينهم بإظهار فضائحهم، وما كانت تجنه ضمائرهم، فيجعله علانية، وبين هذا المعنى في مواضع أخر، كقوله: ﴿أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ ۝ وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ﴾ [العاديات ٩-١٠].

أي: أظهر علانية ما كانت تكنه الصدور،

(١) تفسير المراغي ١٤/ ٧١.

(٢) في ظلال القرآن ٤/ ٢١٦٨ بتصرف.

وقوله: ﴿يَوْمَ تُبْلَى السَّرَآئِرُ﴾ [الطارق ٩][1].

ثانيًا: عواقب المكر في الآخرة:

١. سوء العذاب.

أخبر الله سبحانه وتعالى أن عاقبة المكر سوء العذاب يوم القيامة، فقال مخبرًا عما حل بفرعون وجنوده جزاء مكرهم: ﴿فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُواْ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ﴾ [غافر ٤٥].

والضمير: في (فوقاه) يحتمل أن يعود على موسى عليه السلام، ويحتمل أن يعود على مؤمن آل فرعون، وقال قائلو ذلك: إن ذلك المؤمن نجا مع موسى عليه السلام في البحر، وفر في جملة من فر معه من المتبعين[2].

فعندما قال هذه الأقوال، ونصح هذه النصيحة، وأعلن إيمانه، وتحدى فرعون، وخرج عن سلطانه، منحازًا إلى جبهة موسى، طلبه فرعون ليقتله، فهرب، فوقاه الله من شرهم، أي: حفظه مما أرادوا به من المكر السيئ في الدنيا؛ إذ نجاه مع موسى عليه السلام، وأحاط بفرعون وقومه سوء العذاب في الدنيا بالغرق في اليم، وفي الآخرة بدخول جهنم، وبئس القرار[3].

ولما قيل: ﴿فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ﴾ وكان المؤمن من أمة موسى، وتابع له، علم منه أن موسى وسائر قومه قد نجوا أيضًا من باب أولى، وغلبوا على فرعون وقومه، وقد صرح بذلك، فقال: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا﴾ [غافر ٥١].

ونصرتهم في الدنيا بإظهار كلمة الحق، وحصول الذكر الجميل، واقتداء الناس بسيرتهم إلى مدة ما شاء الله، وقد ينصرون بعد موتهم، وأما نصرهم في الآخرة: فمن رفع الدرجات، والتعظيم على رؤوس الأشهاد من الحفظة والأنبياء والمؤمنين[4].

وهذا التعبير: ﴿فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ﴾ مؤذن بأنهم أضمروا مكرًا به، وتسميته مكرًا مؤذن بأنهم لم يشعروه به، وأن الله تكفل بوقايته؛ لأنه فوض أمره إليه[5].

و(ما) مصدرية، والمعنى: سيئات مكرهم، وإضافة سيئات إلى (مكر) إضافة بيانية، وهي هنا في قوة إضافة الصفة إلى الموصوف؛ لأن المكر سيئ، وإنما جمع السيئات باعتبار تعدد أنواع مكرهم التي بيتوها.

وقوله: ﴿وَحَاقَ﴾ أي: نزل محيطًا بعد إحاطة الإغراق[6].

والمراد بآل فرعون: فرعون وقومه، وترك التصريح به للاستغناء بذكرهم عن

(١) انظر: أضواء البيان، الشنقيطي ٢/ ٣٦٦.
(٢) المحرر الوجيز، ابن عطية ٤/ ٥٦٢.
(٣) انظر: تفسير المراغي ٢٤/ ٧٧.
(٤) انظر: غرائب القرآن، النيسابوري ٦/ ٤١.
(٥) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٤/ ١٥٧.
(٦) السراج المنير، الشربيني ٣/ ٤٨٦.

ذكره؛ لكونه أولى بذلك منهم، أو المراد بآل فرعون فرعون نفسه، والأول أولى؛ لأنهم قد عذبوا في الدنيا جميعًا بالغرق، وسيعذبون في الآخرة بالنار[1].

و﴿سُوٓءُ ٱلۡعَذَابِ﴾ أي: الغرق، والتعريف للعهد؛ لأنه مشهور معلوم، وإنما كان الغرق سوء عذاب لأن الغريق يعذب باحتباس النفس مدة وهو يطفو على الماء ويغوص فيه، ويرعبه هول الأمواج، وهو موقن بالهلاك، ثم يكون عرضة لأكل الحيتان حيًا وميتًا؛ وذلك ألم في الحياة، وخزي بعد الممات، يذكرون به بين الناس[2].

ولعل الأولى أن يكون المراد من سوء العذاب: الغرق في الدنيا، والنار في الآخرة.

قال الطبري: وعني بقوله: ﴿سُوٓءُ ٱلۡعَذَابِ﴾ ما ساءهم من عذاب الله، وذلك نار جهنم[3].

وقوله تعالى: ﴿ٱلنَّارُ﴾ قال القرطبي: يقول تعالى ذكره مبينًا عن سوء العذاب الذي حل بهؤلاء الأشقياء من قوم فرعون ذلك الذي حاق بهم من سوء عذاب الله ﴿يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا﴾ [غافر ٤٦].

إنهم لما هلكوا وأغرقهم الله جعلت أرواحهم في أجواف طير سود، فهي تعرض على النار كل يوم مرتين ﴿غُدُوّٗا وَعَشِيّٗا﴾ إلى أن تقوم الساعة[4].

ثم يوم القيامة هو يوم الفصل والقضاء بين الخلق وربهم، وبين الخلق مع بعضهم البعض، وهو يوم الجزاء والعقوبة، ونشر الصحف، وانكشاف السرائر، وفي هذا اليوم تتجلى رحمة الله بعباده المؤمنين، وعدله مع أعدائه، بكشف أهل المكر وأعمالهم التي أحصاها عليهم، وكتبها الحفظة في سجل أعمالهم، فتكون المفاجأة الكبرى، والطامة العظمى عليهم من حيث لم يحتسبوا، لما قابلوا نعمة الله بالمكر، قابل مكرهم بمكر أشد منه، وهو أنه أمهلهم إلى يوم القيامة.

قال تعالى: ﴿وَإِذَآ أَذَقۡنَا ٱلنَّاسَ رَحۡمَةٗ مِّنۢ بَعۡدِ ضَرَّآءَ مَسَّتۡهُمۡ إِذَا لَهُم مَّكۡرٞ فِيٓ ءَايَاتِنَاۚ قُلِ ٱللَّهُ أَسۡرَعُ مَكۡرًاۚ إِنَّ رُسُلَنَا يَكۡتُبُونَ مَا تَمۡكُرُونَ﴾ [يونس ٢١].

وأطلق على تأجيل الله عذابهم اسم المكر على وجه الاستعارة التمثيلية؛ لأن هيئة ذلك التأجيل في خفائه عنهم كهيئة فعل الماكر، وحسنته المشاكلة[5].

٢ - العذاب الشديد في النار.

ومن العقوبات التي تحل بالماكرين -وهي أعظم العقوبات- خلودهم في النار.

قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَمۡكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞۖ وَمَكۡرُ أُوْلَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ﴾ [فاطر

(١) فتح القدير، الشوكاني ٤/ ٥٦٧.
(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٤/ ١٥٧.
(٣) جامع البيان، الطبري ٢١/ ٣٩٥.
(٤) المصدر السابق.
(٥) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١١/ ١٣٤.

١٠].

قال ابن جرير: «وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يَمۡكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ يقول تعالى ذكره: والذين يكسبون السيئات لهم عذاب جهنم، عن قتادة قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يَمۡكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞ﴾ قال: هؤلاء أهل الشرك»[1].

وقد ذكر ابن كثير في المراد بالذين يمكرون السيئات قولين: أنهم المراؤون بأعمالهم، يعني: يمكرون بالناس، يوهمون أنهم في طاعة الله، وهم بغضاء إلى الله عز وجل، يراؤون بأعمالهم ﴿وَلَا يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلٗا﴾[النساء ١٤٢].

أو أنهم: هم المشركون. ثم قال: والصحيح أنها عامة، والمشركون داخلون بطريق الأولى؛ ولهذا قال: ﴿لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞۖ وَمَكۡرُ أُوْلَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ﴾ [فاطر ١٠].

أي: يفسد ويبطل ويظهر زيفهم عن قريب لأولي البصائر والنهى، فإنه ما أسر عبد سريرة إلا أبداها الله على صفحات وجهه، وفلتات لسانه، وما أسر أحد سريرة إلا كساه الله رداءها، إن خيرًا فخير، وإن شرًا فشر، فالمرائي لا يروج أمره ويستمر إلا على غبي، أما المؤمنون المتفرسون فلا يروج ذلك عليهم، بل يكشف لهم عن قريب، وعالم الغيب لا تخفى عليه خافية[2].

والسيئات هنا: صفة لمصدر محذوف؛ لأن الفعل لازم ليس بمتعدٍ الى مفعول به، قيل: بأن معناه الذين يمكرون المكرات السيئات، فهو وصف مصدر محذوف، ويحتمل أن يقال: استعمل المكر استعمال العمل فعداه تعديته، كما قال: ﴿ٱلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾[العنكبوت ٤].

وفي قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ يحتمل ما ذكرناه أن يكون السيئات وصفًا لمصدر تقديره: الذين يعملون العملات السيئات، وعلى هذا فيكون هذا في مقابلة قوله: ﴿وَٱلۡعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرۡفَعُهُۥ﴾[فاطر ١٠]. إشارة إلى بقائه وارتقائه ﴿وَمَكۡرُ أُوْلَٰٓئِكَ﴾ أي: العمل السيء، وهو يبور إشارة إلى فنائه[3].

وعنى بهن -السيئات- مكرات قريش حين اجتمعوا في دار الندوة، وتداوروا الرأي في إحدى ثلاث مكرات يمكرونها برسول الله صلى الله عليه وسلم: إما إثباته، أو قتله، أو إخراجه، كما حكى الله سبحانه عنهم: ﴿وَإِذۡ يَمۡكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثۡبِتُوكَ أَوۡ يَقۡتُلُوكَ أَوۡ يُخۡرِجُوكَ﴾[الأنفال ٣٠].

ومكر أولئك الذين مكروا تلك المكرات الثلاث هو خاصة يبور، أي: يكسد ويفسد، دون مكر الله بهم حين أخرجهم من مكة وقتلهم وأثبتهم في قليب بدر، فجمع

(١) جامع البيان، الطبري ٢٠/ ٤٤٦.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٥٣٨.
(٣) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٦/ ٢٢٧.

عليهم مكراتهم جميعًا، وحقق فيهم قوله: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَـٰكِرِينَ﴾ [الأنفال ٣٠].

وقوله: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾ [فاطر ٤٣][1].

وقيل: إن (يمكرون) هنا مضمنة معنى (يدبرون) ولكنه عبر بها لغلبة استعمالها في السوء، فهؤلاء لهم عذاب شديد فوق أن مكرهم وتدبيرهم يبور، فلا يحيا ولا يثمر، من البوار ومن البوران سواء.

والذين يمكرون السيئات يمكرونها طلبًا للعزة الكاذبة، والغلبة الموهومة، وقد يبدو في الظاهر أنهم أعلياء، وأنهم أعزاء، وأنهم أقوياء، ولكن القول الطيب هو الذي يصعد إلى الله، والعمل الصالح هو الذي يرفعه إليه، وبهما تكون العزة في معناها الواسع الشامل، فأما المكر السيئ قولًا وعملًا، فليس سبيلًا إلى العزة، ولو حقق القوة الطاغية الباغية في بعض الأحيان، إلا أن نهايته إلى البوار وإلى العذاب الشديد، وعد الله، لا يخلف الله وعده، وإن أمهل الماكرين بالسوء حتى يحين الأجل المحتوم في تدبير الله المرسوم[2].

وفي الآية الأخرى قال تعالى: ﴿بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ﴾ [سبأ ٣٣].

أي: قال المستضعفون: بل كفرنا بمكركم بنا بالليل والنهار، وأضاف المكر إلى الليل والنهار من حيث هو فيهما؛ ولتدل هذه الإضافة على الدؤوب والدوام، وهذه الإضافة كما قالوا: ليل نائم، ونهار صائم، وكأن معنى هذه الآية الإحالة على طول الأمل، والاغترار بالأيام، مع أمر هؤلاء الرؤساء بالكفر بالله[3].

والضمير في قوله: ﴿وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ﴾ راجع إلى الفريقين[4]. المستكبرين والمستضعفين.

والندامة من المعاني القلبية لا تظهر، وإنما يظهر ما يدل عليها، وما يدل عليها غيرها[5]. وهي التحسر في أمر فائت، أي: أضمر الفريقان الندامة على ما فعلا من الضلال والإضلال حين ما نفعتهم الندامة، وأخفاها كل منهما عن الآخر مخافة التعيير[6].

وقيل: المراد بأسروا هنا: أظهروا؛ لأنه من الأضداد، يكون تارة بمعنى: الإخفاء، وتارة بمعنى: الإظهار، ومنه قول امرئ

(١) الكشاف، الزمخشري ٣/ ٦٠٣.
(٢) انظر: في ظلال القرآن ٥/ ٢٩٣١.
(٣) المحرر الوجيز، ابن عطية ٤/ ٤٢١.
(٤) فتح القدير، الشوكاني ٤/ ٣٧٧.
(٥) البحر المحيط، أبو حيان ٨/ ٥٥٢.
(٦) روح البيان، حقي ٧/ ٢٩٨.

القيس[1]:

تجاوزت أحراسًا وأهوال معشرٍ

علي حراصًا لو يسرون مقتلي

فالإسرار: الإظهار والإضمار جميعًا، وهو من الأضداد، ويروى: لو يشرون مقتلي، بالشين المعجمة، وهو الإظهار لا غير. وقيل معنى: ﴿وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ﴾: تبينت الندامة في أسرة وجوههم[2].

وقوله تعالى: ﴿لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ﴾ أي: وافوه، وتيقنوا حصولهم فيه. أي: زال عنهم ذلك الاحتجاج الذي احتج به بعضهم على بعض لينجو من العذاب، وعلم أنه ظالم مستحق له، فندم كل منهم غاية الندم، وتمنى أن لو كان على الحق، وأنه ترك الباطل الذي أوصله إلى هذا العذاب سرًّا في أنفسهم لخوفهم من الفضيحة في إقرارهم على أنفسهم. وفي بعض مواقف القيامة وعند دخولهم النار يظهرون ذلك الندم جهرًا[3].

موضوعات ذات صلة

الخسران، الخشية، الخيانة، العذاب، الكتمان، النجوى

(١) ديوانه ص١٠٢.
(٢) فتح القدير، الشوكاني ٤/ ٣٧٧.
(٣) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٦٨١.



عناصر الموضوع

التعريف بمكة	١٦٠
مواضع مكة التي ذكرت في القرآن	١٦٦
حكمة اختيار مكة مهبطا للوحي	١٦٩
فضائل مكة	١٧٢
إبراهيم عليه السلام ومكة	١٨٠
واجبات ساكنيها وقاصديها	١٨٩
الإعجاز العلمي في موقع مكة المكرمة	١٩٢

التعريف بمكة

أولًا: موقع مكة:

إن مكة المكرمة هي: قبلة المسلمين، والحرم الآمن، وأم القرى، ومهبط الوحي، ومبعث خير البشر صلى الله عليه وسلم، وهي أشهر من أن تعرف، أو يكتب عنها باحث، فهي معروفة لكل المسلمين، ولكن يقتضي البحث العلمي عن مكة المكرمة التعريف بها وبمعالمها، وقد ذكر المؤرخون والجغرافيون المسلمون تعريفًا ووصفًا لمكة قديمًا بقولهم:

ومكة المكرمة هي: مدينة مقدسة لدى المسلمين، بها المسجد الحرام، والكعبة التي تعد قبلة المسلمين في صلاتهم، تقع غرب المملكة العربية السعودية، تبعد عن المدينة المنورة حوالي (٤٠٠) كيلو مترًا في الاتجاه الجنوبي الغربي، وعن مدينة الطائف حوالي (١٢٠) كيلو مترًا في الاتجاه الغربي، وعلى بعد (٧٢) كيلو مترًا من مدينة جدة وساحل البحر الأحمر، وأقرب الموانئ لها هو ميناء جدة، وأقرب المطارات الدولية لها هو مطار الملك عبد العزيز الدولي، وتقع مكة المكرمة عند تقاطع درجتي العرض (٢٥/ ٢١) شمالًا، والطول (٤٩/ ٣٩) شرقًا، ويعتبر هذا الموقع من أصعب التكوينات الجيولوجية، فأغلب صخورها جرانيتية شديدة الصلابة، وتبلغ مساحة مدينة مكة المكرمة حوالي (٨٥٠ كم^2)، منها (٨٨ كم^2) مأهولة بالسكان، وتبلغ مساحة المنطقة المركزية المحيطة بالمسجد الحرام حوالي (٦ كم^2)، ويبلغ ارتفاع مكة عن مستوى سطح البحر حوالي (٢٧٧) مترًا.

وكانت مكة في بدايتها عبارة عن قرية صغيرة تقع في وادٍ جافٍ تحيط بها الجبال من كل جانب، ثم بدأ الناس في التوافد عليها والاستقرار بها في عصر النبي إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، وذلك بعدما ترك النبي إبراهيم عليه السلام زوجته هاجر وابنه إسماعيل عليه السلام في هذا الوادي الصحراوي الجاف، وذلك امتثالًا لأمر الله، فبقيا في الوادي حتى تفجر بئر زمزم، وقد بدأ خلال تلك الفترة رفع قواعد الكعبة على يد النبي إبراهيم وابنه إسماعيل عليهما السلام.

ويبلغ عدد سكان مكة بحسب إحصائيات عام (٢٠١٠ م) حوالي (١٦٧٥٠٠٠) نسمة، موزعين على أحياء مكة القديمة والجديدة، وتضم مكة العديد من المعالم الإسلامية المقدسة، لعل أبرزها المسجد الحرام، وهو أقدس الأماكن في الأرض؛ ذلك لأنه يضم الكعبة المشرفة قبلة المسلمين في الصلاة، كما أنه أحد المساجد الثلاثة التي تشد إليها

الرحال، وذلك حسب قول النبي محمد صلى الله عليه وسلم: (**لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد مسجدي هذا والمسجد الحرام والمسجد الأقصى**)[1]، بالإضافة إلى ذلك، تعد مكة مقصد المسلمين في موسم الحج والعمرة إذ إنها تضم المناطق التي يقصدها المسلمون خلاله وهي مزدلفة، منى وعرفة[2].

ثانيًا: أسماء مكة في القرآن:

كثرت أسماء مكة المكرمة في كتاب الله، وكثرة الأسماء دليل على شرف المسمى، والمتدبر في آيات القرآن الكريم يجد أن مكة المكرمة ورد ذكرها بأسمائها وصفاتها في مواضع عديدة، وتضمنت كتب التفسير والتاريخ عددًا كبيرًا من أسمائها، وقد ذكروا لمكة أسماء كثيرة منها: مكة، وبكة، والبيت العتيق، والبيت الحرام، والبلد الأمين، والمأمون، وأم رحم، وأم القرى؛ والبلدة والبنية والكعبة[3]، وسيكون الحديث موجزًا عن أسمائها في كتاب الله تعالى فمن ذلك:

١. مكة.

وهو أشهر أسمائها.

قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٢٤﴾﴾ [الفتح:٢٤].

وفي سبب تسميتها أقوال:

الأول: سميت مكة؛ لأنها تجذب إليها خيرات الدينا أو لأنها عبدت الناس فيها فيأتونها من جميع الأطراف، من قولهم: امتك الفصيل أخلاف الناقة إذا جذب جميع ما فيها جذبًا شديدًا فلم يبق فيها شيئًا[4].

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجمعة، باب فضل الصلاة في مسجد مكة والمدينة، رقم ١١٨٩، ٢/ ٦٠، ومسلم في صحيحه، كتاب الحج، باب لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد، رقم ١٣٩٧، ٢/ ١٠١٤، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) تاريخ مكة يملأ عشرات المجلدات، مثل: أخبار مكة للأزرقي، وتاريخ مكة للفاكهي، وشفاء الغرام للفاسي، والعقد الثمين له أيضًا، وبلوغ المرام، وتاريخ مكة للسباعي، وعشرات الكتب ما زالت محفوظة في مكتبة الحرم وغيرها.
انظر: معجم المعالم الجغرافية في السيرة النبوية، غيث البلادي ص ٣٠١.

(٣) انظر: اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل ٨/ ٢٨٥.

(٤) مفاتيح الغيب، الرازي ٨/ ٢٩٩.
وانظر: معجم البلدان، ياقوت الحموي ٥/ ١٨٢، معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع،

الثاني: لازدحام الناس فيها [1].

الثالث: سميت مكة لقلة الماء بها، كأن ماءها قد امتك، وذلك أنهم كانوا يمتكون الماء فيها أي: يستخرجونه [2].

الرابع: سميت مكة؛ لأنها كانت تمك من ظلم فيها وألحد، أي: تهلكه» [3].

الخامس: قيل: إن مكة وسط الأرض، والعيون والمياه تنبع من تحت مكة، فالأرض كلها تمك من ماء مكة» [4].

السادس: إنما سميت مكة بذلك؛ لأنها قبلة أهل القرى ومحجهم ومجتمعهم وأعظم القرى شأنًا، وقيل: لأن الأرض دحيت من تحتها، أو لأنها مكان أول بيت وضع للناس» [5].

٢. بكة.

قال تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴿٩٦﴾﴾ [آل عمران:٩٦].

وسميت بذلك؛ لأنها تبك أعناق الظلمة والجبابرة، إذا ألحدوا فيها بظلم [6]، بمعنى أنهم يذلون بها ويخضعون عندها، وقيل: لأن الناس يتباكون فيها، أي: يزدحمون، وبكة بمعنى مكة والعرب تبدل الميم باء، كما في لازم ولازب [7].

٣. أم القرى.

قال تعالى: ﴿وَهَٰذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ۚ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ ۖ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩٢﴾﴾ [الأنعام:٩٢].

وقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ ﴿٧﴾﴾ [الشورى:٧].

البكري ١/ ٢٦٩.

(١) انظر: لسان العرب، ابن منظور ١٠/ ٤٩١، مفاتيح الغيب، الرازي ٨/ ٢٩٩.

(٢) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٥/ ٢٧٥.

(٣) انظر: معاني القرآن، النحاس ١/ ٤٩، جامع البيان، الطبري ١/ ١٠٨، معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ١/ ٤٤٤، مفاتيح الغيب، الرازي ٨/ ٢٩٩.

(٤) مفاتيح الغيب، الرازي ٨/ ٢٩٩.

(٥) انظر: معاني القرآن، النحاس ١/ ٤٩، جامع البيان، الطبري ١/ ١٠٨، معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ١/ ٤٤٤.

(٦) المفردات، الراغب الأصفهاني ص ١٣٩.
وانظر: بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي ٢/ ٢٦٦.

(٧) انظر: جامع البيان، الطبري ٦/ ٢٢.

وأم القرى هي مكة باتفاق المفسرين، أي: أصل القرى؛ وسميت بذلك؛ لأنها أول بيت وضع بها ومنها دحيت[1]؛ ولأنها كانت أعظم القرى شأنًا وأقدمها وأشهرها[2].

قال الإمام السمعاني: «وأم القرى مكة: وسميت أم القرى؛ لأن سائر القرى يقصدونها ويأتونها، وقيل: لأن الأرض دحيت من تحتها، وقيل: لأنها معظمة تقصد بالتعظيم، ومنه سميت الأم أمًا؛ لأنها تعظم»[3].

٤ . البلد الأمين.

وهذا الاسم ثبت لمكة بقوله تعالى: ﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ ۝١ وَطُورِ سِينِينَ ۝٢ وَهَٰذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ ۝٣﴾ [التين:١-٣].

والمعنى: وهذا البلد الآمن من أعدائه أن يحاربوا أهله، أو يغزوهم، وقيل: الأمين، ومعناه: الآمن، أي: هما بمعنى واحد، والعرب تقول للآمن: أمين، وهذا كقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ۚ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ ۝٦٧﴾ [العنكبوت:٦٧]وإنما عني بقوله: ﴿وَهَٰذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ ۝٣﴾ [التين:٣]يعني: البلد الحرام مكة، يأمن فيه الخائف في الجاهلية والإسلام[4].

٥ . البلدة.

وهذا الاسم ورد في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ۝٩١﴾ [النمل:٩١] والبلدة، مكة التي حرمها أن يسفكوا فيها دمًا حرامًا، أو يظلموا فيها أحدًا، أو يصيدوا صيدها، أو يقطعوا شجرها[5].

قال الإمام الماوردي في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ۝٩١﴾ [النمل:٩١]«فيها قولان: أحدهما: مكة، قاله ابن عباس. الثاني: منى، قاله أبو العالية، وتحريمها هو تعظيم حرمتها والكف عن صيدها وشجرها»[6].

---

(١) انظر: المصدر السابق ١١/ ٥٣١.
(٢) انظر: معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ٢/ ٢٧١، التفسير الوسيط، الواحدي ٢/ ٢٩٩.
(٣) تفسير القرآن، السمعاني ٢/ ١٢٥
(٤) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٤/ ٥٠٥، معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ٥/ ٣٤٣، النكت والعيون، الماوردي ٦/ ٣٠١.
(٥) انظر: التفسير الوسيط، الواحدي ٣/ ٣٨٨.
(٦) النكت والعيون ٤/ ٢٣١.

وقال الإمام القرطبي في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا﴾ [النمل:٩١] «يعني: مكة التي عظم الله حرمتها، أي: جعلها حرمًا آمنًا، لا يسفك فيها دم، ولا يظلم فيها أحد، ولا يصاد فيها صيد، ولا يعضد فيها شجر»[١].

٦. الكعبة.

هي من أسماء مكة؛ لقوله تعالى: ﴿هَدْيًۢا بَٰلِغَ ٱلْكَعْبَةِ﴾ [المائدة:٩٥].

أي: واصلًا إلى الكعبة، والمراد وصوله إلى الحرم بأن يذبح هناك، ويفرق لحمه على مساكين الحرم، كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ﴾ [الحج:٣٣][٢].

والكعبة جزء من مكة، وإطلاقها على مكة من إطلاق الجزء على الكل.

قال الإمام ابن الجوزي: « ﴿هَدْيًۢا بَٰلِغَ ٱلْكَعْبَةِ﴾ المراد: الحرم كله؛ لأنه لا يذبح في الكعبة، ولا في المسجد الحرام»[٣].

والكعبة هي: بيت الله الحرام الذي في وسط المسجد الحرام، مربع الشكل، بابها مرتفع عن الأرض، قيل: سميت بذلك لتربيعها[٤].

٧. الحرم الآمن.

قال تعالى: ﴿وَقَالُوٓا۟ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ ۚ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [القصص:٥٧].

وقال سبحانه: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ۚ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [العنكبوت:٦٧].

فالثمرات تجبى لمكة شرفها الله من كل مكان في حاضر الزمان وغابره، وإنما سماه الله حرمًا آمنًا؛ لأنه كان في الجاهلية معاذًا لمن استعاذ به، وكان الرجل منهم لو لقي به قاتل أبيه أو أخيه، لم يهجه ولم يعرض له حتى يخرج منه[٥].

٨. المسجد الحرام.

اسم من أسماء مكة، وله عدة إطلاقات، فهو اسم لمكة، واسم لمسجد الكعبة وقد يمتد

(١) الجامع لأحكام القرآن ١٣/ ٢٤٦.
(٢) انظر: التفسير الوسيط، الواحدي ٢/ ٢٢٩، معالم التنزيل، البغوي ٢/ ٨٤.
(٣) زاد المسير، ابن الجوزي ١/ ١٠٩.
(٤) انظر: البلد الحرام فضائل وأحكام، إعداد كلية الدعوة وأصول الدين، جامعة أم القرى ص٤٩.
(٥) انظر: جامع البيان، الطبري ٢/ ٢٩، معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ١/ ٤٤٦، التفسير الوسيط، الواحدي ٣/ ٤٠٤.

إلى حدود الحرم.

وقد تكرر ورود لفظ المسجد الحرام في القرآن الكريم في خمسة عشر موضعًا، منها:

قوله تعالى: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ ۗ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۗ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٤﴾﴾ [البقرة:١٤٤].

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا ۘ وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۖ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [المائدة:٢].

وقوله تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا ۚ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿١﴾﴾ [الإسراء:١].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ ۚ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾ [الحج:٢٥].

والمسجد الحرام في هذه الآيات يراد به مكة وجميع الحرم فيه[1].

(١) انظر: الكشف والبيان، الثعلبي ٣/ ١١٥، معالم التنزيل، البغوي ١/ ٤٧٢، الكشاف، الزمخشري ٣/ ١٥١.

مواضع مكة التي ذكرت في القرآن

ضمت مكة المكرمة مع الكعبة المشرفة آيات بينات ومشاعر معظمة وأهم مواضع مكة التي ورد ذكرها في القرآن الكريم هي:

١ . المسجد الحرام.

هو أول مسجد وضع في الأرض، وأعظم المساجد وأفضلها، وأهم موضع في مكة، وهو اسم لمسجد الكعبة، وقد يمتد إلى حدود الحرم.

قال تعالى: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ ۗ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۗ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٤﴾﴾ [البقرة:١٤٤].

والمسجد الحرام في هذه الآية يراد به مكة، وجميع الحرم فيه[1].

٢ . مقام إبراهيم.

وهو الحجر الذي كان يقف عليه إبراهيم أثناء بناء الكعبة، حين كان يرفع القواعد من البيت هو وابنه إسماعيل عليهما السلام، والمقام آية من آيات الله في الحرم المكي، وذلك أن أثر قدم إبراهيم ظاهر في الحجر.

قال تعالى: ﴿فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا ۗ وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴿٩٧﴾﴾ [آل عمران:٩٧].

وقد أمر الله تعالى بالصلاة عنده قال تعالى: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى ۖ وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴿١٢٥﴾﴾ [البقرة:١٢٥].

أي: واتخذوا من مقام إبراهيم مكانًا للصلاة فيه، أي: تصلى فيه ركعتي الطواف[2].

٣ . الصفا والمروة.

هما في الأصل جبلان صغيران قرب الكعبة من جهة الشرق، وهما إحدى مشاعر الحج والعمرة، ويكون السعي بينهما سبعة أشواط يبدأ بالصفا وينتهي بالمروة.

قال تعالى: ﴿۞ إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ ۖ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا ۚ وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٥٨﴾﴾ [البقرة:١٥٨].

فالصفا رأس المسعى الجنوبي، والمروة رأس المسعى الشمالي، وهما من معالم

(١) انظر: الكشف والبيان، الثعلبي ٣/ ١١٥، معالم التنزيل، البغوي ١/ ٤٧٢، الكشاف، الزمخشري ٣/ ١٥١.

(٢) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٤/ ٤٤، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٢/ ١١٢، البحر المحيط، أبو حيان ١/ ٦١٠.

دين الله الظاهرة التي تعبد الله عباده بالسعي بينهما، فمن قصد الكعبة حاجًا أو معتمرًا، فعليه أن يسعى بينهما[(١)].

والصفا: الحجارة البيض، والمروة: الحجارة السود، واشتقاق الصفا من قولهم: صفا يصفو إذا خلص، وهو جمع واحده صفاة، أو أن الصفا: الحجارة الصلبة التي لا تنبت شيئا، والمروة: الحجارة الرخوة، وهذا أظهر القولين في اللغة[(٢)]، والصفا والمروة: منسكان من مناسك الحج، والسعي فيهما واجب في الحج والعمرة[(٣)].

٤. عرفات.

ذكرها الله تعالى في قوله: ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ ۚ فَإِذَا أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِندَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ ۖ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ ﴿١٩٨﴾ ﴾ [البقرة:١٩٨].

أي: إذا دفعتم بعد غروب الشمس راجعين من عرفات، وهي المكان الذي يقف فيه الحجاج يوم التاسع من ذي الحجة، والوقوف في عرفة: ركن لا يدرك الحج إلا به، فمن فاته الوقوف في وقته وموضعه فقد فاته الحج، ووقت الوقوف يدخل بزوال الشمس من يوم عرفة، ويمتد إلى طلوع الفجر من يوم النحر، وذلك نصف يوم وليلة كاملة[(٤)].

وعرفة هو: جبل يقع علي بعد (٢٠) كيلو متر شرقي مكة، تقام عنده أهم مناسك الحج، والتي تسمى بوقفة عرفة وذلك في يوم التاسع.

واختلف المفسرون في سبب تسمية المكان بعرفة على أقوال: أحدها: أن آدم عرف فيه حواء بعد أن أهبطا من الجنة، والثاني: أن إبراهيم عرف المكان عند الرؤية، لما تقدم له في الصفة، والثالث: أن جبريل عرف فيه الأنبياء مناسكهم، والرابع: أنه سمي بذلك لعلو الناس فيه، والعرب تسمي ما علا عرفة وعرفات، ومنه سمي عرف الديك لعلوه[(٥)].

٥. المزدلفة.

وهي المشعر الحرام، والمشعر المعلم لأنه معلم العبادة، ووصف بالحرام لحرمته، وسميت المزدلفة: جمعًا؛ لأن آدم عليه السلام اجتمع فيها مع حواء وازدلف إليها، أي: دنا منها، أو لأنه يجمع فيها بين

---

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٣/ ٢٢٦، معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ١/ ٢٣٣، التفسير الوسيط، الواحدي ١/ ٢٤١.

(٢) انظر: النكت والعيون، الماوردي ١/ ٢١١، تفسير القرآن، السمعاني ١/ ١٥٨.

(٣) التفسير القرآني للقرآن، الخطيب ١/ ١٧٧.

(٤) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٥/ ٣٢٧، أنوار التنزيل، البيضاوي ١/ ١٣١.

(٥) النكت والعيون، الماوردي ١/ ٢٦١.

الصلاتين هنالك بين المغرب والعشاء أو لأن الناس يزدلفون إلى الله تعالى أي: يتقربون بالوقوف فيها[(١)].

وسميت مشعرًا؛ لأنه معلم للحج والصلاة والمقام، والمبيت به والدعاء عنده[(٢)]، وسمى: مزدلفة، من الازدلاف، وهو: الاجتماع، والمزدلفة: موضع بين جبلين، يسمى أحدهما: قزح يقف عليه الإمام، وهو من جملة الحرم، ولذلك سمى المشعر الحرام[(٣)].

ومزدلفة هي: ثالث المشاعر المقدسة التي يمر بها الحجيج في رحلة إيمانية يؤدون فيها مناسك الحج حيث تقع بين مشعري منى وعرفات، ويبيت الحجاج بها بعد نفرتهم من عرفات ثم يقيمون فيها صلاتي المغرب والعشاء جمعًا وقصرًا، ويجمعوا فيها الحصى لرمي الجمرات بمنى ويمكث فيها الحجاج حتى صباح اليوم التالي يوم عيد الأضحى ليفيضوا بعد ذلك إلى منى، والمبيت بمزدلفة واجب، ومن تركه فعليه دم[(٤)].

٥. منى.

هي مشعر من المشاعر المقدسة، تبعد عن شرق مكة بحوالي خمس كيلومترات في الطريق بين مكة وجبل عرفة، تعرف المنطقة كموضع أداء إحدى شعائر الحج إذ يبيت فيها العديد من الحجاج كما أنها موقع رمي الجمرات الذي يؤدى بين شروق وغروب الشمس في آخر أيام الحج.

قال تعالى: ﴿ وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَى وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٠٣﴾ ﴾ [البقرة:٢٠٣].

واذكروا الله تسبيحًا وتكبيرًا في أيام قلائل، وهي أيام منى، أي: أيام التشريق وهي: الحادي عشر والثاني عشر والثالث عشر من شهر ذي الحجة، فمن أراد التعجل وخرج من منى قبل غروب شمس اليوم الثاني عشر، فلا حرج عليه، ومن تأخر بأن بات بـمنى حتى يرمي الجمار في اليوم الثالث عشر واتقى الله في حجه، فهو أفضل؛ لأنه تزود في العبادة واقتداء بفعل النبي صلى الله عليه وسلم[(٥)].

٦. غار ثور.

وهو الغار الذي اختبأ فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم وصاحبه أبو بكر

(١) مدارك التنزيل، النسفي ١/ ١٧١.
(٢) التفسير الوسيط، الواحدي ١/ ٣٠٤.
(٣) تفسير القرآن، السمعاني ١/ ٢٠٢.
(٤) معالم مكة التاريخية والأثرية، عاتق البلادي ص٢٢٦.
(٥) انظر: النكت والعيون، الماوردي ١ / ٢٦٣، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢ / ٢٦١، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٩٣.

الصديق قبل خروجهما من مكة المكرمة مهاجرين إلى المدينة المنورة، وهو الوارد في قوله تعالى: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾ [التوبة:٤٠].

وغار ثور هو المراد في الآية قال المفسرون: الغار: ثقب في الجبل، وهذا الجبل هو جبل ثور، وهو جبل قريب من مكة[١]، ويقع على بعد نحو أربعة كيلو مترات في الجهة الجنوبية من المسجد الحرام.

(١) انظر: تفسير القرآن، السمعاني ٢/ ٣١٠، التفسير الوسيط، الواحدي ٢/ ٤٩٧.

حكمة اختيار مكة مهبطا للوحي

تظهر حكمة اختيار مكة مهبطًا للوحي من خلال النقاط الآتية:

١. مكة وسط الأرض ومركزها.

إن حكمة اختيار مكة مهبطًا للوحي هي الوسطية في المكان والموقع بين بلدان العالم، فقد خص الله مكة المكرمة وشرفها بكونها وسط الأرض ومركزها، وكذلك لوسطية الأمة، فقد امتن تبارك وتعالى على هذه الأمة بأن جعلها أمة وسطًا، كما جعل قبلتها وسطًا[٢].

قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ ۗ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٣﴾﴾ [البقرة:١٤٣].

أي: جعلناكم خيارًا عدولًا[٣].

ويؤيد الفهم المتقدم ماتضمنه قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَيْبَ

(٢) انظر: مكة المكرمة في ضوء القرآن الكريم، عبد الله القرني وإسماعيل القريشي، من موقع الهيئة العالمية للإعجاز العلمي.

(٣) المصدر السابق.

وانظر: جامع البيان، الطبري ٣/ ١٤١، تفسير القرآن، السمعاني ٦/ ٢٥.

﴿فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ ۞﴾ [الشورى:٧].

فقد جعل نزول الوحي بالقرآن على نبينا محمد صلى الله عليه وسلم معللًا بإنذار مكة المكرمة ومن حولها من القرى، وخاصة أن النذارة عامة لكل القرى وليست لقرى الحجاز وحدها، ولا قرى الجزيرة فقط بل للعالم أجمع بدليل قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ۞﴾ [الأعراف:١٥٨].

وقوله تعالى: ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ﴾ [الأنعام:١٩].

ومعنى هذا الكلام: لأنذركم بالقرآن، أيها المشركون، وأنذر من بلغه القرآن من الناس كلهم من العرب والعجم إلى قيام الساعة[(١)].

قال الإمام الشوكاني: «أي: أوحى الله إلي هذا القرآن الذي تلوته عليكم لأجل أن أنذركم به وأنذر به من بلغ إليه، أي: كل من بلغ إليه من موجود ومعدوم سيوجد في الأزمنة المستقبلة»[(٢)].

وهذا يرجح أن يكون ما حولها: يراد به جميع القرى.

٢. فيها أول مسجد وضع للناس.

قال تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ۞ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا ۗ وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ۞﴾ [آل عمران:٩٦- ٩٧].

٣. أحب البلاد إلى الله تعالى.

فقد روى عبد الله بن عدي بن حمراء رضي الله عنه، قال: رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم واقفًا على الحزورة[(٣)] فقال: **(والله إنك لخير أرض الله، وأحب أرض الله إلى الله، ولولا أني أخرجت منك ما خرجت)**[(٤)].

---

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١١/ ٢٩٢، تفسير القرآن، السمعاني ٢/ ٩٣.

(٢) فتح القدير ٢/ ١٢٠

(٣) الحزورة بفتح الحاء المهملة وسكون الزاي هي سوق مكة، ودخلت في المسجد لما زيد، وباب الحزورة معروف من أبواب المسجد الحرام، وهي ما يعرف اليوم باسم القشاشية، مرتفع يقابل المسعى من مطلع الشمس كان ولا يزال سوقًا من أسواق مكة، وهي كذلك اليوم غير أن ظهرها معمور بشوارع تجارية كشارع الصوغ ومبيعات الحقائب والحرم ونحوها.
انظر: معجم البلدان، الحموي ٢/ ٢٥٥، معجم المعالم الجغرافية في السيرة النبوية، عاتق البلادي ص ٩٨، المعالم الأثيرة في السنة والسيرة، محمد حسن شراب ص ١٠٠.

(٤) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب المناقب، باب في فضل مكة، رقم ٣٩٢٥، ٥/ ٧٢٢،

٤. الله يريد أن يحمل العرب رسالة الإسلام.

قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ۝٢﴾ [الجمعة:٢].

فقد اختار الله العرب لوظيفة عالمية عامة؛ لما فيهم من شرف متأصل، واستعداد كامل، وصفات مهيأة، ولهذا كان منبع الرسالة بمكة، وشأنها عند العرب هو شأنها!! فهم مجمعون على تقديسها. ولأنها في وسط الجزيرة وصميمها، ووسط الجزيرة بعيد كل البعد عن المؤثرات الخارجية في الطباع والألسنة، تلك المؤثرات التي يجلبها الاحتكاك بالأجانب والاختلاط بهم.

وكل أطراف الجزيرة لم تخل من لوثة في الطباع، وعجمة في الألسنة جاءت من الاختلاط بالأجنبي، ولا أضر على مقومات الأمم من العروق الدساسة.

فاليمن دخلتها الدخائل الأجنبية من الحبشة والفرس على طباع أهلها وألسنتهم، والشام ومشارفه كانت مشرفة على الاستعجام، والعراق والجزيرة لم يسلما من التأثر بالطباع الفارسية، فكانت هذه الأطراف تنطوي على عروبة مزعزعة للمقومات، ولم يحافظ على الطبع العربي الصميم إلا صميم الجزيرة ومنه مكة التي ظهر فيها الإسلام.

وهذا الوسط وإن كان عريقًا في الصفات التي تسمى العصر لأجلها جاهليًا؛ ولكنه كان بعيدًا عن الذل الذي يقتل العزة والشرف من النفوس؛ والجاهل يمكن أن تعلمه، والجافي يمكن أن تهذبه.. ولكن الذليل الذي نشأ على الذل يعسر أو يتعذر أن تغرس في نفسه الذليلة المهينة عزة وإباء وشهامة تلحقه بالرجال، هذا توجيه موجز مقرب لاختيار الله تعالى العرب للنهوض بالرسالة العامة.

وشيء آخر يرتبط بهذا: وهو أن الله كما اختار العرب للنهوض بالعالم كذلك اختار لسانهم ليكون لسان هذه الرسالة، وترجمان هذه النهضة، ولا عجب في هذا؛ فاللسان الذي اتسع للوحي الإلهي لا يضيق أبدًا بهذه النهضة العالمية مهما اتسعت آفاقها وزخرت علومها[(١)].

وسيأتي بيان وسطية مكة المكرمة وكونها وسط الأرض ومركزها بالتفصيل.

وابن ماجه في سننه، كتاب المناسك، باب في فضل مكة، رقم ٣١٠٨، ٢/ ١٠٣٧.
قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح غريب.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، رقم ٧٠٨٩، ٢/ ١١٩٢.

(١) انظر: تفسير ابن باديس ص ٣٩٢.

فضائل مكة

إن لمكة المكرمة فضائل كثيرة ومتعددة يمكن ذكر أهمها في النقاط الآتية:

أولًا: قبلة المسلمين:

جعل الله تعالى مكة المكرمة قبلة المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها، ويعتبر استقبال الكعبة من أهم عوامل وحدة المسلمين، يستقبلها المسلمون في كل صلاة فرضًا أو نفلًا، فلا تصح صلاة بدون استقبالها وقد ادخره الله للمسلمين آية على أن الإسلام هو القائم على أساس الحنيفية، وفيه تذكير بشعائر الله بمكة.

قال تعالى: ﴿ سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا ۚ قُل لِّلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (١٤٢) وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ ۗ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ (١٤٣) قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ ۗ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۗ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ (١٤٤) وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَّا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ ۚ وَمَا أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ ۚ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ ۚ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم مِّن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ ۙ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ (١٤٥) ﴾ [البقرة:١٤٢-١٤٥].

وقال تعالى: ﴿ وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا ۖ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ ۚ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٤٨) وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ۖ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ۗ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (١٤٩) وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٥٠) ﴾ [البقرة:١٤٨-١٥٠].

وروى الإمام ابن جرير: عن قتادة قال: «كانت القبلة فيها بلاء وتمحيص، صلت الأنصار نحو بيت المقدس حولين قبل قدوم نبي الله صلى الله عليه وسلم، وصلى نبي الله صلى الله عليه وسلم بعد قدومه المدينة مهاجرًا نحو بيت المقدس سبعة عشر شهرًا، ثم وجهه الله بعد ذلك إلى الكعبة البيت الحرام، فقال في ذلك قائلون من الناس: ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها؟ لقد اشتاق الرجل إلى مولده! قال

الله عز وجل: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ يَهْدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾، فقال أناس لما صرفت القبلة نحو البيت الحرام: كيف بأعمالنا التي كنا نعمل في قبلتنا الأولى؟ فأنزل الله عز وجل: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ﴾ وقد يبتلي الله العباد بما شاء من أمره، الأمر بعد الأمر، ليعلم من يطيعه ممن يعصيه، وكل ذلك مقبول، إذ كان في ذلك إيمان بالله، وإخلاص له، وتسليم لقضائه»[1].

والكعبة قبلة المسلمين أحياءً وأمواتًا لما رواه عبيد بن عمير، عن أبيه أنه حدثه، وكانت له صحبة أن رجلا سأله، فقال: (يا رسول الله ما الكبائر؟ فقال: (هن تسع)، فذكر معناه زاد: (وعقوق الوالدين المسلمين، واستحلال البيت الحرام قبلتكم أحياء وأمواتًا)[2].

ثانيًا: يحج المسلمون إليها:

إن من فضائل مكة المكرمة أن جعلها الله تعالى مكانًا لإقامة شعائر الحج ومناسكه، وأوجب على العباد الحج إليها.

قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٧].

والمعنى: ولله على من استطاع من الناس حج البيت، أي: فرض واجب لله على من استطاع من أهل التكليف السبيل إلى حج بيته الحرام[3].

والحج الذي هو: قصد لمكة من أجل النسك حق واجب لله تعالى في رقاب الناس لا ينفكون عن أدائه والخروج من عهدته بإجماع المسلمين، وهذا الواجب مقيد بالاستطاعة.

قال تعالى: ﴿مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾[4].

وقد اختلف المفسرون والفقهاء في معنى الاستطاعة اختلافًا كثيرًا، «فقال بعضهم: إنها القدرة على الزاد والراحلة مع أمن الطريق، وقال بعضهم: إنها صحة البدن والقدرة على المشي، وقال آخرون هي: صحة البدن وزوال الخوف من عدو أو سبع مع القدرة على المال الذي يشترى منه الزاد والراحلة، وقضاء جميع الديون والودائع،

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٣/ ١٥٧.

(٢) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الوصايا، باب ما جاء في التشديد في أكل مال اليتيم، رقم ٢٨٧٥، ٣/ ١١٥، والحاكم المستدرك على الصحيحين، رقم ٧٦٦٦، ٤/ ٢٨٨.
قال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ولم يتعقبه الذهبي.
وحسنه الألباني في صحيح الجامع، رقم ٤٦٠٢، ٢/ ٨٤٤.

(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ٦/ ٣٧، التفسير الوسيط، الواحدي ١/ ٤٦٧.

(٤) انظر: تفسير القرآن، السمعاني ٢/ ٧١، الكشاف، الزمخشري ١/ ٣٩٠، المحرر الوجيز، ابن عطية ١/ ٤٧٧، مدارك التنزيل، النسفي ١/ ٢٧٧.

ودفع النفقة التي تكفي لمن تجب عليه نفقته حتى العودة من الحج، وخلاصة ذلك:

إن هذا الإيجاب مشروط بالاستطاعة وهي تختلف باختلاف الأشخاص والأزمان»[1].

والراجح من أقوال المفسرين والفقهاء أن الاستطاعة على الحج تتحقق بما يأتي:

- وجود الزاد والراحلة، وهو وجود المال الذي يكفي النفقة ذهابًا وإيابًا.
- سلامة البدن من الأمراض والعاهات التي تعوق عن الحج، ويعتبر العاجز بنفسه قادرًا بقدرة غيره، كالأعمى الذي يجد من يقوده، والمقعد الذي يجد من يحج عنه.
- أمن الطريق وذلك بأن يكون الإنسان آمنًا على نفسه وماله.
- وجود محرم بالنسبة للمرأة أو رفقة مأمونة كما يقول بعض الفقهاء[2].

وحث الله تعالى على تعظيم مكة المكرمة في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾ لَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٣٣﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَلَهُۥٓ أَسْلِمُوا۟ وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾﴾ [الحج:٣٢-٣٤].

وشعائر الله هي: معالم ومناسك الحج التي فرضها الله تعالى أو ندب إليها وأمر بالقيام بها، فالصفا والمروة والركن، والبيت، والبدن وتعظيمها استسمانها واستحسانها من شعائر الله تعالى[3].

ثالثًا: يحرم القتال فيها:

لا يجوز القتال في مكة بعد أن حرمها رسول الله صلى الله عليه وسلم تعالى إلى يوم القيامة، فقد وردت أحاديث تدل على أن الله تعالى حرم مكة يوم خلق السموات والأرض، كما جاء في الصحيحين عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم فتح مكة: **(إن هذا البلد حرمه الله يوم خلق السموات والأرض، فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة، وإنه لم يحل القتال فيه لأحد قبلي، ولم يحل لي إلا ساعة من نهار فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة لا يعضد شوكه، ولا ينفر صيده، ولا يلتقط لقطته إلا**

---

(١) تفسير المراغي ٤/ ٩.
وانظر: جامع البيان الطبري ٦/ ٣٧ التفسير الوسيط، الواحدي ١/ ٤٦٨ تفسير القرآن، السمعاني ١/ ٣٤٣، مفاتيح الغيب الرازي ٨/ ٣٠٣.

(٢) الموسوعة الفقهية الكويتية ٣٢/ ٣٤٨.

(٣) معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ٣/ ٤٢٦.
وانظر: جامع البيان، الطبري ١٨/ ٦٢١، تفسير القرآن، السمعاني ٣/ ٤٣٧، النكت والعيون، الماوردي ٤/ ٢٣.

من عرفها ولا يختلى خلاها) فقال العباس: يا رسول الله: إلا الإذخر، فإنه لقينهم ولبيوتهم، فقال: (إلا الإذخر)[1].

ومنع القتال في مكة المكرمة مما خص به البلد الحرام، قال الإمام النووي: «قوله صلى الله عليه وسلم: (فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة وأنه لم يحل القتال فيه لأحد قبلي ولم يحل لي إلا ساعة من نهار فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة).

وفي رواية (القتل) بدل (القتال)، وفي الرواية الأخرى:(لا يحل لأحد يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك بها دما، ولا يعضد بها شجرة فإن أحد ترخص بقتال رسول الله صلى الله عليه وسلم فيها فقولوا له: إن الله أذن لرسوله ولم يأذن لكم، وإنما أذن لي فيها ساعة من نهار، وقد عادت حرمتها اليوم كحرمتها بالأمس وليبلغ الشاهد الغائب)[2].

هذه الأحاديث ظاهرة في تحريم القتال بمكة قال الإمام أبو الحسن الماوردي صاحب الحاوي من أصحابنا في كتابه الأحكام السلطانية من خصائص الحرم: أن لا يحارب أهله، فإن بغوا على أهل العدل، فقد قال بعض الفقهاء: يحرم قتالهم بل يضيق عليهم حتى يرجعوا إلى الطاعة ويدخلوا في أحكام أهل العدل، قال: وقال جمهور الفقهاء: يقاتلون على بغيهم إذا لم يمكن ردهم عن البغي إلا بالقتال؛ لأن قتال البغاة من حقوق الله التي لا يجوز إضاعتها فحفظها أولى في الحرم من إضاعتها هذا كلام الماوردي وهذا الذي نقله عن جمهور الفقهاء هو الصواب»[3].

رابعًا: من دخلها أمن:

استجاب الله دعوة خليله إبراهيم عليه السلام فجعل مكة المكرمة بلدًا آمنًا.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾﴾ [البقرة:١٢٦].

فجعل الله مكة المكرمة بلدًا آمنًا من الظلم والإغارات الواقعة على غيره، فكان الرجل يلقى قاتل أبيه فيه فلا يهيجه، ويكرر

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الحج، باب لا يحل القتال بمكة، رقم ١٨٣٤، ٣/ ١٤، ومسلم في صحيحه، كتاب الحج، باب تحريم مكة وصيدها وخلاها وشجرها ولقطتها، إلا لمنشد على الدوام، رقم ١٣٥٣، ٢/ ٩٨٦.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب العلم، باب ليبلغ العلم الشاهد الغائب، رقم ١٠٤، ١/ ٣٢، ومسلم في صحيحه، كتاب الحج، باب تحريم مكة وصيدها وخلاها وشجرها ولقطتها إلا لمنشد على الدوام، رقم ١٣٥٤، ٢/ ٩٨٧، من حديث أبي شريح العدوي رضي الله عنه.

(٣) شرح النووي على مسلم ٩/ ١٢٤. وانظر: شرح صحيح البخارى، ابن بطال ٤/ ٥٠٤، عمدة القاري، العيني ١٠/ ١٩٠.

إبراهيم طلب الأمن بعد أن استقر إسماعيل وأمه فيه ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾﴾ [إبراهيم:٣٥].

معناه: اجعله من البلدان الكاملة في الأمن[1].

فجعل الله عز وجل أمن مكة آية لإبراهيم عليه السلام وكان الناس يتخطفون حول مكة.

قال الله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [العنكبوت:٦٧].

فكان الجبار إذا أراد مكة قصمه الله[2].

وفي الآية تقرير من الله تعالى أهل مكة بنعمة الأمن: بمعنى أولم يشاهد كفار مكة أن الله جعل مكة لهم حرمًا آمنًا يأمن فيه أهله على أنفسهم وأموالهم، والناس من حولهم خارج الحرم يتخطفون غير آمنين؟ أفبالشرك يؤمنون، وبنعمة الله التي خصهم بها يكفرون، فلا يعبدونه وحده دون سواه؟[3].

قال ابن عباس رضي الله عنه: «يريد: حراما محرما لا يصاد طيره، ولا يقطع شجره، ولا يختلى خلاه، والحكم في هذا أن صيد مكة لا ينفر، ولا يتعرض له بنوع أذى، ومن قتل صيد مكة فعليه جزاؤه، ولا يجوز قطع أشجار الحرم على جهة الإضرار بها»[4].

وقال تعالى: ﴿فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا﴾ [آل عمران:٩٧].

أي: وأمن من دخله، والعرب جميعًا قد اتفقوا على احترامه وتعظيمه، فمن دخله أمن على نفسه من الاعتداء والإيذاء، ومن أن يسفك دمه أو تستباح حرماته مادام فيه، وقد مضوا على ذلك الأجيال الطوال في الجاهلية على كثرة ما بينهم من الأحقاد والضغائن، واختلاف المنازع والأهواء، وقد أقر الإسلام هذا، وكل ذلك بفضل دعوة إبراهيم عليه السلام ﴿رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا﴾ [البقرة:١٢٦]»[5].

والمعنى: ومن دخله كان آمنًا يعني: حرم مكة إذا دخله الخائف يأمن من كل سوء، وكذلك كان الأمر في حال الجاهلية، كما قال الحسن البصري وغيره: كان الرجل يقتل فيضع في عنقه صوفة ويدخل الحرم، فيلقاه ابن المقتول فلا يهيجه حتى يخرج، وعن ابن عباس رضي الله عنه في قوله تعالى: ﴿وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا﴾ قال: من عاذ بالبيت أعاذه البيت، ولكن لا يؤوى ولا يطعم ولا يسقى، فإذا خرج أخذ بذنبه، وقال

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ٤/ ٤٩.
(٢) معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ١/ ٤٤٦.
(٣) التفسير الميسر، مجمع الملك فهد ص٤٠٤.
(٤) التفسير الوسيط، الواحدي ١/ ٢٠٩.
(٥) تفسير المراغي ٤/ ٨.

الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ [العنكبوت:٦٧].

وقال تعالى: ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ ﴿٣﴾ الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ ﴿٤﴾﴾ [قريش:٣-٤].

وحتى إنه من جملة تحريمها حرمة اصطياد صيدها وتنفيره عن أوكاره، وحرمة قطع شجرها[١].

خامسًا: يحرم على الكافر دخولها:

حرم الله تعالى دخول المشركين والكفار مكة المكرمة.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ إِن شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾ [التوبة:٢٨].

فإنه تعالى أمر المؤمنين بأن يمنعوا من دخول المسجد الحرام كل مشرك ومشركة؛ لأن المشرك نجس الظاهر والباطن، فلا يحل دخولهم إلى المسجد الحرام، وهو مكة والحرم حولها، ومن يومئذ لم يدخل مكة مشرك[٢].

والمسجد الحرام: لفظ يطلق على جميع الحرم، فإذا يحرم تمكين المشرك من دخول الحرم أجمع، ولو دخل مشرك الحرم مستورا ومات نبش قبره وأخرجت عظامه، فليس لهم الاستيطان ولا الاجتياز[٣].

﴿فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ﴾ نص على منع المشركين، وهم عبدة الأوثان من المسجد الحرام، فأجمع العلماء على ذلك، وذهب جمهور الفقهاء إلى تحريم دخول أهل الكتاب إلى المسجد الحرام خلافا لأبي حنيفة[٤].

ومذهب الجمهور القائلين بتحريم دخول المشركين الذميين أو المستأمنين المسجد الحرام، هو الراجح من أقوال الفقهاء وذلك للأسباب الآتية:

١. اتباعًا للنص الصريح الذي لا يحتمل التأويل، وهو قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ إِن شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾ [التوبة:٢٨].
٢. ولأن المسجد الحرام أفضل الأماكن المقدسة على الإطلاق وحرمته أعظم، فيجب تطهيره من المشركين بمنعهم من دخوله.
٣. ولأن الحرم موضع تشريف وإكرام من الله سبحانه وتعالى لعباده المؤمنين،

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٦٨.
(٢) أيسر التفاسير، الجزائري ٢/ ٣٥٦.
(٣) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٨/ ١٠٤.
(٤) التسهيل لعلوم التنزيل، ابن جزي ١/ ٣٣٥.

وهو عاصمة المسلمين المقدسة، فلا ينبغي أن يشغلهم شاغل في أقدس مكان لعبادتهم، بوجود مظنة المفسدة من غيرهم فيه. وقد انتقم الله سبحانه وتعالى للرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه من المشركين الذي أخرجوهم من هذه البقعة الطاهرة بغير وجه الحق، بأن منعهم من دخولها على وجه التأبيد.

٤. ولأن تطهير المسجد الحرام منهم، ومن أقذارهم واجب، وهذا لا يكون إلا بنهي المسلمين عن تمكينهم من قربانه أو دخوله.

٥. ولأن الواقع التاريخي يشهد لقولهم، حيث إن المسلمين من عهد الرسول صلى الله عليه وسلم إلى وقتنا هذا لم يسمحوا لهم بدخوله، ولم يثبت أن النبي صلى الله عليه وسلم أدخلهم المسجد الحرام[(١)].

سادسًا: يحرم قتل صيدها:

حرمة مكة وتحريم صيدها وشجرها وخلاها، ولا يلتقط لقطته إلا من عرفها.

قال تعالى: ﴿إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَـٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ۝٩١﴾ [النمل: ٩١]

يقول تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم: يا محمد قل: ﴿إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَـٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ﴾ وهي مكة الذي حرمها على خلقه أن يسفكوا فيها دمًا حرامًا، أو يظلموا فيها أحدًا، أو يصاد صيدها، أو يختلى خلاها دون الأوثان التي تعبدونها أيها المشركون[(٢)].

وبعبارة أخرى ﴿إِنَّمَآ أُمِرْتُ﴾ يعني يقول الله تعالى لرسوله: قل: ﴿إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَـٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ﴾ يعني: أمرت أن أخص بعبادتي وتوحيدي الله الذي هو رب هذه البلدة يعني مكة، وإنما خصها من بين سائر البلاد بالذكر؛ لأنها مضافة إليه وأحب البلاد وأكرمها عليه، وأشار إليها إشارة تعظيم؛ لأنها موطن نبيه ومهبط وحيه ﴿ٱلَّذِى حَرَّمَهَا﴾ أي: جعلها الله حرما آمنا لا يسفك فيها دم ولا يظلم فيها أحد ولا يصاد صيدها ولا يختلى خلاها ولا يدخلها إلا محرم، وإنما ذكر أنه هو الذي حرمها لأن العرب كانوا معترفين بفضيلة مكة، وأن تحريمها من الله لا من الأصنام وله كل شيء أي خلقا وملكا وأمرت أن أكون من المسلمين لله المطيعين له[(٣)].

وإنما صارت حرامًا شرعًا وقدرا بتحريمه لها، كما ثبت في الصحيحين عن ابن عباس

(١) اختلاف الدارين وآثاره في أحكام الشريعة الإسلامية، عبد العزيز الأحمدي ١/ ٣٨٠.

(٢) جامع البيان، الطبري ١٩/ ٥١٠.

(٣) لباب التأويل، الخازن ٣/ ٣٥٥.

رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم فتح مكة: (إن هذا البلد حرمه الله يوم خلق السموات والأرض، فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة، لا يعضد شوكه، ولا ينفر صيده ولا يلتقط لقطته إلا من عرفها ولا يختلى خلاها)[1][2].

سابعًا: تحريم الإلحاد والظلم فيها:

حرم الله الإلحاد والظلم في البلد الحرام.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ٱلَّذِى جَعَلْنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ ۚ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍۭ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾ [الحج: ٢٥].

أي: ومن يهم فيه بأمر فظيع من المعاصي الكبار عامدًا قاصدًا أنه ظلم ليس بمتأول، عن ابن عباس بظلم هو أن تستحل من الحرم ما حرم الله عليك من إساءة أو قتل فتظلم من لا يظلمك، وتقتل من لا يقتلك فإذا فعل ذلك فقد وجب له العذاب الأليم وقال مجاهد: ﴿بِظُلْمٍ﴾ (يعمل فيه عملًا سيئًا وهذا من خصوصية الحرم أنه يعاقب البادي فيه بالشر إذا كان عازمًا عليه وإن لم يوقعه[3].

قال الإمام الرازي: «الإلحاد العدول عن القصد وأصله إلحاد الحافر، وذكر المفسرون في تفسير الإلحاد وجوها:

أحدها: أنه الشرك، يعني من لجأ إلى حرم الله ليشرك به عذبه الله تعالى، وهو إحدى الروايات عن ابن عباس وقول عطاء بن أبي رباح وسعيد بن جبير وقتادة ومقاتل.

وثانيها: قال ابن عباس رضي الله عنهما: نزلت في عبد الله بن سعد حيث استسلمه النبي صلى الله عليه وسلم فارتد مشركا، وفي قيس بن ضبابة، وقال مقاتل: نزلت في عبد الله بن خطل حين قتل الأنصاري وهرب إلى مكة كافرًا، فأمر النبي صلى الله عليه وسلم بقتله يوم الفتح كافرًا.

وثالثها: قتل ما نهى الله تعالى عنه من الصيد.

ورابعها: دخول مكة بغير إحرام وارتكاب ما لا يحل للمحرم.

وخامسها: أنه الاحتكار عن مجاهد وسعيد بن جبير.

وسادسها: المنع من عمارته.

وسابعها: عن عطاء قول الرجل في المبايعة: لا والله وبلى والله. وعن عبد الله

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجزية، باب إثم الغادر للبر والفاجر، رقم ٣١٨٩، ٤/ ١٠٤، ومسلم في صحيحه، كتاب الحج، باب تحريم مكة وصيدها وخلاها وشجرها ولقطتها، إلا لمنشد على الدوام، رقم ١٣٥٣، ٢/ ٩٨٦.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ١٩٦.

(٣) المصدر السابق ٥/ ٣٦١.

بن عمر أنه كان له فسطاطان أحدهما في الحل والآخر في الحرم، فإذا أراد أن يعاتب أهله عاتبهم في الحل، فقيل له فقال: كنا نحدث أن من الإلحاد فيه أن يقول الرجل لا والله وبلى والله.

وثامنها: وهو قول المحققين: أن الإلحاد بظلم عام في كل المعاصي، لأن كل ذلك صغر أم كبر يكون هناك أعظم منه في سائر البقاع حتى قال ابن مسعود رضي الله عنه: لو أن رجلا بعدن هم بأن يعمل سيئة عند البيت أذاقه الله عذابا أليما. وقال مجاهد: تضاعف السيئات فيه كما تضاعف الحسنات، فإن قيل كيف يقال ذلك مع أن قوله: ﴿نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ لائق بكل المعاصي قلنا: لا نسلم، فإن كل عذاب يكون أليما، إلا أنه تختلف مراتبه على حسب اختلاف المعصية»[1].

والملحد في الحرم أبغض الخلق إلى الله تعالى: فعن ابن عباس رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم، قال: (أبغض الناس إلى الله ثلاثة: ملحد في الحرم، ومبتغ في الإسلام سنة الجاهلية، ومطلب دم امرئ بغير حق ليهريق دمه)[2].

(١) مفاتيح الغيب ٢٣/ ٢١٧.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الديات، باب من طلب دم امرئ بغير حق، رقم ٦٨٨٢، ٩/ ٦.

إبراهيم عليه السلام ومكة

أولًا: دعاء إبراهيم لمكة وأهلها:

تضمن القرآن الكريم آيات عديدة تخبرنا عن عناية إبراهيم عليه السلام بهذا البلد واهتمامه به ودعائه له ولأهله وقد خصه بدعوات مباركات كما يأتي:

١ . دعا إبراهيم عليه السلام ربه بأن يجعله بلدًا آمنًا.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا﴾ [البقرة:١٢٦].

فهذا دعاء من أبي الأنبياء إبراهيم عليه السلام للوادي الذي لا زرع فيه ولا أنيس أن يجعله الله بلدًا آمنا، ثم دعا له بعد أن صار بلدًا مأهولًا وآمنًا.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا﴾ [إبراهيم:٣٥].

قال أبو جعفر الطبري: «يعني: آمنًا من الجبابرة وغيرهم، أن يسلطوا عليه، ومن عقوبة الله أن تناله، كما تنال سائر البلدان، من خسف، وغرق، وغير ذلك من سخط الله ومثلاته التي تصيب سائر البلاد غيره»[3].

والمراد من الآيات دعاء إبراهيم عليه السلام للمؤمنين من سكان مكة بالأمن والتوسعة بما يجلب إلى مكة؛ لأنها بلد لا

(٣) جامع البيان، الطبري ٢/ ٤٤.

زرع ولا غرس فيه، فلولا الأمن لم يجلب إليها من النواحي وتعذر العيش فيها، ثم إن الله تعالى أجاب دعاءه وجعله آمنا من الآفات من القحط والخسف والمسخ من القتل، فلم يصل إليه جبار إلا قصمه الله كما فعل الله تعالى بأصحاب الفيل.

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ۝١ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِى تَضْلِيلٍ ۝٢ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۝٣ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ۝٤ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍۭ ۝٥﴾ [الفيل:١-٥][١].

ودعاء إبراهيم للبلد الحرام بالأمن كان السبب في التمدن بمكة، فإن البلد إذا كان ذا أمن، أمكن الإقامة فيه ووفود التجار إليه لطلب الربح[٢].

والدعاء لمكة بالأمن مختص بها دون غيرها، قال السمعاني: «أجمعوا أن البلد هو مكة»[٣]؛ لأن «ال» للعهد، واسم الإشارة يفيد التعيين والاختصاص، وإن كان إبراهيم قد دعا له منكرًا، فإن ذلك ربما يكون قبل أن يصير بلدًا، الفرق بينهما أنه سأل في الأول أن يجعله من جملة البلاد التي يأمن أهلها فيها ولا يخافون وسأل في الثاني أن يخرج هذا البلد من صفة كان عليها من الخوف إلى ضدها من الأمن[٤].

٢. دعا إبراهيم عليه السلام ربه بأن يرزق أهله من الثمرات.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ۝١٢٦﴾ [البقرة:١٢٦].

وإنما سأل ربه ذلك؛ لأنه أسكن فيه ذريته، وهو غير ذي زرع ولا ضرع، فاستعاذ ربه من أن يهلكهم بها جوعا وعطشا، فسأله أن يؤمنهم مما حذر عليهم منه[٥].

﴿وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ أي: وارزق أهله من أنواع الثمار، إما بزرعها بالقرب منه، وإما بأن تجبى إليه من الأقطار الشاسعة، وقد حصل كلاهما استجابة لدعوة إبراهيم كما هو مشاهد، وقد جاء في سورة القصص: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [القصص:٥٧][٦].

وخص إبراهيم بدعائه المؤمنين، وإن كان سبحانه لواسع رحمته جعل رزق الدنيا

---

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ٤/ ٤٨.
(٢) البحر المحيط، أبو حيان ١/ ٦١٣.
(٣) تفسير السمعاني ٣/ ١١٩.
(٤) انظر: مدارك التنزيل، النسفي ٢/ ١٧٥، لباب التأويل، الخازن ٣/ ٣٩، التفسير البياني للقرآن الكريم، عائشة بنت الشاطئ ١/ ١٦٩.
(٥) جامع البيان، الطبري ٢/ ٤٧.
(٦) النكت والعيون، الماوردي ٣/ ١٣٩.

عامًا للمؤمنين والكافرين.

قال تعالى: ﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾﴾ [الإسراء:٢٠] لأن تمتيع الكافرين قصير محدود بذلك العمر القصير، ثم إلى النار وبئس المصير، وهذا ما بينه عز اسمه بقوله: ﴿قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [البقرة:١٢٦].

أي: قال يا إبراهيم قد أجبت دعوتك، ورزقت مؤمني أهل هذا البلد من الثمرات، ورزقت كفارهم أيضًا، وأمتعهم بهذا الرزق أمدا قليلا وهو مدة وجودهم في الدنيا، ثم أسوقهم إلى عذاب النار سوقًا اضطراريًا لا اختيار لهم فيه، ولا يعلمون أن عملهم ينتهي بهم إليه[1].

٣. دعا إبراهيم عليه السلام ربه أن يجعل في قلوب بعض خلقه ميلًا إليهم فيسعدوا بجوارهم.

قال تعالى: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [إبراهيم:٣٧].

أي: تريدهم وتسرع إليهم، وتحن إليهم، وقال قتادة: تنزع إليهم، وقال مجاهد: لو قال أفئدة الناس، لازدحمت عليه فارس والروم والترك والهند، وقال سعيد بن جبي: لو قال أفئدة الناس، لحجت اليهود والنصارى والمجوس، ولكنه قال: أفئدة من الناس فهم المسلمون، قال عكرمة: هو أنهم يحجون إلى مكة[2].

وفي معنى قوله تعالى: ﴿فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ﴾ أربعة أوجه:

أحدها: أنه بمعنى تحن وتهواهم وتنزل إليهم، لأن مكة في واد والقاصد إليها نازل إليها، وأن يجعل الله الناس يهوون السكنى بمكة، فيصير بيتا محرما يحج الناس إليه، فليس أحد من أهل الإسلام إلا وهو يحن إلى رؤية الكعبة والطواف، فالناس يقصدونها من سائر الجهات والأقطار[3].

٥. دعا إبراهيم عليه السلام ربه أن يبعث الله فيهم رسولًا منهم.

قال تعالى: ﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾﴾ [البقرة:١٢٩].

فاستجاب الله دعاءه فبعث فينا نبينا محمد صلى الله عليه وسلم[4].

---

(١) تفسير المراغي ١/ ٢١٢.

(٢) التفسير الوسيط، الواحدي ٣/ ٣٤.

(٣) انظر: النكت والعيون، الماوردي ٣/ ١٣٨، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٩/ ٣٧٤، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ٣٦٤.

(٤) انظر: جامع البيان، الطبري ٣/ ٨٦، النكت والعيون، الماوردي ١/ ١٩١، معالم التنزيل،

فقد جاء في حديث أبي أمامة أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قالوا: (يا رسول الله أخبرنا عن نفسك فقال: (دعوة أبي إبراهيم وبشرى عيسى)[١].

ثانيًا: بناؤه الكعبة مع إسماعيل عليهما السلام:

أخبر الله في القرآن أن إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام هما اللذان بنيا الكعبة.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى ۖ وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴿١٢٥﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ ۖ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا ۖ إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾﴾

[البقرة:١٢٥ - ١٢٧].

فالآيات تدل على أن إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام هما اللذان بنيا بيت الله الحرام، وكانا يدعوان الله وهما يرفعان قواعد البيت، والقواعد: أساطين البناء التي تعمده واحدتها قاعدة، وهي كالأساس لما فوقها[٢].

وهناك من المفسرين من يقول بأن البيت أول من بناه آدم عليه السلام، وقيل: الملائكة، قال الإمام الرازي: «الأكثرون من أهل الأخبار على أن هذا البيت كان موجودًا قبل إبراهيم عليه السلام وأن أول من بناه آدم على ما روينا من الأحاديث فيه واحتجوا بقوله: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ﴾،فإن هذا صريح في أن تلك القواعد كانت موجودة متهدمة إلا أن إبراهيم عليه السلام رفعها وعمرها»[٣].

ولكن الظاهر من الآية أن الذي بناه هو إبراهيم، قال الإمام الرازي:« اتفقت الأمم على أن باني هذا البيت هو الخليل عليه السلام، وباني بيت المقدس سليمان عليه السلام، ولا شك أن الخليل أعظم درجة وأكثر منقبة من سليمان عليه السلام فمن هذا الوجه يجب أن تكون الكعبة أشرف من بيت المقدس»[٤].

وقال الإمام ابن كثير في البداية والنهاية:

البغوي ١/ ١٨٢.

(١) أخرجه أحمد في مسنده، رقم ٢٢٢٦١، ٣٦/ ٥٩٥، والحاكم في المستدرك، رقم ٤١٧٤، ٢/ ٦٥٦.
قال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه.
وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة، رقم ١٥٤٦، ٤/ ٦٢.

(٢) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٨/ ٢٩٧، تفسير القرآن، السمعاني ١/ ١٣٩، أنوار التنزيل، البيضاوي ٢/ ٢٩، معالم التنزيل، البغوي ١/ ١٦٧، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٣٠٢.

(٣) مفاتيح الغيب، الرازي ٤/ ٥١.

(٤) المصدر السابق ٨/ ٢٩٧.

«ولم يجئ في خبر صحيح عن معصوم أن البيت كان مبنيا قبل الخليل عليه السلام ومن تمسك في هذا بقوله مكان البيت فليس بناهض ولا ظاهر؛ لأن المراد مكانه المقدر في علم الله المقرر في قدرته المعظم عند الأنبياء موضعه من لدن آدم إلى زمان إبراهيم، وقد ذكرنا أن آدم نصب عليه قبة وأن الملائكة قالوا له: قد طفنا قبلك بهذا البيت وأن السفينة طافت به أربعين يوما أو نحو ذلك، ولكن كل هذه الأخبار عن بني إسرائيل وقد قررنا أنها لا تصدق ولا تكذب فلا يحتج بها فأما إن ردها الحق فهي مردودة»[(١)].

وقال محمد رشيد رضا في تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ﴾: «ظاهر في أنهما هما اللذان بنيا هذا البيت لعبادة الله تعالى في تلك البلاد الوثنية، ولكن القصاصين ومن تبعهم من المفسرين جاءونا من ذلك بغير ما قصه الله تعالى علينا، وتفننوا في رواياتهم عن قدم البيت، وعن حج آدم ومن بعده من الأنبياء إليه، وعن ارتفاعه إلى السماء في وقت الطوفان، ثم نزوله مرة أخرى.

وهذه الروايات يناقض أو يعارض بعضها بعضًا، فهي فاسدة في تناقضها وتعارضها، وفاسدة في عدم صحة أسانيدها، وفاسدة في مخالفتها لظاهر القرآن، ولم يستح بعض الناس من إدخالها في تفسير القرآن وإلصاقها به وهو بريئ منها.

ومن ذلك زعمهم أن الكعبة نزلت من السماء في زمن آدم، ووصفهم حج آدم إليها وتعارفه بحواء في عرفة، بعد أن كانت قد ضلت عنه بعد هبوطهما من الجنة، وحاولوا تأكيد ذلك بتزوير قبر لها في جدة، وزعمهم أنها هبطت مرة أخرى إلى الأرض بعد ارتفاعها بسبب الطوفان وحليت بالحجر الأسود، وأن هذا الحجر كان ياقوتة بيضاء.

وقيل: زمردة من يواقيت الجنة أو زمردها، وأنها كانت مودعة في باطن جبل أبي قبيس فتمخض الجبل فولدها، وأن الحجر إنما أسود لملامسة النساء الحيض له.

وقيل: لاستلام المذنبين إياه، وكل هذه الروايات خرافات إسرائيلية بثها زنادقة اليهود في المسلمين ليشوهوا عليهم دينهم وينفروا أهل الكتاب منه»[(٢)].

[انظر: إبراهيم: إبراهيم عليه السلام وبناء الكعبة]

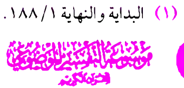
ثالثًا: مقام إبراهيم عليه السلام:

ذكر الله تعالى مقام إبراهيم عليه السلام في موضعين من كتابه:

الموضع الأول: أخبر الله تعالى أن مقام

(١) البداية والنهاية ١/ ١٨٨.

(٢) تفسير المنار ١/ ٣٨٣.



إبراهيم آيات بينات.

قال تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴿٩٧﴾﴾

[آل عمران: ٩٦- ٩٧].

وقد اختلف المفسرون بالمراد بالمقام على أقوال ذكرها الإمام الرازي وغيره:

الأول: أنه الحجر الذي قام عليه إبراهيم؛ لأنه لما ارتفع البنيان وضعف إبراهيم عليه السلام عن وضع الحجارة قام على حجر، وهو مقام إبراهيم عليه السلام.

القول الثاني: أن مقام إبراهيم عليه السلام الحرم كله وهو قول مجاهد.

الثالث: أنه عرفة والمزدلفة والجمار، وهو قول عطاء.

الرابع: الحج كله مقام إبراهيم، وهو قول ابن عباس.

ثم رجح القول الأول، وقال: «واتفق المحققون على أن القول الأول أولى، ويدل عليه وجوه:

الأول: ما روى جابر رضي الله عنه أنه صلى الله عليه وسلم لما فرغ من الطواف أتى المقام، وتلا قوله تعالى: ﴿وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾ فقراءة هذه اللفظة عند ذلك الموضع تدل على أن المراد من هذه اللفظة هو ذلك الموضع ظاهر.

وثانيها: أن هذا الاسم في العرف مختص بذلك الموضع، والدليل عليه أن سائلًا لو سأل المكي بمكة عن مقام إبراهيم عليه السلام لم يجبه ولم يفهم منه إلا هذا الموضع.

وثالثها: ماروي أنه صلى الله عليه وسلم مر بالمقام ومعه عمر رضي الله عنه فقال: (يا رسول الله أليس هذا مقام أبينا إبراهيم؟ قال: بلى، قال: أفلا نتخذه مصلى؟ قال: لم أومر بذلك، فلم تغب الشمس من يومهم حتى نزلت الآية)[(١)].

ورابعها: أن الحجر صار تحت قدميه في رطوبة الطين حتى غاصت فيه رجلا إبراهيم عليه السلام، وذلك من أظهر الدلائل على وحدانية الله تعالى ومعجزة إبراهيم عليه السلام فكان اختصاصه بإبراهيم أولى من اختصاص غيره به، فكان إطلاق هذا الاسم عليه أولى.

وخامسها: أنه تعالى قال: ﴿وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾ وليس للصلاة تعلق بالحرم ولا بسائر المواضع إلا بهذا الموضع، فوجب أن يكون مقام إبراهيم هو هذا الموضع.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الصلاة، باب ما جاء في القبلة، ومن لم ير الإعادة على من سها، فصلى إلى غير القبلة، رقم ٤٠٢، ١/ ٨٩.

وسادسها: أن مقام إبراهيم هو موضع قيامه، وثبت بالأخبار أنه قام على هذا الحجر عند المغتسل ولم يثبت قيامه على غيره فحمل هذا اللفظ، أعني: مقام إبراهيم عليه السلام على الحجر يكون أولى»[1].

وكذلك رجح هذا القول الإمام أبو جعفر الطبري حيث قال: «وأولى هذه الأقوال بالصواب عندنا، ما قاله القائلون: إن مقام إبراهيم، هو المقام المعروف بهذا الاسم، الذي هو في المسجد الحرام[2]، لما ورد عن جابر رضي الله عنه قال: (استلم رسول الله صلى الله عليه وسلم الركن، فرمل ثلاثا، ومشى أربعا، ثم تقدم إلى مقام إبراهيم فقرأ: ﴿وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾ فجعل المقام بينه وبين البيت، فصلى ركعتين)»[3].

كما اختلف المفسرون في الآيات البينات المذكورة في الآية بسبب اختلافهم في القراءات بالإفراد والجمع، فقرأ الجمهور: ﴿ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ﴾ على الجمع، وقرأ أبيٌّ وعمر وابن عباس ومجاهد وأبو جعفر في رواية قتيبة: (آية بينة) على التوحيد[4]، فمن قرأ على الإفراد فمراده أن مقام إبراهيم عليه السلام آية وحده وهو أثر قدميه في المقام وهو حجر صلد آية بينة[5].

وعلى قراءة الجمهور بالجمع ﴿ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ﴾ أي: أنه وحده آيات بينات وفيه توجهين:

أحدهما: أن يجعل وحده بمنزلة آيات كثيرة لظهور شأنه وقوة دلالته على قدرة الله ونبوة إبراهيم عليه السلام من تأثير قدمه في حجر صلد كقوله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝١٢٠﴾ [النحل:١٢٠].

والثاني: اشتماله على آيات؛ لأن أثر القدم في الصخرة الصماء آية، وغوصه فيها إلى الكعبين آية، وإلانة بعض الصخرة دون بعض آية، وإبقاؤه دون سائر آيات الأنبياء لإبراهيم خاصة آية، وحفظه مع كثرة أعدائه من المشركين وأهل الكتاب والملاحدة ألوف سنين آية أيضًا[6].

الثاني: أن مقام إبراهيم آية من الآيات البينات في البيت ومعه آيات أخرى.

(١) مفاتيح الغيب ٤/ ٤٤.
وانظر: جامع البيان، الطبري ٦/ ٢٨، أحكام القرآن، ابن العربي ١/ ٣٧٢، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٢٩٠.
(٢) جامع البيان ٢/ ٣٦.
(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الحج، باب حجة النبي صلى الله عليه وسلم، رقم ١٢١٨، ٢/ ٨٨٦.
(٤) انظر: النشر في القراءات العشر، ابن الجزري ٢/ ٣٥٢.
(٥) انظر: معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ١/ ٤٤٦، الكشف والبيان، الثعلبي ٣/ ١٥٠، التفسير الوسيط، الواحدي ١/ ٤٦٧، النكت والعيون، الماوردي ١/ ٤١١.
(٦) البحر المحيط، أبو حيان ٣/ ٢٧١.

قال أبو بكر الجصاص: «الآية في مقام إبراهيم عليه السلام أن قدميه دخلتا في حجر صلد بقدرة الله تعالى؛ ليكون ذلك دلالة وآية على توحيد الله وعلى صحة نبوة إبراهيم صلى الله عليه وسلم، ومن الآيات فيه ما ذكرنا من أمن الوحش، وأنسه فيه مع السباع الضارية المتعادية، وأمن الخائف في الجاهلية فيه: ﴿وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ [العنكبوت:٦٧]. وإمحاق الجمار على كثرة الرامي من لدن إبراهيم عليه السلام إلى يومنا هذا مع أن حصى الجمار إنما تنقل إلى موضع الرمي من غيره، وامتناع الطير من العلو عليه وإنما يطير حوله لا فوقه، واستشفاء المريض منها به، وتعجيل العقوبة لمن انتهك حرمته، وقد كانت العادة بذلك جارية، ومن إهلاك أصحاب الفيل لما قصدوا لإخرابه بالطير الأبابيل، فهذه كلها من آيات الحرم سوى ما لا نحصيه منها، وفي جميع ذلك دليل على أن المراد بالبيت هنا الحرم كله؛ لأن هذه الآيات موجودة في الحرم، ومقام إبراهيم عليه السلام ليس في البيت إنما هو خارج البيت»[1].

قال الإمام الرازي: «مقام إبراهيم وهو الحجر الذي وضع إبراهيم قدمه عليه فجعل الله ما تحت قدم إبراهيم عليه السلام من ذلك الحجر دون سائر أجزائه كالطين حتى غاص فيه قدم إبراهيم عليه السلام، وهذا مما لا يقدر عليه إلا الله ولا يظهره إلا على الأنبياء، ثم لما رفع إبراهيم قدمه عنه خلق فيه الصلابة الحجرية مرة أخرى، ثم إنه تعالى أبقى ذلك الحجر على سبيل الاستمرار والدوام فهذه أنواع من الآيات العجيبة والمعجزات الباهرة أظهرها الله سبحانه في ذلك الحجر»[2].

الموضع الثاني: أن الله تعالى أمر بالصلاة عنده قال تعالى: ﴿وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ۖ وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَـٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ [البقرة:١٢٥].

أجمع العلماء على مشروعية صلاة ركعتين بعد الطواف، والمستحب أن يقرأ في الأولى من ركعتي الطواف: ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ ۝١﴾ [الكافرون:١].

وفي الثانية: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ [الإخلاص:١].

كما هو ثابت في حديث جابر رضي الله عنه. وجمهور أهل العلم على أن ركعتي الطواف لا يشترط في صحة صلاتهما أن تكون خلف المقام، بل لو صلاهما في أي

(١) أحكام القرآن ٢/ ٢٦.
وانظر: معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ١/ ٤٤٦، الكشف والبيان، الثعلبي ٣/ ١٥٠، التفسير الوسيط، الواحدي ١/ ٤٦٧، النكت والعيون، الماوردي ١/ ٤١١.

(٢) مفاتيح الغيب ٨/ ٢٩٧.

موضع غيره صح ذلك[1].

«ولو طاف في وقت نهي، فأحد قولي أهل العلم: إنه يؤخر صلاتهما إلى وقت لا نهي عن النافلة فيه، ومما يدل على هذين الأمرين أعني صحة صلاتهما في موضع آخر، وتأخير صلاتهما إلى وقت غير وقت النهي الذي طاف فيه ما ذكره البخاري في صحيحه تعليقا بصيغة الجزم، قال: باب الطواف بعد الصبح والعصر، وكان ابن عمر رضي الله عنهما: يصلي ركعتي الطواف ما لم تطلع الشمس، وطاف عمر بعد الصبح، فركب حتى صلى الركعتين بذي طوى[2].

وفعل عمر رضي الله عنه هذا الذي ذكره البخاري يدل على عدم اشتراط كون الركعتين خلف المقام، بل تصح صلاتهما في أي موضع صلاهما فيه، وأن تأخيرهما عن وقت النهي هو الصواب، وممن قال به: أبو سعيد الخدري، ومعاذ بن عفراء، ومالك، وأصحابه: وعزاه بعضهم إلى الجمهور، وقد قدمنا مرارا قول من يقول من أهل العلم: إن ذوات الأسباب الخاصة من الصلوات لا تدخل في عموم النهي في أوقات النهي، إلا أن القاعدة المقررة في الأصول: أن درأ المفاسد مقدم على جلب المصالح»[3].

والصحيح من اتخاذ مقام إبراهيم مصلى معناه: موضعا للصلاة المعهودة، كما بان في سبب نزول الآية السابق ذكره عن عمر رضي الله عنه، واتضح منه أربعة أمور: وهي أن ذلك الموضع هو المقام المراد في الآية، وأن المراد به الصلاة المتضمنة للركوع والسجود، لا مطلق الدعاء، وأن الصلاة عقب الطواف، وأن ركعتي الطواف مطلوبتان، وهما عند المالكية: واجبتان، فمن تركهما، فعليه دم[4].

وقوله تعالى: « ﴿وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾ هو أمر ظاهره الإيجاب، والمراد بالآية فعل الصلاة بعد الطواف، وقد روي أن النبي صلى الله عليه وسلم قد صلاهما عند البيت، فدلت هذه الآية على وجوب صلاة الطواف، ودل فعل النبي صلى الله عليه وسلم لها تارة عند المقام، وتارة عند غيره على أن فعلها عنده ليس بواجب»[5].

والصحيح من هذه الأقوال إن المراد من قوله تعالى: ﴿وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾ مكانًا للصلاة فيه، أي: تصلى خلفه ركعتي الطواف[6].

(١) أضواء البيان، الشنقيطي ٤/ ٤١٠.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الحج، باب الطواف بعد الصبح والعصر، ٢/ ١٥٥.
(٣) انظر: أضواء البيان، الشنقيطي ٤/ ٤١١.
(٤) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٤/ ٤٤، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٢/ ١١٢، البحر المحيط، أبو حيان ١/ ٦١٠.
(٥) أحكام القرآن، ابن العربي ١/ ٦٠.
(٦) انظر: التفسير الوسيط، الواحدي ١/ ٢٠٥،

واجبات ساكنيها وقاصديها

جعل الله تعالى واجبات ساكني الحرم وقاصديه.

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾ [الحج:٢٥]والعاكف هو: المقيم في مكة، والبادي وهو: الطارئ الذي ينتابه من غير أهله في قول الجميع، سواء فيه: ليس المقيم فيه بأولى من النازح إليه[١].

والمراد باستواء العاكف والبادي فيه هو: استواؤهما في تفضيله، وتعظيم حرمته، وإقامة المناسك به، وهذا مذهب مجاهد، والحسن، وقول من أجاز بيع دور مكة، وكان المشركون يمنعون المسلمين عن الصلاة في المسجد الحرام والطواف به، ويدعون أنهم أربابه وولاته[٢].

وقوله: ﴿الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ﴾ أي: يمنعون الناس عن الوصول إلى المسجد الحرام، وقد جعله الله شرعًا سواء لا فرق فيه بين المقيم فيه والنائي عنه البعيد الدار منه سواء العاكف فيه والباد، ومن ذلك استواء الناس في رباع مكة وسكناها، كما قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس، وقال عبد الرزاق عن معمر عن قتادة: سواء فيه أهله وغير أهله[٣].

قال سيد قطب في الظلال قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾ [الحج:٢٥].

«وكان ذلك فعل المشركين من قريش: أن يصدوا الناس عن دين الله- وهو سبيله الواصل إليه، وهو طريقه الذي شرعه للناس، وهو نهجه الذي اختاره للعباد- وأن يمنعوا المسلمين من الحج والعمرة إلى المسجد الحرام- كما فعلوا عام الحديبية- وهو الذي جعله الله للناس منطقة أمان ودار سلام، وواحة اطمئنان.

يستوي فيه المقيم بمكة والطارئ عليها، فهو بيت الله الذي يتساوى فيه عباد الله، فلا يملكه أحد منهم، ولا يمتاز فيه أحد منهم: ﴿سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ﴾.

ولقد كان هذا النهج الذي شرعه الله في بيته الحرام سابقًا لكل محاولات البشر في إيجاد منطقة حرام. يلقى فيها السلاح، ويأمن فيها المتخاصمون، وتحقن فيها

لباب التأويل، الخازن ١/ ٧٩.

(١) انظر: غريب القرآن، ابن قتيبة ص ٢٩١، المفردات، الراغب ص٥٧٩.

(٢) انظر: التفسير الوسيط، الواحدي ٣/ ٢٦٥، تفسير القرآن، السمعاني ٣/ ٤٣٢.

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ٣٦٠.

الدماء، ويجد كل أحد فيها مأواه لا تفضلا من أحد، ولكن حقا يتساوى فيه الجميع وهكذا سبق الإسلام سبقا بعيدًا بإنشاء واحة السلام، ومنطقة الأمان، ودار الإنسان المفتوحة لكل إنسان! والقرآن الكريم يهدد من يريد اعوجاجا في هذا النهج المستقيم بالعذاب الأليم: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الحج: ٢٥]»[١].

وأما واجبات ساكني مكة وقاصديه فيمكن بيانها في النقاط الآتية:

١. حسن النية.

قال تعالى: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الحج: ٢٥].

وهذه الآية تدل على أن الإنسان يجب عليه العقاب بنيته لفعل الشر في الحرم، ألا ترى إلى قوله: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ ولم يقل: من يفعل ذلك، وإنما ذكر العقوبة على الإرادة فقط، فهو ظاهر الآية، وذلك لعظيم حرمة الحرم وجلالة قدره، وكذلك يضاعف فيه الحسنات أكثر مما يضاعف في غيره[٢].

فقد روى ابن جرير بسنده عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، قال: «ما من رجل يهم بسيئة فتكتب عليه، ولو أن رجلا بعد أن بين هم أن يقتل رجلا بهذا البيت، لأذاقه الله من العذاب الأليم» عن الضحاك بن مزاحم، قال: إن الرجل ليهم بالخطيئة بمكة وهو في بلد آخر ولم يعملها، فتكتب عليه»[٣].

٢. تعظيم الحرمات والشعائر.

قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ ۗ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ ۝٣٠﴾ [الحج: ٣٠].

والحرمة: مكة والحج والعمرة، وما نهى الله عنه من معاصيه كلها[٤].

قال الزجاج: «وحرمات الله الحج والعمرة وسائر المناسك، وكل ما فرض الله فهو من حرمات الله، والحرمة ما وجب القيام به وحرم تركه والتفريط فيه»[٥].

وقال الواحدي: «وهي في هذه الآية ما نهي عنها، ومنع من الوقوع فيها، وتعظيمها: ترك ملابستها، وكثير من الناس اختاروا في معنى الحرمات ههنا إنها المناسك، لدلالة ما يتصل بها من الآيات، وقال ابن زيد: المراد بالحرمات ههنا البيت الحرم، والبلد الحرام، والشهر الحرام، والمسجد الحرام، والإحرام»[٦].

---

(١) في ظلال القرآن ٤/ ٢٤١٧.
(٢) الهداية إلى بلوغ النهاية، مكي بن أبي طالب ٧/ ٤٨٦٩.
(٣) جامع البيان، الطبري ١٨/ ٦٠١.
وانظر: التفسير الوسيط، الواحدي ٣/ ٢٦٦.
(٤) جامع البيان، الطبري ١٨/ ٦١٧.
(٥) معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ٣/ ٤٢٤.
(٦) التفسير الوسيط، الواحدي ٣/ ٢٦٩.

قال الإمام الزمخشري في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلۡبَلۡدَةِ ٱلَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَيۡءٖۖ وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ٩١﴾ [النمل:٩١].

«والبلدة: مكة حرسها الله تعالى: اختصها من بين سائر البلاد بإضافة اسمه إليها؛ لأنها أحب بلاده إليه، وأكرمها عليه، وأعظمها عنده، وهكذا قال النبي صلى الله عليه وسلم حين خرج في مهاجره، فلما بلغ الحزورة استقبلها بوجهه الكريم فقال: (إني أعلم أنك أحب بلاد الله إلى الله، ولولا أن أهلك أخرجوني ما خرجت)[1] وأشار إليها إشارة تعظيم لها وتقريب، دالا على أنها موطن نبيه ومهبط وحيه، ووصف ذاته بالتحريم الذي هو خاص وصفها، فأجزل بذلك قسمها في الشرف والعلو، ووصفها بأنها محرمة لا ينتهك حرمتها إلا ظالم مضاد لربه ومن يرد فيه بإلحاد بظلم نذقه من عذاب أليم لا يختلى خلاها، ولا يعضد شجرها، ولا ينفر صيدها، واللاجئ إليها آمن وجعل دخول كل شيء تحت ربوبيته وملكوته كالتابع لدخولها تحتهما»[2].

٣. المحافظة على الحرم ونظافته.

قال تعالى: ﴿وَإِذۡ بَوَّأۡنَا لِإِبۡرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلۡبَيۡتِ أَن لَّا تُشۡرِكۡ بِي شَيۡـٔٗا وَطَهِّرۡ بَيۡتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلۡقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ٢٦﴾ [الحج:٢٦].

والمراد بالطهارة ما يشمل الحسية والمعنوية أي: وطهر بيتي من الأوثان والأقذار لمن يطوف به ويصلي عنده[3].

٤. ترك الإلحاد في الحرم بكل صوره وأشكاله.

والإلحاد في الحرم هو الميل بالظلم فيه. قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ ٱلَّذِي جَعَلۡنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلۡعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلۡبَادِۚ وَمَن يُرِدۡ فِيهِ بِإِلۡحَادِۭ بِظُلۡمٖ نُّذِقۡهُ مِنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ٢٥﴾ [الحج:٢٥].

وقد سبق بيان معنى الإلحاد، وقد عظم الله الذنب في الحرم، وبين أن الجنايات تعظم على قدر عظم الزمان كالأشهر الحرم، وعلى قدر المكان كالبلد الحرام، فتكون المعصية معصيتين: إحداهما المخالفة، والثانية إسقاط حرمة الشهر الحرام أو البلد الحرام.

فالشرك وعبادة غير الله وكل شيء كان منهيا عنه، وحتى شتم الخادم ودخول مكة بغير إحرام، وأذى حمام مكة، واستحلال محظورات الإحرام وركوبها، وأشياء كثيرة

---

(١) سبق تخريجه.
(٢) الكشاف ٣/ ٣٨٨.
(٣) انظر: روح المعاني، الألوسي ٩/ ١٣٦، محاسن التأويل، القاسمي ٧/ ٢٤٠، تفسير المراغي ١٧/ ١٠٧.

لا يجوز للمحرم أن يفعلها[١].

قال أبو جعفر: «أنه معني بالظلم في هذا الموضع كل معصية لله، وذلك أن الله عم بقوله: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ﴾ ولم يخصص به ظلم دون ظلم في خبر ولا عقل، فهو على عمومه، فإذا كان ذلك كذلك، فتأويل الكلام: ومن يرد في المسجد الحرام بأن يميل بظلم، فيعصي الله فيه، نذقه يوم القيامة من عذاب موجع له»[٢].

الاعجاز العلمي في موقع مكة المكرمة

خص الله مكة المكرمة وشرفها بكونها وسط الأرض ومركزها، ويشير إلى ذلك قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ [البقرة:١٤٣].

ولعل في الآية امتنانًا بجعل هذه الأمة في أوسط مكان في الأرض، خاصة وأن الآية تضمنت ذكر القبلة بعد الإخبار عن وسطية الأمة، في قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٣﴾ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ ۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٤﴾ وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُوا۟ قِبْلَتَكَ ۚ وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ ۚ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ ۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٥﴾﴾

[البقرة:١٤٣-١٤٥].

وقد أشار المفسرون وأكدوا قديمًا إلى

(١) التفسير الوسيط، الواحدي ٣/ ٢٦٥.
(٢) جامع البيان، الطبري ١٨/ ٦٠٢.

أن مكة المكرمة تقع في وسط الأرض قبل أن تأتي الاكتشافات الحديثة المؤكدة لذلك، قال الإمام القرطبي في تفسير قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ «المعنى: وكما أن الكعبة وسط الأرض كذلك جعلناكم أمة وسطًا، أي: جعلناكم دون الأنبياء وفوق الأمم، والوسط: العدل، وأصل هذا أن أحمد الأشياء أوسطها»(١).

وقال الإمام أبو حيان: «والمعنى كما جعلنا الكعبة وسط الأرض، كذلك جعلناكم أمة وسطًا، دون الأنبياء، وفوق الأمم»(٢).

وقال السمين الحلبي: «والمعنى كما جعلنا قبلتكم متوسطة جعلناكم أمة وسطًا، أو كما جعلنا القبلة وسط الأرض جعلناكم أمة وسطًا»(٣).

وقال الإمام النيسابوري: «وقيل: إن مكة وسط الأرض، والعيون والمياه تنبع من تحتها، فكأن الأرض كلها تمك من ماء مكة، ثم إنه تعالى وصف البيت بكونه مباركا وهدى للعالمين، أما انتصابه فعلى الحال من الضمير المستكن في الظرف؛ لأن التقدير للذي ببكة هو والعامل فيه معنى الاستقرار»(٤).

وقال الإمام البقاعي: «أي: ومثل ما جعلنا قبلتكم وسطًا؛ لأنها إلى البيت العتيق الذي هو وسط الأرض وهو بناء إبراهيم عليه السلام، وهو أوسط الأنبياء وهو مع ذلك خيار البيوت، فهو وسط بكل معنى»(٥).

وقال الإمام ابن عطية: «أم القرى مكة سميت بذلك لوجوه أربعة:

منها: أنها منشأ الدين والشرع.

ومنها: ما روي أن الأرض منها دحية.

ومنها: أنها وسط الأرض وكالنقطة للقرى.

ومنها: ما لحق عن الشرع من أنها قبلة كل قرية.

فهي لهذا كله أم وسائر القرى بنات، وتقدير الآية: لتنذر أهل أم القرى، ومن حولها يريد أهل سائر الأرض، وحولها ظرف العامل فيه»(٦).

وقال الإمام الرازي: «وقيل: إن مكة وسط الأرض، والعيون والمياه تنبع من تحت مكة، فالأرض كلها تمك من ماء مكة»(٧).

وكذلك كان لعلماء اللغة العربية دورًا في إثبات وسطية مكة بين بلدان العالم.

قال الراغب: «اشتقاق مكة من: تمككت العظم: أخرجت مخه، وامتك الفصيل ما في ضرع أمه، وعبر عن الاستقصاء بالتمكك،

(١) الجامع لأحكام القرآن ٢/ ١٥٣.
(٢) البحر المحيط ٢/ ١٢.
(٣) الدر المصون ٢/ ١٥١.
(٤) غرائب القرآن ورغائب الفرقان ٢/ ٢١٣.
(٥) نظم الدرر ٢/ ٢٠٦.
(٦) المحرر الوجيز ٢/ ٣٢٢.
(٧) مفاتيح الغيب، الرازي ٨/ ٢٩٩.

وتسميتها بذلك؛ لأنها كانت تمك من ظلم بها، أي: تدقه وتهلكه، قال الخليل: سميت بذلك؛ لأنها وسط الأرض كالمخ الذي هو أصل ما في العظم»[1].

قال الزبيدي: «وقيل: إن مكة مأخوذة من المكاكة، وهي اللب والمخ الذي في وسط العظم، سميت بها؛ لأنها وسط الدنيا ولبها وخالصها»[2].

وكذلك الجغرافيون المسلمون ذكروا إن مكة تقع وسط الأرض، قال ياقوت الحموي: «وقد جاء في الأخبار: أن أول ما خلق الله في الأرض مكان الكعبة ثم دحا الأرض من تحتها فهي سرة الأرض ووسط الدنيا وأم القرى أولها الكعبة وبكة حول مكة وحول مكة الحرم وحول الحرم الدنيا»[3].

وقال زكريا القزويني: «وأما الكعبة زادها الله شرفًا فإنها بيت الله الحرام، إن أول ما خلق الله تعالى في الأرض مكان الكعبة، ثم دحا الأرض من تحتها، فهي سرة الأرض ووسط الدنيا وأم القرى»[4].

ويشير إلى وسطية مكة بين بلدان العالم قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ ۝٧﴾ [الشورى:٧].

فقد جعل نزول الوحي بالقرآن على نبينا محمد صلى الله عليه وسلم معللًا بإنذار مكة المكرمة، ومن حولها من القرى إشارة إلى توسط هذه البلدة بين مستقبليها، وخاصة أن النذارة عامة لكل القرى وليست لقرى الحجاز وحدها ولا قرى الجزيرة عامة بدليل قوله جل وعلا: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ ۖ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ۝١٥٨﴾ [الأعراف:١٥٨].

وقوله تعالى: ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ﴾ [الأنعام:١٩].

وما حولها: يراد به جميع القرى[5].

وفي قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ [البقرة:١٤٣].

توافق لطيف وهو أن هذه الآية من سورة البقرة برقم(١٤٣) فإذا علمنا أن عدد آي السورة كاملة (٢٨٦) آية وأن هذه الآية وسطها وفيها ذكر الأمة الوسط أدركنا أن

(١) المفردات ص ٧٧٢.
(٢) تاج العروس ٢٧/ ٣٤٦.
(٣) معجم البلدان ٤/ ٤٦٣.
(٤) آثار البلاد وأخبار العباد ص ١١٤.
(٥) انظر بحث: مكة المكرمة في ضوء القرآن الكريم، عبد الله القرني وإسماعيل القريشي، منشور في موقع الهيئة العالمية للإعجاز العلمي.

الأمة وسط في منهجها ومكانها ومكانتها[١].

أما الإعجاز العلمي في موقع مكة المكرمة: فقد قامت دراسات علمية حديثة تثبت أن مكة هي مركز اليابسة على الأرض (وسط الأرض):

الدراسة الأولى: أجريت في منتصف القرن العشرين حيث لاحظ الدكتور حسين كمال الدين (الذي شغل درجة الأستاذية لمادة المساحة في عدد من الجامعات والمعاهد العليا في مصر والرياض) تمركز مكة في قلب دائرة تمر بأطراف جميع القارات، أي: أن اليابسة على سطح الأرض موزعة حول مكة المكرمة توزيعا منتظما، وأن هذه المدينة المقدسة تعتبر مركزا لليابسة[٢].

قال الأستاذ الدكتور حسين كمال الدين:

«ومن الواضح أنه يمكن بيان حدود القارات الأرضية والممالك والدول، بعد رسم خطوط الطول والعرض، حيث إنها ترتبط بها ارتباطًا ثابتًا على سطح الكرة الأرضية، وعندما تم توقيع حدود القارات الأرضية السبعة على خريطة الإسقاط، وجدنا أن الحدود الخارجية لهذه القارات يجمعها محيط دائرة واحدة مركزها عند مدينة مكة المكرمة، أي: مكة المكرمة تعتبر مركزا وسطا للأرض اليابسة على سطح الكرة الأرضية، وكذلك إذا أخذنا في الاعتبار القارات الثلاث أوربا وآسيا وإفريقيا، التي تمثل العالم القديم عند ظهور الرسالة الإسلامية، نجدها كذلك تكاد تحيط بمدينة مكة المكرمة»[٣].

ويروي العالم المصري حسين كمال الدين قصة الاكتشاف الغريب فيذكر أنه بدأ بحثه وكان هدفه مختلف تماما حيث كان يجري بحثا ليعد وسيلة تساعد كل شخص في أي مكان في العالم على معرفة وتحديد مكان القبلة لذلك فكرفي عمل خريطة للكرة الأرضية لتحديد اتجاه القبلة وبعد أن وضع الخطوط الأولى في البحث التمهيدي لإعداد هذه الخريطة ورسم عليها القارات الخمس ظهر فجأة له هذا الاكتشاف الذي أثار دهشته فقد وجد أن موقع مكة المكرمة وسط العالم، وأن اليابسة على سطح الكرة الأرضية موزعة حول مكة المكرمة توزيعا منتظما[٤].

ويؤيد ما توصل إليه الباحث الأستاذ الدكتور حسين كمال الدين أحمد إبراهيم، الهندسية، ما توصل إليه كذلك الباحث د.

(١) المصدر السابق.

(٢) إثبات توسط مكة المكرمة، دراسة باستخدام القياسات وصور القمار الصناعية للدكتورالمهندس يحي وزيري ص ١٠٢.

(٣) انظر: الإسقاط المكي للعالم، حسين كمال الدين أحمد، منشور في مجلة البحوث الإسلامية، العدد ٦ ص ٢٤٣.

(٤) المصدر السابق.

سعد المرصفي إلى أن مكة المكرمة هي مركز لدائرة تمر بأطراف جميع القارات، بمعنى أن سطح الكرة الأرضية موزع حول مكة المكرمة توزيعًا منتظمًا، وأن هذه المدينة المقدسة تعتبر مركزًا للأرض اليابسة[1].

الدراسة الثانية: قام بها العالم الأستاذ الدكتور مسلم شلتوت في التسعينيات من القرن العشرين، وقد كان يعمل أستاذًا لبحوث الشمس والفضاء بمعهد البحوث الفلكية والجيوفزيائية بمصر، وقد اقتصرت دراسته على استخدام برنامج أعد خصيصًا لذلك باستخدام الحاسب الآلي لحساب المسافة بين مكة ونقاط قياس محددة على اليابسة بالنسبة للعالم القديم والجديد.

فقد تم إجراء حسابات على الحاسب الآلي بقسم بحوث الشمس والفضاء بالمعهد القومي للبحوث الفلكية والجيوفيزيقية بمصر تحت إشراف، د. مسلم أحمد مسلم شلتوت في عام (١٩٩٤م) وخلص من هذه الحسابات إلي: أن مكة المكرمة تكاد تكون مركز لدائرة نصف قدرها حوالي ثمانية آلاف كيلو مترًا تمر بأطراف القارات القديمة (آسيا، أفريقيا، أوروبا) وهي أيضًا مركز لدائرة نصف قطرها حوالي ثلاثة عشر ألف كيلو مترًا بأطراف القارات الجديدة (أمريكا الشمالية، أمريكا الجنوبية، استراليا، المتجمدة الجنوبية)[2].

الدراسة الثالثة: إثبات توسط مكة لليابسة من خلال القياسات وصور الأقمار الصناعية وهذه الدراسة أكثر دقة من الدراستين السابقتين.

وقد أثبتت هذه الدراسة العلمية التي تمت بواسطة القياسات الدقيقة وصور الأقمار الصناعية باستخدام برامج معروفة يتم الاعتماد على نتائجها في الأبحاث العلمية أن مكة المكرمة تتوسط اليابسة، وقد تأكد للباحثين أن مكة المكرمة الموقع الوحيد على الكرة الأرضية الذي يحقق تلك النتائج والقياسات.

مما يؤكد أن لمكة المكرمة موقعًا فريدًا ومتميزًا لا ينافسها في ذلك مدينة أخرى ومن هنا وصفت بأنها أم القرى[3].

وحديثًا استطاع العلماء أن يتحققوا من وسطية مكة المكرمة بواسطة الصور الحقيقية التي يصورها القمر الصناعي عندما يلتقط صورا للكرة الأرضية مبتعدًا عن سطحها بما لا يقل عن مائة كيلومترًا في الفضاء، وهو البعد الذي تستطيع أجهزة

(١) انظر: الكعبة مركز العالم، سعد المرصفي ص ١٤٨.

(٢) إثبات توسط مكة المكرمة، دراسة باستخدام القياسات وصور الأقمار الصناعية، يحي وزيري ص ١٠٢.

(٣) المصدر السابق.



التصوير بالقمر الصناعي أن تلتقط صورًا للكرة الأرضية مشتملة على القطبين، وباستعمال أجهزة التكبير في فحص هذه الصور الحقيقية تتضح وسطية مكة بين أقصى يابسة في القطب الشمالي، وأقصى يابسة في القطب الجنوبي.

وبهذا يكون القرآن الكريم والأبحاث العلمية يؤكدان أن مكة المكرمة هي مركز الكرة الأرضية، ونقطة تجمع الطاقة الكونية الإيجابية في الأرض.

موضوعات ذات صلة:

إبراهيم عليه السلام، البيوت، الحج، المسجد





عناصر الموضوع

مفهوم الملائكة	٢٠٠
الملائكة في الاستعمال القرآني	٢٠١
الالفاظ ذات الصلة	٢٠٢
الملائكة وادم	٢٠٣
صفات الملائكة	٢٠٥
وظائف الملائكة	٢١١
الملائكة الوارد ذكرهم في القران	٢١٩
موقف المؤمن من الملائكة	٢٢٦
موقف الكافرين من الملائكة	٢٣٠
وظائف الملائكة في الاخرة	٢٣٧

المجلد الحادي والثلاثون

مفهوم الملائكة

أولًا: المعنى اللغوي:

الملائكة في اللغة: جمع ملكٍ، والملك أصله مشتق من الفعل (ألك) أي: حمل الرسالة، قال ابن فارس: «الهمزة واللام والكاف أصل واحد، وهو تحمل الرسالة»[(١)]، ومنه الألوكة والمألكة والألوك[(٢)]، قال الخليل: الألوك: الرسالة، وإنما سميت الرسالة ألوكًا؛ لأنها تؤلك في الفم، مشتق من قول العرب، الفرس يألك باللجام ويعلكه [(٣)]،وسميت الملائكة ملائكةً، لتبليغها رسائل الله عز وجل إلى أنبيائه صلوات الله عليهم، ومن أرسلت إليه من عباده [(٤)]، وهو قول الجمهور[(٥)]، وقيل: إن أصله من (ملك) الدال على قوة في الشيء وصحة، يقال: أملك عجينه: قَوَّى عجْنَهُ وشَدَّهُ، وملكت الشيء: قويته [(٦)].

و(الملك) من (الملائكة) واحدٌ وجمعٌ، ويقال: ملائكةٌ وملائك[(٧)].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

عرفها ابن عاشور بأنها: «أجسام لطيفة نورانية أخيار ذوو قوة عظيمة، ومن خصائصهم القدرة على التشكل بأشكال مختلفة، والعلم بما تتوقف عليه أعمالهم، ومقرهم السماوات ما لم يرسلوا إلى جهة من الأرض»[(٨)].

وأما الفوزان فعرفها قائلًا: «الملائكة خلق من خلق الله في عالم الغيب، خلقهم الله لعبادته، ولتنفيذ أوامره سبحانه وتعالى في ملكه، وهم أصناف، كل صنف له عمل موكل به ويقوم به، لا يعصون الله ما أمرهم، ويفعلون ما يؤمرون[(٩)].

(١) مقاييس اللغة، ابن فارس ١/ ١٣٢

(٢) انظر: تاج العروس، الزبيدي ٢٧/ ٤٨

(٣) انظر: العين، الفراهيدي ٥/ ٤٠٩.

(٤) انظر: جامع البيان، الطبري ١/ ٤٤٧، الزاهر في معاني كلمات الناس، الأنباري ٢/ ٢٥٤.

(٥) انظر: النكت في القرآن الكريم، أبو الحسن المجاشعي ص ١٢٥.

(٦) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٥/ ٣٥١.

(٧) مختار الصحاح، الرازي ص ٢٩٨.

(٨) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٢/ ٢٥٠.

(٩) شرح الأصول الثلاثة، صالح الفوزان ص ٢٠٧.

الملائكة في الاستعمال القرآني

وردت (الملائكة) في القرآن الكريم (٨٨) مرة[١].

والصيغ التي وردت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
اسم	٨٨	﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ﴾ [الأنعام:٨]. ﴿وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ﴾ [البقرة:١٠٢]. ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ﴾ [البقرة:٣١]

وجاءت الملائكة في القرآن بمعناها في اللغة وهي: جمع مَلَك بفتح اللام، والملك أصله: ألك، والمألكة، والمألك: الرسالة. ومنه اشتق الملائك؛ لأنهم رسل الله[٢].

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، ص ٦٧٤-٦٧٦.
(٢) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ١/ ١٣٢، المصباح المنير ١/ ٢٣.

الألفاظ ذات الصلة

١ الجن:

الجن لغة:

قال الجوهري: الجن: خلاف الإنس، والواحد جنيٌّ. يقال: سميت بذلك؛ لأنها تتقى ولا ترى. وجن الرجل جنونًا، وأجنه الله، فهو مجنونٌ[١].

الجن اصطلاحًا:

نوع من الأرواح العاقلة المكلفة على نحو ما عليه الإنسان، مجردون عن المادة، مستترون عن الحواس، لا يرون على طبيعتهم، ولا بصورتهم الحقيقية، ولهم قدرة على التشكل[٢].

الصلة بين الجن والملائكة:

الملائكة معصومون عن الزلل، والجن كالإنس غير معصومين، والملائكة وإن كانت مثل الجن من حيث الخفاء، إلا أنهم أرقى المخلوقات، من حيث فضلهم وطاعتهم.

٢ الإنس:

الإنس لغةً:

مادة (أ ن س) تدور في اللغة حول معنيين رئيسين هما: الظهور والنسيان[٣].

الإنس اصطلاحًا:

هم كل حيوان ناطق يرى شكله، ولا يستطيع أن يرى الجن ولا الملائكة.

وقال الجرجاني: الإنسان هو الحيوان الناطق[٤].

الصلة بين الإنس والملائكة:

الإنس والملائكة من مخلوقات الله، إلا أن الإنس خلقوا من طين، وخلقت الملائكة من نور. والملائكة معصومون عن الزلل، والإنس كالجن من حيث الشهوة وأصنافهم، والملائكة غير مكلفين ولا يتناكحون ولا يأكلون ولا يشربون، بخلاف الإنس.

---

(١) مختار الصحاح، الجوهري ٥/ ٢٠٩٣.
وانظر: المحكم والمحيط الأعظم، ابن سيده ٧/ ٢١٣، الكليات، الكفوي ص١٦٩.

(٢) الموسوعة العقدية، مجموعة من الباحثين ٨/ ٣٣٠.

(٣) مقاييس اللغة، ابن فارس ١/ ١٤٥، لسان العرب، ابن منظور ١/ ١٤٧.

(٤) التعريفات، الجرجاني ص٣٨.

الملائكة وآدم

اقتضت حكمة الله وإرادته أن يخلق آدم عليه السلام، وأن يجعله وذريته خلفاء في الأرض؛ ليقوموا بعمارتها وفق منهج الله تعالى وشريعته؛ فيحققوا بذلك غاية وجودهم، توحيدًا لله تعالى وعبادة له وطاعة، وعندما أراد الله سبحانه أن يخلق آدم أعلم ملائكته بمراده، فسألوه عن الحكمة من وراء ذلك، فأخبرهم سبحانه، أن من وراء خلقه لآدم حكمًا لا يعلمونها، وعندما خلقه وسواه ونفخ فيه الروح أمر ملائكته بالسجود له، فاستجابوا لأمره سبحانه وتعالى، وسوف نتحدث عن خلافة آدم والسجود له بشيء من التفصيل في النقاط الآتية:

أولًا: خلافة آدم:

أخبر الله تعالى ملائكته الكرام بأنه سيجعل في الأرض خليفة يسكنها.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝٣٠﴾ [البقرة:٣٠].

قال البغوي: «والمراد بالخليفة ها هنا آدم سماه خليفة؛ لأنه خلف الجن، أي: جاء بعدهم، وقيل: لأنه يخلفه غيره، والصحيح أنه خليفة الله في أرضه؛ لإقامة أحكامه وتنفيذ قضاياه»[1].

وذكر الشيخ الشنقيطي وجهين لأهل التفسير في قوله ﴿خَلِيفَةً﴾:

أحدهما: أن المراد بالخليفة أبونا آدم عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام؛ لأنه خليفة الله في أرضه في تنفيذ أوامره.

والثاني: أن المراد بالخليفة: الخلائف من آدم وبنيه لا آدم نفسه وحده، وقد دلت آيات على ذلك مثل قوله تعالى: ﴿قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾ [البقرة:٣٠].

وقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [فاطر:٣٩].

ونحو ذلك من الآيات، ومعلوم أن آدم عليه السلام ليس ممن يفسد فيها ولا ممن يسفك الدماء، ويمكن الجواب على ذلك: بأن المراد بالخليفة آدم، وأن الله أعلم ملائكته بأنه سيكون من ذريته من يفعل ذلك الفساد، وسفك الدماء، فقالوا ما قالوا، وأن المراد بخلافة آدم الخلافة الشرعية، وبخلافة ذريته أعم من ذلك، وهو أنهم يذهب منهم قرن ويخلفه قرن آخر[2].

وهذه الآية أصلٌ في نصب إمام وخليفة يسمع له ويطاع، لتجتمع به الكلمة، وتنفذ به

---

(١) معالم التنزيل، البغوي ١/ ١٠٢.
(٢) انظر: أضواء البيان، الشنقيطي ١/ ٢٠-٢١.

أحكام الخليفة، ولا خلاف في وجوب ذلك بين الأمة[1].

وأما عن سؤال الملائكة لربهم ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ فقال ابن كثير: «وقول الملائكة هذا ليس على وجه الاعتراض على الله، ولا على وجه الحسد لبني آدم، كما قد يتوهمه بعض المفسرين، وإنما هو سؤال استعلام واستكشاف عن الحكمة في ذلك»[2].

وإنما قالوا هذه المقالة؛ لعلمٍ قد علموه من الله سبحانه بوجه من الوجوه؛ لأنهم لا يعلمون الغيب، قال بهذا جماعة من المفسرين[3].

ويستفاد من قوله تعالى: ﴿إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾أن العبد إذا خفيت عليه حكمة الله في بعض المخلوقات والمأمورات، فالواجب عليه التسليم بها، واتهام عقله، والإقرار لله بالحكمة[4].

ثانيًا: السجود لآدم:

أمر الله تعالى ملائكته الكرام بالسجود لآدم، فاستجابوا طاعة له وامتثالًا لأمره جل وعلا.

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١/ ٢٦٤.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٢١٦.
(٣) انظر: فتح القدير، الشوكاني ١/ ٧٤.
(٤) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٤٩.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾﴾ [البقرة:٣٤].

اختلفوا في هذا الخطاب مع أي الملائكة كان؟ فقيل: إن هذا الخطاب كان مع الملائكة الذين كانوا سكان الأرض، والأصح أنه خطاب مع جميع الملائكة بدليل قوله تعالى: ﴿فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [الحجر:٣٠][5].

وأصل السجود في اللغة: الخضوع والتذلل، وكل من ذل وخضع لما أمر به فقد سجد[6]، وأجمع المسلمون على أن ذلك السجود ليس سجود عبادة؛ لأن سجود العبادة لغير الله كفر، والأمر لا يرد بالكفر[7]، ولكن اختلفوا في كيفية السجود.

قال السمعاني: «وفي قوله تعالى: ﴿ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ﴾ قولان:

أحدهما: أن معناه اسجدوا إلى آدم، فيكون آدم كالقبلة، والسجود لله تعالى.

والأصح: أن السجود كان لآدم على الحقيقة.

وتضمن معنى الطاعة لله تعالى بامتثال أمره فيه، فعلى هذا يكون السجود لآدم على سبيل التحية له، وهو كسجود إخوة يوسف ليوسف بمعنى التحية له.

(٥) انظر: لباب التأويل، الخازن ١/ ٣٧.
(٦) الوسيط، الواحدي ١/ ١١٩.
(٧) مفاتيح الغيب، الرازي ٢/ ٤٢٧.

قال تعالى: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّوا۟ لَهُۥ سُجَّدًا﴾ [يوسف:١٠٠][1].

وهذه كرامة عظيمة من الله تعالى لآدم امتن بها على ذريته[2]، ودليل على فضل آدم عليه السلام؛ إذ جعل موضع عبادة خيار خلق الله معه[3].

والخلاصة في القول: إن السجود كان تعظيمًا وتحيةً؛ تكريمًا لآدم وإظهارًا لفضله، وطاعة لله تعالى لا سجود عبادة.

(١) تفسير السمعاني ١/ ٦٧.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٢٢٧.
(٣) تأويلات أهل السنة، الماتريدي ١/ ٤١٩.

صفات الملائكة

إن العلم بالملائكة من الأمور الغيبية التي لا يصل إليها العقل المجرد، وإنما السبيل لمعرفتهم هو الخبر الصادق عن الله عز وجل، أو عن رسوله صلى الله عليه وسلم، وقد جاءت الأخبار التي تفيد بوجود الملائكة، وتذكر بعض صفاتهم، فللملائكة صفات متعددة ومتنوعة، ومن هذه الصفات ما يأتي:

أولًا: أولو أجنحة:

ذكر الله سبحانه وتعالى في كتابه الكريم أنه اصطفى من الملائكة رسلًا.

قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٧٥﴾﴾ [الحج:٧٥].

وذكر جل وعلا في موضع آخر أن أولئك الرسل من الملائكة لهم أجنحة وتلك الأجنحة متعددة.

قال تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۚ يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾﴾ [فاطر:١].

قال البيضاوي: «﴿أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ﴾ أي: ذوي أجنحة متعددة متفاوتة بتفاوت ما لهم من المراتب ينزلون بها ويعرجون، أو يسرعون بها نحو ما وكلهم

الله عليه فيتصرفون فيه على ما أمرهم به ﴿يَزِيدُ فِي ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ﴾ استئناف للدلالة على أن تفاوتهم في ذلك بمقتضى مشيئته ومؤدى حكمته»[1].

وقال ابن كثير: «وقوله: ﴿جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا﴾ أي: بينه وبين أنبيائه ﴿أُوْلِيٓ أَجْنِحَةٍ﴾ أي: يطيرون بها ليبلغوا ما أمروا به سريعًا ﴿مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ﴾ أي: منهم من له جناحان، ومنهم من له ثلاثة، ومنهم من له أربعة، ومنهم من له أكثر من ذلك»[2].

كما جاء في الحديث الصحيح عن ابن مسعود رضي الله عنه (أن النبي صلى الله عليه وسلم رأى جبريل له ستمائة جناح)[3].

ولهذا قال سبحانه: ﴿يَزِيدُ فِي ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ﴾ قال الشوكاني: «والمعنى: أنه يزيد في خلق الملائكة ما يشاء، وهو قول أكثر المفسرين»[4].

والخلاصة في القول: إن الملائكة يتفاوتون في الخلق والمقدار، وهذا يدل عظم خلقهم، فهم ليسوا على درجة واحدة، فمنهم من له جناحان، ومنهم من له ثلاثة، ومنهم من له أربعة، ومنهم من له ستمائة جناح، وهذا دليل على كمال قدرته وسعه ملكه سبحانه وتعالى، وكثرة الأجنحة دليل القدرة على السرعة في تنفيذ أوامر الله وتبليغ رسالته.

ثانيًا: الطاعة المطلقة:

فالملائكة مطبوعون على طاعة الله، ليس لديهم القدرة على العصيان، فمن صفاتهم أنهم لا يعصون الله في شيء، ولا تصدر منهم الذنوب، بل طبعهم الله على طاعته، والقيام بأمره، كما قال تعالى في وصفهم: ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم:٦].

قال البيضاوي: «لا يعصون الله ما أمرهم فيما مضى، ويفعلون ما يؤمرون فيما يستقبل، أو لا يمتنعون عن قبول الأوامر والتزامها ويؤدون ما يؤمرون به»[5].

وأما ابن كثير فيقول في تفسير هذه الآية: «أي: مهما أمرهم به تعالى يبادروا إليه، لا يتأخرون عنه طرفة عين، وهم قادرون على فعله ليس بهم عجز عنه»[6]، وفي الآية دليل على أن الملائكة لا يقدمون على عمل إلا بأمره تعالى وإذنه[7]، وفيه أيضًا مدح للملائكة الكرام، لانقيادهم لأمر الله،

(١) أنوار التنزيل، البيضاوي ٤/ ٢٥٣.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٥٣٢.
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب تفسير القرآن، باب قوله تعالى: (فأوحى إلى عبده ما أوحى)، رقم ٤٨٥٧، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب في ذكر سدرة المنتهى، رقم ٢٨٠.
(٤) فتح القدير، الشوكاني ٤/ ٣٨٨.
(٥) أنوار التنزيل، البيضاوي ٥/ ٢٢٥.
(٦) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٨/ ١٦٨.
(٧) تفسير المراغي ١٤/ ٥٣.



وطاعتهم له في كل ما أمرهم به[1].

وقال تعالى في موضع آخر مبينًا الانقياد التام لطاعته حيث قال جل وعلا: ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ۝٢٦ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ۝٢٧﴾ [الأنبياء:٢٦- ٢٧].

قال ابن كثير: «وقوله: ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾ أي: الملائكة عباد الله مكرمون عنده، في منازل عالية ومقامات سامية، وهم له في غاية الطاعة قولًا وفعلًا ﴿لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾ أي: لا يتقدمون بين يديه بأمر، ولا يخالفونه فيما أمر به بل يبادرون إلى فعله، وهو تعالى علمه محيط بهم، فلا يخفى عليه منهم خافية»[2]، وفي الآية دليل على كمال طاعتهم وانقيادهم[3].

والخلاصة في القول: إن الملائكة لا يقدمون على عمل إلا بإذنه تعالى، ولا يخالفون فيما أمر به، وهم له في غاية الطاعة قولًا وفعلًا، وهذا دليل الانقياد التام لطاعته سبحانه وتعالى.

ثالثًا: لا يوصفون بالذكورة ولا بالأنوثة:

أخبر الله سبحانه وتعالى في كتابه العزيز عن سفاهة المشركين المكذبين لرسوله عليه الصلاة والسلام، حيث زعموا أن الله اتخذ ولدًا، فقالوا: الملائكة بنات الله، فرد الله عليهم تنزيهًا لملائكته الكرام بقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَانَهُ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ۝٢٦﴾ [الأنبياء:٢٦].

حيث نزلت هذه الآية في خزاعة حيث قالوا: إن الملائكة بنات الله، فنزه الله تعالى نفسه عما قالوا[4].

وفي تفسير هذه الآية، يقول السعدي: «يخبر تعالى عن سفاهة المشركين المكذبين للرسول، وأنهم زعموا - قبحهم الله - أن الله اتخذ ولدًا فقالوا: الملائكة بنات الله، تعالى الله عن قولهم، وأخبر عن وصف الملائكة بأنهم عبيد مربوبون مدبرون، ليس لهم من الأمر شيء، وإنما هم مكرمون عند الله، قد أكرمهم الله، وصيرهم من عبيد كرامته ورحمته، وذلك لما خصهم به من الفضائل والتطهير عن الرذائل، وأنهم في غاية الأدب مع الله، والامتثال لأوامره»[5].

فالملائكة عبيده وملكه، والعبد لا يمكن أن يكون ولدًا لسيده[6].

وقد أنكر الله تعالى عليهم ما نسبوه إليه في موضع آخر، حيث قال جل علا: ﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَٰنِ

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٨٧٤.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ٥/ ٣٣٨ بتصرف يسير.
(٣) انظر: فتح القدير، الشوكاني ٣/ ٤٧٨.
(٤) انظر: معالم التنزيل، البغوي ٣/ ٢٨٦.
(٥) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٥٢٢.
(٦) انظر: أضواء البيان، الشنقيطي ٤/ ١٣٨.

﴿إِنَٰثًاۚ أَشَهِدُواْ خَلْقَهُمْۚ سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ ١٩﴾ [الزخرف:١٩].

قال القاسمي في تفسير هذه الآية: «أي جعلوا ملائكة الله الذين هم عنده يسبحونه ويقدسونه إناثا، فقالوا: هم بنات الله جهلًا منهم بحق الله سبحانه، وجراءة منهم على قيل الكذب ﴿أَشَهِدُواْ خَلْقَهُمْ﴾ أي: أحضروا خلق الله إياهم، فوصفوهم بذلك لعلمهم بهم وبرؤيتهم إياهم؟ وهو تجهيل لهم، وتهكم بهم ﴿سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ﴾ أي على الملائكة بما هم مبرءون عنه ﴿وَيُسْـَٔلُونَ﴾ أي: عنها يوم القيامة، بأن يأتوا ببرهان على حقيقتها، ولن يجدوا إلى ذلك سبيلًا، وفيه من الوعيد ما فيه؛ لأن كتابتها والسؤال عنها يقتضي العقاب والمجازاة عليها، وهو المراد»[1]، وفي هذا دليل على أن القول بغير برهان منكر، وأن التقليد لا يغني من الحق شيئًا[2].

ومن خلال هذه الآيات وغيرها يتبين لنا أن الملائكة منزهون عما قاله المشركون فيهم، فقد رد الله عليهم في هذه الآيات وغيرها في كتابه الكريم ووبخهم وعاتبهم على ذلك، وأثنى على ملائكته الكرام ووصفهم بالعبودية وهذا تشريف لهم وتكريم من الله جل وعلا، فهم عبيده

(١) محاسن التأويل، القاسمي ٨/ ٣٨٢ باختصار.
(٢) تفسير المراغي ٢٥/ ٧٨.

وملكه، والعبد لا يمكن أن يكون ولدًا لسيده.

رابعًا: عددهم كثير جدًا:

أخبر الله جل وعلا في كتابه الكريم أن النار عذابها شديد وهي إحدى الدواهي العظيمة، ثم ذكر عدد خزنة أهل النار من الملائكة حيث قال تعالى: ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ٣٠﴾ [المدثر:٣٠].

قال القرطبي: «والصحيح أن هؤلاء التسعة عشر، هم الرؤساء والنقباء، وأما جملتهم فالعبارة تعجز عنها، كما قال الله تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [المدثر:٣١]»[3].

وهذا يدل على كثرة عددهم، يقول الطبري في تفسير هذه الآية: «﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ﴾ من كثرتهم ﴿إِلَّا هُوَ﴾ يعني: الله»[4].

ومما يؤكد كذلك على كثرة عددهم، ما جاء في الحديث الصحيح عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (**يؤتى بجهنم يومئذ لها سبعون ألف زمام مع كل زمام سبعون ألف ملك يجرونها**)[5].

(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٩/ ٨٠.
(٤) جامع البيان، الطبري ٢٤/ ٣١.
(٥) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب في شدة حر نار جهنم وبعد قعرها وما تأخذ من المعذبين، رقم ٢٨٤٢.

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (البيت المعمور في السماء السابعة، يدخله كل يوم سبعون ألف ملك، ثم لا يعودون إليه)[1].

وقد أخبر الله سبحانه وتعالى عن الحكمة التي جعل لأجلها عدة الملائكة الموكلين بالنار تسعة عشر، حيث قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً ۙ وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ [المدثر:٣١].

وسبب نزول هذه الآية أن أبا جهل لما سمع قول الله تعالى: ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴿٣٠﴾﴾ [المدثر:٣٠].

قال لقريش: ثكلتكم أمهاتكم! أسمع ابن أبي كبشة يخبركم أن خزنة النار تسعة عشر، وأنتم الدهم - أي: العدد - والشجعان أفيعجز كل عشرة منكم أن يبطشوا برجل من خزنة جهنم؟![2] فأنزل الله هذه الآية.

قال المراغي في تفسير هذه الآية: «وما جعلنا المدبرين لأمر النار القائمين بعذاب من فيها إلا ملائكة، فمن يطيق الملائكة ومن يغلبهم؟ وإنما كانوا ملائكة؛ لأنهم أقوى الخلق وأشدهم بأسًا وأقومهم بحق الله والغضب له سبحانه؛ وليكونوا من غير جنس المعذبين حتى لا يرقوا لهم ويرحموهم، ثم ذكر الحكمة في اختيار هذا العدد القليل فقال: ﴿وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ أي: وما جعلنا هذا العدد إلا محنة وضلالة للكافرين، حتى قالوا ما قالوا؛ ليتضاعف عذابهم، ويكثر غضب الله عليهم، وفتنتهم به أنهم استقلوه واستهزءوا به واستبعدوه وقالوا: كيف يتولى هذا العدد القليل تعذيب الثقلين؟!»[3].

والخلاصة في القول: إن من الحكم في ذكر عدد خزنة أهل النار المحنة والابتلاء للكافرين، فيكون ذلك زيادة في كفرهم وضلالهم بسبب تكذيبهم واستهزائهم، وإن كانوا تسعة عشر، فلهم من الأعوان والجنود من الملائكة ما لا يعلمه إلا الله سبحانه، فلا يعلم عدد خلقه من الملائكة وكثرة عددهم إلا الله سبحانه وتعالى.

خامسًا: لا يأكلون ولا يشربون:

لقد دلت النصوص القرآنية على عدم حاجة الملائكة إلى الطعام أو الشراب، فقد أخبرنا الله أن الملائكة جاؤوا إبراهيم في صورة بشر، فقدم لهم الطعام، فلم تمتد أيديهم إليه، فأوجس منهم خيفة، فكشفوا له عن حقيقتهم، فزال خوفه واستغرابه ﴿هَلْ

(١) أخرجه أحمد في مسنده، رقم ١٢٥٥٨، والحاكم في مستدركه، رقم ٣٧٤٢.
قال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، ولم يتعقبه الذهبي.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، ١/ ٥٥٨، رقم ٢٨٩١.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٤/ ٢٨.

(٣) تفسير المراغي ٢٩/ ١٣٦ باختصار يسير.

﴿أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ۝٢٤ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا قَالَ سَلَٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ۝٢٥ فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ۝٢٦ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ۝٢٧ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا۟ لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ﴾[الذاريات:٢٤-٢٨].

وفي آية أخرى قال: ﴿فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا۟ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ﴾[هود:٧٠].

قال ابن كثير: وفي قوله: ﴿فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ﴾ تنكرهم ﴿وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾ وذلك أن الملائكة لا همة لهم إلى الطعام ولا يشتهونه ولا يأكلونه؛ فلهذا رأى حالهم معرضين عما جاءهم به، فارغين عنه بالكلية فعند ذلك نكرهم ﴿وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾[1].

وقد حكى غير واحد من محققي العلم الاتفاق على أن الملائكة لا يأكلون ولا يشربون ولا ينكحون[2].

سادسًا: يعقلون ويتكلمون:

أما الأدلة على أن الملائكة متصفون بالكلام فقد أخبرنا الله سبحانه وتعالى عن ذلك بقوله: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ [النبأ:٣٨].

فهم موصوفون بالكلام بعد إذن الرحمن.

وفي المحاورة التي جرت بين الله عز وجل وبين ملائكته عليهم السلام دليل على ذلك.

قال تبارك وتعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝٣٠﴾ الآيات[البقرة:٣٠].

وقد أخبر الله سبحانه وتعالى أيضًا أن الملائكة عليهم السلام يكلم بعضهم بعضًا، وأن لهم قلوبًا يعقلون بها، ومن الأدلة على ذلك قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ﴾[سبأ:٢٣][3].

وجاء في الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم: (إذا قضى الله الأمر في السماء ضربت الملائكة بأجنحتها خضعانًا لقوله، كأنه سلسلة على صفوان ينفذهم ذلك ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ۝٢٣﴾[سبأ:٢٣])[4].

وقد ذكر الشيخ ابن عثيمين أن في

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٣٣٣.

(٢) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ١/ ٨١، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٩/ ٦٨.

(٣) انظر: المسائل العقدية التي حكى فيها ابن تيمية الإجماع ص٦٦٤.

(٤) أخرجه البخاري، كتاب تفسير القرآن، باب قوله: (إلا من استرق السمع فأتبعه شهاب مبين)، ٦/ ٨٠، رقم ٤٧٠١، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

هذه الآية: «إثبات بأن الملائكة يتكلمون ويفهمون ويعقلون لأنهم يسألون: ﴿مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ﴾ ويجابون: ﴿قَالُوا الْحَقَّ﴾ خلافًا لمن قال: إنهم لا يوصفون بذلك؛ فيلزم من قولهم هذا أننا تلقينا الشريعة ممن لا عقول لهم، وهذا قدح في الشريعة بلا ريب».

ثم قال: «وفي قوله تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ﴾ إثبات القلوب للملائكة»[1].

وقد ذهب بعض المفسرين إلى أن المعني بالكلام في الآية الكريمة هم الكفار، وليس الملائكة وهو مردود عليهم لمخالفتهم الحديث الصحيح السابق ذكره[2].

(١) انظر: القول المفيد على كتاب التوحيد ص١١.

(٢) انظر: الفتح ١٣/ ٤٥٩.

وظائف الملائكة

الملائكة خلق من خلقه تبارك وتعالى، خصهم الله جل وعلا بخصائص، ووهبهم عظم الخلقة، والقدرة على التشكيل، وأوكل إليهم القيام بأمور هذا الكون، فلهم أعمال ووظائف متعددة، يقومون بها امتثالًا لأمره تبارك وتعالى، وأعطاهم القدرة على تأديتها على أكمل وجه، وسوف نبين في المطالب التالية هذه الأعمال والوظائف التي يقومون بها، فمن ذلك:

أولًا: عبادة الله:

الملائكة عباد الله، مكلفون بطاعته، وقد جاء في الكتاب والسنة ذكر بعض العبادات التي تتعبد بها الملائكة ربها تعالى، ومن نماذج عبادتهم ما يلي:

١. أنهم يشهدون بوحدانية الله.

قال تعالى: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ ۚ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾[آل عمران:١٨].

٢. أنهم يشهدون على صحة ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم.

قال تعالى: ﴿لَّٰكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنزَلَ إِلَيْكَ ۖ أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ ۖ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾[النساء:١٦٦].

٣. أنهم يصلون.

وورد في النصوص تفصيل بعض صفة

صلاتهم، فورد أنهم يصفون عند ربهم.

قال تعالى: ﴿وَالصَّٰفَّٰتِ صَفًّا﴾ [الصافات:١].

وقال تعالى: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ﴾ [الصافات:١٦٥].

ولعل المقصود بالصف هنا صف الملائكة للصلاة، وهو مروي عن عائشة والسدي[١]، ويؤيد ذلك ما ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه خرج على أصحابه قال: (ألا تصفون كما تصف الملائكة عند ربها؟ فقلنا: يا رسول الله وكيف تصف الملائكة عند ربها؟ قال: يتمون الصف الأول ويتراصون في الصف)[٢].

وكان ورود الحديث حال الاصطفاف للصلاة، فهي قرينة دالة أن الملائكة يتمون الصفوف ويتراصون صفوفهم في الصلاة.

ومما جاء في صفة صلاتهم أنهم يسجدون ويركعون ويقومون: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ [الرعد:١٥].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ﴾ [الأعراف:٢٠٦].

وعن حكيم بن حزام قال: (بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم في أصحابه إذ قال لهم: أتسمعون ما أسمع؟ قالوا: ما نسمع من شيء، قال: إني لأسمع أطيط السماء، وما تلام أن تئط، ما فيها موضع شبر إلا عليه ملك ساجد أو قائم)[٣].

فهذا كله بيان لصفة وهيئة من هيئات صلاتهم.

٤. أنهم يطوفون.

للملائكة كعبة في السماء السابعة يطوفون بها، وهذه الكعبة هي التي أسماها الله تعالى: البيت المعمور، وأقسم به في سورة الطور: ﴿وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ﴾ [الطور:٤].

قال ابن كثير عند تفسير هذه الآية: يتعبدون في البيت المعمور، ويطوفون به كما يطوف أهل الأرض بكعبتهم، والبيت المعمور هو كعبة أهل السماء السابعة؛ ولهذا وجد إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام مسندًا ظهره إلى البيت المعمور؛

(١) انظر: جامع البيان ١٩/ ٦٥١-٦٥٤.

(٢) أخرجه مسلم، كتاب الصلاة، باب الأمر بالسكون في الصلاة، والنهي عن الإشارة باليد، ورفعها عند السلام وإتمام الصفوف الأوَلِ والتراص فيها والأمر بالاجتماع، ١/ ٣٢٢، رقم ٤٣٠، من حديث جابر بن سمرة.

(٣) أخرجه ابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني، ١/ ٤٢٢، رقم ٥٩٧، والمروزي في تعظيم قدر الصلاة ١/ ٢٥٨، رقم ٢٥٠، والطحاوي في شرح مشكل الآثار ٣/ ١٦٧، رقم ١١٣٤، والطبراني في المعجم الكبير ٣/ ٢٠١، رقم ٣١٢٢، وابن أبي حاتم في تفسيره ١/ ٢٠٢، وأبو الشيخ في العظمة ٣/ ٩٨٦، ح٥٠٩. وصححه، الألباني السلسلة الصحيحة ، رقم ١٠٦٠.

لأنه باني الكعبة الأرضية، والجزاء من جنس العمل)[1].

٥. أنهم يذكرون الله.

قال تعالى: ﴿وَالصَّافَّاتِ صَفًّا ۝١ فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا ۝٢ فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا ۝٣﴾ [الصافات:١-٣].

أي: الملائكة تتلو ذكر الله[2].

ومن أنواع ذكرهم التسبيح: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ [الشورى:٥]. ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ [البقرة:٣٠].

﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ ۝١٦٥ وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ﴾ [الصافات:١٦٥-١٦٦].

٦. أنهم يخافون الله ويخشونه.

لما كانت معرفة الملائكة بربهم كبيرة كان تعظيمهم له وخشيتهم له أعظم.

قال تعالى: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ﴾ [النحل:٥٠].

وقال: ﴿وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ﴾ [الأنبياء:٢٨].

ثانيًا: تنفيذ أوامر الله:

ومن أعمال الملائكة تثبيت المؤمنين عند الموت، فحين يتعرض المؤمنون لغمرات الموت، فإن الملائكة تبشرهم بالجنة.

قال تعالى: ﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ۝٣٢﴾ [النحل:٣٢].

قال ابن كثير: «أخبر تعالى عن حالهم عند الاحتضار، أنهم طيبون، أي: مخلصون من الشرك والدنس وكل سوء، وأن الملائكة تسلم عليهم وتبشرهم بالجنة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ۝٣٠﴾ [فصلت:٣٠]»[3].

وفي الآيتين دليل واضح على أن المؤمن يبشر بالجنة قبل موته، ومما يؤكد كذلك ما جاء في الحديث الصحيح عن أبي هريرة: (أن الملائكة تقول لروح المؤمن: (اخرجي أيتها النفس الطيبة كانت في الجسد الطيب، اخرجي حميدة، وابشري بروح وريحان ورب غير غضبان)[4].

وعلى النقيض مما سبق، يكون موقف الملائكة مع الكافرين الجاحدين، وذلك أن الكافر إذا احتضر بشرته الملائكة بالعذاب.

قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ

---

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧/ ٤٢٨، تفسير الوسيط، الواحدي ٣/ ٥٢١، معالم التنزيل، البغوي ٤/ ٢٦.

(٢) انظر: تفسير الوسيط، الواحدي ٣/ ٥٢١، معالم التنزيل، البغوي ٤/ ٢٦.

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٥٦٨.

(٤) أخرجه أحمد في مسنده، رقم ٢٥٠٩٠. وصححه الألباني في صحيح الجامع، رقم ١٩٦٨.

﴿وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ۝٥٠﴾ [الأنفال: ٥٠].

قال الطبري في تفسير هذه الآية: «يقول تعالى ذكره لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم: ولو تعاين يا محمد، حين يتوفى الملائكة أرواح الكفار، فتنزعها من أجسادهم، تضرب الوجوه منهم والأستاه، ويقولون لهم: ذوقوا عذاب النار التي تحرقكم يوم ورودكم جهنم»[1].

وفي الآية دليل واضح على أن الكافر يبشر بالعذاب قبل موته.

ومما يؤكد على ذلك ما جاء في الحديث الصحيح المذكور سابقًا عن أبي هريرة والذي جاء فيه: (أن الملائكة تقول لروح الكافر: (اخرجي أيتها النفس الخبيثة، كانت في الجسد الخبيث، اخرجي ذميمة، وأبشري بحميم وغساق، وآخر من شكله أزواج)[2].

ثالثًا: حفظ الإنسان:

ومن الأعمال والمهام التي كلفهم الله بها حفظ الإنسان من بين يديه ومن خلفه.

قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۖ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ۝٦١﴾ [الأنعام: ٦١].

قال ابن كثير في قوله تعالى: ﴿وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً﴾ أي: من الملائكة يحفظون بدن الإنسان، كما قال تعالى: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ [الرعد: ١١]»[3].

وفي هذه الآية يقول السعدي: «أي: للإنسان ﴿مُعَقِّبَٰتٌ﴾ من الملائكة يتعاقبون في الليل والنهار ﴿مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ أي: يحفظون بدنه وروحه من كل من يريده بسوء، ويحفظون عليه أعماله، وهم ملازمون له دائمًا»[4].

وقال عكرمة عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ قال: ملائكة يحفظونه من بين يديه ومن خلفه، فإذا جاء قدر الله خلوا عنه[5].

رابعًا: قبض الأرواح:

ومن أعمالهم كذلك قبض أرواح العباد عندما تنتهي آجالهم.

قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۖ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ۝٦١﴾ [الأنعام: ٦١].

والمراد بالرسل هنا الملائكة الموكلون بقبض الأرواح، وقد فسرها ابن عباس بهذا المعنى حيث قال: «إن لملك الموت أعوانًا

(١) جامع البيان، الطبري ١٣/ ١٥.
(٢) سبق تخريجه.
(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ٢٦٧.
(٤) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٤١٤.
(٥) انظر: جامع البيان، الطبري ١٦/ ٣٧١.

من الملائكة»[1].

وقال المراغي: «وهؤلاء الرسل هم أعوان ملك الموت الذين يتولون ذلك بأمره، كما قال تعالى: ﴿قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾﴾ [السجدة:١١]»[2].

قال الشنقيطي في هذه الآية: «وظاهر هذه الآية الكريمة أن الذي يقبض أرواح الناس ملك واحد معين، وهذا هو المشهور، وقد بين تعالى في آيات أخر أن الناس تتوفاهم ملائكة لا ملك واحد.

وإيضاح هذا عند أهل العلم: أن الموكل بقبض الأرواح ملك واحد هو المذكور هنا، ولكن له أعوان يعملون بأمره ينتزعون الروح إلى الحلقوم، فيأخذها ملك الموت، أو يعينونه إعانة غير ذلك»[3].

خامسًا: النزول بالوحي:

ومن الأعمال كذلك النزول بالوحي على أنبيائه ورسله.

قال تعالى: ﴿يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓا۟ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ﴿٢﴾﴾ [النحل:٢].

قال الشنقيطي: «وأظهر الأقوال في معنى الروح في هذه الآية الكريمة: أن المراد بها الوحي؛ لأن الوحي به حياة الأرواح، كما أن الغذاء به حياة الأجسام، ويدل لهذا قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ [الشورى:٥٢]»[4].

وفي قوله تعالى: ﴿عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ يقول ابن كثير: هم الأنبياء، كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [الحج:٧٥][5].

وقال أبو زهرة: «أي: من اختارهم لرسالته، ويصطفيهم الله: يختبر من يشاء من عباده، وهو أعلم حيث يجعل رسالته»[6]، كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام:١٢٤].

سادسًا: الدعاء للمؤمنين:

أخبر الله تعالى في كتابه الكريم بأن ملائكته الكرام تصلي على المؤمنين، والصلاة من الملائكة بمعنى الدعاء والاستغفار، كما ذكر أهل العلم.

قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾﴾ [الأحزاب:٤٣].

قال الشوكاني: والصلاة من الملائكة

---

(١) انظر: المصدر السابق ١١/ ٤١٠.

(٢) تفسير المراغي ٧/ ١٤٩.

(٣) أضواء البيان ٦/ ١٨٤ باختصار.

(٤) المصدر السابق ٢/ ٣٢٨.

(٥) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٥٥٦.

(٦) زهرة التفاسير، أبو زهرة ٨/ ٤١٢٩-٤١٣٠.

الدعاء لهم والاستغفار كما قال تعالى: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ [غافر:٧][1].

وهذا يدل على رحمة الله ولطفه بعباده أن جعل من صلاته عليهم وثنائه، وصلاة ملائكته ودعائهم ما يخرجهم من ظلمات الذنوب والجهل إلى نور الإيمان، والتوفيق، والعلم، والعمل، فهذه أعظم نعمة أنعم بها على عباده الطائعين، تستدعي منهم شكرها، والإكثار من ذكر الله، الذي لطف بهم ورحمهم[2].

سابعًا: تبشير المؤمنين:

ومن أعمالهم كذلك تبشير المؤمنين، فقد بشر ملائكة الرحمن إبراهيم عليه السلام بذرية صالحة.

قال تعالى: ﴿فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ﴿٢٨﴾﴾ [الذاريات:٢٨].

قال السمعاني في تفسير هذه الآية: أي: دخل في نفسه منهم خيفة، والسبب في ذلك أن الرجل كان إذا طرقه ضيف فقدم إليه شيئًا وأكله أمن منه، وإن لم يأكل خاف شره، وقوله: ﴿قَالُوا لَا تَخَفْ﴾ يعني: نحن ملائكة الله فلا تخف[3].

وفي قوله تعالى: ﴿وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ﴾ يقول القرطبي: «أي: بولد يولد له من سارة زوجته، والجمهور على أن المبشر به هو إسحاق عليه السلام»[4].

وبشرت كذلك مريم بعيسى عليه السلام.

قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾﴾ [آل عمران:٤٥].

وبشرت كذلك زكريا بيحيى عليهما السلام.

قال تعالى: ﴿فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى﴾ [آل عمران:٣٩].

وجاء في الحديث الصحيح عن أبي هريرة، عن النبي صلى الله عليه وسلم: **(أن رجلًا زار أخا له في قرية أخرى، فأرصد الله له، على مدرجته ملكًا، فلما أتى عليه قال: أين تريد؟ قال: أريد أخا لي في هذه القرية، قال: هل لك عليه من نعمة تربها؟ قال: لا، غير أني أحببته في الله عز وجل، قال: فإني رسول الله إليك، بأن الله قد أحبك كما أحببته فيه)**[5].

(١) انظر: فتح القدير، الشوكاني ٤/ ٣٣٠.
(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٦٦٧.
(٣) تفسير السمعاني ٥/ ٢٥٧ بتصرف.
(٤) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٧/ ٤٦ باختصار.
(٥) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب في فضل الحب في الله، رقم ٢٥٦٧.

ثامنًا: مناصرة المؤمنين في القتال:

ومن أعمالهم كذلك مشاركة المؤمنين في قتالهم؛ لتثبيتهم وتقوية عزائمهم.

قال تعالى: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾﴾ [الأنفال:١٢].

قال البغوي: «﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ﴾ الذين أمد بهم المؤمنين ﴿أَنِّي مَعَكُمْ﴾ بالعون والنصرة ﴿فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي: قووا قلوبهم، قيل: إن ذلك التثبيت حضورهم معهم القتال ومعونتهم، أي: ثبتوهم بقتالكم معهم المشركين»[(١)]، وهذه نعمة خفية أظهرها الله تعالى لهم، ليشكروه عليها[(٢)].

والحكمة في قتال الملائكة؛ لإرادة أن يكون الفضل للنبي وأصحابه، وتكون الملائكة مددًا على عادة مدد الجيوش، رعاية لصورة الأسباب التي أجراها الله تعالى في عباده، والله فاعل الجميع[(٣)].

تاسعًا: حمل العرش:

ومن الأعمال الموكلة إلى الملائكة حمل عرش الرحمن.

قال تعالى: ﴿وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ ﴿١٧﴾﴾ [الحاقة:١٧].

قال ابن كثير في تفسير هذه الآية: «﴿وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا﴾ أي: الملائكة على أرجاء السماء، وقوله: ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ﴾ أي: يوم القيامة يحمل العرش ثمانية من الملائكة، ويحتمل أن يكون المراد بهذا العرش العرش العظيم، أو: العرش الذي يوضع في الأرض يوم القيامة لفصل القضاء، والله أعلم بالصواب»[(٤)].

ونحو هذه الآية قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ [غافر:٧].

والآيتان تدلان على أن لعرشه تبارك وتعالى حملة يحملونه اليوم ويوم القيامة، وأن حملته ومن حوله يسبحون ويستغفرون للمؤمنين[(٥)].

عاشرًا: تنفيذ أحداث الساعة:

ومن أعمالهم كذلك: تنفيذ أحداث الساعة، كالنفخ في الصور.

وقد أخبر القرآن الكريم بثلاث نفخات: نفخة الفزع ذكرها في سورة النمل في قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ﴾

(١) معالم التنزيل، البغوي ٢/ ٢٧٤.
(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٢٥.
(٣) انظر: محاسن التأويل، القاسمي ٢/ ٤٠٧.
(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٨/ ٢١٢ باختصار.
(٥) انظر: مجموع فتاوى ابن تيمية ٦/ ٥٥٠.

[النمل:٨٧].

ونفخة الصعق والقيام، ذكرهما في قوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ۝٦٨﴾ [الزمر:٦٨].[١]

حادي عشر: النزول بالأمر المقدر:

ومن أعمال الملائكة النزول إلى الأرض في هذه الليلة بالخير والبركة والرحمة لأهل الإيمان.

قال تعالى: ﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ۝٤﴾ [القدر:٤].

قال ابن كثير في هذه الآية: «أي: يكثر تنزل الملائكة في هذه الليلة لكثرة بركتها، والملائكة يتنزلون مع تنزل البركة والرحمة، كما يتنزلون عند تلاوة القرآن ويحيطون بحلق الذكر»[٢].

والروح هو جبريل عند جمهور المفسرين أي: ومعهم جبريل، ووجه ذكره بعد دخوله في الملائكة التعظيم له والتشريف لشأنه[٣].

وسميت ليلة القدر؛ لعظم قدرها وفضلها عند الله؛ ولأنه يقدر فيها ما يكون في العام من الأجل والأرزاق والمقادير القدرية[٤].

وقال ابن عثيمين في هذه الآية: «أي: تنزل شيئًا فشيئًا؛ لأن الملائكة سكان السموات، والسموات سبع، فتتنزل الملائكة إلى الأرض شيئًا فشيئًا حتى تملأ الأرض، ونزول الملائكة في الأرض عنوان على الرحمة والخير والبركة؛ ولهذا إذا امتنعت الملائكة من دخول شيء كان ذلك دليلًا على أن هذا المكان الذي امتنعت الملائكة من دخوله قد يخلو من الخير والبركة، فالملائكة تتنزل في ليلة القدر بكثرة، ونزولهم خير وبركة.

وقوله تعالى: ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِم﴾ أي: بأمره القدري.

وقوله: ﴿مِّن كُلِّ أَمْرٍ﴾ أي: بكل أمر مما يأمرهم الله به، وهو مبهم لا نعلم ما هو، لكننا نقول: إن تنزل الملائكة في الأرض عنوان على الخير والرحمة والبركة»[٥].

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية ٤/ ٢٦٠-٢٦١ بتصرف يسير.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٨/ ٤٤٤.
(٣) فتح البيان في مقاصد القرآن، صديق خان ١٥/ ٣٢٤.
(٤) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٩٣١.
(٥) تفسير القرآن الكريم، ابن عثيمين، جزء عم ص ٢٧١ باختصار.

الملائكة الوارد ذكرهم في القرآن

خلق الله تعالى عددًا كبيرًا من الملائكة لا يعلم عددهم وكثرتهم إلا الله جل وعلا، كما قال تعالى في محكم كتابه: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [المدثر:٣١].

وقد ذكر القرآن الكريم الملائكة إجمالًا في مواطن كثيرة، وورد في بعض المواطن منها ذكر بعض أسماء الملائكة خصوصًا، فمن أسمائهم:

أولًا: جبريل عليه السلام:

وهو السفير بين الله وأنبيائه.

قال تعالى: ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَافِرِينَ ﴿٩٨﴾﴾ [البقرة:٩٧-٩٨].

وهذه الآية نزلت جوابًا لليهود من بني إسرائيل، إذ زعموا أن جبريل عدو لهم، وأن ميكائيل ولي لهم[١].

ومن أسمائه وأوصافه التي ذكرت في القرآن[٢]:

١. الروح الأمين.

قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾﴾ [الشعراء:١٩٢-١٩٤].

قال ابن كثير: «وهو جبريل، عليه السلام، قاله غير واحد من السلف، وهذا ما لا نزاع فيه»[٣].

وهو أمين الله فيما بين الله وبين أنبيائه، فيما استودعه الله من الرسالة إليهم[٤].

٢. روح القدس.

قال تعالى: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ﴾ [النحل:١٠٢].

قال السعدي: «هو جبريل الرسول المقدس المنزه عن كل عيب وخيانة وآفة»[٥].

وقيل: سمي جبريل عليه السلام روحًا؛ للطافته ولمكانته من الوحي الذي هو سبب حياة القلوب[٦].

وأما عن وصفه: فقد أثنى الله سبحانه على عبده جبريل في القرآن أحسن الثناء، ووصفه بأجمل الصفات فقال: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴿٢١﴾﴾ [التكوير:١٩-٢١].

فوصفه بأنه رسوله، وأنه كريم عنده، وأنه

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٢/ ٣٧٧.
(٢) انظر: التفسير الموضوعي للقرآن الكريم ونماذج منه، أحمد الزهراني ص ٢٤-٢٥.
(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ١٦٢.
(٤) التفسير الوسيط، الواحدي ٣/ ٣٦٢.
(٥) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٤٤٩.
(٦) معالم التنزيل، البغوي ١/ ١٤١.

ذو قوة ومكانة عند ربه سبحانه، وأنه مطاع في السماوات، وأنه أمين على الوحي، فمن كرمه على ربه أنه أقرب الملائكة إليه، قال بعض السلف: منزلته من ربه منزلة الحاجب من الملك[1].

قال ابن عثيمين في تفسير هذه الآية: «﴿لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ هو جبريل عليه الصلاة والسلام، فإنه رسول الله إلى الرسل بالوحي الذي ينزله عليهم. ووصفه الله بالكرم؛ لحسن منظره، كما قال تعالى في آية أخرى: ﴿ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ ۝٦﴾ [النجم:٦].

و﴿ذُو مِرَّةٍ﴾ قال العلماء: المرة: الخلق الحسن والهيئة الجميلة، فكان جبريل عليه الصلاة والسلام موصوفًا بهذا الوصف: ﴿كَرِيمٍ﴾، ﴿ذِي قُوَّةٍ﴾ وصفه الله تعالى بالقوة العظيمة»[2].

فإن الرسول صلى الله عليه وسلم رآه على صورته التي خلقه الله عليها له ستمائة جناح[3].

كله من عظمته عليه الصلاة والسلام.

وقوله: ﴿عِندَ ذِي الْعَرْشِ﴾ أي: عند صاحب العرش وهو الله جل وعلا، فذو العرش هو الله.

وقوله: ﴿مَكِينٍ﴾ أي: ذو مكانة، أي أن جبريل عند الله ذو مكانة وشرف؛ ولهذا خصه الله بأكبر النعم التي أنعم بها على عباده، وهو الوحي.

﴿مُطَاعٍ ثَمَّ﴾ أي: هناك، فجبريل هو المطاع فمن الذي يطيعه؟ قال العلماء: تطيعه الملائكة؛ لأنه ينزل بالأمر من الله فيأمر الملائكة فتطيع، فله إمرة وله طاعة على الملائكة.

﴿أَمِينٍ﴾ على ما كلف به[4].

ثانيًا: ميكائيل عليه السلام:

وهو الموكل بالقطر والنبات.

قال تعالى: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَافِرِينَ ۝٩٨﴾ [البقرة:٩٨].

قال ابن كثير في قوله تعالى: ﴿وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ﴾: «وهذا من باب عطف الخاص على العام، فإنهما دخلا في الملائكة، ثم خصصا بالذكر؛ لأن السياق في الانتصار لجبريل وهو السفير بين الله وأنبيائه، وقرن معه ميكائيل في اللفظ؛ لأن اليهود زعموا أن جبريل عدوهم وميكائيل وليهم، فأعلمهم

(١) إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان، ابن القيم ٢/ ١٢٨.

(٢) تفسير القرآن الكريم، ابن عثيمين، جزء عم ص ٧٦ باختصار.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب تفسير القرآن، باب قوله تعالى: (فأوحى إلى عبده ما أوحى)، رقم ٤٨٥٧، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب في ذكر سدرة المنتهى، رقم ٢٨٠.

(٤) تفسير القرآن الكريم، ابن عثيمين، جزء عم ص ٧٧-٧٨ بتصرف واختصار.

أنه من عادى واحدًا منهما فقد عادى الآخر وعادى الله أيضًا، وميكائيل موكل بالقطر والنبات، ذاك بالهدى وهذا بالرزق»[1].

وأما ابن عثيمين يقول في هذه الآية: «وقوله تعالى: ﴿وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ﴾ معطوف على قوله تعالى: ﴿وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ﴾ من باب عطف الخاص على العام، وعطف الخاص على العام يدل على شرف الخاص؛ فجبريل موكل بالوحي من الله إلى الرسل.

و﴿وَمِيكَىٰلَ﴾ هو ميكائيل الموكل بالقطر والنبات وخص هذين الملكين؛ لأن أحدهما موكل بما تحيى به القلوب وهو جبريل؛ والثاني موكل بما تحيى به الأرض وهو ميكائيل»[2].

وفي الآية دليل على مكانتهم وفضلهم، وهما من رؤساء الأملاك، كما قال ابن القيم: ورؤساؤهم الأملاك الثلاثة: جبريل، وميكائيل، وإسرافيل[3].

وكان النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم يقول: **(اللهم رب جبريل وميكائيل وإسرافيل، فاطر السماوات والأرض، عالم الغيب والشهادة، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون، اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم)**[4].

فتوسل إليه سبحانه بربوبيته العامة والخاصة لهؤلاء الأملاك الثلاثة الموكلين بالحياة، فجبريل موكل بالوحي الذي به حياة القلوب والأرواح، وميكائيل موكل بالقطر الذي به حياة الأرض والنبات والحيوان، وإسرافيل موكل بالنفخ في الصور الذي به حياة الخلق بعد مماتهم، فسأله رسوله بربوبيته لهؤلاء أن يهديه لما اختلف فيه من الحق بإذنه، لما في ذلك من الحياة النافعة[5].

ثالثًا: مالك عليه السلام:

وهو خازن النار.

قال تعالى: ﴿وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ۖ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ۝٧٧﴾ [الزخرف:٧٧].

قال ابن كثير: « وهو خازن النار﴿لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ أي: ليقبض أرواحنا فيريحنا مما نحن فيه، فإنهم كما قال تعالى: ﴿لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا۟ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا﴾ [فاطر:٣٦].

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٣٤٢ باختصار يسير.

(٢) تفسير القرآن الكريم، ابن عثيمين، سورتي الفاتحة والبقرة ١/ ٣١٥.

(٣) إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان، ابن القيم ٢/ ١٢٧.

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب الدعاء في صلاة الليل وقيامه، رقم ٧٧٠، من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٥) إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان، ابن القيم ٢/ ١٢٨.

فلما سألوا أن يموتوا أجابهم مالك ﴿قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ﴾»[1].

قال ابن عباس: مكث ألف سنة، ثم قال: إنكم ماكثون[2].

قال السعدي في قوله تعالى ﴿إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ﴾: «أي: مقيمون فيها، لا تخرجون عنها أبدًا، فلم يحصل لهم ما قصدوه، بل أجابهم بنقيض قصدهم، وزادهم غمًا إلى غمهم»[3].

وفي الآية لطائف:

الأولى: أن عذاب الآخرة ليس كعذاب الدنيا، إما أن يفني وإما أن يألفه البدن، بل هو في كل زمان شديد، والمعذب فيه دائم.

الثانية: أن العذاب في الآخرة لا يفتر ولا ينقطع ولا بأقوى الأسباب وهو الموت، حتى يتمنوه ولا يجابون، كما قال تعالى: ﴿وَنَادَوْا يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ [الزخرف:٧٧]. أي: بالموت.

الثالثة: ذكر في المعذبين الأشقياء بأنه لا ينقص عذابهم، ولم يقل: يزيدهم، وفي المثابين قال: ﴿وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾ [النساء:١٧٣].[4].

رابعًا: ملك الموت عليه السلام:

وهو الموكل بقبض الأرواح.

قال تعالى: ﴿۞ قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾﴾ [السجدة:١١].

قال الشنقيطي: «ظاهر هذه الآية الكريمة أن الذي يقبض أرواح الناس ملك واحد معين، وهذا هو المشهور»[5].

وقد سمي في بعض الآثار بعزرائيل[6].

ولم يرد في كتاب الله ولا سنة رسوله صلى الله عليه وسلم.

قال ابن عثيمين: «وقد اشتهر أن اسمه عزرائيل، لكنه لم يصح، إنما ورد هذا في آثار إسرائيلية لا توجب أن نؤمن بهذا الاسم، فنسمي من وكل بالموت بـ (ملك الموت) كما سماه الله عز وجل في قوله: ﴿۞ قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾﴾»[7].

قال المراغي في تفسير هذه الآية: «وأصل التوفي أخذ الشيء وافيًا كاملًا، أي: قل لهؤلاء المشركين: إن ملك الموت الذي وكل بقبض أرواحكم يستوفي العدد الذي

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧/ ٢٤٠-٢٤١ باختصار.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن أبي حاتم ١٠/ ٣٢٨٦.
(٣) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٧٧٠.
(٤) اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل ١٦/ ١٤٦-١٤٧ بتصرف.
(٥) أضواء البيان، الشنقيطي ٦/ ١٨٤.
(٦) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٣٦٠-٣٦١، أضواء البيان، الشنقيطي ٦/ ١٨٤.
(٧) مجموع فتاوى ورسائل، ابن عثيمين ٣/ ١٦١.

كتب عليه الموت منكم حين انتهاء أجله، ثم تردون إلى ربكم يوم القيامة أحياء كهيئتكم قبل وفاتكم، فيجازي المحسن منكم بإحسانه، والمسيء بإساءته، وفي هذا إثبات للبعث مع تهديدهم وتخويفهم، وإشارة إلى أن القادر على الإماتة قادر على الإحياء»[١].

فإن قيل: كيف الجمع بين قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلۡأَنفُسَ حِينَ مَوۡتِهَا﴾ [الزمر:٤٢].

وبين قوله: ﴿قُلۡ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلۡمَوۡتِ﴾ [السجدة:١١].

وبين قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ تَوَفَّتۡهُ رُسُلُنَا﴾ [الأنعام:٦١].

والجواب: أن المتوفي في الحقيقة هو الله تعالى، وملك الموت هو القابض للروح بإذن الله تعالى، ولملك الموت أعوان وجنود من الملائكة ينتزعون الروح من سائر البدن، فإذا بلغت الحلقوم قبضها ملك الموت[٢].

وقد جاء في حديث البراء بن عازب الطويل المشهور: أن النبي صلى الله عليه وسلم ذكر فيه: (أن ملك الموت إذا أخذ روح الميت أخذها من يده بسرعة ملائكة فصعدوا بها إلى السماء)[٣].

وقد بين فيه صلى الله عليه وسلم ما تعامل به روح المؤمن وروح الكافر بعد أخذ الملائكة له من ملك الموت حين يأخذها من البدن.

والحاصل: أن حديث البراء المذكور دل على أن مع ملك الموت ملائكة آخرين يأخذون من يده الروح حين يأخذه من بدن الميت[٤].

وقال قتادة في تفسير هذه الآية: ﴿قُلۡ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلۡمَوۡتِ ٱلَّذِي وُكِّلَ بِكُمۡ﴾ قال: ملك الموت يتوفاكم ومعه أعوان من الملائكة[٥].

خامسًا: هاروت وماروت:

وهما ملكان سماهما الله تعالى باسم هاروت وماروت[٦].

قال تعالى: ﴿وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتۡلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلۡكِ سُلَيۡمَٰنَۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيۡمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحۡرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلۡمَلَكَيۡنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنۡ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحۡنُ فِتۡنَةٞ فَلَا تَكۡفُرۡۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنۡهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَزَوۡجِهِۦۚ وَمَا هُم

(١) تفسير المراغي ٢١/ ١٠٧.
(٢) لباب التأويل، الخازن ٤/ ٥٩ بتصرف يسير.
(٣) أخرجه أحمد في مسنده، رقم ١٨٥٣٤، والحاكم في مستدركه، رقم ١٠٧. قال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين. وصححه الألباني في صحيح الجامع، رقم ١٦٧٦.
(٤) أضواء البيان، الشنقيطي ٦/ ١٨٤-١٨٥.
(٥) جامع البيان، الطبري ٢٠/ ١٧٥.
(٦) عالم الملائكة الأبرار، عمر الأشقر ص ١٨.

﴿بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنۡ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمۡ وَلَا يَنفَعُهُمۡۚ وَلَقَدۡ عَلِمُواْ لَمَنِ ٱشۡتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنۡ خَلَٰقٖۚ وَلَبِئۡسَ مَا شَرَوۡاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمۡۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ١٠٢﴾ [البقرة:١٠٢].

قال الماتريدي مبينًا سبب نزول هذه الآية: «والآية في موضع الاحتجاج على اليهود؛ لأنهم ادعوا أن الذي هم عليه أخذ عن سليمان عليه السلام، فإن كان كفرًا فقد كفر سليمان، فأخبر الله عز وجل نبيه صلى الله عليه وسلم: أن سليمان ما كفر، ولكن الشياطين كفروا بما علموا الناس من السحر»[1].

ويبدو من سياق الآية أن الله بعثهما فتنة للناس في فترة من الفترات، وقد نسجت حولهما في كتب التفسير وكتب التاريخ أساطير كثيرة، لم يثبت شيء منها في الكتاب والسنة، فيكتفى في معرفة أمرهما بما دلت عليه الآية الكريمة[2].

هاروت وماروت ملكان من ملائكة الله امتحن الله بهما عباده، وكانا بأرض بابل في العراق، يعلمان الناس السحر ابتلاءً من الله لعباده؛ ولهذا كانا ينصحان من يريد تعلم السحر بقولهما: ﴿إِنَّمَا نَحۡنُ فِتۡنَةٞ فَلَا تَكۡفُرۡۖ﴾.

فينصحانه بأن السحر كفر فلا تتعلمه، فينهيانه عن السحر، وتعليم الملكين امتحانًا مع نصحهما؛ لئلا يكون لهم حجة، فاليهود يتبعون السحر الذي تعلمه الشياطين، والسحر الذي يعلمه الملكان، فتركوا علم الأنبياء والمرسلين وأقبلوا على علم الشياطين، وكل يصبو إلى ما يناسبه، ثم ذكر الله مفاسد السحر ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنۡهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَزَوۡجِهِۦۚ﴾.

وفي هذا دليل على أن السحر له حقيقة، وأنه يضر بإذن الله، أي: بإرادة الله، ثم ذكر الله أن علم السحر مضرة محضة، ليس فيه منفعة لا دينية ولا دنيوية، بل هو موجب للعقوبة[3].

والله تعالى قد ييسر أسباب المعصية فتنةً للناس، أي: ابتلاءً وامتحانًا، وتعلم السحر،وتعليمه كفر إذا كان السحر عن طريق الشياطين.

والأسباب وإن عظمت لا تأثير لها إلا بإذن الله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنۡ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ﴾.

وتعلم السحر ضرر محض، ولا خير فيه؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمۡ وَلَا يَنفَعُهُمۡۚ﴾ فأثبت ضرره ونفى نفعه[4].

(١) تأويلات أهل السنة، الماتريدي ١/ ٥٢١.
(٢) عالم الملائكة الأبرار، عمر الأشقر ص ١٨.
(٣) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٦١.
(٤) انظر:تفسير القرآن الكريم، ابن عثيمين، سورتي الفاتحة والبقرة ١/ ٣٣١-٣٣٣.

سادسًا: إسرافيل عليه السلام:

لم يرد اسم إسرافيل بالقرآن صريحًا، وإنما ورد في السنة في أحاديث صحيحة منها حديث عائشة -السابق- وهو الملك الموكل بالنفخ في الصور، وجاء ذكره في الأحاديث النبوية منها: حديث دعاء قيام الليل السابق. وقد جمع النبي صلى الله عليه وسلم في دعائه المتقدم هؤلاء الثلاثة من الملائكة مما يدل على فضلهم ومكانتهم وعظمة ما وكل به.

والمشهور عند المفسرين أن إسرافيل عليه السلام موكل بالنفخ في الصور، والصور قرن ينفخ إسرافيل فيه. وقد ورد ذكر الصور في آيات كثيرة منها قوله تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ﴾ [المؤمنون:١٠١].

وقال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾﴾ [الزمر:٦٨].

الأولى فيهلك من في السماوات إلا من شاء الله أن يستثنيهم من الموت بهذه النفخة، ثم ينفخ فيه النفخة الثانية للبعث إلى الحياة بعد الموت[١].

قال القرطبي: «والأمم مجمعة على أن الذي ينفخ في الصور إسرافيل عليه السلام»[٢].

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **(كيف أنعم وصاحب القرن قد التقم القرن، وحنا جبهته، وانتظر أن يؤذن له. قالوا: كيف نقول يا رسول الله؟ قال: قولوا: حسبنا الله ونعم الوكيل، على الله توكلنا)**[٣].

(١) انظر: معارج القبول بشرح سلم الوصول ٢/ ٦٦٠.

(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٧/ ٢٠.

(٣) أخرجه الترمذي في سننه، كتاب صفة القيامة، باب ما جاء في شأن الصور، ٤/ ٦٢٠، رقم ٢٤٣١، وأحمد في مسنده، ٥/ ١٤٤، رقم ٣٠٠٨.
قال الترمذي هذا حديث حسن.
وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، رقم ١٠٧٩.

موقف المؤمن من الملائكة

الإيمان بالملائكة هو الركن الثاني من أركان الإيمان، لا يتم إيمان العبد إلا به، وقد أخبر الله تعالى في محكم كتابه بأن من كفر بالملائكة فقد ضل، ووصف ضلاله بأنه بعيد.

قال تعالى: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾ [النساء:١٣٦].

وهذا يدل على منزلة الإيمان بالملائكة وأهميته؛ ولذا فقد كلف الله جل وعلا جميع عباده الإيمان بهم والتصديق بوجودهم وبما يقومون به؛ لأن ذلك من جملة عقائد الإيمان التي أمرهم الله بها وفرضها عليهم في محكم كتابه وسنة نبيه محمد صلى الله عليه وسلم، وقد وصفهم الله تعالى بأنهم عباد مكرمون، وهذا يدل على فضلهم وشرفهم، فكان لزامًا علينا توقيرهم وعدم أذيتهم لما يقومون به من مهام وأعمال فيها خير وسعادة الإنسان، وسوف يكون حديثنا في هذا المبحث عن الإيمان بوجودهم ووظائفهم، وواجبنا تجاه هذه المخلوقات العظيمة، وذلك في النقاط الآتية:

أولًا: الإيمان بوجودهم ووظائفهم:

إن موقف المؤمن من الملائكة أن يؤمن بوجودهم ووظائفهم جملة وتفصيلًا، فقد كلف الله العباد الإيمان بهم والتصديق بوجودهم؛ لأن ذلك من جملة أركان الإيمان الستة التي لا يصح إيمان العبد ولا يقبل إلا بتحقيقه.

والقرآن مملوء بذكرهم وبأصنافهم ومراتبهم ووظائفهم، حتى إن سورة (فاطر) تسمى بسورة الملائكة[1]، وسميت بعض السور بصفاتهم وأعمالهم المنوطة بهم؛ كالصافات، والمرسلات، والنازعات.

والله سبحانه تارة يقرن اسمه باسمهم في كتابه، ويجعل الإيمان به مستلزمًا للإيمان بهم، وأن البر لا ينال إلا بالإيمان بهم حيث يقول سبحانه: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ﴾ [البقرة:١٧٧].

وتارة يبين أن الرسول ومن آمن معه مؤمنون مصدقون بما أنزل إليهم من ربهم ومن ذلك الإيمان بالملائكة.

قال تعالى: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ﴾ [البقرة:٢٨٥].

وتارة يقرن شهادته بشهادتهم لبيان عظم شهادتهم فيقول سبحانه: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ [آل عمران:١٨].

والسنة مثل القرآن مليئة بأخبارهم

(١) انظر: زاد المسير، ابن الجوزي ٦/ ٤٧٢، الإتقان في علوم القرآن، السيوطي ١/ ١٩٤.

وأحوالهم، ومن ذلك: حديث جبريل المشهور وفيه: (أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر)[1].

وقد حكم الله بكفر من أنكرهم وجحدهم، وجعل الكفر بهم كفرًا به سبحانه وتعالى: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾ [النساء:١٣٦].

فالإيمان بهم بالتفصيل: هو أن نؤمن بمن سمي لنا منهم كجبريل، وميكائيل، وإسرافيل، وملك الموت، ومالك، وهاروت وماروت.

ونؤمن بما ذكر من أصنافهم كحملة العرش، وخزنة الجنة والنار والزبانية، نؤمن بوظائفهم الموكلة بهم، ونؤمن بصفاتهم الحميدة وأفعالهم الرشيدة، وهذا كله دلت عليه الآيات القرآنية والأحاديث الصحيحة التي مرت معنا في المباحث السابقة.

وأما من لم يرد ذكرهم في الكتاب والسنة الصحيحة فنؤمن بهم بصورة إجمالية، وهو معتقد أهل السنة والجماعة وسائر من ينتسب إلى الإسلام، ولم يخالف في وجودهم إلا الفلاسفة وغلاة المبتدعة[2].

ونؤمن بأن ليس لهم من علم الغيب من شيء: ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ﴾ [الأنبياء:٢٦-٢٨].

وقال تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾ [الجن:٢٦].

والإيمان بهم من جملة الإيمان بالغيب بالنسبة لعامة الناس، أما بالنسبة للأنبياء والمرسلين فهو غيب نسبي، غيب فيمن لم يشاهدوا من الملائكة في العالم العلوي وغيرهم، وإيمان بالشهادة فيمن شاهدوا كجبريل عليه السلام، أو غيره من الملائكة، ويقاس على الأنبياء في هذا من ورد به النص: كمريم عليها السلام حين رأت جبريل، وتمثل لها بشرًا سويًا، وهذا مثل الإيمان بالمعجزات، فهي بالنسبة لمن شاهدوها إيمان بشيء شاهدوه، وبالنسبة لغيرهم إيمان بالغيب[3].

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب سؤال جبريل النبي صلى الله عليه وسلم عن الإيمان، والإسلام، والإحسان، وعلم الساعة ١/ ١٩، رقم ٥٠، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب الإيمان ما هو وبيان خصاله، ١/ ٣٩، رقم ٩.

(٢) انظر: شرح العقيدة الطحاوية ص ٢٩٧، منهج القرآن في الدعوة إلى الإيمان، علي فقيهي ص٢١.

(٣) انظر: المعجزات والغيبيات بين بصائر التنزيل ودياجير الإنكار والتأويل، عبد الفتاح إبراهيم

ثانيًا: تكريمهم:

الملائكة أهل طاعة مطلقة، وأنصح خلق الله وأنفعهم لبني آدم، وعلى أيديهم حصل لهم كل سعادة وعلم وهدى، يستغفرون لمسيئهم، ويثنون على مؤمنيهم، ويدعون لهم، ويعينونهم على أعدائهم[1].

والمؤمن الذي يعبد الله، ويتبع رضوانه لا مناص له من أن يتولى الملائكة بالحب والتوقير، ويتجنب كل ما من شأنه أن يسيء إليهم ويؤذيهم، ومن ذلك[2]:

١. البعد عن الذنوب والمعاصي.

فأعظم ما يؤذي الملائكة الذنوب،والمعاصي، والكفر، والشرك؛ ولذا فإن أعظم ما يهدى للملائكة ويرضيهم أن يخلص المرء دينه لربه، ويتجنب كل ما يغضبه؛ ولذا فإن الملائكة لا تدخل الأماكن والبيوت التي يعصى فيها الله تعالى، أو التي يوجد فيها ما يكرهه الله ويبغضه، كالأنصاب، والتماثيل، والصور، والكلاب[3].

وقد جاء ما يؤكد على ذلك في الأحاديث الصحيحة منها:

عن أبي طلحة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (**لا تدخل الملائكة بيتًا فيه كلب، ولا صورة تماثيل**)[4].

٢. الملائكة تتأذى مما يتأذى منه ابن آدم.

ثبت في الأحاديث الصحيحة أن الملائكة تتأذى مما يتأذى منه بنو آدم، فهم يتأذون من الرائحة الكريهة، والأقذار، والأوساخ[5]، فعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال:(**من أكل من هذه البقلة، الثوم - وقال مرة: من أكل البصل والثوم والكراث- فلا يقربن مسجدنا، فإن الملائكة تتأذى مما يتأذى منه بنو آدم**)[6].

٣. النهي عن البصاق عن اليمين في الصلاة.

نهى الرسول صلى الله عليه وسلم عن البصاق عن اليمين في أثناء الصلاة؛ لأن المصلي إذا قام يصلي يقف عن يمينه ملك، ففي صحيح البخاري عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (**إذا قام أحدكم إلى الصلاة فلا يبصق أمامه، فإنما**

سلامة ص١٦٣.

(١) انظر: موسوعة فقه القلوب، محمد التويجري ١/ ٨٣٠-٨٣١.

(٢) انظر: عالم الملائكة الأبرار، عمر الأشقر ص ٦٨-٦٩.

(٣) عالم الملائكة الأبرار، عمر الأشقر ص ٦٨ بتصرف يسير.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الخلق، باب إذا قال أحدكم: آمين والملائكة في السماء: آمين، فوافقت إحداهما الأخرى، غفر له ما تقدم من ذنبه، رقم ٣٢٢٥.

(٥) عالم الملائكة الأبرار، عمر الأشقر ص ٦٩.

(٦) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب نهي من أكل ثومًا أو بصلًا أو كراثًا أو نحوها، رقم ٥٦٤.

يناجي الله ما دام في مصلاه، ولا عن يمينه فإن عن يمينه ملكًا، وليبصق عن يساره، أو تحت قدمه فيدفنها)[1].

ثالثًا: موالاة الملائكة كلهم:

وعلى المسلم أن يحب جميع الملائكة، فلا يفرق في ذلك بين ملكٍ وملك؛ لأنهم جميعًا عباد الله عاملون بأمره، تاركون لنهيه، وهم في هذا وحدة واحدة، لا يختلفون ولا يفترقون، فمن عادى واحدًا منهم فقد عادى الله وجميع الملائكة.

قال تعالى: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبۡرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلۡكَٰفِرِينَ ۝٩٨﴾ [البقرة:٩٨][2].

وقد بينا فيما سبق أن سبب نزول هذه الآية كان جوابًا لليهود من بني إسرائيل، إذ زعموا أن جبريل عدو لهم، وأن ميكائيل ولي لهم[3].

قال أبو الطيب في هذه الآية: «فالعداوة من العبد هي صدور المعاصي منه لله تعالى والبغض لأوليائه، والعداوة من الله للعبد هي تعذيبه بذنبه وعدم التجاوز عنه والمغفرة له، قال الكرماني: وقدم الملائكة على الرسل، كما قدم الله على الجميع؛ لأن عداوة الرسل بسبب نزول الكتب، ونزولها بتنزيل الملائكة، وتنزيلهم لها بأمر الله، فذكر الله ومن بعده على هذا الترتيب، وإنما خص جبريل وميكائيل بعد ذكر الملائكة؛ لقصد التشريف لهما والدلالة على فضلهما»[4].

فعلينا أن نشعر بوجود هؤلاء الملائكة الكرام الذين هم معنا يكتبون الأعمال، والأقوال ويحفظونها.

قال تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيۡكُمۡ لَحَٰفِظِينَ ۝١٠ كِرَامٗا كَٰتِبِينَ ۝١١ يَعۡلَمُونَ مَا تَفۡعَلُونَ ۝١٢﴾ [الانفطار:١٠-١٢].

وعلينا أن نجلهم ونوقرهم ونكرمهم ونستحي منهم، فالملك ضيف الإنسان وجاره، والإحسان إلى الجار، وإكرام الضيف من لوازم الإيمان، والملائكة المرافقون للإنسان أكرم ضيف وأعز جار[5]، فهم عنوان خير وبركة عند نزولهم الأرض، فلنغتنم هذه الأوقات والمناسبات بالأعمال الصالحة؛ رجاء بركتهم.

قال تعالى: ﴿لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ خَيۡرٞ مِّنۡ أَلۡفِ شَهۡرٖ ۝٣ تَنَزَّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذۡنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمۡرٖ ۝٤ سَلَٰمٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطۡلَعِ ٱلۡفَجۡرِ ۝٥﴾ [القدر:٣-٥].

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الصلاة، باب دفن النخامة في المسجد، رقم ٤١٦.
(٢) عالم الملائكة الأبرار، عمر الأشقر ص ٦٩-٧٠.
(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ٢/ ٣٧٧.
(٤) فتح البيان في مقاصد القرآن، صديق خان ١/ ٢٣١.
(٥) انظر: موسوعة فقه القلوب، محمد التويجري ١/ ٨٣٥-٨٣٦.

قال المراغي: هذه الليلة تحفها الخير بنزول القرآن، وشهود ملائكة الرحمن، ليلة كلها سلامة وأمن، من مبدئها إلى نهايتها[(١)].

موقف الكافرين من الملائكة

اقتضت حكمة الله تعالى في عباده أن يبعث في كل أمة رسولًا يدعوهم إلى عبادة الله وترك عبادة ما سواه، فانقسم الناس إلى فريقين، منهم من آمن وصدق، ومنهم من ضل وكفر، ومن ضلالهم وكفرهم أن طلبوا من أنبيائهم نزول الملائكة؛ ليثبتوا صحة ما جاءوا به، أو أن يكون الرسول من الملائكة زاعمين أن الرسول لا يصح أن يكون من البشر، وأن الله تعالى لو أراد دعوة الخلق لأنزل ملائكة، وبما أن الملائكة عالم غيبي لا نراه ولا نسمعه، ضل هؤلاء المشركون في عبادتهم لهذه المخلوقات العظيمة زاعمين أن الله راض بهذه العبادة، وسوف نتحدث عن هذه الأمور بشيء من التفصيل فيما يلي:

أولًا: عبادتهم:

انقسم الكفار في اعتقادهم في الملائكة إلى ثلاث فرق، وقد بين الله ذلك في كتابه، وهم على النحو التالي:

١. فرقة أشركتهم مع الله بالعبادة.
٢. فرقة والت بعضهم وعادت بعضهم.
٣. فرقة كفرت بهم وأنكرتهم.

فالأول: هو موقف بعض مشركي العرب، ولقد جادل القرآن الكريم هؤلاء المشركين في عدة مواضع، وألزمهم

(١) تفسير المراغي ٣٠/ ٢١٠ بتصرف واختصار.

بالحجة البالغة، وبين سخافاتهم الوثنية، فمن عجيب كفرهم وصنعهم أنهم ينسبون لله البنات، وهم يكرهون البنات، وعندما يبشر أحدهم أنه رزق بنتًا يظل وجهه مسودًا وهو كظيم، وقد يتوارى من الناس خجلًا من سوء ما بشر به: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾[الزخرف:١٧].

وفي هذه الآيات التالية تحكي هذه الخرافة وتناقش أصحابها: ﴿فَٱسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ ۝١٤٩ أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا وَهُمْ شَٰهِدُونَ ۝١٥٠ أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ۝١٥١ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ۝١٥٢ أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ ۝١٥٣ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ۝١٥٤ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ۝١٥٥ أَمْ لَكُمْ سُلْطَٰنٌ مُّبِينٌ﴾[الصافات:١٤٩-١٥٦].

قال ابن كثير عند هذه الآية: ذكر الله عن المشركين في الملائكة ثلاثة أقوال في غاية الكفر والكذب:

فأولًا: جعلوهم بنات الله، فجعلوا لله ولدًا.

وثانيًا: جعلوا ذلك الولد أنثى.

ثالثًا: ثم عبدوهم من دون الله. وكل منها كاف في التخليد في نار جهنم[١].

وقد جعل الله قولهم هذا شهادة سيحاسبهم عليها، فإن من أعظم الذنوب القول على الله بغير علم: ﴿وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا ۚ أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ﴾[الزخرف:١٩][٢].

وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا۟ لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا ۚ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ۝١٥ أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَىٰكُم بِٱلْبَنِينَ ۝١٦ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ۝١٧ أَوَمَن يُنَشَّؤُا۟ فِى ٱلْحِلْيَةِ وَهُوَ فِى ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ۝١٨ وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا ۚ أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ﴾[الزخرف:١٥-١٩].

فهذه الآيات الكريمة هي على شاكلة الآية السابقة في معالجة مفتريات المشركين في نسب الأنوثة للملائكة بالأدلة العقلية، ومناقشتهم بمنطق الحجة والبرهان.

والآيات الكريمة تناقشهم فيما يلي[٣]:

- جعلهم لله جزءًا من عباده، وقد أنكر القرآن عليهم ذلك في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا۟ لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا ۚ﴾ ومعنى ذلك أنهم أثبتوا لله ولدًا، فإن ولد الرجل جزء منه، ولا شك أن إثبات الولد لله تعالى محال قطعًا.

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧/ ٤٢.

(٢) انظر: عالم الملائكة الأبرار ص١٣.

(٣) انظر في ذلك: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ١٤٣، مفاتيح الغيب، الرازي ٢٧/ ٢٠٠، تفسير المراغي ٢٥/ ٧٦-٨١.

• مناقشتهم عن سر اختيارهم للبنين، وجعلهم البنات لله رب العالمين، جاء ذلك في الإنكار عليهم في قوله: ﴿أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُم بِالْبَنِينَ﴾ وقد تقرر عند هؤلاء المشركين تفضيل البنين على البنات، فلو كان مرجع القسمة إلى العقل، لكان الله أولى بالبنين من البنات، ولو كان مرجعها إلى العدل-بصرف النظر عن استحالة ذلك أو إمكانه-لكان العدل يقتضي على أسوأ تقدير التسوية في القسمة، ولكنهم تجاوزوا في الطغيان والسذاجة حدود المألوف من الذوق والفطرة الإنسانية.

قال تعالى: ﴿أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَىٰ ۝ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ﴾ [النجم:٢١-٢٢].

أي: قسمة جائرة، وغير عادلة.

وقد بينت الآيات أن الأنثى محل نقص في الظاهر والباطن، في الصورة والمعنى، فيكمل نقص ظاهرها وصورتها بلبس الحلي وما في معناه، ليجبر من نقصها[1].

ثم أتبعها بصفة نقص أخرى فقال: ﴿وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ﴾ [الزخرف:١٨].

يعني: أن الأنثى إذا خاصمت أو تكلمت لم تقدر أن تبين حجتها لنقص عقلها، وقلما تجد امرأة إلا تفسد الكلام وتخلط المعاني، فكيف ينسب لله من يتصف بهذه النقائص[2].

ولقد افترى هؤلاء أنهم يعبدون الملائكة على حسب زعمهم، وحاشا وكلا أن ترضى ملائكة الرحمن بأن تعبد من دون الله، فضلًا عن أن تدعو إلى ذلك، وقد تبرؤوا منهم ومن عبادتهم يوم القيامة، وبينوا حقيقية عبادة هؤلاء وأنهم ما عبدوا إلا المردة من الشياطين.

قال العلامة ابن القيم رحمه الله تعالى: «ومن تلاعبه-أي: الشيطان-بهم أن زين لقوم عبادة الملائكة فعبدوهم بزعمهم، ولم تكن عبادتهم في الحقيقة لهم، ولكن كانت للشياطين، فعبدوا أقبح خلق الله، وأحقهم باللعن والذم.

قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَٰؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ ۝ قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ﴾ [سبأ:٤٠-٤١].

وقال تعالى: ﴿إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِ إِلَّا إِنَاثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَّرِيدًا﴾ [النساء:١١٧]»[3].

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ١٣٤.

(٢) انظر: التسهيل لعلوم التنزيل ٤/ ٤٧.

(٣) انظر: إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان ٢/ ٢٣٨.

ثانيًا: موالاة بعضهم ومعادة البعض:

وهذا موقف اليهود فقد زعموا أن لهم أولياء وأعداء من الملائكة، وزعموا أن جبريل عدو لهم، وميكائيل ولي لهم، فأكذبهم الله تعالى -في مدعاهم- وأخبر أن الملائكة لا يختلفون فيما بينهم: ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَافِرِينَ﴾[البقرة:٩٧-٩٨].

فأخبر سبحانه أن الملائكة كلهم جماعة واحدة، فمن عادى واحدًا منهم فقد عادى الله وجميع الملائكة، وهذه المقولة التي حكاها القرآن عن اليهود عذر واهٍ عللوا به عدم إيمانهم، فزعموا أن جبريل عدوهم؛ لأنه يأتي بالحرب والدمار، ولو كان الذي يأتي الرسول صلى الله عليه وسلم ميكائيل لتابعوه[(١)].

وجاء في سبب نزول الآية السابقة أنه: حضرت عصابة من اليهود إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وسألوه فأجابهم ثم قالوا: (**وأنت الآن حدثنا من وليك من الملائكة، فعندها نجامعك أو نفارقك. قال: فإن وليي جبريل، ولم يبعث الله نبيًا قط إلا** وهو وليه. قالوا: فعندها نفارقك، لو كان وليك سواه من الملائكة تابعناك وصدقناك. قال: فما منعكم أن تصدقوه؟ قالوا: إنه عدونا. فأنزل الله عز وجل: ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ﴾ إلى قوله: ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿١٠٢﴾﴾[البقرة:١٠٣])[(٢)].

وقال عبد الله بن سلام للنبي صلى الله عليه وسلم: إن جبريل عليه السلام عدو اليهود من الملائكة[(٣)].

قال ابن حجر: «حكى الثعلبي عن ابن عباس أن سبب عداوة اليهود لجبريل أن نبيهم أخبرهم أن بختنصر سيخرب بيت المقدس، فبعثوا رجلًا ليقتله فوجده شابًا ضعيفًا، فمنعه جبريل من قتله وقال له: إن كان الله أراد هلاككم على يده فلن تسلط عليه، وإن كان غيره فعلى أي حق تقتله؟! فتركه فكبر بختنصر وغزا بيت المقدس فقتلهم وخربه فصاروا يكرهون جبريل لذلك»[(٤)].

وهذا كذب وافتراء، وإنما أصابهم ما أصابهم من قبل أنفسهم؛ بسبب كفرهم بالله وقتلهم أنبيائه.

---

(١) انظر: التفسير الوسيط، الواحدي ١/ ١٧٩، عالم الملائكة الأبرار، الأشقر ص٦٨.

(٢) أخرجه الإمام أحمد في المسند ٤/ ٣١٠، رقم ٢٥١٤.

وصححه أحمد شاكر في تعليقه على المسند.

(٣) أخرجه البخاري، كتاب بدء الخلق، خلق آدم عليه السلام وذريته، ٤/ ١٣٢، رقم ٣٣٢٩.

(٤) انظر: فتح الباري، ابن حجر ٨/ ١٦٦.

ثالثًا: الكفر بهم وإنكارهم:

وهذا موقف بعض المشركين والملحدين من الفلاسفة والدهريين ومن شاكلهم من الغلاة.

قال تعالى: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾ [النساء:١٣٦].

فقد زعموا أنها مجرد أوهام وخيالات لا حقيقة ولا وجود لها في الخارج، فلا الله موجود حقيقة، ولا نبوة ولا نبي على التحقيق، ولا ملائكة، ولا جنة ولا نار، ولا بعث ولا نشور.

قال ابن القيم: وأما الإيمان بالملائكة فهم لا يعرفون الملائكة، ولا يؤمنون بهم. وإنما الملائكة عندهم -أي: الفلاسفة- هي مجردات ليست داخل العالم، ولا خارجه، ولا فوق السموات ولا تحتها، ولا هي أشخاص تتحرك، ولا تصعد، ولا تنزل، ولا تدبر شيئًا، ولا تتكلم، ولا تكتب أعمال العبد، ولا لها إحساس ولا حركة البتة، ولا تنتقل من مكان إلى مكان، ولا تصف عند ربها، ولا تصلي، ولا لها تصرف في أمر العالم البتة، فلا تقبض نفس العبد، ولا تكتب رزقه وأجله وعمله، ولا عن اليمين وعن الشمال قعيد، كل هذا لا حقيقة له عندهم البتة.

وربما تقرب بعضهم إلى الإسلام، فقال: الملائكة هي القوى الخيرة الفاضلة التي في العبد، والشياطين هي القوى الشريرة الرديئة، هذا إذا تقربوا إلى الإسلام وإلى الرسل[1].

رابعًا: طلب نزولها لتصديق الرسول:

لقد ذكر الله جل وعلا مطالب هؤلاء الكفرة في كتابه الكريم في أكثر من آية، منها: ما ذكره عن فرعون حيث كان من مطالبه نزول الملائكة؛ ليشهدوا بصدق موسى عليه السلام فيما يقول، حيث قال تعالى: ﴿فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾﴾ [الزخرف:٥٣].

وهذا من قول فرعون، أي: لو كان موسى صادقًا لجاء معه الملائكة، يمشون معه، يشهدون له بصدقه ويعينونه على أمره، فيكون ذلك أهيب في القلوب، فأوهم اللعين قومه أن الرسل لا بد أن يكونوا على هيئة الجبابرة، ومحفوفين بالملائكة، وقد أتى موسى عليه السلام من الآيات بما فيه دلالة على صدق نبوته، وكانت أبلغ من أن يكون له أسورة أو ملائكة، وليس يلزم هذا؛ لأن الإعجاز كاف، وقد كان في الجائز أن يكذب مع مجيء الملائكة، كما كذب مع ظهور الآيات، وذكر فرعون الملائكة حكاية

(١) انظر: إغاثة اللهفان ٢/ ٢٦١.

عن لفظ موسى؛ لأنه لا يؤمن بالملائكة من لا يعرف خالقهم[1].

وكذلك طلب نزولها كفار قريش.

قال تعالى: ﴿لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّٰدِقِينَ ۝٧﴾ [الحجر:٧].

قال ابن الجوزي: «قال المفسرون: إنما سألوا الملائكة ليشهدوا له بصدقه، وأن الله أرسله، فأجابهم الله تعالى بقوله: ﴿مَا نُنَزِّلُ الْمَلَٰٓئِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوٓا إِذًا مُّنظَرِينَ ۝٨﴾ [الحجر:٨]»[2].

قال البغوي: «إلا بالحق أي: بالعذاب ولو نزلت يعني: الملائكة- لعجلوا بالعذاب، وما كانوا إذا منظرين أي: مؤخرين، وقد كان الكفار يطلبون إنزال الملائكة عيانًا فأجابهم الله تعالى بهذا، ومعناه: إنهم لو نزلوا عيانًا لزال عن الكفار الإمهال وعذبوا في الحال»[3].

وقد ذكر الله جل وعلا في موضع آخر أنه لو أنزل الملائكة كما طلبوا لما آمنوا.

قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ الْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا لِيُؤْمِنُوٓا إِلَّآ أَن يَشَآءَ اللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ۝١١١﴾ [الأنعام:١١١].

وسبب نزول هذه الآية: أن المستهزئين أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم في رهط من أهل مكة، فقالوا له: ابعث لنا بعض موتانا حتى نسألهم: أحق ما تقول أم باطل؟ أو أرنا الملائكة يشهدون لك أنك رسول الله، أو ائتنا بالله والملائكة قبيلًا[4]، قال الخازن: وقوله: ﴿مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوٓا إِلَّآ أَن يَشَآءَ اللَّهُ﴾ أي: ما آمنوا إلا أن يشاء الله الإيمان منهم، فأخبر الله أن الإيمان بمشيئة الله لا كما ظنوا أنهم متى شاؤوا آمنوا ومتى شاؤوا لم يؤمنوا، وفيه دليل على أن جميع الأشياء بمشيئة الله تعالى حتى الإيمان والكفر، وموضع المعجزة أن الأشياء المحشورة منها ناطق ومنها صامت، فإذا أنطق الله الكل حتى يشهدوا له بصحة ما يقول كان ذلك في غاية الإعجاز[5].

خامسًا: طلب أن يكون الرسول منهم:

ذكر الله تعالى في محكم كتابه حال الأمم المكذبة لرسلها كعاد وثمود، وعدم استجابتها لدعوتهم، مستنكرين أن يكون الرسول من البشر، فلو أراد الله دعوة الخلق لعبادته، لأرسل ملائكة تدعوهم إلى ذلك.

قال تعالى: ﴿إِذْ جَآءَتْهُمُ الرُّسُلُ مِنۢ بَيْنِ

(١) انظر: معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ٤/ ٤١٥، الهداية إلى بلوغ النهاية، مكي ابن أبي طالب ١٠/ ٦٦٧٨، معالم التنزيل، البغوي ٤/ ١٦٤، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٦/ ١٠١، فتح القدير، الشوكاني ٤/ ٦٤١.

(٢) زاد المسير، ابن الجوزي ٢/ ٥٢٤.

(٣) معالم التنزيل، البغوي ٣/ ٥١.

(٤) زاد المسير، ابن الجوزي ٢/ ٦٧.

(٥) انظر: لباب التأويل، الخازن ٢/ ١٤٧.

﴿أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ قَالُوا۟ لَوْ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً فَإِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿١٤﴾﴾ [فصلت:١٤].

قال المراغي في تفسير هذه الآية:« أي: قالوا: إنا لا نصدق برسالتكم فما أرسل الله بشرًا، ولو أرسل رسلًا لأنزل ملائكة، وإذًا فلا نتبعكم وأنتم بشر مثلنا، وقوله: ﴿بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ﴾ ليس إقرارا منهم بكونهم رسلًا، بل ذكروه استهزاءً بهم، كما قال فرعون: ﴿قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾﴾ [الشعراء:٢٧]»[(١)].

فعدم استجابتهم كون الرسل من جنسهم وهذه شبهة، قال السعدي:« وهذه الشبهة لم تزل متوارثة بين المكذبين من الأمم، وهي من أوهى الشبه، فإنه ليس من شرط الإرسال أن يكون المرسل ملكًا، وإنما شرط الرسالة أن يأتي الرسول بما يدل على صدقه، فليقدحوا إن استطاعوا بصدقهم، بقادح عقلي أو شرعي، ولن يستطيعوا إلى ذلك سبيلا»[(٢)].

وقد قالها من قبلهم قوم نوح.

قال تعالى: ﴿فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [المؤمنون:٢٤].

قال ابن كثير في هذه الآية: «﴿فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟﴾ وهم السادة والأكابر منهم ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ﴾ أي: يترفع عليكم ويتعاظم بدعوى النبوة، وهو بشر مثلكم، فكيف أوحي إليه دونكم؟! ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً﴾ أي: لو أراد أن يبعث نبيًا؛ لبعث ملكًا من عنده، ولم يكن بشرًا! ﴿مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا﴾ أي: ببعثة البشر في آبائنا الأولين، يعنون بهذا أسلافهم وأجدادهم والأمم الماضية»[(٣)].

وكذلك كان حال كفار قريش مع نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، فرد الله عليهم بقوله تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴿٩٥﴾﴾ [الإسراء:٩٥].

قال الطبري في هذه الآية: « قل يا محمد لهؤلاء الذين أبوا الإيمان بك، استنكارًا لأن يبعث الله رسولًا من البشر: لو كان في الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكًا رسولًا؛ لأن الملائكة إنما تراهم أمثالهم من الملائكة، ومن خصه الله من بني آدم برؤيتها، فأما غيرهم فلا يقدرون على رؤيتها، فكيف يبعث إليهم من الملائكة الرسل، وهم لا يقدرون على رؤيتهم، وهم بهيئاتهم التي خلقهم الله بها،

(١) تفسير المراغي ٢٤/ ١١٥.
(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٧٤٦.
(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ٤٧٢.

وإنما يرسل إلى البشر الرسول منهم، كما لو كان في الأرض ملائكة يمشون مطمئنين، ثم أرسلنا إليهم رسولًا لكان ملكًا مثلهم»[(١)].

وفي الآية إعلام من الله سبحانه بأن الرسل ينبغي أن تكون من جنس المرسل إليهم، فكأنه سبحانه اعتبر في تنزيل الرسول من جنس الملائكة أمرين:

الأول: كون سكان الأرض ملائكة.

والثاني: كونهم ماشين على الأقدام غير قادرين على الطيران بأجنحتهم إلى السماء، إذ لو كانوا قادرين على ذلك لطاروا إليها، وسمعوا من أهلها ما يجب معرفته وسماعه، فلا يكون في بعثة الملائكة إليهم فائدة[(٢)].

ولو كان الرسل من الملائكة لما استطاع الناس التخاطب معهم، ولما تمكنوا من الفهم منهم، فلزم أن يكون بشرًا حتى يستطيعوا أداء الرسالة، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ۝٩﴾ [الأنعام:٩][(٣)].

(١) جامع البيان، الطبري ١٧/ ٥٥٨ باختصار يسير.
(٢) فتح القدير، الشوكاني ٣/ ٣٠٩ بتصرف يسير.
(٣) تفسير المراغي ١٥/ ٩٧ بتصرف يسير.

وظائف الملائكة في الآخرة

سيكون الحديث في هذا المبحث عن وظائف الملائكة في الآخرة، وذلك في النقاط الآتية:

أولًا: شفاعتها للمؤمنين:

وحقيقة هذه الشفاعة أن الله هو الذي يتفضل على أهل الإخلاص والتوحيد، فيغفر لهم بواسطة دعاء الشافع الذي أذن له أن يشفع[(٤)]، ورضاه عنه، وللملائكة نصيب منها.

قال الله عن ملائكته: ﴿۞ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ ۝٢٦﴾ [النجم:٢٦].

قال الطبري: وفي الآية توبيخ من الله لعبدة الأوثان، والملأ من قريش، وغيرهم الذين كانوا يقولون: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر:٣].

فقال الله جل ذكره لهم: ما تنفع شفاعة ملائكتي الذين هم عندي لمن شفعوا له، إلا من بعد إذني لهم بالشفاعة له ورضاي، فكيف بشفاعة من دونهم، فأعلمهم أن شفاعة ما يعبدون من دونه لا تنفع[(٥)].

(٤) الإيمان، ابن تيمية ص ٦٧ بتصرف يسير.
(٥) جامع البيان، الطبري ٢٢/ ٥٢٩ بتصرف واختصار.

فالملائكة مع كثرة عبادتها وكرامتهم على الله لا تشفع إلا لمن أذن أن يشفع له، قال الأخفش: الملك واحد ومعناه جمع، وهو كقوله تعالى: ﴿فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ ۝٤٧﴾ [الحاقة:٤٧].

وقيل: إنما ذكر ملكًا واحدًا؛ لأن (كم) تدل على الجمع[1].

وقال أبو الطيب: «والشفاعة مشروط فيها بحسب نصوص القرآن الكريم بالإذن والرضا، والله لا يرضى عن القوم الفاسقين، ولا يأذن في الشفاعة لهم، ولا يأذن للنبي صلى الله عليه وسلم في الشفاعة لأهل الكبائر لخروجهم من النار إلا بعد أن تمسهم النار بذنوبهم وتطهرهم من أوزارهم، ويبقى إيمانهم وهو موضع رضا الكريم سبحانه، فشفاعة الأنبياء والصالحين لا تكون إلا بعد الإذن والرضا، وإذًا فتكون للمؤمنين لا لغيرهم، والله تعالى قد جعل هذه الشفاعات ثوابًا للإيمان وصالح العمل، فهؤلاء الذين يشفع لهم الأنبياء والصالحون في حقيقة الأمر وواقعه منتفعون بإيمانهم وأعمالهم وسعيهم وكسبهم، ولولا ذلك ما شفع لهم شافع ولا نفعتهم شفاعة الشافعين»[2].

ونحو هذه الآية، قوله تعالى: ﴿لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ۝٢٧ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ۝٢٨﴾ [الأنبياء:٢٧-٢٨].

قال السعدي: «أنهم لا يشفعون لأحد بدون إذنه ورضاه، فإذا أذن لهم وارتضى من يشفعون فيه شفعوا فيه، ولكنه تعالى لا يرضى من القول والعمل إلا ما كان خالصًا لوجهه، متبعًا فيه الرسول، وهذه الآية من أدلة إثبات الشفاعة، وأن الملائكة يشفعون»[3].

ثانيًا: التسليم على المؤمنين في الجنة:

تستقبل الملائكة المؤمنين على أبواب الجنة بأحسن استقبال، يهنئونهم بسلامة الوصول، وبما هم قادمون عليه، فلا تخيفهم أهوال يوم القيامة.

قال تعالى: ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [الأنبياء:١٠٣].

ثم ينعم المؤمنون بتسليم الملائكة عليهم وترحيبهم بهم.

قال تعالى: ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ ۖ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ۝٢٣ سَلَامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾ [الرعد:٢٣-٢٤].

قال ابن كثير: تدخل عليهم الملائكة من

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٧/ ١٠٤.
(٢) فتح البيان في مقاصد القرآن، صديق خان ١١/ ٣٣٧-٣٣٨.
(٣) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٥٢٢.

هاهنا وهاهنا للتهنئة بدخول الجنة، فعند دخولهم إياها تقدم عليهم الملائكة مسلمين مهنئين لهم بما حصل لهم من الله من التقريب والإنعام، والإقامة في دار السلام، في جوار الصديقين والأنبياء والرسل الكرام[1].

وهذا الاحتفاء والترحيب والتحية من الملائكة لهم كله بما صبروا في الدنيا على طاعة الله وعبادته وعلى مشقة الجهاد والثغور، وصبروا عن الشرك و المعاصي، وصبروا على أقدار الله من فقر وترك للأوطان، ورضوا بما قسم الله لهم، فيموت أحدهم وفي صدره حاجة لا يستطيع لها قضاء.

وأما قوله تعالى: ﴿ وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ ﴾ [الزمر:٧٣].

فالملائكة يبدؤون بفتح الأبواب إكراما لأهل الإيمان، ثم الكلام معهم بالسلام الذي هو متضمن للسلامة من كل مكروه وشر، وكأنهم يقولون لهم: سلمتم فلا يلحقنكم بعد اليوم ما تكرهون، ثم يقولون لهم: إن دخولكم الجنة كان بطيبكم إذ الجنة حرمها الله على غير الطيبين، فبشروهم بالسلامة، والطيب والدخول والخلود فيها أبدًا، وهذه النتيجة النهائية لأهل الإيمان.

قال الرازي: أن خزنة الجنة يذكرون لأهل الثواب هذه الكلمات الثلاث فأولها: قولهم سلام عليكم وهذا يدل على أنهم يبشرونهم بالسلامة من كل الآفات. وثانيها: قولهم طبتم والمعنى طبتم من دنس المعاصي وطهرتم من خبث الخطايا. وثالثها: قولهم فادخلوها خالدين، والفاء في قوله: ﴿فَادْخُلُوهَا﴾ يدل على كون ذلك الدخول معللًا بالطيب والطهارة[2].

ثالثًا: الاصطفاف للرحمن جل وعلا:

قد نص القرآن الكريم عندما يأتي الله يوم القيامة إتيانًا ومجيئًا حقيقيًا يليق بجلاله للفصل بين العباد، تصطف الملائكة صفوفًا منتظمة بين يديه؛ إجلالًا وتعظيمًا له[3]، وتنشق السماء بالغمام.

قال تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا أَن يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ﴾[البقرة:٢١٠].

﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا أَن تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ﴾ [الأنعام:١٥٨].

﴿كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ۞ وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾[الفجر:٢١-٢٢].

﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٤٥١.

(٢) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٢٧/ ٤٨٠.

(٣) انظر: عالم الملائكة الأبرار ٢٤.

﴿تَنزِيلًا﴾ [الفرقان: ٢٥].

ففي قول الله عز وجل: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾﴾ [الفجر: ٢٢].

يقول ابن كثير في تفسير هذه الآية: «يعني: لفصل القضاء بين خلقه، وذلك بعدما يستشفعون إليه بسيد ولد آدم على الإطلاق محمد صلوات الله وسلامه عليه، بعدما يسألون أولي العزم من الرسل واحدًا بعد واحد فكلهم يقول: لست بصاحب ذاكم، حتى تنتهي النوبة إلى محمد صلى الله عليه وسلم فيقول: أنا لها، أنا لها، فيذهب فيشفع عند الله تعالى في أن يأتي لفصل القضاء، فيشفعه الله تعالى في ذلك، وهي أول الشفاعات، وهي المقام المحمود كما تقدم بيانه في سورة سبحان، فيجيء الرب تبارك وتعالى لفصل القضاء كما يشاء، والملائكة يجيئون بين يديه صفوفًا صفوفًا»[(١)].

وقد بينت الآثار كيفية اصطفاف الملائكة أنهم محيطون بالخلق صفًا من وراء صف، فتنزل ملائكة السماء الدنيا، ثم ملائكة السماء الثانية، وهلم جرًّا يحيطون بالخلق إظهارًا للعظمة، وإلا فإن الخلق لا يمكن أن يفروا يمينًا ولا شمالًا لكن إظهارًا لعظمة الله وتهويلًا لهذا اليوم العظيم، وهذا اليوم يوم مشهود يشهده الملائكة والإنس والجن والحشرات وكل شيء.

كما جاء في الأثر: **(تنزل ملائكة السماء الدنيا فيصفون، ومن ورائهم ملائكة السماء الثانية، ومن ورائهم ملائكة السماء الثالثة وهكذا)**[(٢)].

كل من وراء الآخر؛ ولهذا قال تعالى: ﴿صَفًّا صَفًّا﴾ يعني: صفًا بعد صف.

ثم يأتي الرب عز وجل للقضاء بين عباده، وذلك الإتيان الذي يليق بعظمته وجلاله، ولا أحد يحيط علمًا بكيفيته[(٣)].

موضوعات ذات صلة

الإيمان، التسبيح، الثبات، الحفظ، غزوة بدر، غزوة أحد

---

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٨/ ٣٩٩.

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك، ٤/ ٥٦٩، رقم ٨٦٩٩.
قال الذهبي إسناده قوي.

(٣) انظر: تفسير القرآن الكريم، ابن عثيمين، الفاتحة والبقرة ٣/ ١٣، وجزء عم ص٢٠١.



عناصر الموضوع

مفهوم الملك	٢٤٢
الملك في الاستعمال القرآني	٢٤٣
ألفاظ ذات صلة	٢٤٤
الملك الحق	٢٤٦
الأساليب القرآنية في عرض الملك	٢٥٣
أنواع الملك في الرعية وآثاره	٢٦٢

مفهوم الملك

أولًا: المعنى اللغوي:

الملك (بضم الميم وفتحها وكسرها: ملك، وملك، وملك) من ملك الشيء ملكًا بمعنى: حازه وانفرد بالتصرف فيه، والـملك ما يملك ويتصرف فيه، والـملك هو صاحب الـملك، وهو صاحب الأمر والسلطة على أمة أو قبيلة أو بلاد، و«الـملك» بفتح الميم وكسر اللام، وهو اسم أو وصف من « الـملك»، بضم الميم، وهو مقصور من مالك أو مليك، والملك هو الله تعالى، والملك أيضًا من ملوك الأرض، ويقال له: ملْكٌ بالتخفيف، وملك الله تعالى وملكوته سلطانه وعظمته؛ لأن الـملك ملْكٌ، وإنما ضموا الميم؛ تفخيمًا له، والـملك بفتحتين واحد الملائكة[1].

فالملك لغة: يطلق ويراد به احتواء الشيء والقدرة على الاستبداد به، وهو ما يحويه الإنسان من ماله[2]، وكل ما حازه الإنسان، وأصبح له القدرة على التصرف فيه كيف شاء فهو ملكه.

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

قال الأصفهاني: «الملك: هو المتصرف بالأمر والنهي في الجمهور، وذلك يختص بسياسة الناطقين»[3]، وقال أصحاب المعاني: « الملك النافذ الأمر في ملكه؛ إذ ليس كل مالك ينفذ أمره وتصرفه فيما يملكه، فالملك أعم من المالك، والله تعالى مالك المالكين كلهم، والملاك إنما استفادوا التصرف في أملاكهم من جهته تعالى »[4].

وأما اسم الله « الملك» فقد عرفه الإمام الغزالي بقوله: «الملك: هو الذي يستغني في ذاته وصفاته عن كل موجود، ويحتاج إليه كل موجود، بل لا يستغني عنه شيء في شيء، لا في ذاته ولا في صفاته ولا في وجوده ولا في بقائه؛ فكل شيء سواه سبحانه هو له مملوك في ذاته وصفاته، وهو سبحانه مستغنٍ عن كل شيء»[5].

---

(١) انظر: لسان العرب، ابن منظور ١٠/ ٤٩١، المصباح المنير، الفيومي ٢/ ٥٨٠.
(٢) انظر: لسان العرب، ابن منظور ١٠ / ٤٩١.
(٣) المفردات ص٧٧٤.
(٤) تفسير أسماء الله الحسنى، الزجاج ص٣٠.
(٥) المقصد الأسنى ص٦٦.



الملك في الاستعمال القرآني

وردت مادة (ملك) في القرآن (٢٠٦) مرات، يخص موضوع البحث (١١٧) مرة[١].

والصيغ التي وردت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	١٦	﴿لِيَسْتَأْذِنكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ [النور:٥٨]
فعل المضارع	٢٨	﴿إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ﴾ [النمل:٢٣]
اسم الفاعل	٣	﴿فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ ٧١﴾ [يس:٧١]
اسم المفعول	١	﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا﴾ [النحل:٧٥]
صيغة المبالغة	١	﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ٥٥﴾ [القمر:٥٥]
الأسماء	١٩	﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الأعراف:١٨٥]
المصدر	٤٩	﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [البقرة:١٠٧]

وجاء الملك في القرآن على وجهين[٢]:

الأول: التملك والتولي، ويلزم منه القدرة والتمكن من زمام الأمور: ومنه قوله تعالى: ﴿قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا﴾ [النمل: ٣٤].

الثاني: القوة على ذلك، سواء تولى أم لا، ومنه قوله تعالى: ﴿إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنبِيَاءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا﴾ [المائدة: ٢٠]. أي: أعطاكم القوة التي بها يترشح للسياسة، لا أنهم جعلهم متولين للأمر، فذلك منافٍ للحكمة[٣]، ويحتمل أنها بمعنى: الغنى والثروة[٤].

---

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، ص٦٧٣، المعجم المفهرس الشامل، عبد الله جلغوم، ص ١٢٢٠-١٢٢٤.

(٢) انظر: بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي، ٤/ ٥٢٠-٥٢١، الوجوه والنظائر، الدامغاني، ص٤١٣.

(٣) انظر: بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، الفيروزآبادي، ٤/ ٥٢٠.

(٤) انظر: الوجوه والنظائر، الدامغاني، ص٤١٣.

ألفاظ ذات صلة

١ السلطان:

السلطان لغة:

مشتق من: سلط، قال ابن فارس: «السين واللام والطاء أصلٌ واحدٌ، وهو القوة والقهر. من ذلك السلاطة، من التسلط وهو القهر، ولذلك سمي السلطان سلطانًا»[(١)].

السلطان اصطلاحًا:

المعنى الاصطلاحي للسلطان ليس بعيدًا عن المعنى اللغوي؛ إذ السلطان في الاصطلاح: التمكن من القهر، ومنه سمي السلطان[(٢)].

الصلة بين الملك والسلطان:

الملك أعم من السلطان، وأشمل منه؛ فالسلطان قوة اليد في القهر للجمهور الأعظم، وللجماعة اليسيرة أيضًا؛ لذا يقال: الخليفة سلطان الدنيا، ويقال لأمير البلد: سلطان البلد، ولا يقال له: ملك البلد؛ لأن الملك هو من اتسعت مقدرته؛ فالملك هو القدرة على أشياء كثيرة، والسلطان القدرة سواء كانت على أشياء كثيرة أو قليلة؛ ولهذا يقال هو مسلط علينا، وإن لم يملكنا[(٣)].

وعلى هذا فكل ملك سلطان، وليس كل سلطان ملكًا، ومن الأسماء الحسنى لله عز وجل: الملك، وليس من أسمائه السلطان.

٢ التمكين:

التمكين لغة:

مصدر للفعل (مكن)، والمكان عند أهل اللغة هو: الموضع الحاوي للشيء، وقد وردت مادة (م ك ن) في اللغة بمعانٍ متعددة، منها: مكن الشيء قوي ومتن ورسخ واطمأن فهو ماكن، ومكنه من الشيء، وأمكنه منه: جعل له عليه سلطانًا وقدرة، واستمكن منه قدر عليه وظفر به[(٤)].

---

(١) مقاييس اللغة ٣/ ٩٥.
(٢) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني ص٢٣٨.
(٣) انظر: الفروق اللغوية، العسكري ص٢٨٢.
(٤) انظر: المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية ٢/ ٨١.

التمكين اصطلاحًا:

التثبيت والتقوية، وإعطاء المقدرة على التصرف[1].

وقيل: هو أن لا ينازع الممكن منازع فيما يراه ويختاره[2].

الصلة بين التمكين والملك:

الملك أعم من التمكين؛ فقد يمكن الإنسان من شيء؛ ولكنه لا يملكه، أما من ملك شيئًا؛ فهو ممكن منه[3].

---

(١) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٧/ ١٣٨.
(٢) انظر: لباب التأويل، الخازن ٢/ ٥٣٦.
(٣) انظر: الفروق اللغوية، العسكري ص١٤٢.

الملك الحق

أولًا: اسم الله (المَلِك):

اسم الله « الملك» يعد من بين أسماء الله الحسنى، وصفاته العلى التوقيفية، فقد أثبت الله سبحانه وتعالى في القرآن الكريم لنفسه اسم « الملك»، والألف واللام في (الملك)، لإفادة استغراق جميع جنس الملك له سبحانه، واختص «الملك» لنفسه فقال: ﴿وَلَهُ ٱلۡمُلۡكُ﴾ [الأنعام: ٧٣]، ونفى الشريك له في الملك فقال: ﴿وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٞ فِي ٱلۡمُلۡكِ﴾ [الكهف: ١١٠]. ووصف نفسه بأنه «الملك الحق»، فقال: ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلۡمَلِكُ ٱلۡحَقُّ﴾ «ملك الناس»، وأنه ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ [الفاتحة: ٣]، وأنه ﴿مَٰلِكَ ٱلۡمُلۡكِ﴾ [آل عمران: ٢٦].

فهذه الملكية لم تكن ولا تكون إلا لله سبحانه وتعالى، فإذا كان في الدنيا من صفته «الملك»؛ فهؤلاء بعضهم على حق، وبعضهم على باطل، ولكن ملكية الله سبحانه وتعالى هي الحق المطلق، وغيره الحق النسبي.

ومن أسماء الله الحسنى: الملك، المليك، مالك الملك، ولها شواهد في القرآن الكريم، والسنة النبوية المطهرة، فهو الأمر، الناهي، المعز، المذل، الذي يصرف أمور عباده كما يحب، ويقلبهم كما يشاء، وله من معنى الملك ما يستحقه من الأسماء الحسنى كالعزيز، الجبار، المتكبر، الحكم، العدل، الخافض، الرافع، المعز، المذل، العظيم، الجليل، الكبير، الحسيب، المجيد، الولي، المتعالي، مالك الملك، المقسط، الجامع، إلى غير ذلك من الأسماء العائدة إلى الملك[١].

وقد نهانا الله سبحانه وتعالى عن الإلحاد في أسمائه فقال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ فَٱدۡعُوهُ بِهَاۖ وَذَرُواْ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ أَسۡمَٰٓئِهِۦۚ سَيُجۡزَوۡنَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٠].

والإلحاد في أسمائه: هو العدول بها وبحقائقها ومعانيها عن الحق الثابت لها، وهو مأخوذ من الميل كما تدل عليه مادته (ل ح د)، فمنه اللحد وهو: الشق في جانب القبر الذي قد مال عن الوسط، ومنه الملحد في الدين المائل عن الحق إلى الباطل[٢].

ومن الإلحاد في اسم الله (الملك) تسمية رجل بملك الأملاك جاء في الحديث عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (أخنع اسم عند الله رجل يسمى ملك الأملاك، لا مالك إلا الله)[٣].

(١) انظر: شرح أسماء الله الحسنى، سعيد بن وهف القحطاني، ص١٦٧.
(٢) انظر: بدائع الفوائد، ابن القيم، ١/ ١٦٩.
(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الآداب، باب تحريم التسمي بملك الأملاك، رقم ٢١٤٣.

وفي رواية: (أخنى اسم)[١].

وفي رواية: (أغيظ رجل على الله يوم القيامة، وأخبثه، رجل كان يسمى ملك الأملاك، لا ملك إلا الله)[٢].

وقد بسط ابن كثير الخلاف في هذا الموضوع[٣]، ونقل المنع والجواز، ورجح هو وجمهور العلماء المنع؛ لظاهر النصوص الصحيحة، وقد ورد هذا الاسم في المناهي اللفظية[٤].

ثانيًا: شمول ملك الله الكون:

وجمع ملك السماوات والأرض لنفسه في تسعة عشر موضعًا في كتابه الكريم، وملكية الله سبحانه وتعالى للسماوات والأرض التي تكررت في القرآن الكريم كان الغرض منها التذكير بشأنها في مواطن عدة، ترتبت عليها كثير من القضايا، من أهمها:

١. التوحيد.

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان: ٢].

٢. القدرة.

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٦﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [البقرة: ١٠٦-١٠٧].

وقال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: ١٨٩].

وقال تعالى: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌۢ﴾ [المائدة: ١٢٠]، وقال تعالى: ﴿أَمْ لَهُم مُّلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ فَلْيَرْتَقُوا۟ فِى ٱلْأَسْبَٰبِ﴾ [ص: ١٠].

وقال تعالى: ﴿لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الحديد: ٢].

٣. الخلق والإحياء والإماتة.

قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [المائدة: ١٧].

وقال تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٨].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۚ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب أبغض الأسماء، رقم ٥٨٥٢.
(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الآداب، باب تحريم التسمي بملك الأملاك، رقم ٢١٤٣.
(٣) انظر: البداية والنهاية، ابن كثير، ١٢/ ٥٥.
(٤) انظر: معجم المناهي، بكر أبو زيد، ص ٥١٠.

﴿ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [التوبة: ١١٦].

وقال تعالى: ﴿لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ﴾ [الشورى: ٤٩].

٤. الشهادة.

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ [البروج: ٩].

٥. المصير والرجوع.

قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ [المائدة: ١٨].

وقال: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ [النور: ٤٢].

وقال: ﴿لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ [الحديد: ٥].

وقال: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [الزمر: ٤٤].

وقوله: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ [الجاثية: ٢٧].

وقوله: ﴿وَتَبَارَكَ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [الزخرف ٨٥].

٦. الثواب والعقاب.

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [المائدة: ٤٠].

وقوله: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الفتح ١٤].

وقد قرر الله تعالى حقيقة ملكه هذه بأساليب عدة، فبطريق الخبر.

قال سبحانه: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ [الأنعام: ١].

وأكد هذا الأمر فقال: ﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَلَآ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يونس: ٥٥].

وبطريق الإنشاء قال سبحانه: ﴿قُل لِّمَن مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُل لِّلَّهِ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: ١٢].

ولذا قيل: ملوك الدنيا أربعة: مؤمنان وكافران[1]: فالمؤمنان: ذو القرنين وسليمان، والكافران: النمرود وبختنصر، فإنه تبارك وتعالى ملكه دائم، وملك أولئك قد زال، فهم وما يملكون وما يملك غيرهم من ملك الله تعالى، فهو مالك الملك، بمعنى: الذي ملك الخلائق كلها، وملك الممالك والملوك معًا.

---

(١) انظر: البداية والنهاية، ١/ ١٧١.

ثالثًا: المتفرد بالملك يوم القيامة.

إن صفة الملكية يوم القيامة لله تعالى لم ولن يشاركه أحد فيها من قبل، ولا من بعد، فهو مالك يوم الدين، وحده لا شريك له، فقال: ﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ [الحج: ٥٦].

وقال: ﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ ۚ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا﴾ [الفرقان: ٢٦].

وسيسأل جل جلاله، ويجيب نفسه، ومن أصدق من الله قيلًا: ﴿يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ ۖ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ ۚ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾[غافر: ١٦].

وصفة الملكية هي التي سيثبتها الله لنفسه أمام الأشهاد في ذلك اليوم العصيب كما أكدت هذا المعنى السنة النبوية فقد جاء في الحديث الصحيح: (يقبض الله الأرض يوم القيامة، ويطوي السماء، ثم يقول: أنا الملك، أين ملوك الأرض؟)[(١)]، وفي رواية: (أنا الملك، أين الجبارون؟ أين المتكبرون؟)[(٢)].

يصور سيد قطب هذا المشهد الذي تنكشف به الحقيقة بقوله: «ويومئذ يتضاءل المتكبرون، وينزوي المتجبرون، ويقف الوجود كله خاشعًا، والعباد كلهم خضعًا. ويتفرد مالك الملك الواحد القهار بالسلطان. وهو سبحانه متفرد به في كل آن. فأما في هذا اليوم فينكشف هذا للعيان، بعد انكشافه للجنان. ويعلم هذا كل منكر، ويستشعره كل متكبر. وتصمت كل نأمة[(٣)] وتسكن كل حركة. وينطلق صوت جليل رهيب يسأل ويجيب؛ فما في الوجود كله يومئذ من سائل غيره، ولا مجيب: لمن الملك اليوم؟ لله الواحد القهار»[(٤)].

رابعًا: نفي الامتلاك الحقيقي:

تناول القرآن الكريم هذا الموضوع من جانبين، أحدهما نفي الامتلاك الشخصي على مستوى الإفراد والجمع، والآخر تحديد الامتلاك البشري، على النحو الآتي:

١. نفي الامتلاك الشخصي.

كل كلمة «أملك» بالفعل المضارع بصيغة المتكلم، وردت في القرآن الكريم بصيغة النفي، يعني: نفي الملك والتملك، وقد جاءت في خمسة مواضع، أربعة منها

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب تفسير القرآن، باب قوله: والأرض جميعًا قبضته يوم القيامة)، رقم ٤٨١٢، ومسلم في صحيحه، كتاب صفة القيامة والجنة والنار، أول الكتاب، رقم ٢٧٨٧.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب صفة القيامة والجنة والنار، أول الكتاب، رقم ٢٧٨٨.

(٣) النأمة: بالتسكين: الصوت. وهو كالأنين، وقيل: هو الصوت الضعيف الخفي أيا كان. انظر: لسان العرب، ابن منظور ٤/ ٣٨١٧.

(٤) في ظلال القرآن، ٥/ ٣٠٧٣.

منفية بـ(لا)، وواحدة منفية بـ(ما).

قال تعالى على لسان نبيه موسى عليه السلام: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ [المائدة: ٢٥].

وقال تعالى على لسان نبيه محمد صلى الله عليه وسلم: ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوٓءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾[الأعراف: ١٨٨].

وقال أيضًا: ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَآءَ اللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾[يونس: ٤٩].

وقال أيضًا: ﴿قُلْ إِنِّي لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا﴾ [الجن: ٢١].

وقال تعالى على لسان نبيه إبراهيم عليه السلام: ﴿إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾[الممتحنة: ٤].

فإذا كان أنبياء الله ورسله -والآيات الواردة على لسان أولي العزم من الرسل- نفوا امتلاكهم الشخصي الحقيقي أمام ملك الله تعالى وملكوته، فغيرهم من باب أولى، إلا قول موسى عليه السلام: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ [المائدة: ٢٥].

فإنه استثنى الملك لنفسه وأخيه، ولكن قول موسى عليه السلام -هذا- لم يفت تعليق شيخ المفسرين الطبري عندما قال: «فدعا عليهم... وكانت عجلة من موسى عجلها»[(١)].

ولازم النفي «الملك» المضارع بصيغة المخاطب في موضعين من القرآن الكريم.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوٓا ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا وَمَن يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ اللَّهِ شَيْـًٔا أُولَٰٓئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [المائدة: ٤١].

وقال تعالى: ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ﴾[الانفطار: ١٩].

والحال نفسه في المضارع بصيغة الغائب المبدوء بالياء.

قال تعالى: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوٓا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَٰوَٰتِ

(١) انظر: جامع البيان، الطبري، ١٠/ ١٨٩.

﴿وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَاۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [المائدة: ١٧].

وأسلوب: ﴿قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ في هذه الآية متضمن معنى نفي الملك.

قال أبو حيان: «وقل: ليس كما قالوا»[1].

وقال تعالى: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [يونس٣١].

قال ابن عاشور: «أمن: للإضراب الانتقالي من استفهام إلى آخر، ومعنى يملك السمع والأبصار:يملك التصرف فيهما، وهو ملك إيجاد تينك الحاستين، وذلك استدلال وتذكير بأنفع صنع وأدقه»[2].

وقال تعالى: ﴿سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَاۚ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًۢاۚ بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١١﴾﴾ [الفتح ١١].

قال الشنقيطي: «أي: لا أحد يملك دفع الضر الذي أراد الله إنزاله بكم، ولا منع النفع الذي أراد نفعكم به، فلا نافع إلا هو، ولا ضار إلا هو تعالى، ولا يقدر أحد على دفع ضر أراده، ولا منع نفع أراده»[3].

ولم يختلف الأسلوب القرآني في نفي «الملك» بصيغة الجمع المخاطب في موضعين، في قوله تعالى: ﴿قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّيٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ قَتُورًا﴾[الإسراء: ١٠٠].

قال ابن عاشور: «لو أنتم أخصصتم بملك خزائن رحمة الله دون الله؛ لما أنفقتم على الفقراء شيئًا، وذلك أشد في التقريع، وفي الامتنان بتخييل أن إنعام غيره كالعدم»[4].

وفي قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُۖ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔاۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِۖ كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدًۢا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْۖ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٨﴾﴾[الأحقاف: ٨].

والشأن نفسه في صيغة الجمع الغائب، ولكن في مواضع أكثر من القرآن الكريم، فقد جاء في تسعة مواضع ثمانية منها بنفي «الملك» بـ(لا)، وواحد بـ(ما)، على ما يأتي.

قال تعالى: ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُۚ قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّاۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُۗ أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْۚ قُلِ ٱللَّهُ

(١) انظر: تفسير البحر المحيط، ٣/ ٤٥٠.
(٢) انظر: التحرير والتنوير، ١٢/ ١٥٦-١٥٧.
(٣) انظر: أضواء البيان، ٧/ ٣٩٦.
(٤) انظر: التحرير والتنوير، ١٦/ ٢٢٤.

﴿خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُوَ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّٰرُ﴾ [الرعد: ١٦].

وقال: ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمۡلِكُونَ كَشۡفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمۡ وَلَا تَحۡوِيلًا﴾ [الإسراء: ٥٦].

وقال: ﴿لَّا يَمۡلِكُونَ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحۡمَٰنِ عَهۡدٗا﴾ [مريم: ٨٧].

وقال: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةٗ لَّا يَخۡلُقُونَ شَيۡـٔٗا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ وَلَا يَمۡلِكُونَ لِأَنفُسِهِمۡ ضَرّٗا وَلَا نَفۡعٗا وَلَا يَمۡلِكُونَ مَوۡتٗا وَلَا حَيَوٰةٗ وَلَا نُشُورٗا﴾ [الفرقان: ٣].

وقال: ﴿إِنَّمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡثَٰنٗا وَتَخۡلُقُونَ إِفۡكًاۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمۡلِكُونَ لَكُمۡ رِزۡقٗا فَٱبۡتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزۡقَ وَٱعۡبُدُوهُ وَٱشۡكُرُواْ لَهُۥٓۖ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ [العنكبوت: ١٧].

وقال: ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمۡلِكُونَ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا لَهُمۡ فِيهِمَا مِن شِرۡكٖ وَمَا لَهُۥ مِنۡهُم مِّن ظَهِيرٖ﴾ [سبأ: ٢٢].

وقال: ﴿يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ كُلّٞ يَجۡرِي لِأَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ لَهُ ٱلۡمُلۡكُۚ وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمۡلِكُونَ مِن قِطۡمِيرٍ ١٣﴾ [فاطر: ١٣].

وقال: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَۚ قُلۡ أَوَلَوۡ كَانُواْ لَا يَمۡلِكُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَعۡقِلُونَ﴾ [الزمر: ٤٣].

وقال: ﴿رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا ٱلرَّحۡمَٰنِۖ لَا يَمۡلِكُونَ مِنۡهُ خِطَابٗا﴾ [النبأ: ٣٧].

٢. تحديد الامتلاك البشري.

تثبت بعض الآيات القرآنية الكريمة الملك للناس، ولكن على وجه التحديد، منها امتلاك الناس لمفاتيح البيوت، وفي هذا تقليل لشأن الملك الدنيوي وحدوده.

قال تعالى: ﴿لَّيۡسَ عَلَى ٱلۡأَعۡمَىٰ حَرَجٞ وَلَا عَلَى ٱلۡأَعۡرَجِ حَرَجٞ وَلَا عَلَى ٱلۡمَرِيضِ حَرَجٞ وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ أَن تَأۡكُلُواْ مِنۢ بُيُوتِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ أُمَّهَٰتِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ إِخۡوَٰنِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ أَخَوَٰتِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ أَعۡمَٰمِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ عَمَّٰتِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ أَخۡوَٰلِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ خَٰلَٰتِكُمۡ أَوۡ مَا مَلَكۡتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ أَوۡ صَدِيقِكُمۡۚ لَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَن تَأۡكُلُواْ جَمِيعًا أَوۡ أَشۡتَاتٗاۚ فَإِذَا دَخَلۡتُم بُيُوتٗا فَسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ تَحِيَّةٗ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ مُبَٰرَكَةٗ طَيِّبَةٗۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾ [النور ٦١].

وهذه اللفظة الوحيدة التي وردت في القرآن الكريم بصيغة التملك الجمعي للبشر «ملكتم»، وأيضًا ورد التملك للناس مع البهائم والأنعام والحيوانات، فقال جل ذكره: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّا خَلَقۡنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتۡ أَيۡدِينَآ أَنۡعَٰمٗا فَهُمۡ لَهَا مَٰلِكُونَ﴾ [يس ٧١].

وفي هذا تحقير للملك الدنيوي في جعله للدواب.

الأساليب القرآنية في عرض الملك

أولًا: الامتنان بالملك على بعض العباد:

لم تقتض سنة الحياة الدنيا أن يكون الناس كلهم ملوكًا، لذا فقد اختص الله تبارك وتعالى بعض عباده بالملك دون غيرهم، وهذا فضل من الله ونعمة على من اختاره الله ملكًا على الناس.

قال تعالى: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ۖ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مُّلْكًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٥٤].

قال الرازي: «والمعنى: أنه حصل في أولاد إبراهيم جماعة كثيرون جمعوا بين النبوة والملك»[(١)].

وذرية إبراهيم ورد ذكرهم في الآيات الكريمة بقوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَارُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٨٦﴾ وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ ۖ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾ ذَٰلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۚ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ۚ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ ﴿٨٩﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ ۖ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ ۗ قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ٨٣-٩٠].

قال الأستاذ محمد رشيد رضا: «وقد ذكر الله تعالى في هذه الآيات الثلاث أربعة عشر نبيًا، لم يرتبهم على حسب تاريخهم وأزمانهم؛ لأنه أنزل كتابه هدى وموعظة، لا تاريخًا، ولا على حسب فضلهم ومناقبهم؛ لأن كتابه ليس كتاب مناقب ومدائح، وإنما هو كتاب تذكرة وعبرة، وقد جعلهم ثلاثة أقسام لمعان في ذلك جامعة بين كل قسم منهم»[(٢)].

وخص صاحب المنار القسم الأول بستة أنبياء، وهم: داود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون، ثم قال: «والمعنى الجامع بين هؤلاء أن الله تعالى آتاهم الملك والإمارة، والحكم والسيادة، مع النبوة والرسالة، وقد قدم ذكر داود وسليمان، وكانا ملكين غنيين منعمين، وذكر بعدهما أيوب ويوسف، وكان الأول أميرًا غنيًا

(١) مفاتيح الغيب، ١٠/ ١٠٥.

(٢) تفسير المنار، ٧/ ٤٨٩.

عظيمًا محسنًا، والثاني وزيرًا عظيمًا وحاكمًا متصرفًا، ولكن كلًّا منهما قد ابتلي بالضراء؛ فصبر، كما ابتلي بالسراء؛ فشكر، وأما موسى وهارون فكانا حاكمين، ولكنهما لم يكونا ملكين، فكل زوجين من هؤلاء الأزواج الثلاثة ممتاز بمزية، والترتيب بين الأزواج على طريق التدلي في نعم الدنيا، وقد يكون على طريق الترقي في الدين، فداود وسليمان كانا أكثر تمتعًا بنعم الدنيا، ودونهما أيوب ويوسف، ودونهما موسى وهارون، والظاهر أن موسى وهارون أفضل في هداية الدين، وأعباء النبوة من أيوب ويوسف، وأن هذين أفضل من داود وسليمان؛ بجمعهما بين الشكر في السراء والصبر في الضراء، والله أعلم».

فالأنبياء الذين صرح الله -تبارك وتعالى- في إكرامهم بالنبوة والملك معًا، هم:

١. داود عليه السلام.

قال تعالى: ﴿فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾[البقرة: ٢٥١].

٢. سليمان عليه السلام.

قال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنبَغِي لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِي ۖ إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ﴾[ص: ٣٥].

٣. يوسف عليه السلام.

قال تعالى: ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾[يوسف: ١٠١].

وقال: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾[يوسف: ٢٢].

كما أكرم الله تبارك وتعالى ملوكًا آخرين ليسوا بأنبياء ولا برسل، وقد ورد ذكرهم في القرآن الكريم أيضًا، وهم:

١. ذو القرنين.

جاء ذكر (ذو القرنين) في ست عشرة آية من سورة الكهف، أخبرنا القرآن الكريم عن ذي القرنين بأنه كان ملكا مؤمنًا صالحًا.

قال تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَن ذِي الْقَرْنَيْنِ ۖ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾ فَأَتْبَعَ سَبَبًا﴾

[الكهف: ٨٣-٨٥].

٢. النمرود.

قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة:

[٢٥٨].

٣. العزيز.

قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّيٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِى فِى رُءْيَٰىَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ﴾ [يوسف: ٤٣].

وقال الله تعالى: ﴿قَالُوا۟ نَفْقِدُ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ﴾[يوسف: ٧٢].

وقال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ قَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَٰعَةٍ مُّزْجَىٰةٍ فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِى ٱلْمُتَصَدِّقِينَ﴾[يوسف: ٨٨].

٤. طالوت.

قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ۚ قَالُوٓا۟ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ ۚ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ ۖ وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾[البقرة: ٢٤٧].

٥. فرعون.

في عصر الممالك القديمة كان يطلق على حاكم مصر لفظ: «الملك» وذلك زمن سيدنا يوسف عليه السلام.

فقال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى ۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾[يوسف: ٥٤].

ففي القرآن الكريم عندما يذكر حكام مصر القدامى لا يذكرهم إلا بلقب (فرعون)، وذلك في حوالي ستين آية كريمة؛ إلا في سورة واحدة ذكر فيها حاكم مصر بلقب (ملك)، وذلك في سورة يوسف في ثلاثة مواضع: ٤٣، ٥٠، ٥٤.

٦. بلقيس.

قال تعالى: ﴿وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ﴾[النمل: ٢٤].

وهذه المرأة هي: بلقيس، فيما قال بعضهم[١].

ثانيًا: الفرق بين ملك الله، وملك الناس:

الفرق بين ملك الله وملك الناس فرق عظيم، فالناس وما يملكون كلهم من ملك الله تعالى، والفرق بين الملكين، هو الفرق بين الملك المطلق والملك النسبي، ويتجلى ذلك بوضوح في القرآن الكريم في المعاني الآتية:

١. ملك الله تعالى شامل للخلق والرزق.

يربط الله سبحانه وتعالى ملكه بالخلق

(١) المحرر الوجيز، ابن عطية ٤/ ٢٥٦.

والإيجاد والإحياء والإماتة.

قال تعالى: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى الْأَرْضِ جَمِيعًا ۗ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾[المائدة: ١٧].

وقال: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّى رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِى لَهُۥ مُلْكُ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِىِّ الْأُمِّىِّ الَّذِى يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾[الأعراف: ١٥٨].

وقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ ۖ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۚ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾[التوبة: ١١٦].

وقال: ﴿لِّلَّهِ مُلْكُ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ الذُّكُورَ﴾[الشورى: ٤٩].

وقد ارتبط هذا المعنى الشريف بأذكار المسلم وأدعيته في اليوم والليلة، منها دعاء السوق: (من دخل السوق فقال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد يحيي ويميت، وهو حي لا يموت، بيده الخير وهو على كل شيء قدير، كتب الله له ألف ألف حسنة، ومحى عنه ألف ألف سيئة، ورفع له ألف ألف درجة)[1].

وكذلك في بعض الأذكار الأخرى كما في الحديث: (من قال حين يصبح: لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، له الملك، وله الحمد، يحيي ويميت، وهو على كل شيءٍ قديرٌعشر مراتٍ: كتب الله له بكل واحدةٍ قالها عشر حسناتٍ، وحط الله عنه بها عشر سيئاتٍ، ورفعه الله بها عشر درجاتٍ، وكن له كعشر رقابٍ، وكن له مسلحةً من أول النهار إلى آخره، ولم يعمل يومئذٍ عملًا يقهرهن، فإن قال حين يمسي، فمثل ذلك)[2].

٢. نفي الملك عن الآلهة من دون الله.

وكذلك نفى القرآن الكريم الملك عن آلهة الباطل من دون الله تعالى، التي لا تملك ضرًا ولا نفعًا، ولا رزقًا ولا شفاعة، ومن هنا قرر القرآن الكريم عقيدة ملك الله -تبارك وتعالى- المختلفة تمامًا عن ملك المعبودات الآخرى، كما جاء ذلك في قوله سبحانه: ﴿قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ۚ وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾[المائدة: ٧٦].

---

(١) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب الدعوات، باب ما يقال إذا دخل السوق، رقم ٣٤٢٨.
وحسنه الألباني في صحيح الجامع، رقم ٦٢٣١.

(٢) أخرجه أحمد في مسنده، رقم ٢٣٠٠٧، ٣٨/ ٥٤٥.
وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، رقم ١١٤.

وقال: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾[النحل: ٧٣].

وقال: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾[طه: ٨٩].

وقال: ﴿فَٱلْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾[سبأ: ٤٢].

وقال: ﴿وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾

[الزخرف: ٨٦].

هذا بصيغة المفرد الغائب «يملك»، وقد ورد في القرآن الكريم صيغة «يملكون» بالجمع عشر مرات؛ ولكن كلها بصيغة النفي الصريح الظاهر بالأداتين: (لا) النافية تسع مرات، و(ما) النافية مرة واحدة، فنسبة النفي بـ(لا) أكثر من النفي بـ(ما)؛ لأن (لا) أقوى أدوات النفي في العربية، وهنا ربط بين نفي ملك الناس مجتمعًا، إذا ما قورن بملك الله الفرد الصمد الواحد الأحد -جل جلاله-، كما ورد في الآيات القرآنية الآتية:

قال تعالى: ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ﴾[الرعد: ١٦].

وقال: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا﴾

[الإسراء: ٥٦].

وقال: ﴿لَّا يَمْلِكُونَ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا﴾[مريم: ٨٧].

وقال: ﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا﴾ [الفرقان: ٣].

وقال: ﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ ۖ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾

[العنكبوت: ١٧].

وقال: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ﴾[سبأ: ٢٢].

وقال: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَ ۚ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ﴾[الزمر: ٤٣].

وقال: ﴿رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلرَّحْمَٰنِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا﴾[النبأ: ٣٧].

وأما النفي بـ(ما) فقد ورد مع «يملكون» مرة واحدة في قوله تعالى: ﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ

﴿وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ﴾[فاطر: ١٣].

٣. ملك الله دائم، وملك غيره زائل.

ومن المقارنات القرآنية الأخرى بين ملك الله تعالى، وملك غيره، أن ملك الله -تبارك وتعالى- دائم، وملك غيره زائل، فقد قال تعالى: ﴿الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾[الحج: ٥٦].

وقال: ﴿الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا﴾[الفرقان: ٢٦].

وقال: ﴿يَوْمَ هُم بَارِزُونَ لَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦].

ثالثًا: الملك والاغترار به:

يعرض القرآن الكريم في آياته البينات أساليب للتحذير من «الملك» الدنيوي والاغترار به، وقد جاء بأسلوبين على ما يأتي:

١. الملك كله ملك الله.

وصف الله تعالى نفسه بأنه: «مالك الملك»، فقد ورد هذا الاسم مرة واحدة في القرآن الكريم، وهذه رسالة واضحة للملوك والمالكين أجمعين بأن الله يملكهم وما يملكون، ولقد عبر عن هذا المعنى حجة الإسلام الغزالي فقال: «اعلم أيها السلطان أنك مخلوق ولك خالق، وهو خالق العالم، وجميع ما في العالم، وأنه لا شريك له، فرد لا مثل له، كان في الأزل وليس لكونه زوال، ويكون مع الأبد، وليس لبقائه فناء، وجوده في الأبد والأزل، وما للعدم إليه سبيل، وهو موجود بذاته، وكل أحد محتاج إليه، وليس له إلى أحد احتياج، وجوده به ووجود كل شيء به»[١].

٢. الملك كله بيد الله.

قال الله تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: ٢٦].

قيل الملك هنا: النبوة، وقيل: الغلبة، وقيل: المال والعبيد، والظاهر شموله لما يصدق عليه اسم الملك من غير تخصيص[٢].

٣. ظاهرة الاغترار بالملك.

قال الله تعالى: ﴿يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِن بَأْسِ اللَّهِ إِن جَاءَنَا قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ [غافر: ٢٩].

قال السعدي: «ثم حذر قومه ونصحهم،

---

(١) التبر المسبوك في نصيحة الملوك، الغزالي ص٩.

(٢) انظر: فتح القدير، الشوكاني، ١/ ٢٢.

وخوفهم عذاب الآخرة، ونهاهم عن الاغترار بالملك الظاهر»[1].

وقال تعالى: ﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِي مِن تَحْتِيٓ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ۝٥١﴾ [الزخرف: ٥١].

رابعًا: ذكر بعض أخلاق الملوك وأفعالهم:

أثبت الله تبارك وتعالى «الملك» لبعض الناس، وذكر بعض أخلاق الملوك في الدنيا وأفعالهم، على ما يأتي:

ذكر الله سبحانه وتعالى صفة ملكية لليهود في معرض تعداد النعم عليهم فقال: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [المائدة ٢٠].

وملكية بني إسرائيل في الدنيا كانت محدودة جدًا، فقد قال حبر الأمة ابن عباس رضي الله عنهما: «كان الرجل من بني إسرائيل إذا كان له الزوجة والخادم والدار؛ سمي ملكًا»[2].

وذكر القرآن الكريم «الملوك» في قصة سبأ مقرونين بالفساد والإفساد فقال تعالى: ﴿قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ [النمل ٣٤].

قال ابن عاشور: «فعلمت بقياس شواهد التاريخ، وبخبرة طبائع الملوك إذا تصرفوا في مملكة غيرهم؛ أن يقلبوا نظامها إلى ما يساير مصالحهم، واطمئنان نفوسهم من انقلاب الأمة المغلوبة عليهم في فرص الضعف، أو لوائح الاشتغال بحوادث مهمة، فأول ما يفعلونه إقصاء الذين كانوا في الحكم لأن الخطر يتوقع من جانبهم حيث زال سلطانهم بالسلطان الجديد، ثم يبدلون القوانين والنظم التي كانت تسير عليها الدولة، فأما إذا أخذوها عنوة فلا يخلو الأخذ من تخريب وسبي ومغانم، وذلك أشد فسادًا. وقد اندرج الحالان في قولها»[3].

وحين بعث الله تبارك وتعالى ملكًا عندما طلب بنو إسرائيل ذلك في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ إِذْ قَالُوا۟ لِنَبِيٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُوا۟ ۖ قَالُوا۟ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا ۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ تَوَلَّوْا۟ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص٧٣٦.
(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم ٣/ ٧٤.
(٣) انظر: التحرير والتنوير، ٢٠/ ٢٦٦.

[البقرة: ٢٤٦].

بعث إليهم جنديًا من جنودهم، وهو طالوت، وكان دباغًا وفقيرًا كما يقول المفسرون[(١)]، مصداقًا لقوله تعالى: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة ٢٤٧].

لكن الله تبارك وتعالى هنا ذكر أهم صفتين يجب توافرهما في ملوك الدنيا، وهما:

الصفة الأولى: بسطة العلم.

الصفة الثانية: بسطة الجسم.

قال عنهما الإمام القرطبي: «وبين لهم مع ذلك تعليل اصطفاء طالوت، وهو بسطته في العلم، الذي هو ملاك الإنسان، والجسم، الذي هو معينه في الحرب، وعدته عند اللقاء، فتضمنت بيان صفة الإمام وأحوال الإمامة، وأنها مستحقة بالعلم والدين والقوة، لا بالنسب، فلا حظ للنسب فيها مع العلم وفضائل النفس، وأنهامتقدمة عليه؛ لأن الله تعالى أخبر أنه اختاره عليهم؛ لعلمه وقوته، وإن كانوا أشرف متنسبا»[(٢)].

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: «كان طالوت يومئذ أعلم رجل في بني إسرائيل، وأجمله وأتمه، وزيادة الجسم مما يهيب العدو، وقيل: سمي طالوت: لطوله. وقيل: زيادة الجسم كانت بكثرة معاني الخير والشجاعة، ولم يرد عظم الجسم»[(٣)].

وقد ضرب القرآن الكريم مثلًا لملك من ملوك الدنيا الظالمين، فقال تعالى في قصة موسى والعبد الصالح: ﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾ [الكهف: ٧٩].

فلم يذكر القرآن اسمه، وتجاهل شأنه، وكان التركيز في المساكين دون الملك، قال القرطبي: «مما يستعمله الملك في مصالح نفسه وشهواته»[(٤)].

ومن ملكية الدنيا ذكر الله تعالى في القرآن الكريم سعة ما يملك الملوك وعظم عروشهم وممالكهم، ولكن المثال القرآني كان مضروبًا لامرأة نكرة، لم يذكر اسمها كما تذكر أسماء ملوك الدنيا عند الناس، وهي ملكة سبأ، بلقيس كما نعرف، وناقل خبر ملوكيتها طائر من الطيور، وهو هدهد سليمان، وهنا نتأمل في الخبر وصاحبته

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ١/ ٢٦٧.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، ٣/ ٢٢٥.

(٣) المصدر السابق.

(٤) المصدر السابق ١٧/ ١٢.

وناقله.

قال تعالى: ﴿إِنِّي وَجَدتُّ ٱمۡرَأَةً تَمۡلِكُهُمۡ وَأُوتِيَتۡ مِن كُلِّ شَيۡءٖ وَلَهَا عَرۡشٌ عَظِيمٞ﴾ [النمل: ٢٣].

قال الشوكاني: «وأوتيت من كل شيء فيه مبالغة، والمراد أنها أوتيت من كل شيء من الأشياء التي تحتاجها، وقيل: المعنى: أوتيت من كل شيء في زمانها شيئًا، فحذف (شيئًا) لأن الكلام قد دل عليه»[1].

ومن بين ما يملكه الملوك وخصه الله سبحانه وتعالى بالذكر في القرآن الكريم: الصواع، وهو جام كهيئة المكوك من فضة. وقرأ يحيى بن يعمر: (صوغ الملك) بغين معجمة، يذهب إلى أنه كان مصوغًا فسماه بالمصدر[2]، فقال تعالى: ﴿قَالُواْ نَفۡقِدُ صُوَاعَ ٱلۡمَلِكِ وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمۡلُ بَعِيرٖ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٞ﴾ [يوسف: ٧٢].

وهذا الشيء المنسوب للملك -وهو من أشيائه وخواصه- ورد في معرض الحديث عن جريمة سرقة، وانشغال المملكة بفقدانه، وهذا ما يصوره القرآن الكريم في تعلق الممالك بملكها -وإن قل شأنه-.

وما دمنا في الحديث عن هذا الملك في زمن سيدنا يوسف عليه السلام فمن المناسب استكمال بعض صفاته الملكية الدنيوية، منها أوامر الملك فقد ذكر القرآن الكريم أمرين له بصيغة: ﴿وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ ٱئۡتُونِي بِهِۦۖ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرۡجِعۡ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسۡـَٔلۡهُ مَا بَالُ ٱلنِّسۡوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعۡنَ أَيۡدِيَهُنَّۚ إِنَّ رَبِّي بِكَيۡدِهِنَّ عَلِيمٞ﴾ [يوسف: ٥٠].

وذكر القرآن الكريم اهتمام الملوك بالرؤيا، وفزعهم منها لا سيما إذا كانت تتعلق بممالكهم، أو فيها إشارة لذلك.

قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ إِنِّيٓ أَرَىٰ سَبۡعَ بَقَرَٰتٖ سِمَانٖ يَأۡكُلُهُنَّ سَبۡعٌ عِجَافٞ وَسَبۡعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضۡرٖ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٖۖ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَأُ أَفۡتُونِي فِي رُءۡيَٰيَ إِن كُنتُمۡ لِلرُّءۡيَا تَعۡبُرُونَ﴾ [يوسف: ٤٣].

ولذلك كان نبي الله يوسف عليه السلام فطنًا لهذا الملك وتصرفاته وأوامره ونواهيه، فتمت عملية التفتيش بصورة متقنة فقال تعالى: ﴿فَبَدَأَ بِأَوۡعِيَتِهِمۡ قَبۡلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسۡتَخۡرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِۚ كَذَٰلِكَ كِدۡنَا لِيُوسُفَۖ مَا كَانَ لِيَأۡخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلۡمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ نَرۡفَعُ دَرَجَٰتٖ مَّن نَّشَآءُۗ وَفَوۡقَ كُلِّ ذِي عِلۡمٍ عَلِيمٞ﴾ [يوسف: ٧٦].

ثم إن دين الملك هو غير دين نبي الله يوسف عليه السلام، وهنا إشارة قرآنية إلى دين الملوك الذي يجب أن يكون أفضل مما يملكون، وأن يكون دينهم أولى من ملكهم، كما قال بعض الحكماء: «ينبغي للملك أن يأنف أن يكون في رعيته من هو أفضل دينا

(١) فتح القدير، ٣/ ٧٧.

(٢) انظر: غريب القرآن، السجستاني ص ٢٦٩.

منه، كما يأنف أن يكون فيهم من هو أنفذ أمرًا منه»[1].

وإن مما يملك الناس في الدنيا أيضًا، وذكره القرآن الكريم هو (ملك اليمين)، وقد ذكرنا مواضع وروده في مطلب «الملك» في الاستعمال القرآني.

(١) درر السلوك في سياسة الملوك، ص٨٩.

أنواع الملك في الرعية وآثاره

أولًا: الملك الراشد:

يتصف الملك أحيانًا بالراشد، من الرشد وهو نقيض كلمة (الغي) التي تستعمل في وصف كل ما يـــذم، وقد وصف به النبي محمد صلى الله عليه وسلم خلفاءه من بعده بهذا الوصف، فقال عليه الصلاة والسلام: **(عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي)**[2].

ذكر جلال الدين الشيزري خمسة عشر وصفًا في الملك الراشد، وهي: (العدل، العقل، الشجاعة، السخاء، الرفق، الوفاء، الصدق، الرأفة، الصبر، العفو، الشكر، الأناة، الحلم، العفاف، الوقار)[3]، وكل خصلة من هذه الخصال الكريمة لها شواهدها من القرآن الكريم، إذا ما طبقها الملوك؛ كان بالإمكان وصف ملكهم بأنه «راشد».

وقد عقد الماوردي بابًا في أخلاق الملك، وأوصى الملوك بسياسة أنفسهم

(٢) أخرجه أحمد في مسنده، رقم ١٧١٤٤، وأبو داود في سننه، كتاب السنة، باب لزوم السنة، رقم ٤٦٠٧، والترمذي في سننه، كتاب العلم، باب ما جاء في الأخذ بالسنة واجتناب البدع، رقم ٢٦٧٦.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، ١/ ٤٩٩، رقم ٢٥٤٩.

(٣) انظر: المنهج المسلوك في سياسة الملوك، الشيزري ص٢٤٢-٣٥٧.

قبل غيرهم، فقال: «فإذا بدأ الإنسان بسياسة نفسه كان على سياسة غيره أقدر وإذا أهمل مراعاة نفسه كان بإهمال غيره أجدر»[(١)].

وثمرة الملك الراشد ونتيجته الطيبة تتجلى في تحقيق العزة للأمة، واستتباب الأمن، وتحقيق السعادة الدنيوية والأخروية، وقد ضرب الله لنا مثلًا للحكم الملكي الراشد في شرع من قبلنا، ومنه الأنبياء الملوك، وطالوت، وذو القرنين، وبلقيس ملكة سبأ، وقصصهم معلومة في القرآن الكريم.

ثانيًا: الملك الفاسد:

قابل جلال الدين الشيزري خمسة عشر وصفًا في الملك الفاسد، وهي: (الجور، الجهل، البخل، السرف، خلف الميعاد، الكذب، الغيبة، الغضب، العجب، الكبر، الحسد، العجلة، المزاح، الضحك، الغدر)[(٢)]، وهذه جميعًا من المناهي القرآنية، التي وردت فيها آيات كريمة، وهذه الخصال المذمومة إذا ما ظهرت على الملوك؛ فإنه يصدق فيهم وصف الملك بـ«الفاسد».

وأما ثمرة الملك الفاسد ونتيجته الخبيثة، فهي تعبيد الناس لغير الله، وشيوع الكفر، وانتشار الظلم والفواحش، والصد عن سبيل الله، والإفساد في الأرض، وفساد الرعية، وقد ضرب الله لنا مثلًا للحكم الملكي الفاسد في شرع من قبلنا، ومنه: فرعون، النمرود، وعزيز مصر، وقصصهم معلومة في القرآن الكريم.

ثالثًا: سياسة الرعية:

سياسة الرعية هو التخصص الدقيق للملوك -إن صح التعبير-، وهذه السياسة مبنية على قواعد قرآنية متينة، تعد بمثابة الأسس لقوام الملك، وهي ما يأتي:

١. الحكم بما أنزل الله.

الحكم بما أنزل الله هو أول ما ينبغي أن يجعله الملوك نصب أعينهم، إذ به يتحقق العدل والخير والأمن وغيرها من سياسية الرعية، وقد أوصى الله تبارك وتعالى الأنبياء بالحكم بما أنزل الله، وهي الوصية نفسها لمن تقلد الملك من الأنبياء، يذكر أنه دخل ابن شهاب على الوليد بن عبد الملك فقال: يا ابن شهاب ما حديث يحدثنا به أهل الشام؟ قال: وما هو يا أمير المؤمنين؟ قال: حدثونا أن الله -تبارك وتعالى- إذا استرعى عبدًا رعية كتب له الحسنات ولم يكتب عليه السيئات! قال: كذبوا يا أمير المؤمنين! أنبيٌّ خليفة أقرب إلى الله أم خليفةٌ ليس بنبيٍ؟ قال: بل نبيٌّ خليفة. قال: أنا أحدثك يا أمير

(١) درر السلوك في سياسة الملوك، الماوردي ص ٥٨.

(٢) انظر: المنهج المسلوك في سياسة الملوك، الشيزري ٣٥٩-٦٤٦.

المؤمنين بما لا شك فيه.

قال الله تعالى لنبيه داود: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلۡنَٰكَ خَلِيفَةً فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱحۡكُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلۡهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدُۢ بِمَا نَسُواْ يَوۡمَ ٱلۡحِسَابِ﴾ [ص: ٢٦].

يا أمير المؤمنين: هذا وعيد الله لنبي خليفة فما ظنك بخليفة غير نبي؟ فقال الوليد: إن الناس ليفرونا عن ديننا[(١)]، فكأنه لم يعجبه الكلام.

٢. العدل والإحسان.

قال الله تعالى: ﴿وَيَوۡمَ نَبۡعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٖ شَهِيدًا عَلَيۡهِم مِّنۡ أَنفُسِهِمۡۖ وَجِئۡنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِۚ وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ تِبۡيَٰنٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُسۡلِمِينَ﴾ [النحل: ٨٩].

قال الحسن البصري: «إن الله تعالى جمع الخير كله والشر كله في هذه الآية، وقال: إن استقامة الملك بالثلاثة المأمور بها في الآية واضطرابه بالثلاثة المنهي عنها فيها»[(٢)].

وقد خصص الطرطوشي بابًا في بيان معرفة الخصال التي هي قواعد السلطان ولا ثبات له دونها، وذكر أول الخصال وأحقها بالرعاية: «العدل، الذي هو قوام الملك، ودوام الدول ورأس كل مملكة سواء كانت نبوية أو اصطلاحية»[(٣)].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعَۢا بَصِيرٗا ۝٥٨ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا﴾ [النساء: ٥٨-٥٩].

قال ابن تيمية: «وإذا كانت الآية قد أوجبت أداء الأمانات إلى أهلها، والحكم بالعدل؛ فهذان جماع السياسة العادلة، والولاية الصالحة»[(٤)].

٣. تعبيد الناس لله.

من وظائف الملوك الشرفية: أن يوصلوا الخلق بالخالق؛ فيدلوهم على طريق الهداية، ويعينوهم على طاعة الله، لا أن يجعلوهم عبيدًا لهم، فقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ﴾ [الحج: ٤١].

قال الطرطوشي: «ومن ذلك آية الملوك التي أنزلها الله تعالى في السلاطين؛ لما اقتضته من السياسة العامة، التي فيها بقاء الملك، وثبوت الدول.

---

(١) انظر: سراج الملوك، الطرطوشي ص ٣٧.

(٢) انظر: المنهج المسلوك في سياسة الملوك، ص٢٤٣.

(٣) انظر: سراج الملوك، ص٥١.

(٤) السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية، ابن تيمية ص ٦.

قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَـٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٤٠].

ثم سمى المنصور وأوضح شرائط النصر فقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّـٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَـٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾[الحج: ٤١].

فضمن الله تعالى النصر للمملوك، وشرط عليهم أربع شرائط كما ترى، فمتى تضعضعت قواعدهم، أو انتقض عليهم شيء من أطراف ممالكهم، أو ظهر عليهم عدو، أو باغي فتنة، أو حاسد نعمة، أو اضطربت عليهم الأمور، أو رأوا أسباب الغير؛ فليلجؤوا إلى الله تعالى، ويستجيروا من سوء أقداره؛ بإصلاح ما بينهم وبينه سبحانه وتعالى، بإقامة الميزان بالقسط الذي شرعه الله تعالى لعباده، وركوب سبيل العدل والحق، الذي قامت به السماوات والأرض، وإظهار شرائع الدين، ونصر المظلوم، والأخذ على يد الظالم، وكف يد القوي عن الضعيف، ومراعاة الفقراء والمساكين، وملاحظة ذوي الخاصة والفقراء المستضعفين، وليعلموا أنهم قد أخلوا بشيء من الشروط الأربعة التي شرطت في النصر»[1].

٤. البطانة الصالحة.

قال الله تعالى في قصة موسى عليه السلام: ﴿وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى﴾ [طه: ٢٩].

قال الطرطوشي: «فلو كان السلطان يستغني عن الوزراء لكان أحق الناس بذلك كليم الله موسى بن عمران. ثم ذكر حكمة الوزراء فقال: ﴿ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى ۝٣١ وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى﴾[طه:٣١-٣٢].

دلت هذه الآية على أن موضع الوزير أن يشد قواعد المملكة وأن يفضي إليه السلطان بعجز ونحوه إذا استكملت فيه الخصال المحمودة.

ثم قال: ﴿كَىْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ۝٣٣ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا﴾ [طه: ٣٣-٣٤].

دلت هذه الكلمة على أن بصحبة العلماء والصالحين وأهل الخبرة والمعرفة؛ تنتظم أمور الدنيا والآخرة»[2].

٥. الشورى.

قال ابن تيمية: «لا غنى لولي الأمر عن المشاورة؛ فإن الله تعالى أمر بها نبيه صلى الله عليه وسلم فقال تعالى: ﴿فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل

(١) انظر: سراج الملوك، ص٣٩-٤٠.
(٢) انظر: سراج الملوك، ص٦٩.

عمران: ١٥٩]﴾.

رابعًا: آثار الملك:

يذكرنا القرآن الكريم بمصير الملوك والممالك، فقال تعالى: ﴿أَلَمْ نُهْلِكِ الْأَوَّلِينَ﴾ [المرسلات: ١٦].

وحتى لا نستصغر ملك الأولين وبساطته؛ فقد جاء التصريح القرآني بقوله تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثًا وَرِئْيًا﴾ [مريم: ٧٤].

فمن من الملوك كان خدمه الإنس والجن والطير والشياطين والوحوش والبهائم؟، ومن من الملوك تجري له الريح بأمره؟ هكذا كانت الملكية من قبل؛ حتى لا يستهين بها الملوك المتأخرين، فنبي الله سليمان عليه السلام كان مثالًا للملك الصالح، وعلى نظام الملكية الوراثي الذي أخذه عن أبيه النبي الملك داود عليه السلام، ومع كل ما آتاه الله من نعم، قال مقولةً خلدها القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾ [النمل: ٤٠].

ومقولة النبي الملك سليمان عليه السلام قررتها آية قرآنية أخرى، فقال سبحانه: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأنعام: ١٦٥].

ثم جاء الخطاب القرآني ليقرر أن هلاك الممالك سنة كونية؛ إذا ما اتبعت آثار الممالك الهالكة، فقال تعالى: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾ [الإسراء: ١٦].

وهذه الحقيقة القرآنية قائمة على خصال الملك الفاسد التي مرت معنا في المطلب الثاني، وإلا فالممالك باستطاعتها أن تحافظ على نفسها؛ إذا ما تجنبت الظلم والفسق وغيرهما من المهالك للممالك.

قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ [هود: ١١٧].

وأصرح آية في آثار الملك قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ﴾ [غافر: ٢١].

قال ابن عطية: «والآثار في ذلك: هي المباني والمآثر، والصيت الدنياوي»[1].

(١) المحرر الوجيز، ٤/ ٥٥٣.



عناصر الموضوع

مفهوم المن	٢٦٨
المن في القرآن	٢٦٩
الألفاظ ذات الصلة	٢٧٠
المن الإلهي	٢٧٢
المن من الخلق	٢٨٧

مفهوم المن

أولًا: المعنى اللغوي:

جاء في كتب اللغة: مَنَّ عليه مِنَّةً أي: امتن عليه، يقال: المِنَّةُ تهدم الصنيعة، وفي الحديث (ما أحدٌ أَمَنَّ علينا من ابن أبي قحافة)[1] أي: ما أحدٌ أجود بماله وذات يده، وفي التنزيل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ﴾ [البقرة: ٢٦٤].

فالمَنُّ ههنا أن تَمُنَّ بما أعطيت وتعتد به كأنك إنما تقصد به الاعتداد.

وقوله جل شأنه: ﴿وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ﴾ [المدثر:٦]. أي: لا تعط شيئًا مقدرًا لتأخذ بدله ما هو أكثر منه، وقد يطلق المنان على الذي لا يعطي شيئًا إلا مِنَّةً واعتد به على من أعطاه[2].

ومن معاني المن في اللغة كذلك: الاعتداد، والعطاء، والقطع[3].

ويأتي المن أيضًا بمعنى الإثقال بالنعمة، كما في قول الله تعالى ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٦٤][4].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

عرف المَنُّ في الاصطلاح بتعريفات مختلفة بحسب موضوعه، فمنه المحمود الذي يعني الإحسان إلى الناس وصنع الجميل لهم، ومنه المذموم الذي تبعه أذى أو طلب شكر أو منفعة كان مذمومًا مقطوعًا عن الأجر، وأورد هنا طرفا من تعريفات المن على هذا النحو:

فعرفه الغزالي بأنه: التحدث بالمعروف على الفقير وإظهاره وطلب المكافأة منه بالشكر والدعاء والخدمة والتوقير والتعظيم والقيام بالحقوق والتقديم في المجالس والمتابعة في الأمور[5].

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده، رقم ١٥٩٦٤، ٣/ ٤٧٨، والترمذي في سننه، أبواب المناقب، ٥/ ٦٠٧، رقم ٣٦٥٩.
قال الترمذي حديث غريب.
وضعفه الألباني في ضعيف سنن الترمذي، ص٤٩٠.

(٢) لسان العرب، ابن منظور١٣/ ٤١٥ بتصرف.

(٣) المصدر السابق بتصرف يسير.

(٤) بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي١/ ١٤٣٣، تاج العروس، الزبيدي ٣٦/ ١٩٤.

(٥) إحياء علوم الدين، الغزالي١/ ٢١٧ بتصرف.



المن في القرآن

وردت مادة (مَنَّ) في القرآن الكريم (٥١) مرة، يخص موضوع البحث منها(٢٦) مرة[١].

والصيغ التي وردت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	٨	﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا﴾ [آل عمران:١٦٤]
الفعل المضارع	٧	﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ [إبراهيم:١١]
فعل الأمر	١	﴿هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ۝٣٩﴾ [ص:٣٩]
اسم مفعول	٤	﴿وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ۝٣﴾ [القلم:٣]
مصدر	٦	﴿فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً﴾ [محمد:٤]

وجاء المن في القرآن على وجهين[٢]:

الأول: العطاء: قوله تعالى: ﴿وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ ۝٦﴾ [المدثر: ٦]. **يعني: لا تعط شيئًا قليلًا تزدريه؛ لتعطى أكثر منه.**

الثاني: المنة بعينها: قال تعالى: ﴿بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ﴾ [الحجرات: ١٧]. **أي: المنة لله أن هداكم للإيمان.**

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، ص٦٧٦- ٦٧٧.

(٢) انظر: الوجوه والنظائر، الدامغاني ص٤٣٣.

الألفاظ ذات الصلة

١ العطاء:

العطاء لغة:

جاء في كتب اللغة:العطاء والعطية اسمٌ لما يعطى، والجمع عطايا وأعطية، وأعطياتٌ جمع الجمع، ويقال:إنه لجزيل العطاء، وهو اسمٌ جامعٌ فإذا أفرد قيل: العطية وجمعها العطايا، وأما الأعطية فهو جمع العطاء، يقال: ثلاثة أعطيةٍ ثم أعطياتٌ جمع الجمع، ويقال: رجلٌ معطاءٌ كثير العطاء، وامرأة معطاءٌ كذلك، ومفعالٌ يستوي فيه المذكر والمؤنث[(١)].

قال الشاعر:أعطى وهنأنا ولم تك من عطيته الصغاره ومن العطية ما تعى جذماء ليس لها بذاره[(٢)].

العطاء اصطلاحًا:

والعطية عند الفقهاء ما يعطى بغير عوض هبة كان أو صدقة أو هدية[(٣)].

والمعنى في الاصطلاح لا يختلف عن المعنى اللغوي، حيث إن العطاء يدور معناه حول المناولة وهي في اللغة والاستعمال عبارة عن كل نفع أو ضر يصل من الغير إلى الغير كما ذكر ابن العربي عن حقيقة العطاء[(٤)].

الصلة بين المَنِّ والعطاء:

كلاهما يحقق معنى البذل بلا مقابل وفيهما المحمود الذي يوصف بالنفع، أو المذموم الذي يوصف بالضر.

٢ الإيتاء:

الإيتاء لغة:

الإيتاء: الإعطاء، آتى يؤاتي إيتاءً، وآتاه إيتاءً، أي: أعطاه، ويقال: آتاه الشيء، أي: أعطاه إياه[(٥)].

---

(١) انظر: لسان العرب، ابن منظور ١٥/ ٦٨، تاج العروس، الزبيدي ١٠/ ١٤٧.
(٢) البيت لأبي دهبل الجمحي.
انظر: تاج العروس، الزبيدي ١٠/ ١٤٧.
(٣) معجم لغة الفقهاء، قلعجي ص٣٧٨.
(٤) أحكام القرآن، ابن العربي ٤/ ٧٤.
(٥) مقاييس اللغة، ابن فارس ١/ ٥١، لسان العرب، ابن منظور ١٤/ ١٧.



ويرى الزبيدي أن الإيتاء أقوى من الإعطاء في إثبات مفعوله؛ لأن الإعطاء له مطاوع بخلاف الإيتاء تقول: أعطاني فعطوت ولا يقال: آتاني فآتيت، وإنما يقال: آتاني فأخذت، والفعل الذي له مطاوع أضعف في إثبات مفعوله مما لا مطاوع له [(1)].

الإيتاء اصطلاحًا:

إعطاء المال للغير على سبيل التمليك وحرية التصرف.

الصلة بين الإيتاء والمَنّ:

أما الصلة بين المن والإيتاء فتتضمن معنى العطاء والدفع والأداء من شخص إلى آخر، وأن من الإيتاء ما هو تفضل مثل المن المحمود وليس واجبًا ملزمًا على المعطى.

٣ الإحسان:

الإحسان لغة:

مصدر حسن، والحسن: ضد القبح ونقيضه، والإحسان: ضد الإساءة[(2)]

الإحسان اصطلاحًا:

هو: إتقان الأعمال والتطوع بالزائد عن الفرائض، ومقابلة الخير بأفضل منه، والشر بأقل منه[(3)].

وقال الراغب: (الإحسان على وجهين: أحدهما: الإنعام على الغير، والثاني: إحسان في فعله، وذلك إذا علم علمًا حسنًا أو عمل عملًا حسنًا)[(4)].

الصلة بين الإحسان والمن:

وتأتي الصلة بين الإحسان والمن في كونهما يتفقان في معنى الإنعام على الغير بما يحققه المن المحمود.

(١) تاج العروس، الزبيدي ٣٧/ ٣٤.
(٢) انظر: لسان العرب، ابن منظور ١٣/ ١١٧.
(٣) التفسير المنير ١٤/ ٢١٢.
(٤) المفردات ص ٢٣٦.

المن الإلهي

أولًا: التعريف باسم الله المنان:

ورد في بعض الأحاديث تسمية الله عز وجل بالمنان، فقد روي (عن أنسٍ أنه كان مع رسول الله صلى الله عليه وسلم جالسًا ورجلٌ يصلي ثم دعا اللهم إني أسألك بأن لك الحمد لا إله إلا أنت المنان بديع السموات والأرض يا ذا الجلال والإكرام يا حي يا قيوم. فقال النبي صلى الله عليه وسلم (لقد دعا الله باسمه العظيم الذي إذا دعي به أجاب وإذا سئل به أعطى) [(١)].

وقد وردت أقوال للعلماء في التعريف باسم الله المنان منها ما يلي:

قال الزجاج: «(المنان) فعَّال، من قولك: مننت على فلان،إذا اصطنعت عنده صنيعة وأحسنت إليه، فالله عز وجل منان على عباده بإحسانه وإنعامه ورزقه إياهم، وفلان يمن على فلان: إذا كان يعطيه ويحسن إليه» [(٢)].

وقال الحليمي: «ومنها: (المنان) وهو عظيم المواهب، فإنه أعطى الحياة والعقل والنطق، وصور فأحسن الصور، وأنعم فأجزل، وأسنى النعم، وأكثر العطايا والمنح» [(٣)].

قال تعالى: ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُۚ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ٣٤﴾ [إبراهيم: ٣٤].

وقال أبو بكر الأنباري: «وفي أسماء الله تعالى الحنَّان المنَّان، أي: الذي ينعم غير فاخر بالإنعام، وقال في موضع آخر: «المنان: معناه: المعطي ابتداء ولله المنة على عباده، ولا منة لأحد منهم عليه، تعالى الله علوًّا كبيرًا» [(٤)].

وقال ابن الأثير: « من أسماء الله تعالى: (المنَّان) هو المنعم المعطي، من المن: العطاء، لا من المنة. وكثيرًا ما يرد المن في كلامهم بمعنى الإحسان إلى من لا يستثيبه ولا يطلب الجزاء عليه، فالمنان من أبنية المبالغة، كالسَّفَّاك والوهَّاب» [(٥)].

والمنان تقدست أسماؤه جل وعلا، يقال: مَنَّ يَمُنُّ مَنًّا فهو المنان، والاسم: المنة، واشتقاقه في موضوع اللسان من المن، وهو العطاء دون طلب عوض، ومنه قوله تعالى ﴿هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ

(١) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الصلاة، باب الدعاء، رقم ١٤٩٧، والنسائي في سننه، كتاب السهو، باب الدعاء بعد الذكر، رقم ١٣٠٠. وصححه الألباني في صحيح أبي داود، الأم، ٥/ ٢٣٣.

(٢) اشتقاق أسماء الله، أبو القاسم الزجاجي ص ١٦٤.

(٣) الأسماء والصفات، البيهقي ص ٦٥.

(٤) لسان العرب، ابن منظور١٣/ ٤١٥.

(٥) النهاية في غريب الحديث، ابن الأثير ٤/ ٣٦٥.

حِجَابٌ ٣٩ [ص: ٣٩] في أحد وجوهه.

ويكون أيضًا مشتقًّا من: المنة، التي هي التفاخر بالعطية على المعطى، وتعديد ما عليه، والمعنيان في حق الله تعالى صحيحان، ويتصف أيضًا بهما الإنسان، لكن يتصف بالمعنى الواحد على طريق المدح، وبالمعنى الثاني على طريق الذم.

فالأول: الذي هو ممدوح، نحو أن يكون عطاؤه أو مَنُّهُ لوجه الله تعالى، ولا لنيل عوض من الدنيا.

ومن هذا القسم قوله عليه السلام فيما رواه أبو سعيدٍ الخدرى رضي الله عنه قال: (خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس وقال: (إن الله خَيَّرَ عبدًا بين الدنيا وبين ما عنده فاختار ذلك العبد ما عند الله). قال: فبكى أبو بكرٍ، فعجبنا لبكائه أن يخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم عن عبدٍ خيرًا. فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم هو المخير، وكان أبو بكرٍ أعلمنا، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن من أَمَنِّ الناس عليَّ فى صحبته وماله أبا بكرٍ، ولو كنت متخذًا خليلًا غير ربى لاتخذت أبا بكرٍ، ولكن أخوة الإسلام ومودته، لا يبقين فى المسجد بابٌ إلا سد، إلا باب أبى بكرٍ)[١].

والثاني: وهو أنْ يَمُنَّ الإنسان بالعطية، أي: يذكرها ويكررها، فهو المذموم، ومنه قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ [البقرة: ٢٦٤].

والمنان: الذي لا يعطي شيئًا إلا منة، كذا جاء مفسرًا في حديث مسلم عن أبى ذرٍّ عن النبى صلى الله عليه وسلم قال: (ثلاثةٌ لا يكلمهم الله يوم القيامة: المنان الذى لا يعطي شيئًا إلا منه، والمنفق سلعته بالحلف الفاجر، والمسبل إزاره)[٢].

والمنان أيضًا: الذي يمن على الله بعمله، وهذا كله في حق المخلوق حرام مذموم.

ولما كان البارئ سبحانه يدر العطاء على عباده منًّا عليهم بذلك وتفضلًا، كانت له المنة في ذلك، فيرجع المنان إذا كان مأخوذًا من المن الذي هو العطاء إلى أوصاف فعله.

ويرجع المنان إذا أخذته من المنة التي هي تعداد النعمة وذكرها، والافتخار بفعلها في معرض الامتنان، إلى صفة كلامه تعالى.

وبهذا يتبين أن كلمة المنان لها وجهان، وجه محمود ووجه مذموم، وذلك في حق البشر، أما في حق الله عز وجل، فلا تقتضي إلا المدح، وأنها اسم من أسماء الله تعالى،

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، في كتاب مناقب الصحابة، باب قول النبى صلى الله عليه وسلم: (سدوا الأبواب إلا باب أبي بكر)، رقم ٣٦٥٤.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب اللباس باب بيان غلظ تحريم إسبال الإزار، رقم ٣٠٧.

ولهذا تواترت آيات القرآن الكريم التي ورد فيها المن من الله تعالى على الناس على نحو ما سيأتي.

الثاني: المن على العرب بإرسال الرسول منهم:

من حكمة الله تعالى أنه أرسل الرسل والأنبياء لهداية الناس وإخراجهم من الظلمات إلى النور، وتلك نعمة كبرى تستحق الشكر، وقد أتى القرآن الكريم بمعنى من معاني المن ألا وهو الفضل والإيتاء، حيث أكرم الله تعالى العرب وأرسل إليهم رسولا من أنفسهم، وهو محمد صلى الله عليه وسلم، فقال جل شأنه: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾﴾ [آل عمران: ١٦٤].

قال الإمام الطبري في تفسيره: «لقد تطول الله على المؤمنين، إذ بعث فيهم رسولا، حين أرسل فيهم رسولا من أنفسهم، نبيا من أهل لسانهم، ولم يجعله من غير أهل لسانهم، فلا يفقهوا عنه ما يقول، فيقرأ عليهم آي كتابه وتنزيله، ويطهرهم من ذنوبهم باتباعهم إياه، وطاعتهم له فيما أمرهم ونهاهم، ويعلمهم كتاب الله الذي أنزل عليه، ويبين لهم تأويله ومعانيه، ويبين لهم السنة التي سنها الله جل ثناؤه للمؤمنين على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم، وإن كانوا من قبل أن يمن الله عليهم بإرساله رسوله الذي هذه صفته، لفي ضلال مبين، أي: في جهالة جهلاء، وفي حيرة عن الهدى عمياء، لا يعرفون حقًّا، ولا يبطلون باطلا»[1].

وهناك أقوال في معنى المنة في الآية وقد ذكرها الإمام القرطبي في تفسيره بيانها على النحو التالي:

حيث قال: «منها أن يكون معنى (من أنفسهم) أي: بشر مثلهم، فلما أظهر البراهين وهو بشر مثلهم علم أن ذلك من عند الله. وقيل: ﴿مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ منهم. فشرفوا به صلى الله عليه وسلم، فكانت تلك المنة.

وقيل: ﴿مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ ليعرفوا حاله ولا تخفى عليهم طريقته. وإذا كان محله فيهم هذا كانوا أحق بأن يقاتلوا عنه ولا ينهزموا دونه. وقيل ﴿مِّنْ أَنفَسِهِمْ﴾ (بفتح الفاء) يعني: من أشرفهم؛ لأنه من بني هاشم، وبنو هاشم أفضل من قريش، وقريش أفضل من العرب، والعرب أفضل من غيرهم. ثم قيل: لفظ المؤمنين عام ومعناه خاص»[2].

وقد جعل الله سبحانه وتعالى منة إرسال الرسول للمؤمنين خاصة؛ ليبين لهم عظم

(١) جامع البيان، الطبري ٦/ ٢١٢.
(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٤/ ٢٦٣.

هذه المنة عليهم، حيث أنهم المتفعون به، فكان النبي صلى الله عليه وسلم واحد منهم ومثلهم، وقد ذكر الله تعالى ذلك في مواضع عدة من كتاب الله تعالى، أكثرها ليس بلفظ المنة، ولكن بلفظ إرسال الرسول من نفس المؤمنين، وموضع واحد بلفظ المنة وهو قوله تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾﴾ [آل عمران:١٤٦].

روي عن عائشة رضي الله عنها: « ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ قالت: هذه للعرب خاصة. وقال آخرون: أراد به المؤمنين كلهم[(١)].

أما المواضع الأخرى التي فيها بيان نعمة إرسال الرسول من أنفسنا، وليست بلفظ المنة فهي:

قوله تعالى: ﴿كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٥١-١٥٢].

وقوله جل شأنه: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾ [التوبة: ١٢٨].

وقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِى كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾﴾ [النحل: ٨٩].

وهذه الآية في معرض شهادة النبي عليه الصلاة والسلام علينا أو لنا يوم القيامة.

وقوله جل شأنه: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢﴾﴾ [الجمعة: ٢].

وقد حدثنا الله تبارك وتعالى عن نعمته علينا بإرسال رسول لنا يتلو علينا آيات الله، ويعلمنا الدين، وأن هذا الرسول منا نعرفه قبل أن يكلف بالرسالة، فقد آمن بسيدنا محمد من يعرفونه أكثر من غيرهم، ووضح هذا الأمر من خلال بيان القرآن الكريم لذلك.

قال تعالى: ﴿كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾ فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾﴾ [البقرة: ١٥١-١٥٢].

وقد فسر الشيخ الشعراوي هذه الآية فقال: « إن أول من آمن برسول الله صلى الله عليه وسلم هم أولئك الذين يعرفونه

(١) انظر: شعب الإيمان، البيهقي ٢/ ١٦٣.

أكثر من غيرهم، كأبي بكر الصديق، وزوجته صلى الله عليه وسلم السيدة خديجة، وابن عمه علي بن أبي طالب، هؤلاء آمنوا دون أن يطلبوا دليلا؛ لأنهم أخذوا الإيمان من معرفتهم برسول الله صلى الله عليه وسلم قبل أن يكلف بالرسالة، فهم لم يعرفوا عنه كذبًا قط. فقالوا: إن الذي لا يكذب على الناس لا يمكن أن يكذب على الله فآمنوا، فالله سبحانه وتعالى من رحمته أنه أرسل إليهم رسولا منهم أميًا ليعلمه ربه»[1].

ولذلك قال الحق تبارك وتعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾ [التوبة: ١٢٨].

ونعمة الله على العرب بإرسال سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم إنما ذكرنا الله تعالى بها كثيرًا من أجل أن نذكر نعمه دائما علينا وقت حياتنا، والله عز وجل يريد من عباده الصالحين أن يذكروه دائما كما جاء في الحديث القدسي المشهور عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (**يقول الله عز وجل: أنا عند ظن عبدي، وأنا معه حين يذكرني، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملإ ذكرته في ملإ خير منه، وإن اقترب إلي شبرا، تقربت إليه ذراعا، وإن اقترب إلي ذراعا، اقتربت إليه باعا، وإن أتاني يمشي أتيته هرولة**)[2].

فالعبد الصالح يدرك نعم الله عليه في الدنيا والدين، وأنه واجب عليه أن يشكره على هذه النعم الظاهرة والباطنة، وأن يحمده على ما علمه عن طريق رسوله صلى الله عليه وسلم.

ثالثًا: المن بالنبوة والرسالة:

أرسل الله تعالى الرسل والأنبياء لهداية الناس وإخراجهم من الظلمات إلى النور كما هو معروف، وأمد الله الرسل بالمعجزات الباهرة، وأيدهم بالحجج القوية، وآتاهم القوة المعنوية والروحية التي يحاجون بها خصومهم، وهذا لدى جميع الأنبياء، وأمدَّ بعضهم بالقوة الجسدية والثروة، وملهكم ملكًا عظيمًا كما هو الحال عند نبي الله سليمان عليه السلام.

وقد ورد في القرآن طرفًا من ذلك، والذي يعتبر نموذجا لمنة الله تعالى على أحد أنبيائه، ففي قصة موسى عليه السلام نجد مِنَّةَ الله تعالى عليه في جوانب متعددة:

أولها: المن عليه بالاصطفاء بالنبوة وإنجائه من فرعون وهو طفل وليد.

(١) تفسير الشعراوي ١/ ٦٤٦.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الدعاء، باب فضل الذكر والدعاء والتقرب إلى الله، رقم ٢٦٧٥.

والثاني: إرساله إلى فرعون وملائه.

والثالث: إنعامه عليه بالنجاة من فرعون وهو كبير، حيث فر إلى مدين وأقام بها ما أقام ثم عودته إلى دياره. وغيرها من المنن المتعلقة بالنبوة والرسالة.

وبداية التذكير بهذه المنة نجده في أوائل سورة القصص، بلفظ إرادة المنة بتخليص المستضعفين من بطش فرعون وجنوده، حيث قال الله تعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ﴿٥﴾ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ ﴿٦﴾﴾ [القصص: ٥-٦].

ثم توالى ذكر المنن بعد ذلك في آيات مختلفة من سورة طه والصافات.

وفي موضع آخر يأتي ذكر منة الله تعالى على الأخوين موسى هارون في آيات جامعة لجملة من النعم التي أنعم الله تعالى عليهما بها، وذلك في قول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ ﴿١١٤﴾ وَنَجَّيْنَاهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴿١١٥﴾ وَنَصَرْنَاهُمْ فَكَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ ﴿١١٦﴾ وَآتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ ﴿١١٧﴾ وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١١٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِي الْآخِرِينَ ﴿١١٩﴾ سَلَامٌ عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ ﴿١٢٠﴾﴾ [الصافات: ١١٤ - ١٢٠].

قال الطبري في معناها:« ولقد تفضلنا على موسى وهارون ابني عمران، فجعلناهما نَبيَّين، ونجيناهما وقومهما من الغم والمكروه العظيم الذي كانوا فيه من عبودة آل فرعون، ومما أهلكنا به فرعون وقومه من الغرق»[1].

وذكر الماوردي في معنى المنٍّ هنا:

أحدهما: بالنبوة، قاله مقاتل.

والثاني: بالنجاة من فرعون، قاله الكلبي.

وأورد في معنى كلمة ﴿وَنَجَّيْنَاهُمَا﴾: قولين:

الأول: النجاة من الغرق.

والثاني: النجاة من الرق[2].

رابعًا: المن بالهداية بعد الإيمان:

الإيمان سلعة غالية ومطلب كبير، وسبب لفلاح الناس ونجاحهم فى الدنيا والآخرة، ولذلك ورد ذكره والتنويه بشأنه والتصريح بأهميته في آيات عدة من كتاب الله تعالى.

والله تعالى قد أرسل الرسل لهداية البشر، وجعل الرشاد في اتباعهم، والغي والضلال في مخالفتهم، وبين سبحانه وتعالى حال الأمم السابقة وحال البشر جميعا قبل هدايتهم للإيمان، ومنته تعالى عليهم بهذه النعمة، وقد جاء ذكر ذلك في موضعين:

الموضع الأول: في قول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ

(١) جامع البيان ٢١/ ٩٣.
(٢) النكت والعيون ٥/ ٦٣.

﴿فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَىٰ إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِندَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٩٤﴾﴾ [النساء: ٩٤].

وفي سبب نزول الآية ما روي عن ابن عباس قال: (مر رجل من بني سليم على نفر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه غنم، له فسلم عليهم، قالوا: ما سلم عليكم إلا ليتعوذ منكم، فقاموا فقتلوه وأخذوا غنمه، فأتوا بها رسول الله صلى الله عليه و سلم فأنزل الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَىٰ إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا﴾ (١).

وفي معنى قوله تعالى: ﴿فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ في الذي مَنَّ به أربعة أقوال:

الأول: أن المراد به الهجرة. قاله ابن عباس.

والثاني: أن المراد به إعلان الإيمان. قاله سعيد بن جبير.

والثالث: أن المراد به الإسلام. قاله قتادة ومسروق.

والرابع: أن المراد به التوبة على الذي قتل ذلك الرجل. قاله السدي (٢).

وأيًا كان المعنى فإن الله سبحانه وتعالى قد نبه المؤمنين وذكرهم بنعمته عليهم، وهي نعمة الإسلام التي كانوا محرومين منها.

وقال جل وعلا: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٧﴾﴾ [الحجرات: ١٧].

وفي معنى ﴿بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ﴾ يذكر الماوردي وجهين:

أحدهما: أن الله أحق أنْ يَمُنَّ عليكم أن هداكم للإيمان حتى آمنتم. وتكون المنة هي التحمد بالنعمة.

والوجه الثاني: أن الله تعالى ينعم عليكم بهدايته لكم، وتكون المنة هي النعمة. وقد يعبر بالمنة عن النعمة تارة وعن التحمد بها أخرى (٣).

وفي الآية لطائف تفسيرية أبرزها ما يلي:

اللطيفة الأولى: في قوله تعالى: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ﴾ زيادة بيان لقبيح فعلهم، وذلك لأن الإيمان له شرفان:

أحدهما: بالنسبة إلى الله تعالى وهو تنزيه الله عن الشرك وتوحيده في العظمة.

---

(١) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب التفسير، باب ومن سورة النساء، رقم ٣٠٣٠.
قال الترمذي: حديث حسن.
وضعفه الألباني في السلسلة الضعيفة، ٩/ ١١٠.

(٢) انظر: زاد المسير، ابن الجوزي ٢/ ١٧٣.

(٣) النكت والعيون ٥/ ٣٨٨.

وثانيهما: بالنسبة إلى المؤمن فإنه ينزه النفس عن الجهل ويزينها بالحق والصدق، فهم لا يطلبون بإسلامهم جانب الله ولا يطلبون شرف أنفسهم، بل منوا ولو علموا أن فيه شرفهم لما منوا به بل شكروا.

اللطيفة الثانية: في قوله: ﴿قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم﴾ أي: الذي عندكم إسلام، ولهذا قال تعالى: (﴿وَلَٰكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا﴾ ولم يقل: لم تؤمنوا ولكن أسلمتم؛ لئلا يكون تصديقًا لهم في الإسلام أيضًا كما لم يصدقوا في الإيمان.

اللطيفة الثالثة: في قوله: ﴿بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ﴾ يعني لا منة لكم، ومع ذلك لا تسلمون رأسًا برأس بحيث لا يكون لكم علينا ولا لنا عليكم منة، بل المنة عليكم.

وقوله تعالى: ﴿بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ﴾ حسن أدب حيث لم يقل لا تمنوا علي بل لي المنة عليكم؛ حيث بينت لكم الطريق المستقيم، ثم في مقابلة هذا الأدب قال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٥٢﴾ [الشورى: ٥٢][1].

خامسًا: المن بالقوة بعد الضعف:

ذكر القرآن الكريم لنا نموذجًا رائعًا فيما مَنَّ الله به على المستضعفين في أرض مصر من بني إسرائيل، حيث إن الله خلصهم بإيمانهم من طغيان فرعون وتسلطه واصبحوا قادة للخير.

قال تعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ۝٥ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾ [القصص: ٥-٦].

قال الجزائري في تفسير الآية: «أن الله أراد أن يمن على الذين استضعفوا في الأرض أرض مصر وهم بنو إسرائيل، فَمَنَّ عليهم بإيمانهم وتخليصهم من حكم فرعون وتسلطه، وجعلهم قادة في الخير، وجعلهم أيضا الوارثين لحكم البلاد وسياستها بعد إهلاك فرعون وجنوده»[2].

جعل الله سبحانه وتعالى القوة سببا للانتصار، وفلاح الأمم وصلاحها، وازدهارها وتقدمها،والضعف سببًا للهزيمة والانكسار، وبَيَّنَ الله سبحانه وتعالى نعمته ومنته على الأمة بتوحيدهم بعد فرقة، وتقويتهم بعد ضعف، فقال جل شأنه: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝٢٦﴾ [الأنفال: ٢٦].

قال الطبري: «وهذا تذكيرٌ من الله عز وجل أصحاب رسول الله صلى الله

(١) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٢٨/ ١٢٠.

(٢) أيسر التفاسير، الجزائري ٤/ ٥٢.

عليه وسلم، ومناصحة. يقول: أطيعوا الله ورسوله، أيها المؤمنون، واستجيبوا له إذا دعاكم لما يحييكم، ولا تخالفوا أمره وإن أمركم بما فيه عليكم المشقة والشدة، فإن الله يهونه عليكم بطاعتكم إياه، ويعجل لكم منه ما تحبون، كما فعل بكم إذ آمنتم به واتبعتموه وأنتم قليلٌ يستضعفكم الكفار فيفتنونكم عن دينكم، وينالونكم بالمكروه في أنفسكم وأعراضكم، تخافون منهم أن يتخطفوكم فيقتلوكم ويصطلموا»[(١)].

وقال ابن عاشور: « عطف على الأمر بالاستجابة لله فيما يدعوهم إليه، وعلى إعلامهم بأن الله لا تخفى عليه نياتهم، وعلى التحذير من فتنة الخلاف على الرسول صلى الله عليه وسلم تذكيرهم بنعمة الله عليهم بالعزة والنصر، بعد الضعف والقلة والخوف، ليذكروا كيف يسر الله لهم أسباب النصر من غير مظانها، حتى أوصلهم إلى مكافحة عدوهم وأن يتقي أعداؤهم بأسهم، فكيف لا يستجيبون لله فيما بعد ذلك، وهم قد كثروا وعَزُّوا وانتصروا.

فالخطاب للمؤمنين يومئذ، ومجيء هذه الخطابات بعد وصفهم بالذين آمنوا إيماء إلى أن الإيمان هو الذي ساق لهم هذه الخيرات كلها، وأنه سيكون هذا أثره فيهم كلما احتفظوا عليه كفوه من قبل سؤالهم، ومن قبل تسديد حالهم، فكيف لا يكونون بعد ترفه حالهم أشد استجابة وأثبت قلوبًا»[(٢)].

سادسًا: المن بالاجتماع بعد التفرق:

جعل الله عز وجل القوة والغلبة في الاجتماع والتآلف، كما أنه جعل الضعف في الوحدة والتفرق وهذا ما أشارت إليه الآية في القرآن الكريم: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ۝١٠٣﴾ [آل عمران: ١٠٣].

فقد حث الله تعالى علي الاجتماع ونهى عن التفرق، وهذا من باب التذكير بهذه النعمة؛ حيث كانوا أعداء ثم ألف الله بين قلوبهم بالإسلام[(٣)].

والقرآن الكريم فيه كثير من النماذج التي تدل على فضل الله ونعمته على العبد بالاجتماع بعد التفرق، ففي قصة سيدنا يوسف أروع الأمثال في هذا الجانب.

فلقد رأينا ما أصاب سيدنا يوسف من بعده وتفرقه عن أهله وعن دياره، والتعرض

(١) جامع البيان ١٣/ ٤٧٦.
والاصطلام: معناه الاستئصال والإبادة من الجذور، اصطلم القوم أي أبيدوا.
انظر لسان العرب، ابن منظور ١٢/ ٣٤٠.

(٢) التحرير والتنوير ٩/ ٣١٨.
(٣) انظر: النكت والعيون، الماوردي ١/ ٤١٤.

للالقاء في البئر وبيعه في السوق، ونحو ذلك مما هو معروف لدينا من هذه القصة مما ابتلي به يوسف عليه السلام، وتأتي إرادة الله أن ينعم على يوسف بالعزة بعد الذلة وبالغنى بعد الفقر، ومكنه في الأرض وجعله ذا مكانة عالية في مصر وإليه مقاليد الأمور، وتمر الأيام ويأتي أخوة يوسف عليه السلام إليه طالبين حاجة مما أصابهم من فقر في أرض كنعان، ويدخلوا على يوسف ويعرفهم، ويجزل لهم العطاء ويكرمهم.

ويعتبر قدوهم عليه نعمة كبيرة أنعم الله تعالى عليه بها، وهي جمع شمل الإخوة بعد تفرق دام سنوات، ويتحدث يوسف بذلك صريحا في القرآن: ﴿قَالُوٓاْ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِى قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝٩٠﴾ [يوسف: ٩٠].

وفي معنى قوله تعالى: ﴿قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ﴾ فيه ثلاثة أقوال:

أحدها: المَنُّ بخير الدنيا والآخرة.

والثاني: المَنُّ بالجمع بعد الفرقة.

والثالث: المَنُّ بالسلامة ثم بالكرامة [١].

وقال الشيخ الصابوني في هذه الآية: «تتحدث الآيات عن مجيء أسرة يعقوب بأسرهم إلى مصر، ودخولهم على يوسف وهو في عِزِّ السلطان وعظمة الملك، وتحقيق الرؤيا بسجود إخوته الأحد عشر له مع أبيه وأمه، واجتماع الشمل بعد الفرقة، وحلول الأنس بعد الكدر» [٢].

سابعًا: المَنُّ بالطيبات:

خلق الله سبحانه وتعالى الإنسان، وأسكنه الأرض، وأنعم عليه بنعم لا تعد ولا تحصى، وأباح له الأكل من هذه النعم شريطة أن يأكل الطيب ويجتنب الخبيث، وجاء هذا الأمر بأكل الطيب للأنبياء والرسل، وكذا لعامة الناس، وكذا المؤمنين منهم.

فقد قال الله تعالى للرسل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُواْ صَٰلِحًا إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ۝٥١﴾ [المؤمنون: ٥١].

وقال للناس جميعًا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ۝١٦٨﴾ [البقرة: ١٦٨].

وقال للمؤمنين: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ۝١٧٢﴾ [البقرة: ١٧٢].

وقال لبني إسرائل في مواضع: ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [البقرة: ٥٧].

وقوله جل ثناؤه: ﴿كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا

(١) زاد المسير، ابن الجوزي ٢/ ٢٨١.

(٢) صفوة التفاسير، الصابوني ٢/ ٦١.

﴿رَزَقْنَٰكُمْ وَلَا تَطْغَوْاْ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَىٰ ﴿٨١﴾﴾ [طه: ٨١].

وكل هذه الآيات ونحوها جاءت لتبين مِنَّة الله تعالى على الخلق بإباحة هذه الطيبات والانتفاع بها، وبالتالي ينبغي على الخلق أن يشكروا الله تعالى.

وإذا كان الله تعالى قد بَيَّنَ لنا هذه النعم، ونحن على يقين منها، فإنه أوجب علينا شكر تلك النعم.

فيكون شكر المنعم سبحانه وتعالى فرض على كل مكلف كما ذهب إليه أكثر العلماء[1]، وقد ورد الأمر به في القرآن الكريم مرارًا لا سيما في المواضع التي فيها ذكر النعم من المأكل والمشرب.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١٧٢﴾﴾ [البقرة: ١٧٢].

وقال جل شأنه: ﴿فَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَٱشْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١١٤﴾﴾ [النحل: ١١٤].

جاء في تفسير السلمي عند تفسير قوله تعالى﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾: وفي الأكل آداب أربع: الحلال، والصافي، والقوام، والأدب، فالحلال الذي لا يعصى الله فيه، والصافي الذي لا ينسى الله فيه، والقوام ما يمسك به النفس ويحفظ العقل، والأدب شكر المنعم»[2].

وإذا كانت الطيبات من نعم الله تعالى تقتضي منا شكرها، فإنه لا شك أن تناول الطيبات هذه يحقق للمرء منافع دنيوية وأخروية.

فالمأكولات الطيبة سبب لاستجابة الدعاء: كما ورد في حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن الله طيبٌ لا يقبل إلا طيبًا، وإن الله تعالى أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُواْ صَٰلِحًا﴾ وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾ ثم ذكر الرجل يطيل السفر: أشعث أغبر، يمد يديه إلى السماء: يا رب يا رب، ومطعمه حرامٌ، ومشربه حرامٌ، وملبسه حرامٌ، وغذي بالحرام، فأنى يستجاب لذلك؟)[3].

وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: (تليت هذه الآية عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِي ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا﴾ [البقرة: ١٦٨].

(فقام سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه فقال: يا رسول الله ادع الله أن يجعلني مستجاب الدعوة. فقال له النبي صلى الله

(١) اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل ١٠/ ١٢١.

(٢) حقائق التفسير ٢/ ٣٤.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الزكاة، باب قبول الصدقة من الكسب الطيب، رقم ٢٣٩٣.

عليه وسلم: (يا سعد أطب مطعمك تكن مستجاب الدعوة، والذي نفس محمد بيده إن العبد ليقذف اللقمة الحرام في جوفه ما يتقبل منه عمل أربعين يوما، وأيما عبد نبت لحمه من سحت فالنار أولى به)[١].

قال ابن رجب الحنبلي: «ومن أعظم ما يحصل به طيبة الأعمال للمؤمن طيب مطعمه، وأن يكون من حلال، فبذلك يزكو عمله، وفي هذا الحديث إشارةٌ إلى أنه لا يقبل العمل ولا يزكو إلا بأكل الحلال، وإن أكل الحرام يفسد العمل، ويمنع قبوله، وبعد ذكره لنص الحديث قال:والمراد بهذا أن الرسل وأممهم مأمورون بالأكل من الطيبات التي هي الحلال، وبالعمل الصالح، فما دام الأكل حلالًا، فالعمل صالح مقبولٌ، فإذا كان الأكل غير حلالٍ، فكيف يكون العمل مقبولًا ؟ وما ذكره بعد ذلك من الدعاء، وأنه كيف يتقبل مع الحرام، فهو مثالٌ لاستبعاد قبول الأعمال مع التغذية بالحرام»[٢].

كذلك تجد أن أكل الحلال وطيب المطعم أعون للمرء على العمل الصالح، وعلى الطاعة، وأن العمل الصالح لابد أن يكون مسبوقًا بأكل الحلال[٣].

قال ابن كثير: «يأمر تعالى عباده المرسلين، عليهم الصلاة والسلام أجمعين، بالأكل من الحلال، والقيام بالصالح من الأعمال، فدل هذا على أن الحلال عون على العمل الصالح، فقام الأنبياء، عليهم السلام، بهذا أتم القيام. وجمعوا بين كل خير، قولا وعملا ودلالة ونصحًا، فجزاهم الله عن العباد خيرًا»[٤].

وروي عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (أربع خلالٍ إذا أعطيتهن فلا يضرك ما عزل عنك من الدنيا حسن خليقةٍ، وعفاف طعمةٍ، وصدق حديثٍ، وحفظ أمانةٍ)[٥].

ولا ينبغي أن يغفل المرء عن مدى تأثير أكل الطيبات على نمو الجسم وسلامته وصحته. وهذه لا تحتاج لبرهان، فإن الشارع الحكيم حين أمرنا بتناول الطيبات وتجنب الخبائث، فنظرًا لما في الطيب من مزايا النفع للبدن، وسلامته من الأمراض، والمحافظة على صحة الإنسان.

(١) أخرجه الطبراني في الأوسط ٦٤٩٥، ٦/ ٣١٠.
وضعفه الألباني في السلسلة الضعيفة، ٤/ ٢٩٢، رقم ١٨١٢.
(٢) جامع العلوم والحكم ص ١٠٠.
(٣) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٣/ ٩١.
(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ٤٧٧.
(٥) أخرجه البخاري في الأدب المفرد، رقم ٢٨٨، كتاب حسن الخلق، باب حسن الخلق إذا فقهوا، والبيهقي في شعب الإيمان رقم ٨٠٠٩، ٦/ ٢٤٠.
وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة رقم ٧٣٣.

ثامنًا: المن بالنجاة:

النجاة من المهالك مطلب كل عاقل، بل هي مطلب كل مخلوق من الإنسان والحيوان وغيرهما، وقد ورد في كتاب الله تعالى ما يشير إلى مواقف تمنى الناس فيها أماني؛ اغترارًا منهم بفتنة غنى أو ثراء وقعت لغيرهم، فلم يقدرها الله تعالى لهم، فلما هلك المبتلى بتلك الفتنة رجعوا إلى رشدهم وصوابهم، وأيقنوا أن الخير يكمن فيما اختاره الله تعالى.

وذلك تجده واضحًا في قصة قارون، حيث أوتي من الكنوز ما أوتي، وخرج على قومه في زينته، فقال قوم: ﴿يَٰلَيۡتَ لَنَا مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٖ ٧٩﴾ [القصص: ٧٩].

فلما وقع لقارون ما وقع، ورأوا بأعينهم ذلك ندموا على تمنيهم، وتذكروا مِنَّة الله تعالى عليهم، فكان قوله جل شأنه ﴿وَأَصۡبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوۡاْ مَكَانَهُۥ بِٱلۡأَمۡسِ يَقُولُونَ وَيۡكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ وَيَقۡدِرُۖ لَوۡلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا لَخَسَفَ بِنَاۖ وَيۡكَأَنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ٨٢﴾ [القصص: ٨٢].

والمعنى في قوله ﴿لَوۡلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا﴾ أي: بالايمان والرحمة وعصمنا من مثل ما كان عليه قارون من البغي والبطر ﴿لَخَسَفَ بِنَا﴾[1].

وفي معرض آخر للنجاة والمن بها نجد هذه الآيات في سورة الطور ﴿وَأَقۡبَلَ بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ يَتَسَآءَلُونَ ٢٥ قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا قَبۡلُ فِيٓ أَهۡلِنَا مُشۡفِقِينَ ٢٦ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ﴾ [الطور: ٢٥-٢٧].

وقد ذكر الإمام الماوردي في قوله تعالى: ﴿فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا﴾ وجهين:

أحدهما: بالجنة والنعيم.

الثاني: بالتوفيق والهداية.

وفي قوله: ﴿وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ﴾ ثلاثة أوجه:

أحدها: أنه عذاب النار، قاله ابن زيد، وقال الأصم: السموم اسم من أسماء جهنم.

الثاني: أنه وهج جهنم، وهو معنى قول ابن جريج.

الثالث: لفح الشمس والحَرِّ، وقد يستعمل في لفح البرد[2].

وأيًا كان المعنى، فإن الله تعالى قد من عليهم بإنجاءهم من النار ولهيبها، وهذا من تمام نعم الله تعالى على عباده التي تستحق الشكر.

تاسعًا: المَنُّ بالأجر غير المقطوع:

أعد الله سبحانه وتعالى للمؤمنين الأجر العظيم جزاء لهم على إيمانهم وعملهم الصالح، ويعتبر إيمانهم وهداهم هذا فضل

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٣/ ٢١٩.

(٢) النكت والعيون ٥/ ٣٨٣.

ونعمة من الله تعالى عليهم؛ لأنه تبارك وتعالى هو أعلم بالمهتدين، فقال جل شأنه: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الحجرات:١٧].

وتأتي المنة من الله بالأجر غير المقطوع علي النبي محمد صلى الله عليه وسلم في موضع، وعلى المؤمنين الذين يعملون الصالحات في مواضع ثلاثة، وهذا إنما يظهر مدى عطاء الله الوفير لهم.

أما المن على النبي محمد صلى الله عليه وسلم فقد جاء في سورة القلم في قول الله تعالى: ﴿ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ۝١ مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ۝٢ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ۝٣﴾ [القلم: ١-٣].

وفي معنى هذه الآية الأخيرة في حق النبي صلى الله عليه وسلم أربعة أوجه:

الوجه الأول: ﴿غَيْرَ مَمْنُونٍ﴾ أي: غير محسوب، قاله مجاهد.

الوجه الثاني: ﴿غَيْرَ مَمْنُونٍ﴾ أي: أجرًا بغير عمل، قاله الضحاك.

الوجه الثالث: ﴿غَيْرَ مَمْنُونٍ﴾ أي: غير ممنون عليك من الأذى، قاله الحسن.

الوجه الرابع: ﴿غَيْرَ مَمْنُونٍ﴾ أي: غير منقطع.

ويحتمل خامسًا: غير مقدر وهو الفضل؛ لأن الجزاء مقدر، والفضل غير مقدر[1].

وأما المَنُّ على المؤمنين فقد جاء ذلك في أكثر من آية، منها:

قول الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ۝٨﴾ [فصلت:٨].

وقوله جل شأنه: ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُكَذِّبُونَ ۝٢٢ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ ۝٢٣ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٢٤ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ۝٢٥﴾ [الانشقاق: ٢٢-٢٥].

وقوله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝٤ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ۝٥ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ۝٦﴾ [التين: ٤-٦].

قال الطبري: « يقول تعالى ذكره لهؤلاء الذين آمنوا وعملوا الصالحات: ثواب غير محسوب ولا منقوص.

وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل، وأورد الطبري بسنده قول ابن عباس ﴿أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ يقول: غير منقوص. وقول مجاهد ﴿أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ يعني: غير محسوب[2].

وفي موضع آخر يقول المولى جل وعلا ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ۝٨﴾ [فصلت:٨].

(١) انظر: النكت والعيون، الماوردي ٦/ ٦١، تفسير السمعاني ٦/ ١٧.
(٢) جامع البيان ٢٤/ ٣٢٧.

والمراد به أجر غير منقوص في الآخرة.

وأورد الماوردي في جملة ﴿أَجۡرٌ غَيۡرُ مَمۡنُونٖ﴾ أربعة تأويلات:

أحدها: غير محسوب، قاله مجاهد.

والثاني: غير منقوص، قاله ابن عباس وقطرب.

الثالث: غير مقطوع، قاله ابن عيسى، مأخوذ من مننت الحبل إذا قطعته.

الرابع: غير ممنون عليهم به، قاله السدي[1].

وقد أشار ابن عاشور في تفسيره إلى أن معنى الآية: «أنها تنويه بشأن المؤمنين بأن لهم جزاءً نافعًا عن العمل الصالح، أو هو ما يعطونه من نعيم الجنة، والممنون: مفعول من المن، وهو ذكر النعمة للمنعم عليه بها، والتقدير غير ممنون به عليهم، وذلك كناية عن كونهم أعطوه شكرًا لهم على ما أسلفوه من عمل صالح، فإن الله غفور شكور، يعني: أن الإنعام عليهم في الجنة ترافقه الكرامة والثناء فلا يحسون بخجل العطاء، وهو من قبيل قوله: ﴿لَا تُبۡطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلۡمَنِّ وَٱلۡأَذَىٰ﴾ [البقرة: ٢٦٤].

فأجرهم بمنزلة الشيء المملوك لهم الذي لم يعطه إياهم أحد، وذلك تفضل من الله»[2].

أما من حيث ما يمن الله به عليه من الإيمان والعمل الصالح؛ فإنه يرتقي عن هذا.

قال تعالى: ﴿لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِيٓ أَحۡسَنِ تَقۡوِيمٖ ٤ ثُمَّ رَدَدۡنَٰهُ أَسۡفَلَ سَٰفِلِينَ ٥ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمۡ أَجۡرٌ غَيۡرُ مَمۡنُونٖ ٦﴾ [التين: ٤-٦].

فالإنسان الذي يمن الله عليه بالهدى فإن الباطل الذي في قلبه يتناقص وربما يزول بالكلية؛ كعمر بن الخطاب، وخالد بن الوليد، وعكرمة بن أبي جهل، وغيرهم[3].

---

(١) النكت والعيون، الماوردي ٥/ ١٦٩.

(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٤/ ٢٤١.

(٣) القول المفيد على كتاب التوحيد، ابن عثيمين ١/ ٣٨٣.

المن من الخلق

أولًا: المن الفعلي:

جعل الله عز وجل لكلِّ مؤمن نصيب من الابتلاء كما أخبرنا الله في كتابه العزيز ﴿الٓمٓ ۝ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝﴾ [العنكبوت: ١ - ٢].

وهذا الابتلاء تختلف صوره من عبد إلى آخر وكل على حسب إيمانه ضعفًا وقوة، فالأسر صورة واقع من صور الابتلاء، وفك الأسر مِنَّةٌ ونعمة من الله عزوجل، وهذا ما وصفه الله في آياته قائلا في القرآن الكريم، ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا۟ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ۚ ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَا۟ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ ۗ وَٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ۝﴾ [محمد: ٤].

وقد ذكر الماوردي في المن هنا قولين:

القول الأول: أنه العفو والإطلاق كما مَنَّ رسول الله صلى الله عليه على ثمامة بن أثال بعد أسره.

القول الثاني: أنه العتق، قاله مقاتل.

وذكر في الفداء وجهين:

أحدهما: أنه المفاداة على مال يؤخذ من أسير يطلق، كما فادى رسول الله صلى الله عليه وسلم في بدر كل أسير بأربعة آلاف درهم، وفادى في بعض المواطن رجلًا برجلين.

الثاني: أنه البيع، قاله مقاتل [(١)].

ومن لطائف الآية: روي عن بعضهم أنه قال: «كنت واقفا على رأس الحجاج حين أتي بالأسرى من أصحاب عبدالرحمن بن الأشعث وهم أربعة آلاف وثمانمائة فقتل منهم نحوًا من ثلاثة آلاف حتى قدم إليه رجل من كندة فقال: يا حجاج، لا جازاك الله عن السنة والكرم خيرًا، قال: ولم ذلك؟ قال: لأن الله تعالى قال: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا۟ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً﴾ في حق الذين كفروا، فوالله ما مننت ولا فديت؟ وقد قال شاعركم فيما وصف به قومه من مكارم الأخلاق:

ولا نقتل الأسرى ولكن نفكهم
إذا أثقل الأعناق حمل المغارم

فقال الحجاج: «أفٍّ لهذه الجيف أما كان فيهم من يحسن مثل هذا الكلام؟ خلوا سبيل من بقي. فخلي يومئذ عن بقية الأسرى، وهم زهاء ألفين، بقول ذلك الرجل» [(٢)].

ويتضح من خلال هذه الآية: أن الله تبارك وتعالى فَضَّلَ المَنَّ بفك الأسرى وقدمه على الفداء؛ لأنه من مكارم الأخلاق، ولهذا كانت العرب تفتخر به.

وقد وصانا النبي صلى الله عليه وسلم

(١) انظر: النكت والعيون، الماوردي ٥/ ٢٩٣.
(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٦/ ٢٢٦.

بمنة فك الأسرى، وجاءت في صورة الأمر وهي فريضة دينية، وقد كتبها الله عزوجل علينا وعلى من سبقنا، عن أبي موسى الأشعري، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أطعموا الجائع، وعودوا المريض، وفكوا العاني)[1].

وهناك أقوال كثيرة عن العلماء تدل على وجوب العمل بهذه المنة، ألا وهي فك الأسرى سأكتفي بذكر بعض من هذه الأقوال:

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: «فكاك الأسارى من أعظم الواجبات، وبذل المال الموقوف وغيره في ذلك من أعظم القربات»[2].

قال أبو بكر الجصاص رحمه الله: «وهذا الحكم من وجوب مفاداة الأسارى ثابت علينا»[3].

وتتأتي صورة أخرى من صور المَنِّ الفعلي وهى العطاء، فالله سبحانه وتعالى هو المنان صاحب العطاء الكثير فيبدأ جل وعلا بالنوال قبل السؤال.

وتتمثل هذه المنة فيما فعله الله عزوجل مع نبيه سليمان عليه السلام، فقد أعطاه الله من خيره بلا حدود تكريمًا لنبيه عليه السلام، ولسليمان أن يعطي من هذا العطاء الكثير لمن يشاء ويمنعه عن من يشاء.

وجاء هذا الأمر واضح من خلال قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾ فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾ هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٩﴾﴾ [ص: ٣٤ - ٣٩].

قال أبو بكر الجزائري في تفسيره: «أي: أعطيناه ما طلب منا وقلنا له: هذا عطاؤنا لك فامنن، أي: أعط ما شئت لمن شئت، وامنع ما شئت عمن شئت بغير حساب مَنًّا عليك. وفوق هذا وإن لك عندنا يوم القيامة للقربة وحسن المرجع، وهو قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٤٠﴾﴾ [ص: ٤٠][4].

هكذا بَيَّنَ الله جل وعلا إنعامه على عبده سليمان بالعطاء الوافر الذي لا يأتي إلا من عند الله وحده، ولا يقدر عليه أحدٌ إلا الله سبحانه وتعالى، فسبحانه يرزق من يشاء بغير حساب فهو المنان صاحب النعمة والفضل.

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المرضى، باب وجوب عيادة المريض، رقم ٥٦٤٩، ٧/ ١١٥.

(٢) مجموع فتاوى ابن تيمية، ٢٨/ ٦٤٢.

(٣) أحكام القرآن، الجصاص، ٢/ ٤٤٠.

(٤) أيسر التفاسير، الجزائري، ٤/ ٤٥١.

ثانيًا: المن القولي:

يعتبر الإنفاق صفة أساسية لدى المؤمن الصادق الذي يحب البذل والعطاء إخلاصًا وتقربًا إلى الله عزوجل فكان الجزاء والعوض من ربه أضعافًا مضاعفةً من الذي أنفقه ولا يماثله جزاء آخر، فالصدقة بعشرة أمثالها، وآيات القرآن خير باعث لكل مسلم على الإنفاق، فقال جل شأنه في كتابه العزيز: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٢٧٤].

والله عز وجل يعلم ما ينفقه العبد ابتغاء مرضاته، فيتقين أن ما ينفقه إنما سيخلفه الله له، فالخير واصل إلى صاحبه بلا محالة ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥ ۚ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٣٩﴾﴾ [سبأ: ٣٩].

وورد من الحديث القدسي أن رب العزة قال: (أنفق أنفق عليك)[(١)].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، (أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل على بلال، فوجد عنده صبرا من تمر، فقال: (ما هذا يا بلال؟) فقال: تمر أدخره، قال: (ويحك يا بلال، أوما تخاف أن يكون له بخار في النار؟ أنفق يا بلال، ولا تخش من ذي العرش إقلالا)[(٢)].

والمن في الإنفاق يبطل الثواب والأجر؛ لأن الله حذر منه حيث يجعل المحسن متطاولًا ومتفاخرا على من أحسن إليه، ويبين القرآن الكريم أن الإنفاق الذي يصاحبه المن والأذى إنما هو بغيض وقت الإنفاق وبعده.

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُوا۟ مَنًّا وَلَآ أَذًى ۙ لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٦٢﴾ ۞ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى ۗ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَلِيمٌ ﴿٢٦٣﴾﴾ [البقرة: ٢٦٢-٢٦٣].

وقد جاء في تفسير هذه الآية «أن الصدقة التي يعلم الله من صاحبها أنه يمن أو يؤذي، فإنه لا يتقبل صدقته. وذلك لأن من من أو آذى غيره كمن ينفق ماله للرياء والسمعة، والذي يرائي كمثل حجر أصم عليه تراب، وقد نزل عليه مطر شديد، فذهب التراب، وبقي الحجر أملس، وهكذا الذي يمن أو يرائي يلبس ثوبًا غير ثوبه، ثم لا يلبث أن ينكشف أمره، فيكون ما يلبس به كالتراب على الحجر الأملس الذي يذهب به الوابل

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، باب قول الله تعالى: (يريدون أن يبدلوا)، رقم ٧٤٩٦، ٩/ ١٤٣.

(٢) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير، رقم ١٠٢٤، ١/ ٣٤١.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، ١/ ٣١٦، رقم ١٥١٢.

المطر الشديد فلا يبقى من أثره شيء» [(١)].

أما المن بالإنعام فيأتي ليخبر المنعم عليه بما أنعم به المنعم؛ لأنه يذكره به، وهذا يتضح من خلال نموذجًا رائعًا تناوله القرآن فيما ورد عن قصة سيدنا موسى مع فرعون، فقد ذكره فرعون بأن كفر بالنعمة التي أنعم بها عليه وهي تربيته له، وكان رد سيدنا موسى عليه السلام: نعم هي نعمة علي أن عبدت الناس ولم تستعبدني.

قال تعالى: ﴿قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿١٩﴾ قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ ﴿٢٠﴾ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٢١﴾ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿٢٢﴾﴾ [الشعراء: ١٨-٢٢].

ذكر الطبري في تفسير هذه الآية: «يقول تعالى ذكره مخبرا عن قيل نبيه موسى صلى الله عليه وسلم لفرعون ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ﴾ يعني بقوله: وتلك تربية فرعون إياه، يقول: وتربيتك إياي، وتركك استعبادي، كما استعبدت بني إسرائيل نعمة منك تمنها علي بحق.» [(٢)].

وإذا كان القرآن الكريم قد حذر من المَنِّ بالعطاء من المخلوق للمخلوق، فإنه يلحظ أنَّ المِنَّةَ إذا أتت من العبد فإنها تكون مذمومة؛ لأنها تفسد الصنيعة، لذلك ذم الله تعالى العبد الذي يمن على الناس ويكون جزاؤه أن يحبط عمله، ولا يقبل بسبب المن.

وقد أشار تبارك وتعالى في آياته فقال: ﴿الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٦٢﴾ ۞ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ ﴿٢٦٣﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالْأَذَىٰ كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿٢٦٤﴾﴾ [البقرة: ٢٦٢-٢٦٤].

ومن خلال عرض هذه الآيات يتبين أن المَنَّ هو عطاء، ولكن يتحول هذا المعنى إلى معانٍ أخرى على قدر تصرف العبد، فإما أن يكون خيرًا، وإما أن يكون شرًّا، وأن المرء الحسن ينبغي عليه أن ينسى ما فعله من معروف مع غيره، وألا ينسى معروفًا فعله غيره معه.

موضوعات ذات صلة:

الإحسان، الإنفاق، البر، الخير، السعة، العطاء

(١) التفسير الوسيط، الزحيلي ١/ ١٥٣.
(٢) جامع البيان، الطبري ١٩/ ٣٤٢.



عناصر الموضوع

مفهوم الموت في القرآن	٢٩٢
الموت في الاستعمال القرآني	٢٩٣
الالفاظ ذات الصلة	٢٩٤
الأسلوب القرآني في عرض الموت	٢٩٦
الناس والموت	٣٠١
الموت والآخرة	٣١٠

مفهوم الموت في القرآن

أولًا: المعنى اللغوي:

«الميم والواو والتاء أصل صحيح، يدل على ذهاب القوة من الشيء، منه الموت: خلاف الحياة»[١].

والموت: ضد الحياة، مات يموت ويمات أيضًا فهو ميتٌ، وميتٌ مشددًا ومخففًا، وقومٌ موتى، وأمواتٌ، وميتون، مشددًا ومخففًا، ويستوي فيه المذكر والمؤنث[٢].

والميت الذي مات، والـــميت والمائت: الذي لم يمت بعد، يقال: لمن لم يمت إنه مائتٌ عن قليلٍ، وميتٌ، ولا يقولون لمن مات: هذا مائتٌ، قيل: وهذا خطأٌ، وإنما ميتٌ يصلح لما قد مات، ولما سيموت[٣].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

تعددت التعريفات للفظة الموت، وسنوردها إن شاء الله على النحو الآتي:

الموت: صفة وجودية خلقت ضدًا للحياة[٤].

وقيل الموت: «انقطاع تعلق الروح بالبدن ومفارقته وحيلولة بينهما، وتبدل حال، وانتقال من دار إلى دار»[٥].

وقيل الموت: مفارقة الروح للجسد[٦].

وقيل الموت: «حال خفاء وغيب، يضاف إلى ظاهر عالم يتأخر عنه، أو يتقدمه، تفقد فيه خواص ذلك الظهور»[٧].

لا يخرج معنى الموت اصطلاحًا عن المعنى اللغوي، كلاهما يدلان على خلاف الحياة.

(١) مقاييس اللغة، ابن فارس ٥/ ٢٨٣.
(٢) انظر: مختار الصحاح، الرازي ١/ ٣٠١.
(٣) انظر: لسان العرب، ابن منظور ٢/ ٩١، تاج العروس، الزبيدي ٥/ ١٠٠.
(٤) انظر: التعريفات، الجرجاني ص٢٣٥.
(٥) التذكرة بأحوال الموتى وأمور الآخرة، القرطبي ص١١٢.
(٦) انظر: المجموع، النووي ٥/ ١٠٥.
(٧) التوقيف على مهمات التعاريف، المناوي ص٣١٨.

الموت في الاستعمال القرآني

وردت مادة (موت) في القرآن الكريم (١٦٥) مرة[١].

والصيغ التي وردت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	٢٤	﴿وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ﴾ [آل عمران:١٥٨]
فعل المضارع	٣٤	﴿وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ [لقمان:٣٤]
فعل الأمر	٢	﴿فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَٰهُمْ﴾ [البقرة:٢٤٣]
المصدر	٥٠	﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ﴾ [المؤمنون:٩٩]
المصدر الميمي	٣	﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى﴾ [الأنعام:١٦٢]
اسم المره	٣	﴿إِنْ هِىَ إِلَّا مَوْتَتُنَا الْأُولَىٰ﴾ [الدخان:٣٥]
الصفة المشبه	٤٩	﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ۝٣٠﴾ [الزمر:٣٠]

وجاء الموت في القرآن على أربعة وجوه[٢]:

الأول: الموت نفسه: ومنه قوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ الْمَوْتِ﴾ [آل عمران:١٨٥].

الثاني: النطفة: ومنه قوله تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ﴾ [البقرة: ٢٨]. يعني: كنتم نطفًا في أصلاب الآباء فأحياكم بالخلق والإيجاد، أو كنتم نطفًا في الأرحام فأحياكم فيها.

الثالث: الضلال: ومنه قوله تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا﴾ [الأنعام: ١٢٢] يعني: ضالًا فهديناه.

الرابع: الجدب وقلة النبات: ومنه قوله تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا﴾ [يس: ٣٣]. يعني: الأرض الجدباء التي ليس عليها نبات أحييناها بالماء والنبات.

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، ص٦٧٨-٦٨٠، المعجم المفهرس الشامل، عبد الله جلغوم، ص١٢٩٢-١٢٩٦.

(٢) انظر: الوجوه والنظائر، الدامغاني، ص٤٢٠-٤٢١، نزهة الأعين النظائر، ابن الجوزي، ص٥٦٩-٥٧١، عمدة الحفاظ، السمين الحلبي، ٤/ ١٢٢-١٢٥.

الألفاظ ذات الصلة

١ الفناء:

الفناء لغةً:

الفاء والنون والحرف المعتل. هذا باب لا تنقاس كلمه، ولم يبن على قياس معلوم، قالوا: فني يفنى فناء، والله تعالى أفناه، والفنا مقصور، والجمع أفنية[(١)].

فنى الشيء فناء، وأفناه غيره. وتفانوا، أي: أفنى بعضهم بعضًا في الحرب[(٢)].

الفناء اصطلاحًا:

سقوط الأوصاف المذمومة، كما أن البقاء وجود الأوصاف المحمودة[(٣)].

الصلة بين الموت والفناء:

الموت: فيه رجعة مرة أخرى في الصغرى، ولا رجعة في الكبرى، الفناء: هو الانتهاء ولا رجعة فيها.

٢ القتل:

القتل لغةً:

«القاف والتاء واللام أصل صحيح يدل على إذلال وإماتة، مصدر قتله قتلًا»[(٤)].

القتل معروف. وقتله قتلًا وتقتالًا. وقتله قتلة سوءٍ، بالكسر[(٥)].

القتل اصطلاحًا:

إزالة الروح بفعل المتولي له[(٦)].

الصلة بين الموت والقتل:

الموت: ينفي الحياة مع سلامة البنية، القتل: ينفي الحياة مع انتقاض البنية[(٧)].

---

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٤/ ٤٥٣.
(٢) الصحاح، الجوهري ٦/ ٢٤٥٧.
(٣) التوقيف على مهمات التعاريف، المناوي ص ٢٦٤.
(٤) مقاييس اللغة، ابن فارس ٥/ ٥٦.
(٥) الصحاح، الجوهري ٥/ ١٧٩٧.
(٦) انظر: التوقيف على مهمات التعاريف، المناوي ص٢٦٨.
(٧) انظر: الفروق اللغوية، العسكري ص١٠٤.



٣ الإعدام:

الإعدام لغةً:

العين والدال والميم أصل واحد يدل على فقدان الشيء وذهابه، من ذلك العدم، وعدم فلان الشيء إذا فقده، وأعدمه الله سبحانه وتعالى أي: أماته، جمعه على العدماء[(١)]، عدمت الشيء بالكسر، أعدمه عدمًا، بالتحريك على غير قياس، أي: فقدته[(٢)].

الإعدام اصطلاحًا:

هي شنق الإنسان، وقتله على فعل شنيع قام بارتكابه.

الصلة بين الموت والإعدام:

الموت وقوعه على العباد من رب العباد، الإعدام: حصوله بيد الإنسان على المذنب بمشيئة الله.

(١) انظر: مقاييس اللغة، بن فارس ٤/ ٢٤٨.
(٢) انظر: الصحاح، الجوهري ٥/ ١٩٨٢.

الأسلوب القرآني في عرض الموت

تنوعت أساليب القرآن في عرض حقائق الموت، وسوف نتناولها بالبيان فيما يأتي:

أولًا: حقيقة الموت والحكمة منه:

إن كنه الموت وحقيقته متعذرة معرفتها، قال الغزالي رحمه الله: «لا يمكن كشف الغطاء عن كنه حقيقة الموت؛ إذ لا يعرف الموت من لا يعرف الحياة، ومعرفة الحياة متوقفة بمعرفة حقيقة الروح في نفسها، وإدراك ماهية ذاتها»[1].

وقال سيد قطب رحمه الله: «إننا لا نعرف شيئًا عن حقيقة الحياة وحقيقة الموت حتى اللحظة الحاضرة، ولكننا ندرك مظاهرهما في الأحياء والأموات، ونحن ملزمون أن نكل مصدر الحياة والموت إلى قوة ليست من جنس القوى التي نعرفها على الإطلاق، قوة الله»[2].

إن كل أمر قدره الباري -جل وعلا- لابد فيه من حكمة، ظهرت أم خفيت، والموت من أعظم ما قدره الله تعالى على خلقه، فقد جعله الله تعالى فتنة للانتقال من الدنيا إلى الآخرة.

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ﴾ [الملك: ٢].

وإنما قدم الموت هنا لأنه المخلوق أولًا، أو لأن أقوى الناس داعيًا إلى العمل من نصب موته بين عينيه[3].

قال ابن كثير رحمه الله: ومعنى الآية: أنه أوجد الخلائق من العدم؛ ليبلوهم ويختبرهم أيهم أحسن عملًا؟ كما قال: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا﴾ [البقرة: ٢٨].

فسمى الحال الأول -وهو العدم- موتًا، وسمى هذه النشأة حياة. ولهذا قال: ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ [البقرة: ٢٨].

وعند ابن أبي حاتم عن قتادة، قال في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ﴾: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول: (إن الله أذل بني آدم بالموت، وجعل الدنيا دار حياة ثم دار موت، وجعل الآخرة دار جزاء ثم دار بقاء)[4].

ونظرًا لتعذر معرفة كنه الموت، فقد رتب أهل العلم الأحكام الشرعية المتعلقة به بظهور أماراته، قال ابن قدامة رحمه الله: «إذا اشتبه أمر الميت اعتبر بظهور أمارات الموت: من استرخاء رجليه وانفصال كفيه، وميل أنفه، وامتداد جلدة وجهه، وانخساف صدغيه»[5].

---

(١) إحياء علوم الدين، الغزالي ٤/ ٤٩٥.
(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب ١/ ٢٩٨.
(٣) الكشاف، الزمخشري ٤/ ٥٧٥.
(٤) تفسير ابن أبي حاتم ١٠/ ٣٣٦٣.
(٥) المغني، ابن قدامة ٢/ ٣٠٧.

ثانيًا: الموت مصير كل حي:

إن الموت هو مصير محتوم لكل مخلوق حي، أوجده الله سبحانه؛ لقوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۖ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [العنكبوت: ٥٧].

وقوله تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ [الرحمن: ٢٦].

فهنا يخبر تعالى أن جميع أهل الأرض سيذهبون ويموتون، وكذلك أهل السموات، إلا من شاء الله، ولا يبقى أحد سوى وجهه الكريم، بل هو الحي الذي لا يموت أبدًا[١].

ولو نجا من الموت أحد لنجا منه أكرم البرية عند ربها محمد صلى الله عليه وسلم، ولو خلد أحد لخلد سيد الخلق صلى الله عليه وسلم، لكن الله كتبه عليه فقال: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ [الزمر: ٣٠].

ثم واسى الله تعالى رسوله، فأخبره بأن هذه سنته في خلقه، فقال: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَۖ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٤][٢].

وبعدها حذر المسلمين من النكوص على الأعقاب: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔاۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٤].

وكان من دعاء النبي عليه السلام: (أعوذ بعزتك الذي لا إله إلا أنت، الذي لا يموت، والجن والإنس يموتون)[٣]. فسبحان من تفرد بالبقاء، وكتب على عباده الفناء.

إن تمني عدم ملاقاة الموت لن يجعل الإنسان في حلٍ منه بل هو ملاقيه لا محالة[٤].

قال الله: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓاْ إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۞ وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ۞ قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْۖ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الجمعة: ٦-٨].

ولا ينفع الهرب من الموت.

قال الله: ﴿قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الأحزاب: ١٦].

ولن ينفع كذلك الالتجاء منه إلى بروج مشيدة: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُواْ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾ [النساء: ٧٨].

والجمع هنا في كلمة (بروج) مقصود أي: لو كنتم جميعًا معتصمين ببرج، وهذا

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧/ ٤٩٤.
(٢) القيامة الصغرى، عمر الأشقر ص١٨.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: (وهو العزيز الحكيم)، ٦/ ٢٦٨٨، رقم ٦٩٤٨.
(٤) أضواء البيان، الشنقيطي ٨/ ١٢٠.

البرج محاط بآخر وثالث ورابع، فلن يحميكم من الموت، وهذا يبين بجلاء قدرة الحق سبحانه في إنفاذ أمره بالموت[1].

ثالثًا: ندم الناس عند الموت:

كل الناس -مؤمنهم وكافرهم- سيندمون عند الموت، أما المؤمن فندمه على تفريطه في ساعة لم يذكر الله فيها، ويندم كذلك لعدم إكثاره من العمل الصالح، وعدم الحصول على الدرجات العليا من الجنة؛ ولذا أقسم الله بالنفس اللوامة فقال: ﴿وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ﴾ [القيامة: ٢].

قال مجاهد رحمه الله: «هي التي تلوم على ما فات، وتندم فتلوم نفسها على الشر لم عمله، وعلى الخير لم لم يستكثر منه»[2].

وأقسم الحسن رحمه الله على أنها نفس المؤمن[3].

أما الكافر فندمه بسبب تفريطه في جنب الله.

قال الله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ قَالَ رَبِّ ٱرۡجِعُونِ ۝٩٩ لَعَلِّيٓ أَعۡمَلُ صَٰلِحٗا فِيمَا تَرَكۡتُۚ كَلَّآۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَاۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرۡزَخٌ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ﴾ [المؤمنون: ٩٩-١٠٠].

والمعنى: لعلي أستدرك ما ضيعت من الإيمان والطاعة[4].

ولذا فإن الإنسان يتمنى الرجوع إلى دنياه ليتوب ويرجع عما اقترفه من قبل، لكن الله تعالى بين أن التوبة والإنابة لا تنفع فقط بعد الموت، بل حتى قبل خروج الروح، ومالم يغرغر الإنسان.

قال الله: ﴿وَلَيۡسَتِ ٱلتَّوۡبَةُ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ قَالَ إِنِّي تُبۡتُ ٱلۡـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمۡ كُفَّارٌۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعۡتَدۡنَا لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا﴾ [النساء: ١٨][5]. قال ابن كثير رحمه الله «فأما متى وقع الإياس من الحياة، وعاين الملك، وحشرجت الروح في الحلق، وضاق بها الصدر، وبلغت الحلقوم، وغرغرت النفس صاعدة في الغلاصم، فلا توبة متقبلة حينئذ، ولات حين مناص»[6].

رابعًا: الموت كتاب مؤقت:

إن الله تعالى كتب الموت، وجعل له وقتًا لا يتقدم ولا يتأخر.

قال الله: ﴿وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَاۚ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ [المنافقون: ١١].

وقال: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ لَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ سَاعَةٗ وَلَا يَسۡتَقۡدِمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٤].

والمعنى: سيأتي وقت محدود ينزل فيه

(١) تفسير الشعراوي ٤/ ٢٤٣٦.
(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٩/ ٩٣.
(٣) فتح القدير، الشوكاني ٥/ ٣٣٥.
(٤) التفسير الميسر، مجمع الملك فهد ص ٣٤٨.
(٥) انظر: تفسير ابن أبي حاتم ٣/ ٩٠٠.
(٦) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٢٣٨.

عذابهم من الله أو يميتهم فيه[١].

وذكر سبحانه أنه عجل الموت على خلق وأخره على آخرين، فمنهم المستأخر والمستعجل[٢].

قال الله: ﴿نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾ [الواقعة: ٦٠].

وعند مسلم من حديث ابن مسعود: أن النبي صلى الله عليه وسلم أوصى أمنا أم حبيبة رضي الله عنها بعد أن دعت الله بأن يمتعها بزوجها وأبيها وأخيها، فقال: (قد سألت الله لآجال مضروبة، وأيام معدودة، وأرزاق مقسومة، لن يعجل شيئًا قبل حله، أو يؤخر شيئًا عن حله)[٣].

وقد أخبر تعالى أن النفوس جميعها متعلقة بآجالها بإذن الله وقدره وقضائه، فمن حتم عليه بالقدر أن يموت مات ولو بغير سبب، ومن أراد بقاءه، فلو أتى من الأسباب بكل سبب، لم يضره ذلك قبل بلوغ أجله.

قال الله: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُؤَجَّلًا﴾[آل عمران: ١٤٥].

وقال الله: ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ [الرعد: ٣٨].

ومع أن الله تعالى أقت للموت، إلا إنه جعل هذا الأجل مجهولًا عن صاحبه؛ ليدفعه للعمل، والاستمرار على الطاعة، والانتباه والحذر من ساعة الأجل، فقال: ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ [لقمان: ٣٤].

قال قتادة رحمه الله: «أشياء استأثر الله بهن، فلم يطلع عليهن ملكًا مقربًا، ولا نبيًا مرسلًا ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ فلا يدري أحد من الناس متى تقوم الساعة، في أي سنة أو في أي شهر، ﴿وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ﴾ فلا يعلم أحد متى ينزل الغيث، ليلًا أو نهارًا، ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ﴾ فلا يعلم أحد ما في الأرحام، أذكر أم أنثى، أحمر أو أسود، ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا﴾ أخير أم شر، ولا تدري يا ابن آدم متى تموت؟ ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾، ليس أحد من الناس يدري أين مضجعه من الأرض، أفي بحر أم بر؟»[٤].

خامسًا: الموت بيد من بيده الحياة:

الله تعالى هو خالق الحياة والموت، وجعلهما بيده سبحانه ومن أسمائه: الحي.

قال الله: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

---

(١) فتح القدير، الشوكاني ٢/ ٢٠٢.
(٢) جامع البيان، الطبري ٢٣/ ١٣٧.
(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب القدر، باب بيان أن الآجال والأرزاق وغيرها لا تزيد ولا تنقص عما سبق به القدر، ٤/ ٢٠٥٠، رقم ٢٦٦٣.
(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٣٥٥.

والحي هو «الذي لم يزل موجودًا وبالحياة موصوفًا، لم تحدث له الحياة بعد موت، ولا يعترضه الموت بعد الحياة، وسائر الأحياء يعتورهم الموت والعدم»[1]، وإذا قيل في حق الله: هو حي، فالمعنى «لا يصح عليه الموت، وليس ذلك إلا لله عز وجل»[2].

والناظر في الآيات يجد أن الله أسند الموت وأخذ الروح إلى نفسه تارة فقال: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا﴾ [الزمر: ٤٢].

وأسنده مرة إلى الملائكة، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ [النساء: ٩٧].

وقال: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ﴾ [الأعراف: ٣٧].

وقال: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۙ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ [الأنفال: ٥٠].

وأسنده إلى ملك الموت، فقال: ﴿قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ [السجدة: ١١].

فمن الذي يتوفى الأنفس حقيقة؟ وهل بين هذه الآيات تعارض؟.

قال الشنقيطي رحمه الله: «والجواب عن هذا ظاهر: وهو أن إسناده التوفي إلى نفسه؛ لأن ملك الموت لا يقدر أن يقبض روح أحد إلا بإذنه ومشيئته تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا﴾ [آل عمران: ١٤٥].

وأسنده لملك الموت؛ لأنه هو المأمور بقبض الأرواح، وأسنده للملائكة؛ لأن ملك الموت له أعوان من الملائكة تحت رئاسته، يفعلون بأمره وينزعون الروح إلى الحلقوم، فيأخذها ملك الموت»[3].

وقيل جوابًا عليه أيضًا: إن الله تعالى هو المتوفي بخلق الموت، وأمر الوسائط بنزع الروح، والملائكة المتوفون أعوان ملك الموت وهم يجذبون من الأظفار إلى الحلقوم، وملك الموت يتناول الروح من الحلقوم، فصحت بذلك الإضافات كلها[4].

(١) الأسماء والصفات، البيهقي ١/ ٦٣.
(٢) المفردات، الراغب الأصفهاني ص٢٧٩.
(٣) دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب، الشنقيطي ص١٨٤.
(٤) أنموذج جليل في أسئلة وأجوبة عن غرائب آي التنزيل، الرازي ص٤٠٩.

الناس والموت

من عجائب القرآن أنه ركز على قضايا خاصة في حياة الناس، وحتى في أشد الظروف مرارة وقساوة، سواء في صحة أو سقم، في مرض أو موت، أو حرب أو سلم، فردًا أو جماعة، غنيًا أو فقيرًا، فسبحان من أودع العلوم في كتابه: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٣٨].

يتحدث القرآن عما يعتقده ذلك الكافر عند حضور الموت، واعتقاد المؤمن كذلك، ويتحدث عن توبة الإنسان عند موته، وعن وصية الإنسان وهو على عتبة الموت، ويعطي مثالًا رائقًا رائعًا عن وصية يعقوب لأبنائه عند موته. وسيكون بحثنا -بإذن الله- عن هذه المسائل:

أولًا: اعتقاد الكافر أن الموت نهاية المطاف:

يعتقد المكذبون بالبعث أن الموت هو النهاية العظمى وهو آخر المطاف، ولا بعث بعدئذ، حيث قالوا: ﴿أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ۝٨٢ لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَٰذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ [المؤمنون: ٨٢-٨٣].

ثم اعتقدوا أن لا حياة بعد ذلك ولا نشورًا.

قال الله: ﴿بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا﴾ [الفرقان: ٤٠].

فزاد تكذيبهم وعنادهم وقالوا: ﴿وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ [الأنعام: ٢٩].

وقد سطرت الآيات الكريمة مشهدًا يصور منطق تلك العقلية التي نشأت على التكذيب بالبعث وظلم النفس والابتعاد عن الحق.

قال الله: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ ۖ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ۝٧٨ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ۝٧٩ الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ۝٨٠ أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾ [يس: ٧٨-٨١].

روى ابن أبي حاتم بسنده عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: (جاء العاص بن وائل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بعظم حائل، ففته بيده فقال: يا محمد أيحيي الله هذا بعدما أرم؟، قال: (نعم يبعث الله هذا، ثم يميتك، ثم يحييك، ثم يدخلك نار جهنم)[1].

وقال الله: ﴿وَيَقُولُ الْإِنسَانُ أَإِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا﴾ [مريم: ٦٦].

واختلف هنا في من المقصود بالإنسان؟

(١) تفسير ابن أبي حاتم ١٠/ ٣٢٠٢.
وصححه الوادعي، في الصحيح المسند من أسباب النزول ص١٧٤.

هل هو عام، أم أنه قصد أحدًا بعينه؟. فقيل: العاص، وقيل: أبي بن خلف أو الوليد بن المغيرة[1].

وأيًا كان، فكل من كان على هذه الشاكلة فهو مقصود، والمعنى: يقول المنكر للبعث، المستبعد لوقوعه: كيف يعيدني الله حيًا بعد الموت، وبعد ما كنت رميمًا؟[2].

ولذا فإن الكافر بعد أن يعاين ما بعد الموت، يأخذ بالدعاء والتضرع بالرجوع إلى الدنيا مرة أخرى؛ ليستأنف عمله ويشرع بالحسنى، ولكن هيهات ساعتئذ.

قال الله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّآ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [المؤمنون: ٩٩-١٠٠].

وهو من كان يقول قبل: ﴿أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ﴿٣٥﴾ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ [المؤمنون: ٣٥-٣٧].

ثانيًا: اعتقاد المؤمن أن الموت مرحلة:

وأما المؤمن، فإنه يعتقد بأن الموت ليس إلا طريقًا للدار الآخرة، وهو أول مراحلها؛ ولذا فقد أخبر الله تعالى أن مجيء الموت هو طريق لما بعده من نفخ الصور، ومجيء الشهود، ورؤية ما لم تره من قبل، فقال: ﴿وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴿١٩﴾ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْوَعِيدِ ﴿٢٠﴾ وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ ﴿٢١﴾ لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ [ق: ١٩-٢٢].

إن المخاطب بهذه الآيات هو الإنسان[3]، سواء كان مؤمنًا أم كافرًا، والمؤمن يقبله كعين يقين، فلا يشك بما جاء من عند الله.

ولما كانت نفرته منه وهربه من وقوعه بحفظ الصحة ودواء الأداء في الغاية، كان كأنه لا ينفر إلا منه، فأشار إلى ذلك بتقديم الجار فقال: ﴿مِنْهُ تَحِيدُ﴾[4].

قال أبو السعود رحمه الله: «بعدما ذكر استبعادهم للبعث والجزاء وأزيح ذلك بتحقيق قدرته تعالى وعلمه، وبين أن جميع أعمالهم محفوظة مكتوبة عليهم، أتبع ذلك ببيان ما يلاقونه لا محالة من الموت والبعث، وما يتفرع عليه من الأحوال والأهوال، وقد عبر عن وقوع كل منها بصيغة الماضي إيذانًا بتحقيقها وغاية اقترابها»[5].

وذكر سبحانه أن خروج الروح ما هي إلا مساق إليه، فليس خروجها نهاية الأمر، قال سبحانه: ﴿كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِىَ ﴿٢٦﴾ وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ ﴿٢٧﴾

(١) فتح البيان، صديق خان ٨/ ١٨٣.
(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٤٩٨.
(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧/ ٣٩٩.
(٤) نظم الدرر، البقاعي ١٨/ ٤٢٣.
(٥) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٨/ ١٢٩.

﴿وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ ۝٢٨ وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ ۝٢٩ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ﴾ [القيامة: ٢٦-٣٠].

قال السعدي رحمه الله: «يعظ تعالى عباده بذكر حال المحتضر عند السياق، وأنه إذا بلغت روحه التراقي، وهي العظام المكتنفة لثغرة النحر، فحينئذ يشتد الكرب، ويطلب كل وسيلة وسبب يظن أن يحصل به الشفاء والراحة، ولهذا قال: ﴿وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ﴾ أي: من يرقيه؛ لأنهم انقطعت آمالهم من الأسباب العادية، فلم يبق إلا الأسباب الإلهية. ولكن قضاء الله إذا حتم فلا مرد له. ﴿وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ﴾ للدنيا. ﴿وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ﴾ أي: اجتمعت الشدائد والتفت، وعظم الأمر وصعب الكرب، وأريد أن تخرج الروح التي ألفت البدن ولم تزل معه، فتساق إلى الله تعالى، حتى يجازيها بأعمالها، ويقررها بفعالها»[1].

ثم إن الموت إما جسر يمد للمؤمن إلى الجنة، أو جسر يمد للكافر إلى جهنم والعياذ بالله.

قال تعالى: ﴿فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ ۝٨٣ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ۝٨٤ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ۝٨٥ فَلَوْلَا إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ۝٨٦ تَرْجِعُونَهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ۝٨٧ فَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ ۝٨٨ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ۝٨٩ وَأَمَّا إِن كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ ۝٩٠ فَسَلَامٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ ۝٩١ وَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ ۝٩٢ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ۝٩٣ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ۝٩٤ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ﴾ [الواقعة: ٨٣-٩٥].

وبناء على ما تبين، فإن من الألفاظ التي نهى عنها أهل العلم: قول بعض الناس: (دفن فلان في مثواه الأخير)!! لأنه من المعلوم أن الموت والقبر ما هما إلا مرحلة بين الدنيا والآخرة، فبعدهما يأتي البعث ثم الحشر، ثم العرض في يوم القيامة ثم إلى جنة أو نار: ﴿فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾ [الشورى: ٧].

ولذا فلو أطلقها إنسان معتقدًا ما ترمي إليه من المعنى الإلحادي الكفري المذكور؛ لكان كافرًا مرتدًا فيجب إنكار إطلاقها، وعدم استعمالها[2].

ثالثًا: التوبة عند الموت:

التوبة: مأخوذة من (توب)، والتاء والواو والباء: أصل يدل على الرجوع[3]. وتاب إلى الله تعالى من كذا وعن كذا: أناب ورجع عن المعصية إلى الطاعة[4].

والتوبة النصوح: هي توثيق العزم على أن لا يعود[5].

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٩٠٠.

(٢) المناهي اللفظية، بكر أبو زيد ٤٧٦.

(٣) مقاييس اللغة، ابن فارس ١/ ٣٥٧.

(٤) لسان العرب، ابن منظور ١/ ٢٣٣.

(٥) التوقيف على مهمات التعاريف، المناوي ص٢١٣.

والتوبة هي ترك الذنب مخافة الله، واستشعار قبحه، وندم على المعصية من حيث هي معصية، والعزيمة على ألا يعود إليها إذا قدر عليها، وتدارك ما أمكنه أن يتدارك من الأعمال[1]. وحقيقتها ليست فقط ترك الذنب، بل لابد فيها من التزام بأمر الله.

وقد أتت التوبة في القرآن على ثلاثة أوجه[2]:

أولًا: بمعنى الندم: كقوله تعالى: ﴿فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾ [البقرة: ٥٤].

ثانيًا: بمعنى التجاوز: كقوله تعالى: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ﴾ [التوبة: ١١٧].

ثالثًا: بمعنى الرجوع عن الشيء: كقول موسى عليه السلام: ﴿تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٣].

وقد أمر الله عباده بالتوبة فقال: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [النور: ٣١].

ويبشرهم بقبولها بقوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ﴾ [الشورى: ٢٥].

وفتح لهم باب الرجاء، بعفوه عنهم ومغفرته لهم، فقال: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣].

ولذا كان واجبًا على الخلق أن يبادروا بالتوبة إلى الله، بل واتفقت الأمة على ذلك[3]، فإن فعلوا فقد أوجب الله على نفسه قبولها منهم في وقتها، فقال: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٧].

وحتى تكون توبة العبد مقبولة عند الله، لابد وأن تكون في وقتها، ووقتها الذي قدره الله موسع، وهو من وقوع الذنب إلى ما قبل حضور الموت.

قال الله: ﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [النساء: ١٨].

يعني بذلك -جل ثناؤه-: وليست التوبة للذين يعملون السيئات من أهل الإصرار على معاصي الله حتى إذا حشرج أحدهم بنفسه، وعاين ملائكة ربه قد أقبلوا إليه لقبض روحه، ثم قال: وقد غلب على نفسه، وحيل بينه وبين فهمه، بشغله بكرب حشرجته وغرغرته: ﴿إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ﴾

(١) التوبة إلى الله، صالح السدلان ص١٠.
(٢) قاموس القرآن، الدامغاني ص٩٠.
(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٥/ ٩٠.

يقول: فليس لهذا عند الله توبة؛ لأنه قال ما قال في غير حال توبة[1].

وذكر هذا النبي صلى الله عليه وسلم حيث قال: (إن الله عز وجل ليقبل توبة العبد ما لم يغرغر)[2]، وقوله: (ما لم يغرغر) أي: ما لم تبلغ روحه حلقومه[3].

ووقتها كذلك إلى ما قبل رؤية العذاب أو بعض علامات الساعة.

قال الله: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا قُلِ ٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٨].

وجمهور المفسرين على أن المقصود بقوله: ﴿يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ﴾ أي: طلوع الشمس من مغربها[4].

وقد بين النبي صلى الله عليه وسلم ذلك بقوله: (لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها، فإذا رآها الناس آمن من عليها، فذاك حين ﴿لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ﴾). ثم قرأ الآية[5].

(١) جامع البيان، الطبري ٨/ ٩٨-٩٩.
(٢) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب الدعوات، ٥/ ٥٤٧، رقم ٣٥٣٧.
قال الترمذي: حسن غريب.
وحسنه الألباني في صحيح الجامع، ١/ ٣٨٦، رقم ١٩٠٣.
(٣) قوت المغتذي على جامع الترمذي، السيوطي ٢/ ٩٥٥، رقم ٣٥٣٧.
(٤) فتح البيان، صديق خان ٤/ ٢٨٣.

رابعًا: الوصية عند الموت:

الوصية في اللغة: أخذت هذه اللفظة من وصيت الشيء إذا أوصلته[6].

أما شرعًا فتعني: تمليك مضاف إلى ما بعد الموت بطريقة التبرع[7].

والوصية مشروعة بالكتاب والسنة وإجماع الأمة:

أما بالكتاب فلورود الآيات الكثيرة التي دلت على مشروعيتها.

قال الله: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ بِٱلْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ١٨٠].

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ما حق امرئ مسلم له شيء يوصي فيه، يبيت ليلتين إلا ووصيته مكتوبة عنده). قال ابن عمر: ما مرت علي ليلة منذ سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ذلك إلا وعندي وصيتي[8].

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، باب (لا ينفع نفسًا إيمانها)، ٦/ ٥٨، رقم ٤٦٣٥.
(٦) لسان العرب، ابن منظور ١٥/ ٣٩٤.
(٧) حاشية ابن عابدين ٦/ ٦٤٧.
(٨) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الوصايا، باب الوصايا، ٣/ ١٠٠٥، رقم ٢٥٨٧.

ونقل ابن قدامة رحمه الله الإجماع على مشروعيتها[1].

قال ابن عبد البر -رحمه الله: «أجمعوا على أن الوصية غير واجبة، إلا على من عليه حقوق بغير بينة، وأمانة بغير إشهاد، إلا طائفة شذت فأوجبتها»[2].

يخبرنا القرآن عن ذلك المشهد المؤثر بين يعقوب عليه السلام عندما حضرته الوفاة وأبنائه، ولنا أن نتخيل هذا المشهد بصورته المعهودة: أب مضطجع ومسجى في غطائه يكابد الموت، وأبناء حوله جلوس يرقبونه، ويتألمون لفراقه، عند ذلك يترك يعقوب الحديث عن الألم والفراق وينظر إلى ما هو أجل وأكمل.

ويسوق القرآن لنا هذا الحوار بين يعقوب وبنيه داعيا إلى تأمل الحوار.

قال الله: ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبۡرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعۡقُوبُ يَٰبَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ١٣٢ أَمۡ كُنتُمۡ شُهَدَآءَ إِذۡ حَضَرَ يَعۡقُوبَ ٱلۡمَوۡتُ إِذۡ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعۡبُدُونَ مِنۢ بَعۡدِيۖ قَالُواْ نَعۡبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗا وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٢ - ١٣٣].

والكلمة التي وصى بها إبراهيم بنيه هي التي قال الله عنها: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةَۢ بَاقِيَةٗ فِي عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ﴾ [الزخرف: ٢٨][3]، قال الطبري: «هي قوله: ﴿قَالَ أَسۡلَمۡتُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [البقرة: ١٣١][4]. قال ابن كثير: «وقد قرأ بعض السلف (ويعقوب) بالنصب عطفًا على بنيه، كأن إبراهيم وصى بنيه وابن ابنه يعقوب بن إسحاق وكان حاضرا ذلك»، ثم قال: «والظاهر -والله أعلم-، أن إسحاق ولد له يعقوب في حياة الخليل وسارة»[5].

وكيف ينهاهم يعقوب عن الموت وليس الموت إليهم، فيصح أن ينهوا عنه؟.

والجواب: «أنهم لم ينهوا عن الموت، وإن كان اللفظ على ذلك، وإنما نهوا في الحقيقة عن ترك الإسلام؛ لئلا يصادفهم الموت عليه، فإنه لابد منه. وتقديره: اثبتوا على الإسلام؛ لئلا يصادفكم الموت وأنتم على غيره»[6].

بعدها يبين الله مشهد يعقوب مع أبنائه الذين حضروا موته؛ ليوصيهم وصية مودع، لكنها على سبيل الاختبار، فلما سألهم أجابوه بما اطمأنت إليه نفسه، وقرت به عينه، بأنهم على دين التوحيد وأنهم لن يشركوا به، وسيعملون بما اعتقدوه ﴿وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٣].

(١) المغني، ابن قدامة ٦/ ١٣٧.
(٢) المجموع، النووي ١٥/ ٤٠١.
(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٤٤٦.
(٤) جامع البيان، الطبري ٣/ ٩٣.
(٥) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٤٤٦.
(٦) النكت في القرآن الكريم، المجاشعي ص١٥٤.

فجمعوا بذلك بين العلم والعمل[(١)].

وبالرغم من كل ما قام به إخوة يوسف من جرائم إلا إنهم تمسكوا بدينهم. والحقيقة أن هذه أعظم الوصايا وأرفعها قدرًا وأعلاها شأنًا، كيف لا وهي مختصة بأرفع الأمور وهو توحيد الله، والبعد عن الشرك.

والموضع الآخر الذي ذكر الوصية عند الموت هو قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ ﴿١٨٠﴾ فَمَن بَدَّلَهُ بَعْدَ مَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ١٨٠-١٨١].

ومعنى الآية: فرض عليكم إذا حضرت لأحدكم مقدمات الموت وأسبابه وعلله، إن ترك مالًا أن يوصي للوالدين والأقارب، وهذا واجب على كل من يتقي الله[(٢)].

قال السعدي رحمه الله: «واعلم أن جمهور المفسرين يرون أن هذه الآية منسوخة بآية المواريث»[(٣)]. «وليعلم أن الله لا يتعبد في وقت من الأوقات إلا بما فيه الحكمة البالغة»[(٤)].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «كان المال للولد، وكانت الوصية للوالدين، فنسخ من ذلك ما أحب، فجعل للذكر مثل حظ الأنثيين، وجعل للأبوين لكل واحد منهما السدس، للمرأة الثمن والربع، وللزوج الشطر والربع»[(٥)].

وأما الموضع الثالث فهو قول الله: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ﴾ وفي الآية: ﴿مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ﴾ [النساء: ١١].

والآية التي تليها مباشرة ﴿مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ﴾، ثم: ﴿مِّن بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ﴾، ثم: ﴿مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَا أَوْ دَيْنٍ﴾ [النساء: ١٢].

وهذه الآيات تبين أن الوصية أو الدين مقدمان على قسمة الميراث؛ لأن الدين حق على الميت والوصية حق له، وإذا كان الدين والوصية قد وقعا معا فيقدم الدين على الوصية[(٦)].

والموضع الأخير هو قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَأَصَابَتْكُم مُّصِيبَةُ الْمَوْتِ تَحْبِسُونَهُمَا مِن بَعْدِ الصَّلَاةِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ إِنِ ارْتَبْتُمْ لَا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَلَا نَكْتُمُ شَهَادَةَ

---

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٦٦.
(٢) معالم التنزيل، البغوي ١/ ١٩٢.
(٣) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٨٥.
(٤) معاني القرآن، الزجاج ١/ ٢٥٠.
(٥) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الوصايا، باب لا وصية لوارث، ٣/ ١٠٠٨، رقم ٢٥٩٦.
(٦) انظر: النكت والعيون، الماوردي ١/ ٦٥٩.

﴿ اللَّهِ إِنَّا إِذًا لَمِنَ الْآثِمِينَ ﴾ [المائدة: ١٠٦].

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: خرج رجل من بني سهم مع تميم الداري وعدي بن بداء، فمات السهمي بأرض ليس بها مسلم، فلما قدما بتركته فقدوا جاما[(١)] من فضة مخوصًا من ذهب، فأحلفهما رسول الله –صلى الله عليه وعلى آله وسلم– ثم وجدوا الجام بمكة، فقالوا: ابتعناه من تميم وعدي، فقام رجلان من أولياء السهمي، فحلفا لشهادتنا أحق من شهادتهما، وأن الجام لصاحبهم. قال: وفيهم نزلت هذه الآية: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ ﴾ [المائدة: ١٠٦][(٢)].

قال ابن كثير رحمه الله: «الأكثرون على أن هذه الآية محكمة، وليس فيها نسخ، ومن ادعى النسخ فعليه البيان»[(٣)].

ومعنى الآيات يا أيها المؤمنون: إذا قرب الموت من أحدكم، فليشهد على وصيته اثنين أمينين من المسلمين، أو آخرين من غير المسلمين عند عدم وجود غيرهما من المسلمين، تشهدونهما إن أنتم سافرتم في الأرض فحل بكم الموت، وإن ارتبتم في شهادتهما فقفوهما من بعد الصلاة، فيقسمان بالله قسمًا خالصًا لا يأخذان به عوضًا من الدنيا، ولا يحابيان به ذا قرابة منهما، ولا يكتمان به شهادة لله عندهما، وأنهما إن فعلا ذلك فهما من المذنبين[(٤)].

ويمكن أن يستدل بهذه الآية الكريمة على عدة أحكام[(٥)]:

أولًا: أن الوصية مشروعة، وأنه ينبغي لمن حضره الموت أن يوصي.

ثانيًا: تعظيم أمر الشهادة حيث أضافها تعالى إلى نفسه، وأنه يجب الاعتناء بها والقيام بها بالقسط.

ثالثًا: أنها معتبرة، ولو كان الإنسان وصل إلى مقدمات الموت وعلاماته، ما دام عقله ثابتًا.

رابعًا: أن شهادة الوصية لابد فيها من اثنين عدلين.

خامسًا: أن شهادة الكافرين في هذه الوصية ونحوها مقبولة لوجود الضرورة.

خامسًا: وقوع موت ثم حياة في الدنيا:

لما حصل إنكار من بعض البشر على قدرة الله في بعث الخلائق يوم القيامة، أعطى الله بعض الإشارات الواقعة في الدنيا؛ لتدل على صدق وقوعه في الآخرة، فأبانه الله حقيقة مشاهدة في أكثر من موطن،

(١) الجام: الكأس أو الإناء. ومخوصًا أي: منقوشًا.
انظر: فتح الباري، ابن حجر ٥/ ٤١٠-٤١١.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الوصايا، ٤/ ١٣، رقم ٢٧٨٠.

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ٢١٥.

(٤) التفسير الميسر، مجمع الملك فهد ص١٢٥.

(٥) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٢٤٦.

فأحيا بعض البشر، ومن قدر على هذا في الدنيا، هان عليه الأمر بعد.

وقد ذكرت سورة البقرة وحدها أمثلة متعددة على وقوع الموت ثم الحياة في الدنيا، وبيانه:

١. أول القصص في ذكر الإحياء صراحة في الدنيا، هي عندما طلب قوم موسى منه، أن يريهم الله جهرة، فأخذتهم الصاعقة. قال الله: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [البقرة: ٥٦].

٢. بعدها تأتي القصة الثانية التي صرحت بالإحياء في الدنيا، وهي قصة بقرة بني إسرائيل، التي أمرهم الله أن يذبحوها؛ كي يكشفوا جريمة القتل. قال الله: ﴿فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ۚ كَذَٰلِكَ يُحْىِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ٧٣]. ثم يأتي التصريح بأن الشهداء أحياء عند الله، وليسوا بأموات، فقال: ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَن يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ﴾ [البقرة: ١٥٤].

٣. ثم يصرح الله تعالى بالإحياء في قصة ﴿ٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُوا۟ ثُمَّ أَحْيَٰهُمْ﴾ [البقرة: ٢٤٣].

٤. ثم قصة الذي مر على قرية ﴿وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْىِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِا۟ئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ﴾ [البقرة: ٢٥٩].

٥. فطلب إبراهيم من ربه أن يريه كيفية الإحياء، قال: ﴿رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ [البقرة: ٢٦٠].

الموت والآخرة

أخبر القرآن أن لا موت في الآخرة، وإنما هو خلود في الجنة أو النار، وسنوضح هذا المعنى فيما يأتي:

أولًا: حال الموت في الآخرة:

بعد كل هذا يبين لنا النبي صلى الله عليه وسلم نهاية الموت يوم القيامة وانتهاء أمره، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (يؤتى بالموت كهيئة كبش أملح، فينادي مناد: يا أهل الجنة، فيشرئبون وينظرون، فيقول: هل تعرفون هذا؟، فيقولون: نعم، هذا الموت، وكلهم قد رآه. ثم ينادي: يا أهل النار، فيشرئبون وينظرون، فيقول: هل تعرفون هذا؟، فيقولون: نعم، هذا الموت، وكلهم قد رآه، فيذبح. ثم يقول: يا أهل الجنة خلود فلا موت، ويا أهل النار خلود فلا موت. ثم قرأ: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ﴾ (وهؤلاء في غفلة أهل الدنيا) ﴿وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [مريم: ٣٩])[1].

والمعنى من قوله عليه السلام: أن الموت سيجسد كهيئة كبش مختلط سواده ببياضه، وعندما ينادى الفريقان، سيرفعون أعناقهم ويمدونها للاطلاع على ما سيحدث من ذبح للموت.

وقول الله: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي: وأنذرهم يوم القيامة، ﴿إِذْ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ﴾ أي: إذ فرغ من الحكم لأهل النار بالخلود فيها، ولأهل الجنة بمقام الأبد فيها، بذبح الموت. ﴿وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي: وهؤلاء المشركون في غفلة عما الله فاعل بهم يوم يأتونه خارجين إليه من قبورهم، من تخليده إياهم في جهنم، وتوريثه مساكنهم من الجنة غيرهم. ﴿وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي: وهم لا يصدقون بالقيامة والبعث، ومجازاة الله إياهم على سيئ أعمالهم، بما أخبر أنه مجازيهم به[2].

والحكمة من الإتيان بالموت هكذا: إشارة إلى أنهم حصل لهم الفداء له كما فدي ولد إبراهيم بالكبش. والحكمة في جعله كبشًا أملح: حتى يجمع بين صفتي أهل الجنة والنار: وهي السواد والبياض[3].

قال ابن القيم رحمه الله: «وهذا الكبش والإضجاع والذبح ومعاينة الفريقين حقيقة لا خيال ولا تمثيل، كما أخطأ فيه بعض الناس، وقال: الموت عرض، والعرض لا

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، باب تفسير سورة مريم، ٤/ ١٧٦٠، رقم ٤٤٥٣.

(٢) جامع البيان، الطبري ١٨/ ٢٠١-٢٠٢.

(٣) فتح الباري، ابن حجر ١١/ ٤٢٠.

يتجسم فضلًا عن أن يذبح!. وهذا لا يصح؛ فإن الله سبحانه ينشئ من الموت صورة كبش يذبح، كما ينشئ من الأعمال صورًا معاينة يثاب بها ويعاقب...، ولا حاجة إلى تكلف من قال: إن الذبح لملك الموت!. فهذا كله من الاستدراك الفاسد على الله ورسوله، والتأويل الباطل الذي لا يوجبه عقل ولا نقل»[1].

والحقيقة أن الله تعالى لا يعجزه شيء، وليس هذا بعزيز عليه، فهو قادر سبحانه أن ينشئ جسمًا من عرض، وأمثلته كثيرة في القرآن والسنة، ومنها:

جعل البقرة وآل عمران كالغمامتين[2]، والتسبيح والتحميد الذي يتعاطف حول العرش[3]، وتصوير العمل الصالح والسيئ في القبر[4].

وبعد ذبح الموت بهذه الصورة، لك أن تتصور ذلك المشهد المهيب، وحالة كل من الفريقين: فريق في شقاء وتعاسة دائمين لا ينقطعان، وفريق في سعادة وحبور أبدي لا ينقطعان، قال النبي صلى الله عليه وسلم: (ينادي مناد: إن لكم أن تصحوا فلا تسقموا أبدًا، وإن لكم أن تحيوا فلا تموتوا أبدًا، وإن لكم أن تشبوا فلا تهرموا أبدًا، وإن لكم أن تنعموا فلا تبأسوا أبدًا. فذلك قوله عز وجل: ﴿وَنُودُوٓا۟ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ٤٣])[5].

ثانيًا: لا موت في الآخرة:

إذا دخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار، وذبح الموت بينهما، فإنه لا موت بعدئذ، فأهل الجنة خلود فلا موت، وأهل النار خلود فلا موت.

وقد ساقت الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة الصورة العامة حيال هذا الخلود، ومعظم الآيات ساقت الكلام عن أصحاب النار.

قال الله في شأنهم: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا۟ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ﴾ [فاطر: ٣٦].

لذا فعذاب الدنيا إما أن تموت عنه، أو يموت عنك، أو يألفه البدن المعذب. أما عذاب الآخرة فلن تموت عنه، ولن

(١) حادي الأرواح، ابن القيم ص٤٠٢.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب فضل قراءة القرآن، ١/ ٥٥٣، رقم ٨٠٤.

(٣) أخرجه أحمد في مسنده، ٣٠/ ٣١٢، رقم ١٨٣٦٢.

(٤) أخرجه أحمد في مسنده، ٤/ ٢٨٧، رقم ١٨٥٥٧.

(٥) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب في دوام نعيم أهل الجنة، ٨/ ١٤٨، رقم ٧٢٥٩.

يفنى عنك، ولن يألفه البدن؛ لأنه يلون ولا يخفف. ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ٥٦].

ويصور لنا القرآن ذلك المشهد النفسي الذي يعيشه الكافر في النار، حتى أنه يرى الموت يحيط به ويأتيه من كل مكان فيها، لكنه لن يذوقه.

قال الله: ﴿وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿١٥﴾ مِّن وَرَائِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّاءٍ صَدِيدٍ ﴿١٦﴾ يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ ۖ وَمِن وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾ [إبراهيم: ١٥- ١٧].

والحقيقة أن المشهد هنا عجيب، «إنه مشهد الخيبة لكل جبار عنيد، مشهد الخيبة في هذه الأرض. ولكنه يقف هذا الموقف، ومن ورائه تخايل جهنم وصورته فيها، وهو يسقى من الصديد السائل من الجسوم، يسقاه بعنف فيتجرعه غصبًا وكرهًا، ولا يكاد يسيغه؛ لقذارته ومرارته. والتقزز والتكره باديان، نكاد نلمحهما من خلال الكلمات!. ويأتيه الموت بأسبابه المحيطة به من كل مكان، ولكنه لا يموت؛ ليستكمل عذابه. ومن ورائه عذاب غليظ»[(١)].

ولننظر هنا إلى كلمة (غليظ)، كم تعطي من دلالات مروعة لهذا المشهد المهيب، وأغلب ورود هذه الكلمة في القرآن في شأن العذاب أو الميثاق؛ لشدة وغلظ الأمرين، وأتت الكلمة كذلك مع قتال الكفار؛ ليجد هؤلاء الغلظة والعذاب الأليم من الثلة المؤمنة المجاهدة التي عقدت المواثيق بقتالهم: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً ۚ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ١٢٣].

ولذلك لو أن الموت يقدم إلى هذا المعذب في هذه اللحظات العصيبة، لكان أخف وطأة، ولكنه يراه يحوم حوله بأسبابه ودوافعه ودواعيه، دون أن يصيبه.

وبعد كل هذه الآلام والعذابات التي يتعرض لها هذا العنيد، يجد لنفسه مخرجًا من هذا البلاء، وهو أن يطلب من مالك -خازن النار- أن يشفع لهم عند الله، بأن يقضي عليهم.

قال الله: ﴿وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ۖ قَالَ إِنَّكُم مَّاكِثُونَ﴾ [الزخرف: ٧٧].

وإن قيل: كيف وصف أهل النار فيها بأنهم مبلسون؟، والبلس: هو الآيس من الرحمة والفرج[(٢)]، ثم قال بعدها: ﴿وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ الدال على طلبهم

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٤/ ٢٠٩٣.

(٢) لسان العرب، ابن منظور ٦/ ٣٠.

الفرج بالموت؟ فيجاب عنه: بأن كل منهما وقع في زمن؛ لأن أزمنة يوم القيامة متعددة[1].

وهنا أتى بالفعل الماضي ﴿وَنَادَوْا﴾ لتحقق وقوعه، وقولهم: ﴿يَٰمَٰلِكُ﴾ هو خازن النار، وقد وردت أحاديث صحيحة في ذلك، منها: قول النبي صلى الله عليه وسلم: (رأيت الليلة رجلين أتياني قالا: الذي يوقد النار مالك خازن النار، وأنا جبريل وهذا ميكائيل)[2].

قال صديق خان: «قرأ الجمهور: ﴿يَٰمَٰلِكُ﴾ بغير الترخيم، وقرئ: (يا مال) بالترخيم، قيل لابن عباس: إن ابن مسعود قرأ: (يا مال)، فقال: ما أشغل أهل النار عن الترخيم»[3].

قال الطبري رحمه الله: «ونادى هؤلاء المجرمون بعد ما أدخلهم الله جهنم، فنالهم فيها من البلاء ما نالهم، مالكًا خازن جهنم، ﴿يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ قال: ليمتنا ربك، فيفرغ من إماتتنا، فذكر أن مالكًا لا يجيبهم في وقت قيلهم له ذلك»[4].

وروى الطبري كذلك بسنده قال: «﴿وَنَادَوْا يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ قال: فخلى عنهم أربعين عامًا لا يجيبهم، ثم أجابهم: ﴿إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ﴾ قالوا: ﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ﴾ فخلى عنهم مثلي الدنيا، ثم أجابهم: ﴿قَالَ ٱخْسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ قال: فوالله ما نبس القوم بعد الكلمة، إن كان إلا الزفير والشهيق»[5].

ويكفي الإشارة إلى باقي الآيات التي نفت موت الكفار في النار، وهي قوله تعالى على لسان السحرة: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾ [طه: ٧٤].

وقوله تعالى: ﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ﴿١٠﴾ وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى ﴿١١﴾ ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿١٢﴾ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾ [الأعلى: ١٠ - ١٣].

أما في شأن المؤمنين يوم القيامة ونفي الموت عنهم، فقد قال الله: ﴿يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ ﴿٥٥﴾ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٦﴾ فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [الدخان: ٥٥-٥٧].

والمعنى: أنهم لا يذوقون فيها الموت ألبتة، سوى الموتة الأولى التي ذاقوها في الدنيا[6].

(١) فتح الرحمن، ابن جماعة ص٥١٥.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الخلق، باب إذا قال أحدكم: آمين، والملائكة في السماء فوافقت إحداهما الأخرى غفر له ما تقدم من ذنبه، ٣/ ١١٨٢، رقم ٣٠٦٤.
(٣) فتح البيان، صديق خان ١٢/ ٣٧٥.
(٤) جامع البيان، الطبري ٢١/ ٦٤٠.
(٥) المصدر السابق ٢١/ ٦٤٥.
(٦) معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ٤/ ٤٢٩.

وعلى هذا كيف يستثني الموتة الأولى التي ذاقوها في الدنيا من الموت الذي لن يحدث لهم في الجنة؟. والجواب على هذا من وجوه:

الأول: هو من باب التعليق بالمحال، كأنه قيل: إن كانت الموتة الأولى يستقيم ذوقها في المستقبل، فإنهم يذوقونها[1].

الثاني: أن (إلا) هنا: بمعنى (لكن)، والتقدير: لا يذوقون فيها الموت، لكن الموتة الأولى قد ذاقوها.

الثالث: أن الجنة حقيقتها ابتهاج النفس وفرحها بمعرفة الله تعالى وبطاعته ومحبته، وإذا كان الأمر كذلك فإن الإنسان الذي فاز بهذه السعادة فهو في الدنيا في الجنة وفي الآخرة أيضًا في الجنة، وإذا كان الأمر كذلك فقد وقعت الموتة الأولى، حين كان الإنسان في الجنة الحقيقية التي هي جنة المعرفة بالله والمحبة.

الرابع: أن من جرب شيئًا ووقف عليه صح أن يقال: إنه ذاقه، فيكون المعنى هنا: إلا الذوق الحاصل بسبب تذكر الموتة الأولى[2].

ثم كيف يوجه قول الله تعالى عن أهل النار وأهل الجنة أنهم خالدون فيها إلا ما شاء الله.

قال الله: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ۝١٠٦ خَـٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ وقال في شأن أهل الجنة: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُوا۟ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَـٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۖ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ [هود: ١٠٨].

فهل إيراد المشيئة هنا يدل على أنهم غير مخلدين فيها؟.

أجاب ابن قتيبة رحمه الله عن هذا الإشكال على ثلاثة أوجه:

الوجه الأول: أراد أنهم خالدون فيها مدة العالم، سوى ما شاء الله أن يزيدهم من الخلود على مدة العالم. ثم قال: ﴿عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ [هود: ١٠٨]. أي: غير مقطوع.

الوجه الثاني: أن يكون المعنى: خالدين في الجنة وخالدين في النار دوام السماء والأرض، إلا ما شاء ربك من تعميرهم في الدنيا قبل ذلك.

الوجه الثالث: أن يكون المعنى: خالدين في النار ما دامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك من إخراج المذنبين من المسلمين إلى الجنة، وخالدين في الجنة ما دامت

(١) الكشاف، الزمخشري ٤/ ٢٨٣.
(٢) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٢٧/ ٦٦٦.

السموات والأرض، إلا ما شاء ربك من إدخال المذنبين النار مدة من المدد، ثم يصيرون إلى الجنة[1].

موضوعات ذات صلة:

الإهلاك، البعث، الحذر، الحياة، الخلق، الخوف، القبر، القتل، الملائكة، اليوم الآخر

(١) تأويل مشكل القرآن، ابن قتيبة ص٥٣.